من أعلام الإمامية

بين الفقيه العماني وآقا بزرك الطهراني

من أعلام الإمامية

بين الفقيه العماني وآقا بزرك الطهراني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾

(سورة الأنعام: 90)

من أعلام الإمامية

بين الفقيه العماني وآقا بزرك الطهراني

فوزي بن المرحوم محمد تقي آل سيف

مقدمة

كل إنسان هو تجربة في هذه الحياة! وهو حديث قد يُنقل فيما بعد! وكما قال الشاعر:

وإنمـــا المـــرء حـديـث بعده　　　　فكن حديثا حسنا لمن روى

والتاريخ إنما هو تراكم هذه التجارب الفردية، في مقاطع زمنية مختلفة، حيث تصنع بمجموعها صورة المجتمع.

ومن أكثر الأشياء تأثيرا في الناس هو قصص الناس!

قصص الناس تحكي تجاربهم، وكيف تعاملوا مع الحياة اليومية حتى جعلوها في حالة النجاح منصة انطلاق إلى الرقي! أو كانت تلك الحياة اليومية ومشاكلها كوابح لانطلاقتهم.

وقد يكون في قصص عامة الناس من المتعة الشيء الكثير. والتسلية اللطيفة، واللحظة التي ترتسم ابتسامة على الشفتين وانشراحا في القلب. وربما يكون لهذا السبب انتشرت كتب الروايات مع طول بعضها، وقد يكون فيها ايضا من الحكمة والمعرفة ما يغري القارئ بمتابعة القراءة.

إلا أن تجارب الناجحين تحمل بالاضافة إلى ما سبق ميزة أنها تقدم للانسان تجربة: ماذا ينبغي أن يكون؟ وكيف يحقق ذلك؟

واذا كان النجاح الدنيوي جديرا بأن تُتابع التجربة فيه وأن تتمثل، فإنه إذا اضيف إليه الفلاح الأخروي يكون أكثر جدارة بالمتابعة والنظر.

لهذا تعد قصص العلماء، وسيرة الفقهاء من أهم ما ينبغي متابعته، لكونها تجربة انسانية فذة تحتوي على عناصر مقاومة الانسان لعوامل الكسل، وضغوط الحياة، والتغلب عليها وصولا للإنجاز، على مستوى الفقاهة العالية في أمور الدين، وإضافة علوم جديدة للمجتمع البشري.

بين يديك: عزيزي القارئ،عزيزتي القارئة. كتاب يحتوي سيرة رجال كنت أنا بين يديهم متأملا صفحات حياتهم، وطالبا في مدرسة سيرتهم، لمدة أربع سنوات ١٤٢٩- ١٤٣٣هـ، ألتقط من هذه الصفحة تجربة نجاح، ومن تلك معرفة علم، ومن ثالثة

عظة وعبرة. لكي أقدمها بين يديك.

وهذه الصفحات وإن تحدثت عن أعلام المدرسة الإمامية وورثة الأنبياء في الحوزة العلمية على مدى عشرة قرون من الزمان تقريبا فإنها لم تشأ أن تعرضها ضمن إطار مذهبي خاص، فضلا عن الاطار الطائفي، وإنما حاولت قدر الإمكان أن تقدم خلاصة تجربة بشرية رائدة، تجربة العلم والكمال الأخلاقي، لكي يستفيد منها من ينشد هذين الهدفين.

(٢)

لم يقتصر الحديث عن هؤلاء العلماء والباحثين على منطقة دون أخرى، فالنجاح والإنجاز لا جنسية له، ولا جغرافيا تحده، فقد تم الحديث فيه عن الكليني الإيراني، والحسن بن علي العُماني أول مرجعية شيعية، والعلامة الحلي العراقي، وابن أبي جمهور الأحسائي، والفاضل القطيفي الشيخ ابراهيم بن سليمان، والشهيد الثاني زين الدين العاملي اللبناني، والمحدث الفقيه الشيخ يوسف البحراني، ومعجزة الهند مير حامد حسين النقوي، وهذا بالاضافة إلى أنه يشير إلى كون هذه الساحات المختلفة على امتداد العالم الإسلامي محضنا لفقه أهل البيت عليهم السلام، وموطنا لشيعتهم وأتباعهم. يؤكد للقارئ بأن المجد والتقدم ليس مقصورا على فئة دون أخرى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٩)، وأن ما يقال من تقدم (أو تقديم) أتباع هذه الجنسية على تلك، أو أبناء هذه القومية على تلك، ليس إلا تبريرا للفشل، وتكريسا للكسل!

ولم يقتصر الحديث في تلك الصفحات على الجوانب الشخصية والتجارب الفردية، بل تعداها ليتطرق إلى تقييم واستعراض بعض الكتب المهمة وميزاتها، ككتاب الكافي للكليني، ووسائل الشيعة للحر العاملي، وبحار الأنوار للعلامة المجلسي وجواهر الكلام للشيخ النجفي، وتحدث عن قصة كتاب المراجعات للسيد شرف الدين.

كما أشار وبالمناسبة إلى بعض القضايا التاريخية، ففي أثناء الحديث عن المسعودي صاحب التاريخ تم الحديث عن جده الصحابي عبد الله بن مسعود وشيء من سيرته ومواقفه، وفي وقت متأخر الحديث عن جذور النزاع الطائفي في بغداد والذي أدى إلى هجرة الشيخ الطوسي إلى النجف وتأسيس الحوزة فيها، وهكذا ناقش بشكل شبه مفصل دعاوى البعض بتعاون النصير الطوسي مع المغول، وأشار إلى السبب الحقيقي لسقوط الدولة أمام غزو المغول.

وأيضا كان من الطبيعي أن يتم الحديث عن بعض القضايا العقائدية والفكرية التي ترتبط ببعض الشخصيات المترجمة فتم مناقشة شيء من آراء الشيخ الصدوق المخالفة للمشهور كقوله بسهو النبي ﷺ، وبمناسبة التطرق إلى بعض الشخصيات التي تبنت منهج الحوار العقائدي تم الحديث عن أسس هذا الحوار ومتى يكون نافعا، وضمن أي شروط يكون ضارا، وبيان المنهج الذي سلكه السيدان مير حامد حسين وشرف الدين في هذا المجال. وبمناسبة ذكر المحدث البحراني كان هناك شرح لمواضع الإلتقاء والافتراق بين المدرستين الفقهيتين لدى الشيعة الأخبارية والأصولية.

وكان لا بد من ذكر بعض الأحداث السياسية، بمناسبة الحديث عن أبطالها، فتم الكلام عن ثورة التنباك وتصدي الميرزا الشيرازي لتحقيق استقلال اقتصاد ايران بافتائه ضد الاحتكار البريطاني، ولم يغفل استعراض قضية الثورة الدستورية التي عاش أيامها العلمان الكبيران: الآخوند الخراساني والسيد اليزدي، وكذا ثورة العشرين في العراق وتحريك العشائر ضد الاحتلال البريطاني.

(٣)

إذا كان البعض من الناس يعيش في محيط يمتلئ بالنماذج غير الجيدة، فهذه ليست الصورة الافتراضية، وإنما الصورة الافتراضية القياسية هي هنا، وبمقدار ما تقترب تلك النماذج الموجودة على أرض الواقع من هذه الصورة القياسية تكون مقدرة ومحترمة.

ليس هذا الكتاب كتابا رجاليا بالمعنى المصطلح، ولا هو بحث في مسائل أصولية أو فقهية وإن كان أحيانا تتم الاشارة العابرة لبعض ما سبق، فليس الغرض منه ذاك، وإنما الغرض منه تقديم صورة واقعية قدر الامكان للفئة الشابة من أبناء المجتمع، بنين وبنات، في وقت تشتد الحاجة فيه إلى القدوات، ضمن الحالة البشرية العادية.

وبالرغم من أنه ﴿كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورة الأحزاب: من الآية ٢١)، إلا أن الشيطان ربما وسوس للانسان لكي يمنعه من الاقتداء والتأسي برسول ﷺ، بأن النبي معصوم، ومؤيد من قبل الله عز وجل، بل إن خلقته تختلف عنا. فيأتي هنا بعد تصحيح الفكرة المذكورة، التوجيه إلى هذه الشخصيات بما هي متأثرة بهدي النبي المصطفى والأئمة النجباء، وهنا لا يستطيع الشيطان أن يعزل الانسان عن القيم الكبرى بزعم معصومية الشخصية. فإن هؤلاء جميعا كانوا اشباها له، يعرض عليهم ما يعرض عليه!

ولأنه موجه للفئة الشابة فقد جاء في أسلوب متوسط يستطيع أن يتفاعل معه أكثر أبناء هذه الفئة.

ولا يخفى أنه لم نقم بتأريخ كل الشخصيات العلمية والفقهية، بل ولا كل الشخصيات المهمة منها لأن ذلك سيضاعف حجم الكتاب، ولا يناسب الغرض المقصود منه وهو إعطاء صورة إجمالية عن الشخصيات العلمية، وأن يسلط الضوء على حزمة من الأفكار التي تجلت تطبيقاتها في حياتهم ومسيرتهم. فتم الاختيار على هذا الأساس وحيث أن الغرض منه تعريفي وأخلاقي فقد لا يأتي مقياس الاختيار دقيقا وحادا.

(٤)

قد يشكك بعض القراء في قسم من القصص المنقولة هنا، قائلين بأنه لا يمكن تصديقها، وأنها مما وضع على لسان الخطباء أو الكتاب في حق هذا وذاك. فما معنى أن يتحرج الانسان من أكل تفاحة في الطريق ويرى أن عليه أن يتحلل من صاحبها ولو بتحمل المشاق كما حصل لوالد الاردبيلي، أو أن يرى الامام الحجة كما في قضية بحر العلوم أو يحصل على رزق من غير سعي كما في غيرهما. وهكذا، فإن هذه كما يقولون من اصطناع الخطباء والوعاظ لأجل الترغيب في الأعمال أو تعظيم تلك الشخصيات!

والجواب على ذلك: أننا نعذر هذا القسم في تشكيكهم ويمكن لنا تفهم ذلك التشكيك، فإن الصورة الغالبة في هذه الأزمنة، ومستوى الالتزام بالقيم في هذه الأيام متدن إلى الحد الذي يكون فيه الصلاح غريبا فضلا عن أصل العدالة، فما ظنك بالعدالة في مستوى المقدس الأردبيلي؟

ما يؤسف له أننا نلاحظ لأسباب مختلفة لسنا في صدد بيانها أن هناك انطباعا غير حسن في دائرة واسعة عن الشخصيات الدينية، وطبقة المشايخ. يجعل الحديث عن العلماء يستدعي مثل هذه الصور.فذلك الذي يعاصر إمام جماعة حاد المزاج والأخلاق يرى فيه صورة جميع العلماء، والذي كان له مشكلة مع أحد الطلبة في جانب مالي، يرى في تلك المشكلة أخلاق كل طلاب العلم، وقد تتناقل هذه بين البعض من الناس خصوصا أولئك الذين يحرصون على أن تشيع هذه الأخطاء ليبرروا لأنفسهم القيام بما هو أعظم منها، على قاعدة (إذا كان رب البيت بالدف ضاربا).

إن المستوى الموجود في المعاصرين يختلف كثيرا عن المستوى الذي نتحدث عنه

في هذا الكتاب.وإن بعض الأشخاص في تاريخ العلماء عُرفوا بأشياء لم يُعرف بها غيرهم، وكانت تلك الأشياء منسجمة تماما مع مسيرتهم العامة. ولم يقتصر نقلها على طرف دون آخر، بل يكاد يكون الإجماع قائما عليها .فلقاء الإمام الحجة مثلا ذكر في حق المقدس الأردبيلي وبحر العلوم ولم يذكر في حق شيخ الطائفة الطوسي مثلا! وقصص التقدس والتزهد ذكرت في حق الشيخ الأنصاري ولم تذكر في حق صاحب الجواهر النجفي! وهكذا.

ولو كان الأمر أمر اختلاق واصطناع لما اختلف الحال.

ثم إن تلك القصص في جانبها العملي والسلوكي، ليست بأعظم مما نجده في الجانب العلمي والنظري والانتاج الفكري الذي يكاد أ بعضه يلحق بالأسطورة، لولا أننا رأينا تلك الكتب والمجلدات بأعيننا.

وأخيرا.

أقدم الشكر الجزيل لكل من تعاون في مقدمات إعداد هذا الكتاب، وأخص الأخت الفاضلة السيدة علياء الفلفل وأخواتها الفاضلات، واللاتي لولا تعاونهن لما مثلت هذه الصفحات للطبع، فشكر الله سعيهن وأيضا للأخ الكريم عماد الدبيسي الشكر والتقدير.

فوزي آل سيف
تاروت ـ القطيف ـ شرق السعودية
٩/ ٤ / ١٤٣٣ هـ
٢/ ٣ / ٢٠١٢ م

ثقة الإسلام
محمد بن يعقوب الكليني

ت سنة ٣٢٩هـ

الحديث الذي ينقل عن الامام جعفر بن محمد الصادق، «حديث في حلال وحرام تأخذه من صادق خير من الدنيا وما فيها من ذهب وفضة «يجسد لنا العمل العظيم الذي قام به محمد بن يعقوب الرازي المعروف بثقة الإسلام الكليني رحمه الله.

وذلك أن غاية وجود الانسان في هذه الحياة هي العبادة كما أكد ذلك الكتاب الكريم ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، ولا ريب أن العبادة وهي الطريق الموصل إلى رضوان الله عز وجل، وخريطة المسير، ليست اقتراحية أو تبرعية، وإنما هي مرسومة وتوقيفية من قبل خالق العباد، ومكلفهم بالعبادة، وحينئذ فلا يستطيع العبد أن يقترح لنفسه طريقة أو يخترع عبادة. وإنما عليه أن يطيع وينفذ ما وصل إليه من خلال أنبياء الله عز وجل وأمنائه.

ولو نظرنا إلى القرآن الكريم وهو الكتاب المحفوظ، الذي لم يطرأ عليه تغيير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقيصة منذ أنزل على رسول الله، حتى يومنا بل حتى تقوم الساعة، فإننا سنجد أن هذا البيان والهدى والنور، لم يتعرض إلى تفاصيل العبادات وكيفياتها،وإلا لأصبح بقدر هذا الحجم الموجود أضعافا مضاعفة. فنحن لا نجد في آيات القرآن الكريم عن تفاصيل أمور الحج إلا آيات محدودة، ومثل ذلك في الصلاة والصيام.

كما أن العقل وهو ثاني الأدلة عند المسلمين، لا يستطيع أن يجري في مضمار تفاصيل العبادات، وإن كان له مجال واسع في المعاملات مثلا، والاستلزامات العقلية.

وأما الإجماع فلا سبيل إلى تحصيله في أكثر المسائل الفقهية. فلم يبق إذن إلا السنة (من قول وعمل وتقرير) النبي الكريم وأهل

(١) سورة الذاريات: ٥٦..

بيته الطاهرين. فهي التي تتكفل بالجواب على الأسئلة التفصيلية في كيفيات العبادات، وذلك نظرا لمعايشة المعصومين لعامة الناس ورؤية هؤلاء إياهم، وأخذهم عنهم، فها هو النبي الأكرم ﷺ، يصرح بأنه «صلوا كما رأيتموني أصلي »[١]، وينادي في الناس «خذوا عني مناسككم »[٢]. وهكذا كانوا يرون وضوءه ويروونه عنه!

وهنا تتبين أهمية الحديث الذي يروى بسند معتبر عن الصادقين في حلال أو حرام، أو عبادة. فيكون حينئذ خيرا من الدنيا وما فيها من ذهب وفضة. إذ قد يكون ذلك الحديث هو الفاصلة بين طريقة موصلة إلى الجنة وأخرى مبعدة عنها!

وإذا كانت قيمة الحديث الواحد بتلك الصفة هكذا، فما ظنك بعشرات الألوف من الأحاديث التي تتناول كامل العبادات وتفاصيلها، بل والعقائد وأصولها؟

هذا ما صنعه العالم الكامل، والمحدث المتبحر محمد بن يعقوب الكليني أعلى الله مقامه، في كتابه المهم الكافي. فلنكن مع شيء من سيرته ودوره.

متى ولد؟ لا يعرف على وجه الدقة تاريخ ولادته، ولكنها بلا ريب لم تسبق الغيبة الصغرى بفترة طويلة، وقد قدر بعض الباحثين[٣] أن ولادته كانت بعد ولادة الامام الثاني عشر المهدي عجل الله فرجه محتملا أن تكون بين سنة ٢٥٠- ٢٥٤هـ.

بعد أن أخذ العلم في بلدته كلين (على وزن حسين) على يد علمائها لم يكفه ذلك فبدأ بالأسفار والترحل بحثا عن العلم والمعرفة، حيث كان يؤخذ العلم من أفواه الرجال في مجالسهم ومواضع درسهم، فسافر إلى بغداد وقم والكوفة في فترات مختلفة، وكان يجمع خلالها مادة كتابه (الكافي) حتى أتمه في عشرين سنة من الزمان كما صرح به النجاشي وغيره من الرجاليين.

ويظهر أنه قد انتهى في رحلاته إلى بغداد وفيها لمع نجمه واشتهر بين شيعة أهل البيت، وغيرهم، حتى وصفه بعضهم بأنه من المجددين على رأس المئة الثالثة، وأنه رأس الإمامية، والظاهر أن هذا الأمر كان في بغداد حيث بقيت عاصمة الفكر والثقافة الدينية، وتعايش فيها العلماء على اختلاف مذاهبهم بمقدار ما كانت الخلافة العباسية تضعف، وهذا أتاح للحالة العلمية أن تتحرر من ضغوط الخلفاء، ثم لما جاء البويهيون

---

(١) صحيح البخاري ١. ١٥٥ وعوالي اللئالي ٣/٨٥.

(٢) مستدرك الوسائل ٩ /٤٢٠ عن عوالي اللئالي وعن مسند أحمد ٣. ٣٦٦

(٣) الغفار: عبد الرسول: الكليني والكافي ١٧٢

سلكوا طريقا منفتحا بالرغم من توجهاتهم المذهبية المائلة إلى أهل البيت. وهذا شجع التوجه المذكور.

يعتبر عمل الشيخ الكليني أعلى الله مقامه بداية مرحلة جديدة في حفظ السنة الشريفة، وذلك أنه قبل زمان الشيخ الكليني وعمله في الكافي الذي يعتبر أول الموسوعات الحديثية المرتبة في أفق المدرسة الإمامية. كان الموجود من الأحاديث والروايات، على شكل أصول وكتب، إما كانت بيد رواتها المباشرين أو الناقلين عنهم وكانت فاقدة للتبويب والترتيب، بل فاقدة للجمع.. فربما كان لدى أحد الرواة عدد من الأحاديث لا يعلم عنها من يعيش معه في بلدته من الرواة فضلا عن من كان خارج البلدة وباقي الأطراف. وهذا بلا ريب يجعل أمر الاستدلال والاستنباط عسيرا، حيث لا يعطي للمجتهد المادة الخام (وفرصة البحث الكافية) لمعرفة الحكم الشرعي.

ويعظم هذا الأمر خصوصا إذا علمنا أن طبيعة ناقلي الشريعة من النبي والأوصياء كانت على بيان الأحكام بحسب الحوادث وهو ما يجعل أمر الاعتماد على التقييد والتخصيص المنفصلين، وتكميل الصورة في مجالس متعددة، طبيعيا وكثيرا.

وبعبارة أخرى: لم يكن بيان الأحكام الشرعية خصوصا في باب العبادات على نحو التدريس في صفوف المدرسة بحيث يبدأ المدرس في كل يوم بشرح جانب ويكمله في اليوم التالي حتى يستوعب بحث الصلاة مثلا بكامله، وإنما كان بنحو آخر، وذلك أن المؤمنين كانوا يسألون النبي ﷺ، ومن بعده الأئمة عليهم السلام، عن مسائل تعرض لهم فيجيبهم بقاعدة كلية، أو في خصوص المورد المعين.

ولو أردنا أن نأخذ مثالا: فقد يقول النبي أو الامام مثلا: من زاد في صلاته فعليه الاعادة. وهذا الحديث على إطلاقه يفترض أن أي زيادة في الصلاة كالركوع أو حتى القراءة وسواء كانت متعمدة أو غير متعمدة فإنها تجعل الصلاة باطلة وتوجب الاعادة.

غير أن الواقع يخالف هذا، فبعض الزيادات لا توجب الإعادة كزيادة الأذكار مثلا، وبعضها الآخر لا توجبها إلا مع التعمد مثل القراءة وسجدة واحدة، وبعضها توجب الاعادة مطلقا مثل زيادة الركوع.

لكن من أين نعرف هذا التفصيل؟ لا بد من البحث في بقية الروايات والأحاديث التي قيلت في مناسبات أخر، وكانت إجابة لأسئلة أخر.

إن عدم الجمع لما تفرق وتشظى من الروايات، بل حتى الجمع غير المرتب يجعل مهمة الفقيه عسيرة في معرفة الصورة بشكل كامل!

وإذا كان هذا الأمر صادقا في المسائل الفقهية الفرعية، فهو أصدق في المسائل الأصلية العقدية!

جاء الشيخ الكليني أعلى الله مقامه، وبدأ مهمة عسيرة في جمع الروايات المتفرقة هنا وهناك، من أفواه رواتها[١] تارة ومن كتب مؤلفيها مع تحقيق صحة انتساب الكتاب تارة أخرى.

واستغرق في هذا العمل الجليل مدة عشرين عاما كما سبق. نخل خلالها مئات الألوف من الأحاديث والروايات وحاول قدر وسعه أن يتحقق أو يطمئن من سلامة طرق النقل عن المعصومين.

ميزات كتاب الكافي:

حيث أن كتاب الكافي هو الكتاب الأهم للشيخ الكليني، وإن كان له كتب أخر، فنحن نتعرض إلى بعض ميزات هذا الكتاب:

١. شمولية أحاديث الكافي موضوعا وكثرتها عددا:

يشتمل الكافي على ثلاثة مواضيع رئيسة:

أ. الأصول (وفيها مباحث العلم والجهل وفضل العلم، ثم بحوث التوحيد وتشتمل على صفات الله وكيفية معرفته) ومباحث الحجة • (وفيها أحاديث عن مقامات الحجج الالهية وصفاتهم وعلمهم ثم النصوص على الأئمة الإثني عشر واحدا واحد، وأبواب تواريخهم)، ومباحث الإيمان والكفر وفيها مجامع الصفات الخيرة ومكارم الأخلاق الرضية، وكيفية المعاشرة مع الناس، ثم الحديث عن الدعاء في أوقاته وأذكاره وآثاره، وفضل القرآن الكريم.

ب. والفروع، ويشتمل على الأحاديث التي وردت في الأبواب الفقهية المختلفة مثل كتاب الطهارة، والحيض والجنائز، وكتاب الصلاة، والصوم، كتاب الزكاة والصدقة، كتاب النكاح والعقيقة، وكتاب الشهادات، وكتاب الحج كتاب الطلاق،

(١) راجع عبد الرسول الغفار: الكليني والكافي.

كتاب العتق، كتاب الحدود، كتاب الديات، كتاب الايمان، والنذور والكفارات، كتاب المعيشة، وكتاب الصيد والذبائح، كتاب الجهاد، كتاب الأطعمة، كتاب الأشربة، كتاب الزي والتجمل، كتاب الدواجن والرواجن[١]، وكتاب الوصايا، وكتاب الفرائض.

ج. والروضة: وتشتمل على عدد من الخطب والوصايا والمواعظ الأخلاقية التي تهدف إلى تزكية الانسان نفسه وفيها تأكيد على لزوم تحلي شيعة أهل البيت بالأخلاق الحسنة وذكر صفات الشيعة الحقيقيين. والتذكير بقصص الماضين مما فيه عبرة وعظة..

وبهذا يكون الكافي كتابا قد تحدث في أمور العقائد، والشريعة التفصيلية، والقضايا الأخلاقية. ويتميز هذا الكتاب بهذه الجهات مجتمعة، فإنه حتى الذين جاؤوا بعده من أصحاب المجاميع الحديثية كالشيخين الصدوق والطوسي اقتصرا على جانب الفقه والفروع ولم يتعرضوا غالبا لبقية الجهات.

وأما من ناحية عدد الأحاديث التي أوردها الكليني في كتابه فقد ذكر أن أحاديثه تبلغ (١٦١٩٠)[٢]، أو (١٦١٩٩) كما نقله السيد عبد الرزاق المقرم عن الشهيد الأول، قائلا (فقد أحصيت أحاديثه إلى ستة عشر ألف ومائة وتسعة وتسعين حديثا مع أن أحاديث البخاري بحذف المكرر أربعة آلاف ومثله صحيح مسلم بحذف المكرر وأحاديث الموطأ وسنن الترمذي والنسائي لا تبلغ عدد صحيح مسلم)[٣]. بينما رأى الدكتور حسين علي محفوظ في مقدمة الكافي أنها (١٥١٧٦) حديثا، وأما الباحث عبد الرسول الغفار فقد أحصى أن عدد أحاديث الكافي هي (١٥٥٠٣) أحاديث[٤]. مرجعا سبب هذا الاختلاف في العدد إلى «أسلوب عد الأحاديث، بمعنى أن البعض اعتبر الرواية المذكورة بسندين، روايتين، فيما عدها البعض رواية واحدة. واعتبرت طائفة الروايات المرسلة التي جاءت بعبارة «وفي رواية أخرى» حديثاً واحداً فيما لم يعدها البعض الآخر. وبالطبع فإن سبب الاختلاف قد يكون في المواضع النادرة، عدم درج بعض الروايات في بعض المخطوطات».

(١) الرواجن كالدواجن وزنا ومعنى

(٢) الحسني، هاشم معروف: دراسات في الحديث والمحدثين ١٢٩

(٣) المقرم: عبد الرزاق في كتاب الاجتهاد والتقليد – للسيد ابي القاسم الخوئي: ص مقدمة ١٦

(٤) الغفار مصدر سابق ٤٠١

٢. زمان تأليف الكتاب:

يفترض أن الشيخ الكليني قد ألف هذا الكتاب بتمامه في أيام الغيبة الصغرى للامام المهدي محمد بن الحسن وفي أيام سفرائه الأربعة، وقد أدرك على الأكثر. في فترة تأليفه زمان اثنين من السفراء أولئك. وكانت الأمور في زمان السفراء تحت نظر الامام ﷺ، فكان يُسأل عن كثير من القضايا التفصيلية، ويجيب عليها. وأحيانا كان يبادر إلى بيان الموقف من خلال التوقيعات والرسائل للسفراء والنواب من غير سابق سؤال، ولا ريب أن عملا كبيرا كهذا الذي قام به الشيخ الكليني كان يحظى باهتمام سفراء الامام ﷺ، لو لم يكن الامام نفسه.

لا نريد أن نصل إلى ما يقال من بعضهم من أن الكتاب قد عرض على الامام الحجة فقال: الكافي كاف لشيعتنا! كلا. وإن كان أمر العرض (للدين وأحيانا للكتاب) على الأئمة ليس بدعا، فقد عرض على الامام العسكري كتاب (اليوم والليلة) ليونس بن عبد الرحمن، فأثنى على الكتاب وصاحبه! وإنما لأن ذلك لم يثبت بدليل معتبر وقد فند الميرزا النوري صاحب المستدرك هذا الكلام ورده[1]. وأشار بعضهم إلى الخلط الذي حصل لدى بعضهم من أن الامام الباقر قد سئل عن تأويل (كهيعص) فقال: الكاف: كاف لشيعتنا. والهاء: هادٍ لهم، والياء: وليٌّ لهم. وهكذا.

كما أن قرب زمان المؤلف من زمان الرواة المباشرين، حيث كان شيوخه وأساتذة شيوخه ممن رووا مباشرة عن الأئمة ﷺ، يجعل هذا الكتاب صاحب قيمة استثنائية حيث أنه كلما قلت الوسائط بين القارئ الذي يوضع الكتاب لأجله وبين قائل الحديث كان ذلك أدعى إلى الاطمئنان بصدور النص عن المعصوم. فإننا نجد أحيانا أن ما بين الكليني وبين الامام الذي ينقل عنه، توجد اربع وسائط فقط أو ثلاث. وهكذا.

٣. الكافي من حيث الاعتبار:

يتبوأ كتاب الكافي للكليني المرتبة الأولى من حيث الاعتبار في الضبط والدقة قياسا إلى بقية الكتب الأربعة (فقيه من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق، وتهذيب الاحكام، والاستبصار للشيخ الطوسي). ولذلك فإنه حين يتعارض في موردٍ أمر السند، أو المتن

(١) قال الميرزا النوري في خاتمة المستدرك ج ٣ – ص ٤٧٠: ليس غرضي من ذلك تصحيح الخبر الشائع من أن هذا الكتاب عرض على الحجة عليه السلام فقال: «إن هذا كاف لشيعتنا «فإنه لا أصل له، ولا أثر له في مؤلفات أصحابنا، بل صرح بعدمه المحدث الاسترآبادي.

بين الكافي وسائر الكتب فإن التقديم يكون لما في الكافي عادة.

إلا أن ذلك لا يجعل روايات الكافي صحيحة بكاملها بحسب الاصطلاح الموجود بين المتأخرين.، وإنما تخضع رواياته كلها للتحقيق والنقد السنَدي والدلالي. ولا يوجد لدى الشيعة ما يراه أهل السنة بالنسبة إلى الصحاح الخمسة من تصحيح رواياتها، ووصف بعض تلك الكتب بأنها أصدق الكتب بعد كتاب الله عز وجل.

بل لقد ذُكر أن الموجود في الكافي من الروايات يمكن تقسيمها إلى الأقسام الثلاثة كما فعل العلامة المجلسي في مرآة العقول مجموع أحاديث كتاب الكافي، فقال: الصحيح منها: ٥٠٧٢، والحسن: ١٤٤، والموثق: ١١١٨، والقوي: ٣٠٢، والضعيف: [1]٩٤٨٥.

وتختلف هذه الأعداد بحسب اختلاف اجتهاد الرجاليين في التوثيق والتضعيف. فبينما ذهب جماعة من علماء الشيعة الأخباريين إلى تصحيح روايات الكافي وباقي الكتب الأربعة، والاطمئنان بصدورها عن المعصومين، مع ملاحظة شدة تحرز مؤلفيها وتورعهم من جهة وخبرتهم في هذا الأمر من جهة أخرى.

رأى البعض أن الكثير من روايات الكافي لا يمكن الاعتماد عليها، ولذلك فقد اقترح القيام بتصفية روايات الكافي من ضعيف الأحاديث، وسمى كتابه بـ (الصحيح من الكافي). ولكن لم تستقبل هذه الخطوة بتأييد واسع من الحوزات والباحثين، على أن نفس الفكرة لن تكون ملزمة إلا لصاحبها، وذلك أن هناك اختلافا واضحا في طرق التوثيق وتصحيح الرواية، والمسالك فيها مختلفة، فقد يكون الحديث الفلاني عند الباحث هذا ضعيفا، لكن يأتي باحث آخر ويستطيع تقويته والعمل به بطريق آخر. وهكذا.

وعلى أي حال فإن اشتمال الكافي على روايات غير معتبرة، لا يقلل من أهميته وكثرة الانتفاع منه، ويشهد لذلك ما ذكره أعلام الإمامية في بيان شأن الكتاب.

فقد قال فيه الشيخ المفيد:. الكافي، وهو من أجل كتب الشيعة، وأكثرها فائدة. وقال الشهيد محمد بن مكي في إجازته لابن الخازن: كتاب الكافي في الحديث الذي لم يعمل الإمامية مثله.

وقال المحقق (الثاني) علي بن عبد العالي الكركي في إجازته للقاضي صفي الدين

(١) الصحيح ما اتصل سنده بالمعصوم برواة ثقات إماميين، والحسن: ما اتصل سنده به برواة إماميين ممدوحين، والموثق: ما اتصل برواة ثقات أو بعضهم غير إماميين، والضعيف ما اتصل برواة غير ثقات، والقوي: قالوا ما خرج عن الاقسام الثلاثة الأول ولم يدخل في الضعيف.

عيسى: الكتاب الكبير في الحديث، المسمي بالكافي، الذي لم يعمل مثله.. وقد جمع هذا الكتاب من الأحاديث الشرعية، والأسرار الدينية، مالا يوجد في غيره. وقال الفيض (الكاشاني): «الكافي: أشرفها وأوثقها وأتمها وأجمعها، لاشتماله على الأصول من بينها، وخلوه من الفضول وشينها»[١].

لماذا أورد الروايات الضعيفة؟

يتساءل البعض من القراء، عندما يجدون روايات توصف بالضعف وهي موجودة في مثل هذا الكتاب الجليل، عن سبب تضمينه إياها فيه، مع أنه في مقدمة الكتاب كان يريد أن يضع كتابا كافيا «يجمع فيه من جميع فنون علم الدين، ما يكتفي به المتعلم، ويرجع إليه المسترشد، ويأخذ منه من يريد علم الدين والعمل به بالآثار الصحيحة عن الصادقين عليهم السلام والسنن القائمة التي عليها العمل، وبها يؤدي فرض الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، وقلت: لو كان ذلك رجوت أن يكون ذلك سببا يتدارك الله تعالى بمعونته وتوفيقه إخواننا وأهل ملتنا ويقبل بهم إلى مراشدهم»[٢].

وهذا ما لا ينطبق على بعض الروايات التي يشكل فهمها وتأويلها، بل تتعارض مع بعضها، وفي بعضها ما يخالف أمورا متسالما على عدمها بين الإمامية مثل نسبة النقصان للقرآن الكريم.

ويشتد الأمر على هؤلاء حين يجدون أن المختلفين مع مذهب الإمامية يشنون الغارات على أتباعه على أنهم يقولون بتحريف القرآن، ودليلهم في ذلك هو وجود روايات في مثل الكافي تشير إلى هذا المعنى.

والجواب على ذلك مختصرا .: أن الشيخ الكليني قد وضع في مقدمة الكتاب منهجا مختصرا للتعامل مع رواياته، وفيها الجواب عن مثل هذا. فإنه قد قال في الجواب على من سأله تأليف الكتاب الكافي، بأن أمر الروايات لا يمكن تمييزه بالآراء، وبالتالي فإن فيها المختلف والمتعارض، ولا بد من وجود مقياس يرجع إليه الفقيه المتخصص، وهو العرض على كتاب الله، ثم مع الأخذ بما هو محل إجماع بين الإمامية، وترك الشاذ النادر، مهما كانت روايته صحيحة، وأخيرا مخالفة فقهاء السلطة الذين كانوا يتعمدون إقصاء

(١) نقل الأقوال عن مصادرها د. حسين علي محفوظ في مقدمة كتاب الكافي طبع دار الكتب الإسلامية طهران.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٨ - ٩.

أحكام أهل البيت عن البيئة الإسلامية، فمتى ما عرضت الرواية على كتاب الله وخالفته فإنها تطرح، وهكذا لو كانت من شواذ الروايات، ومخالفة للاجماع، قال في مقدمة الكافي: «فاعلم يا أخي أرشدك الله أنه لا يسع أحدا تمييز شيء مما اختلف الرواية فيه عن العلماء ﰈ برأيه، إلا على ما أطلقه العالم بقوله ﰉ: «اعرضوها على كتاب الله فما وافق كتاب الله عز وجل فخذوه، وما خالف كتاب الله فردوه»، وقوله ﰉ: «دعوا ما وافق القوم فإن الرشد في خلافهم»، وقوله ﰉ «خذوا بالمجمع عليه، فإن المجمع عليه لا ريب فيه».

وحينما يأتي الفقيه ويتأمل في الرواية التي ينقلها في الكافي وفيها أن القرآن مثلا هو أكثر مما هو موجود، يطبق عليه المنهج السابق فيرفض الرواية بعد أقل تأمل فإن هذه الرواية مما يخالف القرآن في أكثر آياته كما هو مفاد الإشارة (هذا القرآن) وآية الحفظ (وإنا له لحافظون). بل مخالف لما جاء في القرآن مما يثبت حجيته وضرورة العمل به، ومخالف لإجماع الإمامية على كمال القرآن وعدم نقصه أو الزيادة، وهو من الشاذ النادر الذي أمرنا بتركه (ودع الشاذ النادر) كما في الرواية وقد يكون لهذا السبب أن الكليني وضع هذه الروايات تحت عنوان باب النوادر.

وربما يمكن تفسير هذه الروايات على فرض صحتها بما ورد في روايات أخر من أن الزيادة المذكورة في هذه الروايات ليست زيادة في التنزيل القرآني، وإنما هي في التأويل والشرح والتفسير.

هل الكافي (صحيح) الشيعة؟

يتساءل آخرون هل أن الكافي هو صحيح الشيعة مثلما أن البخاري ومسلم من صحاح السنة؟ وإذا كان الجواب بالسلب فلماذا لا يوجد لدى الإمامية كتاب صحيح؟ وعلى فرض أن السابقين لم يصنعوا هذا فلماذا لا يقوم العلماء المتأخرون بـ (تصحيح) هذا المصدر وحذف الروايات غير الصحيحة منه؟

والجواب على ذلك: إن العامل الأساس في ذلك هو انفتاح باب الاجتهاد لدى الشيعة الإمامية، وانغلاقه لدى غيرهم، فإن المفروض في المدرسة الإمامية أن يقوم الفقيه البالغ مرتبة الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية بدراسة الروايات، سنَدا ومتنا، قبل أن يصدر حكما بشأنها. وهو في دراسة السنَد لا بد أن يكون له نظر رجالي وأصولي

اجتهادي، في حجية الأخبار وطريقة تصحيحها. ولا يكون مقلدا لمن كان قبله من العلماء. فلا يستطيع بالتالي أن يلتزم بالضرورة بما رآه الكليني أو شيخ الطائفة الطوسي أو الصدوق صحيحا ، بل ربما ضعّف ما رأوه صحيحا، وقوّى ما رأوه ضعيفا!

كما أنه لا يلتزم بفهم العالم السابق لهذا الحديث أو ذاك! بينما في المدرسة غير الإمامية، يكون العالم اللاحق محكوما باجتهاد العالم السابق الذي ألف الكتاب وجعله (صحيحا)!

ولهذا فإنه لو جاء عالم من علماء المدرسة الإمامية، وصنف كتابا ضمنه (الصحاح) من الروايات فإن هذا لن يكون نافعا لغيره من الفقهاء، باعتبار أن كلا منهم مطالب بالاجتهاد لتصحيح أو تضعيف الرواية المنقولة فيه.

محدث يحارب الغلو

الشيخ الصدوق: محمد بن علي بن بابويه

توفي سنة ٣٨١هـ

كما أن التقصير في حق الشخصيات الربانية ظلم لهم وللنفس، فإن الغلو في شأنهم وإن كان ظاهره «إيفاء كيل حقهم» لا يقل في إساءته لتلك الشخصيات عن التقصير، ويزيد عليه في هلاك الغالي من دون أن يستشعر ذلك.

إن المخالفة في بعض أجزاء العبادة قد تفسد العمل العبادي، كما أن الجهل قد يفسد العقيدة، والغلو يفسدهما معا! يفسد العقيدة حيث أنه قد ينتهي إلى ادعاء تعدد الآلهة! والشرك. كما حصل بالنسبة للمسيحيين الذين حذرهم الخالق العظيم ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ (سورة المائدة:٧٧) بعدما اعتبروا المسيح ابن الله تعظيما لشأن المسيح ،. وهكذا الحال بالنسبة لليهود حيث اعتبروا عزيرا ابن الله!! وبعض الفرق من المسلمين حيث أشار إليهم أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه (يهلك فيَّ اثنان: محبٌ غالٍ ومبغضٌ قالٍ).

وكانت العادة أن يكون الغلاة من المقصرين في الاهتمام بالعبادات، وأحيانا التاركين لها.

ومثل هؤلاء لا ينفع فيهم نصح الناصحين عادة، وذلك أنهم يعتقدون بأنهم الوحيدون الذين يعرفون تلك الشخصيات (من الأنبياء أو الأئمة) حق المعرفة، وأما سائر الناس حتى من يوافقهم في التصنيف المذهبي فإنهم لا يعرفونهم كما يعرفهم أولئك الغلاة!

ولهذا كان من مسؤوليات العلماء والفقهاء في كل جيل أنهم ينفون عن الدين (تحريف الغالين وتأويل المبطلين) كما في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله.

وكان أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، في طليعة قافلة العلماء الذين قاوموا الغلو والتزيد في الأمة. حيث جاء في ظرف يقول عنه الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي كان فيه مجتمع «القميين كلهم من غير استثناء لأحد منهم إلا أبا جعفر بن بابويه، بالأمس كانوا مشبهة مجبرة، وكتبهم تشهد بذلك وتنطق به»[١]. فقام بعمل علمي كبير لمقاومة تيار الغلو، واستطاع من خلال ذلك القضاء على صولة الغلاة والمتساهلين في الأحاديث ونقلها.

فلنكن مع هذا العالم الكبير منذ البداية ونتابع مسيرة حياته منذ أيام

ولادته: حيث قيل إنها كانت من فضل دعاء الإمام الحجة محمد بن الحسن المهدي[٢]، وذلك أن والد مترجمنا وقد كان عالما كبيرا ومحدثا مهمّاً بحيث كان العلماء إذا أعوزتهم نصوص الروايات لجؤوا إلى فتاواه! لم يرزق بأولاد إلى أن كبرت سنه، وعلى ما هو مركوز في نفس كل انسان من حبه للبقاء والامتداد في صورة ولد صالح يصل ما انقطع من والده ويحيي ما انطفأ من ذكره. فقد سيطر هذا الأمر على اهتمام الوالد علي بن موسى بن بابويه، وكان يعيش في زمان الغيبة الصغرى للإمام الحجة محمد المهدي، وتوفي سنة ٣٢٩هـ.لهذا قام بارسال رسالة عبر السفير الثالث الحسين بن روح النوبختي، للإمام المهدي يسأله فيها الدعاء له بالذرية، فجاء الجواب «إنك لا ترزق من هذه وستملك جارية ديلمية وترزق منها ولدين فقيهين»[٣]. وبالفعل هكذا كان فما مرت الأيام حتى اشترى جارية ديلمية، ورزق منها ولدين سمّى أحدهما بمحمد والذي عرف فيما بعد بالصدوق وثانيهما بالحسين.الولد محمد الذي كان عطية الله لأبيه على كبر سن الوالد ونفاذ عمره، كان تعويضا عن ذلك التأخير بكل المقاييس، فقد كان (آية في الحفظ) حتى كان الناس يتعجبون من حفظه وأخيه الحسين!

الانفتاح على العلم والعلماء:

أقبل محمد بن علي بن الحسين مترجمنا على العلم بنهم شديد، فقد كان يتتبع

(١) رسائل الشريف المرتضى ٣/٣١٠.

(٢) محمد بن الحسن المهدي، الثاني عشر من أئمة الشيعة الإمامية ولد سنة ٢٥٥هـ وحيث كانت الظروف تقتضي اختفاءه فقد غاب عن أنظار السلطة العباسية غيبة صغرى، كان خلالها يتواصل مع شيعته عبر سفراء أربعة، واستمرت غيبته الصغرى وهي فترة تعيينه للسفراء مدة ٧٤ سنة، ثم غاب الغيبة الكبرى وهي مستمرة إلى الآن حسب اعتقاد الإمامية ويظهر في آخر الزمان ليملأ الأرض قسطا وعدلا. ولهم في إثبات ولادته وبقاء حياته أدلة مفصلة في كتب العقائد.

(٣) الطوسي: الغيبة ٣٠٨

العلماء كما الواحد ضالته، وكانت الحكمة والمعرفة ضالة الشيخ المترجم، ولذا فقد أخذ العلم عن (٢٥٠) من العلماء في مختلف الفنون. وهذا العدد لعمري لم يُرَ لغيره! حتى أن بعض أساتذته وشيوخه كانوا يتظاهرون ببغض أهل البيت! مثلما نقل عن أحمد بن الحسين الضبي الذي يقول عنه (ما لقيت أنصب منه وبلغ من نصبه أنه كان يقول اللهم صل على محمد فردا ويمتنع من الصلاة على آله)[١]. ولا ريب أن التتلمذ على يد مثل هذا الأستاذ والأخذ منه يحتاج إلى قدرة كبيرة على الاستيعاب للمخالف والانفتاح!

كما أنه في سبيل تحصيل العلم سافر إلى بلدان كثيرة منها: الري نيسابور، ومشهد الرضا عليه السلام، وسمرقند، وبلخ، واسترآباد، وهمدان، وجرجان، وبغداد، والكوفة، ومكة، والمدينة [٢].

دوره في تصحيح التراث الشيعي:

يعد الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين، المؤسس الثاني للموسوعات الحديثية المصنفة (ومن ذلك عد كتابه فقيه من لا يحضره الفقيه من الكتب الأربعة التي عليها مدار الاستنباط الفقهي لدى الشيعة).

بعد أن بدأ ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني في مشروعه الرائد (الكافي)[٣]، وقام باستخلاص ذلك الكتاب من مجموعة هائلة من الروايات التي تشتمل على الصحيح والضعيف، جاء الشيخ الصدوق ليتمم ما بدأه الكليني عبر عدة أمور:

١. تصفية المصادر من الرواة الضعاف والغلاة والمجهولين، وقد أتم هذا الأمر بقدر وسعه فكان خطوة مهمة في هذا الصعيد.

فإن من أهم المنابع التي كانت رائجة في تلك الفترة كتاب (نوادر الحكمة) لمحمد بن أحمد بن يحيى، فإن هذا الشيخ وإن كان ثقة وجليل القدر إلا أنه كان لا يبالي في الرواية عن الضعاف وينقل المراسيل في كتابه ذاك. مما أدى ببعض نقاد الحديث مثل أستاذ الشيخ الصدوق محمد بن الحسن بن الوليد أن يستثني عددا من رجال هذا الكتاب

(١) عيون أخبار الرضا: ٣/٣١٢

(٢) المقنع - الشيخ الصدوق - ص المقدمة ٨

(٣) راجع الحديث عن شخصيته في الصفحات السابقة.

مخبرا بأنهم لا يعتمد عليهم في الرواية [1].

ومن الملاحظ هنا شدة تأثر الشيخ الصدوق بمسلك أستاذه الشيخ محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد (ت ٣٤٣هـ)، والذي وصف في كتب الرجاليين بأنه شيخ القميين ومتقدمهم ووجههم وأنه ثقة ثقة عين مسكون إليه [2] وأنه عارف بالرجال.

ومن شواهد ذلك أنه كان «يروي عنه كثيرا في كتبه و قد ذكره في المشيخة، ما يقرب من مائة و أربعين موردا و كان يعتمد عليه و يتبعه فيما يذهب إليه.

فقد ذكر في الفقيه: الجزء ٢، باب صوم التطوع و ثوابه، ذيل حديث ٢٤١، و أما خبر صلاة يوم غدير خم و الثواب المذكور فيه لمن صامه، فإن شيخنا محمد بن الحسن ﷺ كان لا يصححه و يقول إنه من طريق محمد بن موسى الهمداني و كان غير ثقة و كل ما لم يصححه ذلك الشيخ (قدس الله روحه) و لم يحكم بصحته من الأخبار، فهو عندنا متروك غير صحيح.

و تقدم في ترجمة محمد بن أحمد بن يحيى، أن الصدوق ﷺ تبع شيخه محمد بن الحسن بن الوليد، في استثنائه من روايات محمد بن أحمد بن يحيى ما يرويه عن جماعة تقدم ذكرهم»[3].

٢. مقاومة ما رآه الصدوق توجها نحو الغلو: إن المشكلة هي أن قسما من الناس يعتمدون في عقائدهم على أخبار ربما رواها بعض الرواة الضعاف. وحيث أن هؤلاء يظنون أن التزيد والارتفاع في حق الأنبياء والأوصياء يعيد إليهم بعض حقهم المسلوب في الواقع ويقاوم خط التقصير، فربما زاد التوجه إليهم عند هؤلاء الرواة وتجاوزوا الحد في الإحترام والاعتقاد.

(١) وقد فصل شيخ الطائفة الطوسي في كتابه: الفهرست ص ٢٢٢ ما قبله الصدوق وما رده من كتاب نوادر الحكمة بقوله: (. ما كان فيها من غلو أو تخليط، وهو الذي يكون طريقه محمد بن موسى الهمداني، أو يرويه عن رجل، أو عن بعض أصحابنا، أو يقول: وروى، أو يرويه عن محمد بن يحيى المعاذي، أو عن أبي عبد الله الرازي الجاموراني، أو عن السياري، أو يرويه عن يوسف ابن السخت، أو عن وهب بن منبه، أو عن أبي علي النيشابوري، أو أبي يحيى الواسطي، أو محمد بن علي الصيرفي، أو يقول: وجدت في كتاب ولم أروه، أو عن محمد بن عيسى بن عبيد باسناد منقطع ينفرد به، أو عن الهيثم بن عدي، أو عن سهل بن زياد الآدمي، أو عن أحمد بن هلال، أو عن محمد بن علي الهمداني، أو عن عبد الله بن محمد الشامي، أو عن عبد الله بن أحمد الرازي، أو عن أحمد بن الحسين بن سعيد، أو عن أحمد ابن بشير الرقي، أو عن محمد بن هارون، أو عن معاوية بن معروف، أو عن محمد بن عبد الله بن مهران، أو ينفرد به الحسن بن الحسين بن سعيد اللؤلؤي، أو جعفر بن محمد الكوفي، أو جعفر بن محمد بن مالك، أو يوسف بن الحارث، أو عبد الله بن محمد الدمشقي.

(٢) رجال النجاشي تحت رقم ١٠٤٢

(٣) الخوئي، السيد أبو القاسم: معجم رجال الحديث ٢٠٧/١٥

بينما من المعلوم أن العقائد الأساسية لا تثبت على المشهور بخبر الثقة، فضلا عن الخبر الضعيف!

فقد شن حملة عنيفة على توجه الغلاة (ومنهم المفوضة الذين يعتقدون بأن الله سبحانه قد خلق الخلق ثم فوض إلى الأنبياء أو الأوصياء أمر إدارة الكون فهم يديرونه مباشرة واستقلالا) فقال في كتاب الاعتقادات ٩٧[١]: (٣٧ - باب الاعتقاد في نفي الغلو والتفويض) قال الشيخ أبو جعفر ﵀: إعتقادنا في الغلاة والمفوضة: أنهم كفار بالله جل اسمه، وأنهم شر من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية ومن جميع أهل البدع والأهواء المضلة، وأنه ما صغر الله جل جلاله تصغيرهم بشيء، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ×وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [٢].

نعم ربما خالف المشهورُ من علماء الشيعة الشيخ الصدوق في بعض التطبيقات والمصاديق لكن هذا لا يهون من الجهد المهم الذي قام به هذا الشيخ في تنقية المصادر ومواجهة توجهات التزيد والارتفاع والغلو، والتي ربما كانت لولا مقاومته القوية لها، لكانت الاتجاه السائد في المذهب.

ومما اختلف فيه مشهور العلماء الإماميين مع الشيخ الصدوق في العقائد كان مسألة نسبة السهو إلى النبي ﷺ. فقد نقل في كتابه الفقيه، ما يلي:

١٠٣١ - وروى الحسن بن محبوب عن الرباطي، عن سعيد الأعرج قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله تبارك وتعالى أنام رسوله ﷺ عن صلاة الفجر حتى طلعت الشمس، ثم قام فبدأ فصلى الركعتين اللتين قبل الفجر، ثم صلى الفجر، وأسهاه في صلاته فسلم في ركعتين ثم وصف ما قاله ذو الشمالين[٣]. وإنما فعل ذلك به رحمة لهذه الأمة لئلا يعير الرجل المسلم إذا هو نام عن صلاته أو سها فيها فيقال: قد أصاب ذلك

(١) الاعتقادات في دين الإمامية ٩٧

(٢) آل عمران: ٧٩، ٨٠

(٣) الكيفية التي تروى في صحيح مسلم ج ٢ - ص ٨٧ هي التالية: عن أبي سفيان مولى ابن أبي احمد أنه قال سمعت أبا هريرة يقول صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر فسلم في ركعتين فقام ذو اليدين فقال: أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك لم يكن فقال قد كان بعض ذلك يا رسول الله فاقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال أصدق ذو اليدين فقالوا نعم يا رسول الله فأتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بقي من الصلاة ثم سجد سجدتين وهو جالس بعد التسليم.

رسول الله ﷺ».

قال مصنف هذا الكتاب ﵀: إن الغلاة والمفوضة لعنهم الله ينكرون سهو النبي ﷺ ويقولون: لو جاز أن يسهو ﵇ في الصلاة لجاز أن يسهو في التبليغ لان الصلاة عليه فريضة كما أن التبليغ عليه فريضة. وهذا لا يلزمنا، وذلك لان جميع الأحوال المشتركة يقع على النبي ﷺ فيها ما يقع على غيره، وهو متعبد بالصلاة كغيره ممن ليس بنبي، وليس كل من سواه بنبي كهو، فالحالة التي اختص بها هي النبوة والتبليغ من شرائطها، ولا يجوز أن يقع عليه في التبليغ ما يقع عليه في الصلاة لأنها عبادة مخصوصة والصلاة عبادة مشتركة، وبها تثبت له العبودية وبإثبات النوم له عن خدمة ربه عز وجل من غير إرادة له وقصد منه إليه نفي الربوبية عنه، لان الذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الله الحي القيوم، وليس سهو النبي ﷺ كسهونا لان سهوه من الله عز وجل وإنما أسهاه ليعلم أنه بشر مخلوق فلا يتخذ ربا معبودا دونه، وليعلم الناس بسهوه حكم السهو متى سهوا، وسهونا من الشيطان وليس للشيطان على النبي ﷺ والأئمة صلوات الله عليهم سلطان ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[1] وعلى من تبعه من الغاوين.

ويقول الدافعون لسهو النبي ﷺ: إنه لم يكن في الصحابة من يقال له: ذو اليدين، وإنه لا أصل للرجل ولا للخبر وكذبوا لان الرجل معروف وهو أبو محمد بن عمير بن عبد عمرو المعروف بذي اليدين وقد نقل عن المخالف والمؤالف، وقد أخرجت عنه أخبار في كتاب وصف قتال القاسطين بصفين.

وكان شيخنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد ﵀ يقول: أول درجة في الغلو نفي السهو عن النبي ﷺ، ولو جاز أن ترد الأخبار الواردة في هذا المعنى لجاز أن ترد جميع الأخبار وفي ردها إبطال الدين والشريعة. وأنا أحتسب الاجر في تصنيف كتاب منفرد في إثبات سهو النبي ﷺ والرد على منكريه إن شاء الله تعالى «انتهى كلام الشيخ الصدوق.

رأي المتأخرين في المسألة:

وقد خالف المتأخرون عنه قاطبة نظرية الشيخ الصدوق في أصلها وفي أدلتها، وألّف الشيخ المفيد أعلى الله مقامه (ت ٤١٣هـ) رسالة خاصة في الرد على رأي الشيخ

(١) سورة النحل: ١٠٠

الصدوق رحمه الله. وقد نوقشت رواية السهو المنسوب للنبي بمناقشات كثيرة:

منها: أن راوي الرواية التي تثبت سهو النبي هو أبو هريرة الدوسي وهو لم يسلم إلا بعد الهجرة بسبع سنين، بينما قتل ذو الشمالين (اليدين) في يوم بدر فكيف روى عنه أو روى القصة كما يظهر من الرواية الواردة في صحيح البخاري ومسلم؟

وأما في نقد الرواية: فقد اختلف الرواة في تعيين الصلاة، وفي الكيفية التي عالج فيها النبي السهو (المفروض).

ثم كيف لم ينتبه أحد من الصحابة غير ذي الشمالين، ولم يسأله أحد منهم؟ ولم يكونوا أقل حرصا من ذي الشمالين على صحة صلاة النبي والمسلمين.

ثم إن قول النبي كما في الرواية كل هذا لم يكن، يعني لم تقصر الصلاة، ولم أسهُ! إما ينتهي إلى تكذيب ذي الشمالين، أو إلى قول النبي الكذب والعياذ بالله.

وبأن جميع أعمال النبي (من أفعال وأقوال) هي سنة، وبالتالي فهي تبليغ، فلو صدر عنه السهو لكانت غير حجة. وهذا خلف فرض كونها حجة.

وعلى فرض أن تسلم الراوية من كل المناقشات السنَدية والدلالية، تبقى خبرا من أخبار الآحاد وهي لا تثبت العقيدة.

كما أنها معارضة بروايات صحيحة تشير إلى أن النبي ﷺ لم يسهُ في الصلاة قط.

قضية الشهادة الثالثة:

ومن المسائل التي اختلف فيها الشيخ الصدوق مع مشهور فقهاء ومتكلمي الشيعة اعتباره أن ذكر (أشهد أن عليا ولي الله) في الأذان هو من قول المفوضة. وربما يكون شدة حرصه على تنقية المذهب من إضافات الغلاة، قد أوقعه في مثل هذه المبالغة.

فإنه بعدما ذكر صورة الأذان من دون ذكر الشهادة الثالثة، عقب على ذلك بقوله: هذا هو الاذان الصحيح لا يزاد فيه ولا ينقص منه، والمفوضة لعنهم الله قد وضعوا أخبارا وزادوا في الاذان «محمد وآل محمد خير البرية» مرتين، وفي بعض رواياتهم بعد أشهد أن محمدا رسول الله «أشهد أن عليا ولي الله «مرتين، ومنهم من روى.

بدل ذلك «أشهد أن عليا أمير المؤمنين حقا» مرتين ولا شك في أن عليا ولي الله

وأنه أمير المؤمنين حقاوأنه وآله صلوات الله عليهم خير البرية، ولكن ليس ذلك في أصل الاذان، وإنما ذكرت ذلك ليعرف بهذه الزيادة متهمون بالتفويض، المدلسون أنفسهم في جملتنا[١].

ومن الواضح أن رأي مشهور فقهاء الشيعة أنهم يقولون باستحباب الشهادة المذكورة وأنها ليست جزءا من الأذان.

فتاوى فقهية مخالفة للمشهور:

وقد تتبع بعض الأعلام عليه عددا من الفتاوى الفقهية المخالفة للمشهور، ونحن نوردها هنا لا لأجل التشنيع على صاحبها وإنما لكي يتبين للقارئ الكريم أن مجرد مخالفة المشهور في الرأي الفقهي ليست جريمة أو أمرا منكرا، أو أنه يخرج القائل من الخط العام للمذهب.

١. فمن آرائه المخالفة للمشهور وجوب القنوت في الصلوات الخمس وأن بتركه تبطل الصلاة [٢]. بينما الرأي السائد هو استحبابه في الصلوات الخمس.

٢. عدم جزئية الصلاة على النبي ﷺ في التشهد، فإنه ذكر التشهد خاليا عنها[٣].

٣. عدم صحة صلاة المصلي بعمامة لا حَنَك [٤] لها. فقد قال:سمعت مشائخنا رضي الله عنهم يقولون: لا تجوز الصلاة في الطابقية أي التي لا حنك لها ولا يجوز للمعتم أن يصلي إلا وهو متحنك [٥].

٤. أن أول وقت المغرب هو استتار قرص الشمس وقد استدل في ذلك برواية عن الامام أبي جعفر الباقر عليه السلام (وقت المغرب إذا غاب القرص). ومثلها عن ابنه جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

٥. وأجاز الاغتسال بماء الورد، مع أن المشهور بأن ماء الورد لما كان مضافا فلا يصح

(١) من لا يحضره الفقيه ١/ ٢٩١

(٢) قال في الفقيه: ١/ ٣١٦: والقنوت سنة واجبة من تركها متعمدا في كل صلاة فلا صلاة له قال الله عز وجل: «وقوموا لله قانتين» يعني مطيعين داعين.

(٣) المصدر نفسه ٣١٩.

(٤) الحنك: طرف العمامة يدار من تحت الذقن.

(٥) المصدر نفسه /٢٦٦.

الوضوء ولا الغسل به، إلا إذا كانت الإضافة فيه قليلة بحيث لا يصدق معها أنه مضاف ويبقى على إطلاقه.

نظرة خاطفة على مصنفاته:

عد الشيخ النجاشي (أحمد بن علي ت ٤٥٠هـ) وهو تلميذ الحسين بن عبيد الله الغضائري تلميذ الصدوق للمترجم أكثر من مائتي عنوان من الكتب التي صنفها أو أملاها. وهذا العدد الكبير حيث يشتمل بعضها على مجلدات متعددة راجع إلى أنه بدأ بإملاء الحديث والتصنيف في وقت مبكر من شبابه، وسمع منه في تلك الفترة شيوخ الطائفة كما قال النجاشي.

والقارئ لعناوين الكتب والمصنفات تلك يجد التنوع الكبير فيما بينها (عقائد، فقه، تاريخ، سيرة المعصومين، وأجوبة مسائل متفرقة).

ونشير هنا إلى بعض عناوين كتبه:

فقيه من لا يحضره الفقيه (٤ مجلدات): وهو أشبه بالرسالة العملية التي تغني عن وجود الفقيه، وقد ألفه بالتماس من كان يجله من من العلويين في أن يؤلف كتابا على غرار (طبيب من لا يحضره الطبيب) لمحمد بن زكريا الرازي. يكون كافيا في مسائل الحلال والحرام والشرائع والأحكام فأجابه إلى ذلك وألف هذا الكتاب الذي أفتى فيه بما هو حجة بينه وبين ربه. كما جاء في مقدمة الكتاب.

وأصبح هذا الكتاب بالتدريج من المصادر الحديثية التي يعتمدها الفقهاء في الاستنباط، وأحد الكتب الأربعة (بالاضافة إلى الكافي، والتهذيب والاستبصار).

ويحتوي هذا الكتاب على (٥٩٦٣) حديثا، يشكل المرسل[1] منها أقل من النصف (٢٠٥٠).

الخصال (١): وهو أشبه بفهرس موضوعي للأحاديث التي جاءت بصيغة الأعداد، يبدأ فيها بسؤال أعرابي عن معنى كون الله واحدا. وشرح الامام له معنى الأحدية. فهذا

(١) المرسل هو ما حذف بعض أو كل رواته إلى المعصوم، وقد رأى بعض العلماء أن بعض مراسيل الصدوق ليست كذلك وهي التي تبدأ بقول الصدوق (قال الصادق أو الباقر فإنه مع جزمه بقول الامام ذلك كما يستفاد من ظاهر الحديث يعني أن لديه سنَدا معتبرا للحديث وإلا لما كان ينسبه جازما. نعم في الروايات التي يبدأها بقوله: روي عن. تكون مرسلة. بل ذهب بعض إلى أن حتى مراسيله يمكن العمل بها إذ ليست بأقل من مراسيل محمد بن أبي عمير، وقد سوّى آخرون بين الطريقتين في عدم الحجية والاعتبار.

الحديث من خصال الواحد. وينتهي بباب المليون، وفيه يورد الحديث المعروف عن علي بن أبي طالب: حدثني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب.

وما بين هذين العددين يمر بما ورد في الروايات من الأعداد المذمومة والممدوحة من الخصال والصفات.

علل الشرائع (٢): نقل فيه عددا كبيرا من الروايات التي جاءت بلسان التعليل، وشرحت فلسفة بعض الأحكام. وقد لا نستطيع أن نقول أن الروايات تلك كانت تناقش مقاصد التشريع بشكل تام، فإن فيها الكثير مما هو تقريب عرفي، أو بمقدار ما كان السائل أو السامع يعقل، وربما كان بعضها بظاهره غير مقبول، ولكن بصورة إجمالية يعتبر التفكير في مثل هذا الموضوع (علل الأحكام وفلسفة الشريعة) في ذلك الوقت ومن قِبل شخص يُحسب على المحدثين وهم أكثر تعبدا بالنص منهم بالبحث عن الفلسفة، يعتبر التفكير في هذا الأمر متقدما جدا.

كمال الدين وتمام النعمة: يقول الشيخ الصدوق إنه بعدما قضى الوطر من زيارة الامام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام، ورجع إلى نيسابور وجد أن كثيرا ممن ينتسب إلى التشيع قد طرأت عليهم الحيرة في شأن غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه. فأحب أن يجيب على الشبهات والاشكالات التي تواجه هذه المسألة، فوضع كتابا في العقائد وبعد أن أجاب على الإشكالات تلك، تعرض إلى ما حصل للأنبياء السابقين من الغيبات، وأنهى الكتاب بأحاديث كثيرة عن النبي والأئمة مخبرة عن وقوع الغيبة.

عيون أخبار الرضا (٢): وهو كتاب يعرب عنوانه عن موضوعه، فبعدما قدم في المقدمة قصائد للصاحب بن عباد شرع في الحديث عن أخبار الامام علي بن موسى الرضا، ورتبه على تسعة وستين بابا، في أحواله الشخصية، ومكارم أخلاقه، وما دار بينه وبين خلفاء عصره، ثم أحاديث في التوحيد والنبوة والامامة.

مرجعيته:

من خلال تتبع عناوين كثير من الكتب التي أثبتها النجاشي في رجاله يلاحظ أن الشيخ الصدوق رحمه الله كان يجيب على مسائل ورسائل ترده من مختلف الأطراف والبلدان، مما يدل على سعة وامتداد مرجعيته في الفتيا والاحكام في حواضر إسلامية مختلفة، فإن ذلك من مؤشرات وجود أتباع ومستفتين في هذه المناطق، قد يقلون أو يكثرون،

لكنها تشير إلى هذا الأمر.

قال أبو العباس النجاشي: وله كتب كثيرة، منها: كتاب جوابات المسائل الواردة عليه من واسط، كتاب جوابات المسائل الواردة عليه من قزوين، كتاب جوابات مسائل وردت من مصر، كتاب جوابات مسائل وردت من البصرة، كتاب جوابات مسائل وردت من الكوفة، جواب مسألة وردت عليه من المدائن في الطلاق، كتاب جواب مسألة نيسابور، كتاب رسالته إلى أبي محمد الفارسي في شهر رمضان، كتاب الرسالة الثانية إلى أهل بغداد في شهر رمضان، وله أيضا رسالة في الغيبة إلى أهل الري والمقيمين بها وغيرهم. بل قد وجدنا أنه يؤلف كتاب كمال الدين وتمام النعمة بعدما رأى الحيرة والإشكال قد استوليا على أهل نيسابور بعد رجوعه من زيارة الامام الرضا.

ونفس تأليف كتاب من لا يحضره الفقيه يصب في هذا المجرى.

معجزة التأريخ وهيرودوت[١] العرب

علي بن الحسين المسعودي

توفي سنة ٣٤٦ هـ

علي بن الحسين بن علي الهذلي المسعودي، علامة مضيئة في جبين التدوين التاريخي في العصور الإسلامية، وعلاّمة واسع الاطلاع قل نظيره في ميدان العقائد والبحث في الفرق. فهو «عالم موسوعي بكل ما في هذه الكلمة من معنى أي لم يقصر نفسه على مادة التاريخ فحسب. نرى المسعودي الجغرافي المبرز في أبحاثه الجغرافية، والمسعودي الفقيه صاحب المصنفات العديدة في الفقه وأصوله، والمسعودي المضطلع بعلم الأديان والعقائد والملل والفرق وما يتعلق بهذه الأمور من مسائل الامامة وغيرها، وهو ذو الباع الطويلة والعلم الغزير في اللغة العربية وآدابها من شعر ونثر.

وفي علم المنطق والفلسفة ورجالها المبرزين فيها، وفي الفلك والنجوم وفي الطب وعلم الكيمياء والأحجار الكريمة ومعرفة أنواع الجواهر.

وكان المسعودي أيضا عالما بالحيوان على اختلاف أجناسه وخصائصه»[٢].

وهو بهذا يحق أن يكون محل اقتداء وتمثل من قِبل أبناء الأمة اليوم، حيث لم يرضَ لنفسه الدونَ من الاهتمام، والقليل من المعرفة.

المسعودي في لقبه ينتسب إلى الصحابي عبد الله بن مسعود، كما أشار إليه أكثر من ترجم حياته بالرغم من أن صاحب المروج لم

(١) هيرودوت (٤٨٤ – ٤٢٥ ق م أول مؤرخ اغريقي أخذ على عاتقه كتابة تاريخ العالم حتى الوقت الذي عاش فيه، وقد أطلق عليه الخطيب الروماني سيشرون: أبا التاريخ. واشتهر بكتبه التسعة التي كتبها عن الامبراطورية الفارسية وغزو الفرس لليونان.وقد سافر في ريعان شبابه من اليونان إلى الشرق الأوسط وافريقيا الشمالية وكان في كل مكان يذهب إليه يدرس سلوك وعادات وأديان الشعوب وتعلم كل ما يمكن عن تاريخها. يراجع الموسوعة العربية العالمية ٢٦. ٣١٦.

(٢) السويكت، د. سليمان: منهج المسعودي في كتابة التاريخ. ٤٣٢

يشر إلى ذلك فيما وصلنا من كتبه. بل لم يفصل في سيرة جده كما فعل غيره، كالطبري مثلا، فضلا عن أولئك الذين ألفوا في حياة الصحابة. وعلى أي حال فإن عبد الله بن مسعود يعد من السابقين إلى التصديق برسول الله ﷺ فقد نقل عنه أنه كان سادس ستة أسلموا، وهو بهذا يتقدم على أكثر الصحابة.

كما أنه على الرغم من بنيته البدنية الضئيلة كان شجاع القلب والموقف، فقد جاهر كفار قريش بتلاوة القرآن أمامهم في الملأ العام في الوقت الذي أحجم فيه سائر الصحابة عن ذلك فقام فيهم في مكة وبدأ يتلو آيات سورة الرحمن، فلما عرفوا أنه يقرأ ما نزل على النبي ﷺ قاموا إليه وجعلوا يضربون في وجهه وهو مستمر في التلاوة، حتى بلغ منها ما أرادا وبلغوا من ضربه ما أحبوا، حتى أثر ذلك في وجهه ولما رجع إلى أصحاب النبي قالوا هذا الذي خفناه عليك فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم اليوم ولئن شئتم لأغادينهم[1].

وشارك مع النبي في غزواته المختلفة، وكان على يده إنهاء حياة أبي جهل الذي غضب من أن يكون قتله بيد من سماه رويعي الغنم، الضئيل البدن، ربما أكثر من مفارقته للحياة!

و«كان صلى الله عليه وسلم يكرمه ويدنيه ولا يحجبه فلذلك كان كثير الولوج عليه صلى الله عليه وسلم وكان يمشي أمامه صلى الله عليه وسلم ومعه ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ويلبسه نعليه إذا قام فإذا جلس أدخلهما في ذراعيه ولذلك كان مشهورا بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم بأنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة»[2].

وعرف عنه علمه الواسع بالقرآن وحفظه إياه، وكان لا يرى أحدا أعلم منه به غير علي بن أبي طالب كما نقل في مصادر الحديث الإمامية[3].

ويظهر من مجموع مواقفه ومواقف الآخرين منه أنه كان في خط أهل البيت حين تفرقت الخطوط، فقد كان من رواة حديث أن خلفاء النبي اثنا عشر، بعدد خلفاء بني

(١) الطبري، ابن جرير: تاريخ الطبري ٢/٧٣

(٢) الحلبي، علي بن برهان: السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٤٩

(٣) الشيخ الصدوق، في الخصال ١٧٤ بسنده إلى. عبد الله بن مسعود: علماء الأرض ثلاثة: عالم بالشام، وعالم بالحجاز، وعالم بالعراق، أما عالم الشام فأبو الدرداء، وأما عالم الحجاز فهو علي عليه السلام، وأما عالم العراق فهو أخ لكم بالكوفة، وعالم الشام، وعالم العراق محتاجان إلى عالم الحجاز، وعالم الحجاز لا يحتاج إليهما.

اسرائيل. ونقل عنه قوله: يا معشر قريش قد علمتم وعلم خياركم أن أهل بيت نبيكم أقرب إلى رسول الله منكم.[١]

وفي أيام الخليفة الثاني عمر، بعثه معلما للقرآن على الكوفة، وبقي فيه إلى أيام الخليفة الثالث حيث حصل الاصطدام بين الشخصيتين، لأكثر من سبب. منها ما نقل عن أن الخليفة الثالث، اختار توحيد قراءة القرآن وتلاوته على قراءة زيد بن ثابت وأمر جميع القراء باتباعه مع أن ابن مسعود يرى نفسه أفضل وأحفظ للقرآن منه، ولذا لما بلغه الأمر قام خطيبا فقال: أيأمروني أن أقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت؟ والذي نفسي بيده لقد أخذت من في (فم) رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وإن زيد بن ثابت لذو ذؤابة يلعب به الغلمان! والله ما نزل من القرآن شئ إلا وأنا أعلم في أي شيء نزل وما أحد أعلم بكتاب الله مني»[٢].

وقد يكون منها موقف ابن مسعود من أبي ذر الغفاري حيث قام بتجهيزه ودفنه أثناء مروره على الربذة، مع أن أبا ذر كان مغضوبا عليه من قِبل الخليفة ومنفيا عن المدينة.

وقد يكون منها موقفه الصارم تجاه الصرف على الأموال حيث كان يرى نفسه خازنا أمينا لبيت مال المسلمين في الكوفة، وفي المقابل كان بعض أقارب الخليفة من بني أمية يعتبرون المال هذا ثروة شخصية لهم[٣]! ومع النزاع تدخل الخليفة لصالح الأقارب.

وتفاقمت الأمور بين الشخصيتين إلى حد الاصطدام، حيث أمره الخليفة أن يخرج من الكوفة إلى المدينة، فاجتمع إليه الناس وأبدوا استعدادهم للدفاع عنه واقترحوا عليه أن يبقى في الكوفة ولا يخرج للمدينة، فلم يشأ إعلان العصيان والمواجهة [٤].

غير أن هذا لم يخفف المواجهة فقد قيل إن الخليفة استقبله يوم جاء إلى المدينة بكلام أزعجه وأزعج أصحاب النبي [٥].

ولهذا لما توفي ابن مسعود لم يصل عليه الخليفة عثمان، وإنما عمار بن ياسر بوصية من ابن مسعود.

(١) الصدوق، في الأمالي. ٢٨٦

(٢) ابن عبد البر النمري، الاستيعاب ٣. ٩٩٣

(٣) قال الوليد بن عقبة إنما هذا السواد قطين لقريش، فقال له الأشتر، وهو مالك بن الحارث النخعي: أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك. المسعودي في المروج ٢. ٣٠٧

(٤) نفس المصدر ٣٠٩

(٥) البلاذري في أنساب الأشراف ٥. ٣٦

وقد أشار المسعودي في المروج إلى بعض ما نقم الناس فيه على الخليفة عند حديثه عن سنة خمس وثلاثين، وقال في سنة خمس وثلاثين كثير الطعن على عثمان رضي الله عنه وظهر عليه التنكير لأشياء ذكروها من فعله: منها ما كان بينه وبين عبد الله بن مسعود وانحراف هذيل من أجله.

عصر المسعودي وانتماؤه:

عاش المسعودي في الفترة ما بين (بعد ٢٧٠- ٣٤٦هـ). وهي الفترة التي شهدت تزايد الضعف في هيكل الدولة العباسية وأصبح الشعر المشهور معبرا عن حال الخلفاء آنئذ:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا   يقول ما قالا له كما تقول الببغاء

وتمثل أحد الخلفاء حينها، وقد منع من التصرف في بعض الأموال، ببيتين من الشعر قال فيهما:

أليس من العجائب أن مثلي   يرى ما قل ممتنعا عليه
وتجبى باسمه الدنيا جميعا   وما من ذاك شيء في يديه

وكان من الطبيعي مع هذا الضعف أن تبدأ سيطرة العوائل والإمارات الخاصة بالقادة الطامحين،فقد بدأ الحمدانيون بالسيطرة على الموصل وشمال سوريا والبويهيون سيطروا على إيران وبغداد (٣٢١-٤٦١هـ) والطولونيون والاخشيديون في مصر (٢٥٤- ٣٣٤هـ).

غير أن هذا لم يؤثر في همة المسعودي علي بن الحسين، بل ربما أفاد منه في أن يتنقل بهمة وسهولة بين هذه الأقطار والأمصار وأن يحصل على مبتغاه من العلم والمعرفة.

واستطاع من خلال أخذه العلم عن شيوخ كثيرين، ممن يتفق معه في الانتماء المذهبي ومن يختلف، أن يحصل على ثروة علمية هائلة، وأضاف إليها شيئا كثيرا من الأسفار، والرحلات سجل فيها مشاهداته، وحقق فيها ما سمعه على الطبيعة.

وربما يكون هذا وهو انفتاحه على العلماء المختلفين، والمتنوعين سبباً دعا قسما من دارسي حياته، إلى التحير في انتمائه المذهبي، أو نسبته نسبة غير صحيحة إلى

الإعتزال في الأصول والشافعية في الفروع [١].

والصحيح أن المسعودي إمامي اثنا عشري، تشهد بذلك كتبه المختلفة، العقدية منها والتاريخية، فإن نفَسه التاريخي لا يكاد يخطئ الباحث فيه تشيعه خصوصا في كتابه مروج الذهب، وهكذا تصانيفه الأخرى العقدية كإثبات الوصية لعلي بن ابي طالب، والإبانة وغيرهما مما يأتي الحديث عنها.

كما أننا بملاحظة أساتيذه ومشايخه نرى أن عددا منهم كان من الرواة المعروفين بانتمائهم إلى مدرسة الشيعة الإمامية، مثل محمد بن الفرج وهو من أصحاب الإمام العاشر من أئمة الشيعة علي الهادي عليه السلام وقد وصف بأنه ثقة معتمد، وقد التقاه في جرجان وحدثه بأحاديث بالواسطة عن الامام الهادي.

ومثله الفضل بن حباب الجمحي القاضي المتوفى سنة ٣٠٥هـ، وقد عده السيد الأمين في الأعيان من رجال الشيعة، وعنه نقل خبر نزول الإمام علي البصرة مما يلي كربلاء. وأخبار بني أمية وأيام العرب.

وكشاجم (محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك) الذي وصفه بأنه من أهل العلم والدراية والمعرفة والأدب. وهو من خلص شيعة أهل البيت.

وكذا أحمد بن محمد بن عبد الله بن عمار الثقفي، المحدث الامامي الذي يروي عنه الشيخ المفيد في الارشاد بالواسطة والشيخ الطوسي كذلك، والذي كان محيطا بأخبار العلويين وثوراتهم ومصارعهم حتى غدا أهم مصادر أبي الفرج الاصفهاني في كتابه مقاتل الطالبيين.

وبالاضافة إلى ما أخذه عن مشايخه كان لديه مطالعات واسعة، فالناظر إلى كتابه مروج الذهب يلاحظ العدد الكبير من الكتب الأصلية المهمة التي اعتمد عليها والتي تجاوزت السبعين كتابا من أمهات الكتب.

ضم إلى ذلك أسفارا أعانته على تحقيق الكثير من المسائل الجغرافية وتعين الوقائع على الأرض، وهذه ميزة خدمته في بحوثه، ولذلك ابتعد عما وقع فيه غيره من المبالغات أو الاعتماد على السماعيات غير المعقولة. وإذا نقلها وجدناه لا يتبناها كما أشار إليه بعض باحثي سيرته.

(١) ذكر ذلك الذهبي، وابن حجر العسقلاني

وبحسب ما أعد من سفراته يمكن أن يقال إنه سافر مستكشفا الشرق الأوسط والأدنى.

وبحسب تتبع بعض الباحثين[١]، فإنه قد بدأ رحلاته بمنطقة خوزستان في جنوب إيران، ثم قصد منطقة فارس فزار اصطخر، وربما شيراز، ثم انتقل إلى كرمان، ومنها إلى سجستان.

وتابع سفره قاصدا بلاد السند ثم الهند وفيها زار منطقة صيمور وتحدث عن مشاهداته في الطريق وفي تلك المدن، واطلع على مناطق مهاراشترا وكجرات، وانتقل من هناك إلى سرنديب (سيرلانكا حاليا)، ومر بجزائر جاوة وسومطرة.

وفي عودته قصد اليمن والحجاز: مكة والمدينة وختم ببلده العراق ليستقر فيه مدة استعدادا لسفرة أخرى قادمة.

ما جاءت سنة ٣١٥هـ حتى حمل عصا الترحال من جديد، قاصدا الأهواز ثم الري في إيران ثم اصفهان، ويتجه شرقا نحو خراسان وشمالا نحو بلخ في أفغانستان، ثم يتجه إلى أذربيجان وأرمينية. ويعود بعد مدة قاصدا فلسطين، وينتهي ترحاله في مصر حيث سيتفرغ إلى إكمال كتابه مروج الذهب في سنة ٣٣٦هـ ويوافيه الأجل في حوالي سنة ٣٤٦هـ.

ومن الناحية الزمنية نجد أن سفرات ورحلات المسعودي قد استغرقت فترة تمتد ما بين (٣٠٣ إلى ٣٣٦هـ أو ما بعدها) وهي تستغرق أكثر من ثلاثة عقود من الزمن.

وأما من الناحية الجغرافية فهي تشمل تقريبا المنطقة الشرقية من العالم القديم بشمالها وجنوبها.

كتبه ومؤلفاته:

يتعجب الناظر في حياة المسعودي من الموسوعية التي كان عليها، والتحقيق في نفس الوقت، فإذا كانت الموسوعية، بذاتها ميزة من الميزات التي قلما تتوفر لعالم أو شخصية، فقد كانت في أفضل أشكالها عند المسعودي.

واجتمع إلى موسوعيته أيضا، تدقيقه وتحقيقه في المسائل، ونقده للباطل منها، وهذه

(١) السويكت د. سليمان: منهج المسعودي ٥٦

ميزة أخرى، فربما يتيسر لباحث أو عالم، التوفر على كثير من المعلومات والمعارف، لكنه يفتقر إلى تدقيق تلك المعلومات ونقدها. بينما وجدنا صاحب مروج الذهب بالاضافة إلى موسوعيته كان ناقدا محققا، رد كثيرا من الأمور الشائعة وفندها بالتحقيق.

من حيث العدد: فقد اختلفت الأعداد التي ذكروها لتأليفاته، ففيما ذكر السيد الأمين في الأعيان ٤٧ كتابا [١] ذكر عبد الله الصاوي في مقدمة كتاب (ما عثر عليه من أخبار الزمان ٣٤ كتابا مشيرا إلى أن ذلك هو مما جمعه من إحالات المسعودي في كتاب المروج والتنبيه والإشراف. واقتصر الحموي في معجم الأدباء على خمسة عناوين!

بل شكك بعض الباحثين[٢] في نسبة بعض الكتب إليه، ويبدو لي أن ذلك ناشيء من الصورة التي رسمها له، ولما كانت تلك الصورة غير دقيقة، فقد انتهت إلى نتائج غير دقيقة.

ومما يلاحظ من خلال هذه الكتب أنه كان أصوليا، ومتكلما، وأديبا، ونسابة، ورجاليا، ولغويا، وجغرافيا ومؤرخا وهو الجانب الذي عرف به واشتهر عنه.

ففي أصول الفقه يذكر من تأليفاته كتاب (نظم الأدلة في أصول الملة)، ويأتي كتاب (إثبات الوصية لعلي بن أبي طالب) في الكلام مبنيا على قاعدة متسالم عليها عند الإمامية، وهي أن لكل نبي وصيا، وأن وصاية النبي ﷺ، لعلي ابن أبي طالب لم تكن طفرة أو صدفة وإنما هي ضمن المسيرة الرسالية التي عاشها الأنبياء منذ آدم عليه السلام، حتى انتهى الأمر إلى سيد المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ.

كما تعرض فيه إلى مسائل فقهية يختص بها الفقه الامامي ناقلا في ذلك روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، كما في كلامه عن التخيير بين القصر والتمام في المسجدين (المسجد الحرام والمسجد النبوي)، وفي كلامه عن عدم جواز السجود على الزجاج لعدم صدق عنوان الأرض عليه.

وقد ذكر في آخر ذلك الكتاب أنه إلى تاريخ تأليفه أي سنة ٣٣٢هـ يكون قد مر على ميلاد الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري ٧٥ سنة وهو يختلف قليلا عن المعروف في ميلاده عليه السلام.

(١) الأمين، السيد محسن: أعيان الشيعة ٨. ٢٢٥

(٢) السويكت،المصدر السابق

وأما كتابه (الإبانة في أصول الديانة) فقد بيّن فيه الفروق القائمة بين نظرية المعتزلة وبين الإمامية، مفندا بذلك ما يدعى من الاتفاق الكلي، أو أن الإمامية عيال على المعتزلة في أصولهم العقدية والكلامية، وهو بهذا من أوائل من سلك هذا المسلك.

وبالرغم من أنه لم يصلنا كتابه الجامع الذي يكثر من الإحالة عليه وهو أخبار الزمان، لفقدانه. إلا أنه يظهر أنه كان مستوعبا لكثير من القضايا التاريخية والرجالية، كما يصفه هو أنه يحتوي على سيرة (حملة الآثار ونقلة السير والأخبار وطبقات أهل العلم من عصر الصحابة ثم من تلاهم من التابعين وأهل كل عصر على اختلاف أنواعهم وتنازعهم في آرائهم من فقهاء الأمصار وغيرهم من أهل الآراء والنحل والمذاهب والجدل إلى سنة ٣٣٢هـ)[1].

وأما كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وهو الكتاب الذي يدل بما حواه على شخصية مؤلفه المسعودي، فيمكن إيجاز القول فيه بما يلي:

أنه موسوعة جغرافية وتاريخية تجمع اختصار اللفظ وسلاسة العبارة وإحاطة المعنى «تحدث المؤلف في الأول منهما عن هيئة الأرض، مدنها، عجائبها بحارها، أغوارها، جبالها أنهارها، وبدائع معادنها، وأصناف مناهلها، وأخبار غياضها، وجزائر البحار، والبحيرات الصغار، وأخبار الأبنية المعظمة، والمساكن المشرفة ونصل النسل، وتباين الأوطان.. ومقادير النواحي والآفاق، وتباين الناس في التاريخ القديم، واختلافهم في بدئه وأوليته، من الهند وأصناف الملحدين، وما ورد في ذلك عن الشرعيين، وما نطقت به الكتب وورد على الديانيين. ثم اتبع ذلك بأخبار الملوك الغابرة، والأمم الداثرة، والقرون الخالية، والطوائف البائدة، على مر سيرهم، في تغير أوقاتهم وتضيف اعصارهم، من الملوك والفراعنة العادية والأكاسرة واليونانية، وما ظهر من حكمهم، ومقائل فلاسفتهم وأخبار ملوكهم، وأخبار العناصر، إلى ما في تضاعيف ذلك من أخبار الرسل والأتقياء..

أما القسم الثاني فأفرده للحديث عن ولادة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، نشأته، بعثته، هجرته، مغازيه وسراياه، وفاته، كما وعرض فيه لتاريخ الخلفاء الراشدين وتاريخ الدولتين الأموية، والعباسية.. وأنهى هذا القسم بالحديث عن خلافة المطيع العباسي. وهو في عرضه لهذه الحقب والأحداث التاريخية يخصص فصولاً مستقلة

(١) الأمين: مصدر سابق ٢٢٣

تتعلق بحياة كل واحد ممن تولى مسؤولية الدولة الإسلامية»[١].

أقول: بالإضافة إلى ما ذكر فقد تعرض إلى ذكر فقرات مهمة من حياة أئمة أهل البيت ﮹ وأحوالهم، وما جرى عليهم.

بالإضافة إلى الجانب الموسوعي في مروج الذهب فقد ابتكر المسعودي منهجا جديدا في الكتابة التاريخية اختلف فيه عمن سبقه من المؤلفين كالطبري مع تبجيل المسعودي واحترامه له وذلك أنه نحى منحى عبر عنه بعض الباحثين بالاسلوب الموضوعي بدلا من الاسلوب المعتمد على السنين. وإلى هذا المعنى أشار فيليب حتّي فقال في دائرة المعارف الاميركية: «المؤرخ والجغرافي العربي، ويطلق عليه احياناً لقب هيرودوتس العرب. كان أول مؤرخ عربي استعمل الأحداث التاريخية استعمالاً واسعاً، وأول من نظم مادته موضوعياً بدلاً من التدرج التاريخي. وعلى الرغم من ضياع معظم كتاباته، إلا أن ما بقي منها ذو قيمة كبير للعلماء من بعده.

ثم يقول: بما انه كان من المعتزلة[٢] الذين يرون أن العقائد يجب ان تخضع للاختبار العقلي، فإنه لم يتردد في اخذ المعرفة من اليهود والمسيحيين والهندوس و من غير المسلمين الآخرين. وقد اعتقد ببعض الاساطير والحكايات من دون نقد، ولكنه دّون الكثير من المعلومات التي لم توجد في مواضع أخرى. لم يبدُ أن أي مظهر من مظاهر الحياة أو النشاطات العقلية غريبة عليه. وقد غطت اهتماماته الدين والفلسفة والأخلاق والسياسة والاقتصاد والعلم والفن.

وكانت طريق عرضه لمادته تختلف عما ألفه أسلافه من حشد الأحداث دون تنظيم حول السنين. لقد ابتدع المسعودي الاسلوب الموضوعي، و شرح مادته فيما يتعلق بالعائلات الملكية والملوك والناس، وقد قلده في ذلك ابن خلدون وغيره من مشاهير المؤرخين»[٣].

---

(١) مقدمة مروج الذهب طبعة دار المعرفة للمحققين محمد هشام النعسان- عبد المجيد طعمة حلبي

(٢) قد أشرنا إلى أن نسبته إلى المعتزلة من الأخطاء المشهورة عن مسلكه العقدي. نعم هو يتعمد على التحليل العقلي في العقائد مثلما هو المنهج المعروف عن الإمامية.

(٣) الخليلي؛ جعفر صادق: مقال عن شخصية المسعودي في موقع تبيان الالكتروني. روجع بتاريخ ١٤٣١/٣/٢٨هـ

أول مرجعية شيعية
الفقيه العماني : الحسن بن علي

توفي قبل سنة ٣٦٩هـ

منذ أن بدأ التشيع ممثلا في تيار السابقين إلى رسول الله ﷺ، والسائرين في ركاب علي بن أبي طالب، واستمر في الإتباع لأهل البيت عليهم السلام إماما بعد إمام. حصل على رقعة من التابعين والمشايعين انتشرت في مناطق كثيرة من العالم الإسلامي، فقد انتشر في الهند وباكستان، ووصل إلى إيران وافغانستان وآذربايجان، كما توسع في المنطقة العربية كما في العراق ولبنان، واستوطن في مثل البحرين والقطيف والأحساء. وهكذا[١].

وإذا كان وجوده في تلك المناطق كبيرا وواضحا، فإنه وجد في مناطق أخر في صورة أقليات عددية، تعايشت مع جوارها المذهبي، وتفاعلت معه لعقود من الزمن، إذا لم يأت عاتٍ جبار فيفسد بالسياسة ما صلح بالجوار والمعاشرة.

وكانت عُمان على الساحل الغربي للخليج إحدى المحطات التي شهدت تعايشا ولا تزال بين الشيعة وأتباع المذاهب الأخر. وفيها كانت ولادة الفقيه الامامي الشيخ الحسن بن علي العماني المعروف بابن أبي عقيل، الذي أصبح بعد بدايات الغيبة الكبرى مرجعا عاما للشيعة.

إن هذا الأمر ليشير إلى حقيقتين؛ الأولى: أن المرجعية الشيعية وهي المنصب القيادي الأول في الطائفة ليست حكرا على قومية معينة كغير العرب، كما قد يتصور للبعض فإنه قد وجد من مراجع الطائفة: الطوسي والحلي والأحسائي والطرابلسي والعماني والعاملي، وهكذا.

إن المرجعية الشيعية لا تعترف بغير مقياس الكفاءة العلمية والعملية الأخلاقية، فإذا توفرت في شخص كان المرجع.

(١) للتفصيل راجع للمؤلف: صفحات من التاريخ السياسي للشيعة.

والأخرى: أن التشيع كما ذكرنا ليس حالة طارئة في المجتمع العربي ولا غريبة عنه، كما قد يروج له البعض وأنه نبتة فارسية أو غير ذلك، فإن هذه الشخصية العلمية، الفقيه العماني كان موجودا في منتصف القرن الرابع وكان كبير العلماء الشيعة، وكانت نشأته في هذه المنطقة العربية.

ومن المعلوم أنه لا يمكن أن تنبعث حالة علمية بمستوى الاجتهاد في منطقة إلا وأن يكون هناك أفقٌ عريضٌ من أتباع المذهب، أي لابد أن يكون في هذه المنطقة شيعة كثر حتى ينبعث منهم طلاب علم.، ويكون من بينهم من يتفوق، ولهذا يعتقد أن هذه المناطق كان التشيع فيها منذ القديم موجودا إلا أنه يتراوح قلة وكثرة بحسب الظروف والأحوال التي تسود في تلك المرحلة.

ففي هذه المنطقة التي يمكن أن تكون من نماذج التعايش بين المسلمين، يوجد فيها المذهب الأباضي، ويوجد فيها المذهب السني، ويوجد فيها أيضا المذهب الإمامي الإثني عشري.

مرجعية بعد الغيبة الكبرى:

يعتقد الإمامية بأن الله سبحانه وتعالى قد عين بعد النبي الأكرم ﷺ، لاستمرار الهداية والإرشاد، أئمة وبلغ النبي عنهم وأشار إليهم في مواطن متعددة، ويرون أن أحاديث (الحكام والأئمة والخلفاء من قريش وأنهم إثنا عشر) ناظرة إلى هؤلاء.

ونظرا لظروف معينة عاشها الإمام الثاني عشر المهدي محمد بن الحسن العسكري فقد غاب عن أتباعه غيبتين: صغرى امتدت من سنة ٢٥٥هـ إلى سنة ٣٢٩هـ، وكان يتواصل فيها مع الأتباع من خلال سفراء ونواب أربعة هم عثمان بن سعيد العمري، وابنه محمد بن عثمان، والحسين بن روح النوبختي وعلي بن محمد السمري.

وغيبة كبرى ابتدأت في سنة ٣٢٩هـ ولا تزال مستمرة إلى اليوم، ولهم في ذلك أدلة وبراهين يقيمونها في بحوث العقائد والكلام.

مع غيبة الامام المهدي اشتدت الحاجة إلى الاستدلال والاستنباط والاجتهاد بنحو لم يكن موجودا قبلها، وذلك لأنه كان بالإمكان لمن يحتاج إلى مسألة أن يرجع إلى الإمام المعصوم مباشرة فيخبره بالأحكام الواقعية، وأما بعد الإنقطاع على أثر الغيبة وعدم وفاء النصوص المتوارثة عن الأئمة عليهم السلام بالإجابة المباشرة عن جميع القضايا لتجدد

الحاجات. ووجود بعض النصوص المتعارضة ظاهرا بنقل الرواة. اشتدت الحاجة إلى الاستنباط والاجتهاد، وكان الجميع بحاجة إلى تأسيس طريقة في الاستدلال الفقهي، فجاء الفقيه العماني الحسن بن علي (ابن أبي عقيل) وجدد النظر في طريقة الاستنباط الفقهي. فلنكن مع هذا العالم من البدايات!

يفترض أن تكون ولادة الشيخ العماني في أواخر القرن الثالث وبدايات القرن الرابع، قبل بداية الغيبة الكبرى بثلاثة أو أربعة عقود تقريبا، حيث كان معاصرا للشيخ الكليني محمد بن يعقوب (صاحب الكافي) المتوفى سنة ٣٢٨هـ، وهما (العماني والكليني) من طبقة مشايخ جعفر بن محمد بن قولويه، حيث يروي عن الثاني، واستجاز من الأول.

لا تذكر المصادر شيئا مهما عن فترة أخذه العلم، أو العلماء الذين درس على أيديهم، وإنما تتحدث مباشرة عن أنه كان من كبار العلماء الذين كان الحجاج عند ذهابهم إلى الحج يستصحبون معهم كتاب (المتمسك بحبل آل الرسول) والذي كان بمثابة الرسالة العملية في تلك الفترة، فيأخذون قسم مناسك الحج لتطبيق أعمالهم على وفقه.

ومثلما أن ترجمة حياته لم تحظ بما يناسبها من الاهتمام، فإن كتبه أيضا قد ضاعت، ولكننا نستطيع أن نفهم موقعه العلمي، من خلال كثرة استشهاد العلماء المتأخرين عنه بأقواله تأييدا أو مناقشة. وأيضا من خلال كثرة النقل عنه.

وقد تم مؤخرا مشروع تجميع تراثه الفقهي [١]، واستحصل من خلال النقل عنه في الكتب المختلفة على خلاصة لفقهه المنقول فيها. فكان كتابا كبيرا يقع في أكثر من خمسمائة صفحة.

ولا ريب أن هذا لا يشكل إلا القسم الضئيل من آرائه واستدلالاته الفقهية، وذلك أن ما ينقل عن العلماء في كتب أخرى ما هو إلا شيء بسيط، إما للتأيد به أو لمناقشته ومخالفته وهو لا يشكل نسبة كبيرة.

المؤسس لطريقة الاستدلال:

أهم ما يذكر في سيرته أنه «أول من هذب الفقه واستعمل النظر، وفتق البحث عن

(١) الكوراني؛ الشيخ علي في كتاب: حياة ابن أبي عقيل العماني وفقهه. إعداد مركز المعجم الفقهي في الحوزة العلمية بقم.

الأصول والفروع في ابتداء الغيبة الكبرى»[١]، ولبيان هذا المعنى نشير إلى ما سبق قوله من أنه اشتدت الحاجة بعد الغيبة الكبرى إلى تأسيس طريقة في الاستدلال الفقهي، وذلك لانقطاع التواصل المباشر بين الشيعة وبين إمامهم. فهنا عندما يراد بيان الحكم الشرعي، لا يمكن إلا أن يكون بدليل وإلا فإن ذلك يكون افتراءً على الله ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (سورة يونس: من الآية ٥٩).

فلو أخذنا مثالا على ذلك في أحكام الصيام: هل أن البقاء على الجنابة أو الحيض متعمدا مفسد للصوم؟ أو لا يفسده؟ نقرأ القرآن فلا نجده يتحدث عن مفطرات الصيام إلا عن بعض المفطرات صراحة أو تلويحا مثل قوله تعالى:﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ﴾ وقوله تعالى:﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ﴾ بناء على استفادة الحرمة والمفطرية نهارا من خلال تقييد الحلية بالليل. وأما غير ذلك من المفطرات فلا سبيل لمعرفتها من القرآن. ولا بد من الاستعانة بالسنة المروية عن النبي ﷺ والمعصومين عليهم السلام.

وفيها روايات، والبحث فيها أولا يكون في أسانيدها، فهل هذه الروايات تامة السند إلى المعصوم، ولا بد من التضلع هنا في علم الرجال ومعرفة حالات الرواة وطبقاتهم ليؤمن الوقوع في الانقطاع والارسال وأمثاله.

وهنا يوجد لدينا روايات؛ منها ما عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام برواية بن أبي نصر قال:

سألته عن رجل أصاب من أهله في شهر رمضان أو أصابته جنابة ثم ينام حتى يصبح متعمدا؟ قال: يتم ذلك اليوم وعليه قضاؤه [٢].

وهي واضحة في أن البقاء على الجنابة متعمدا إلى الفجر مفسد للصوم، وعليه القضاء. نعم يجب أن يتم اليوم لحفظ حرمة الشهر.

غير أنه يوجد في مقابلها ما يفيد ظاهره بأنه غير مفسد، كما في رواية عن الامام

(١) بحر العلوم: الطباطبائي السيد مهدي؛ القواعد الرجالية عن كتاب حياة ابن أبي عقيل العماني - إعداد مركز المعجم الفقهي - ص ٢٥:حال هذا الشيخ الجليل في الثقة والعلم والفضل والكلام والفقه أظهر من أن يحتاج إلى البيان وللأصحاب مزيد اعتناء بنقل أقواله وضبط فتاواه، خصوصا الفاضلين، ومن تأخر عنهما. وهو أول من هذب الفقه واستعمل النظر، وفتق البحث عن الأصول والفروع في ابتداء الغيبة الكبرى، وبعده الشيخ الفاضل ابن الجنيد، وهما من كبار الطبقة السابعة. وابن أبي عقيل أعلى منه طبقة، فإن ابن الجنيد من مشايخ المفيد، وهذا الشيخ من مشايخ شيخه جعفر بن محمد بن قولويه، كما علم من كلام النجاشي رحمه الله.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة (آل البيت) ١٠. ٦٢.

علي الرضا عليه السلام كما يرويها إسماعيل بن عيسى قال: سألت الرضا عليه السلام عن رجل أصابته جنابة في شهر رمضان فنام حتى يصبح أي شيء عليه؟ قال: لا يضره هذا (ولا يفطر ولا يبالي)، فان أبي عليه السلام قال: قالت عائشة إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلم أصبح جنبا من جماع غير احتلام، قال: لا يفطر ولا يبالي!

وهناك روايات أخر مؤداها أحد الأمرين؟ فماذا نعمل أمام هذه الروايات هنا يدخل بحث علم الأصول، في أنه ما العمل مع وجود الحديثين المتعارضين، وأي منهما يقدم على الآخر ولماذا؟

تأسيس قاعدة ونظرية يعتمد عليها الفقيه في معالجة الاستنباط هو من الأمور المهمة التي قام بها هذا العالم الجليل في الأفق الشيعي. ولهذا كان محلا لجمل الثناء والتقدير من قبل علماء الطائفة، وننقل نصا واحدا منها، كما جاء في كتاب التأسيس قال: ومنهم (من علماء الشيعة): ابن أبي عقيل الحسن بن علي بن أبي عقيل أبو محمد العماني الحذاء، شيخ الشيعة ووجهها، وفقيهها، والمتكلم المناظر البارع، أحد أركان الدين، المؤسس في الفقه، والمحقق في العلوم الشرعية، والمدقق في العلوم العقلية، له كتب كثيرة في كل الفنون الإسلامية، اشتهر بالفقه والتفريع، وصنف فيه كتاب المتمسك بحبل آل الرسول، قال النجاشي: وهو كتاب مشهور في الطائفة، ثم قال وسمعت شيخنا أبا عبد الله يكثر الثناء على هذا الرجل، وهو من أهل المائة الثالثة كان معاصرا للكليني ولعلي بن بابويه»[(١)].

هذا العمل المهم والابتكاري هو من إنجازات الفقيه العماني، والرواد الذين جاؤوا في ما بعد، بنوا على هذا الأساس الذي أنشأه ابن أبي عقيل. فقد جاء تلميذ تلميذه الشيخ المفيد البغدادي، والذي كان يكثر من الثناء على العماني كما نقله النجاشي عنه، ورفع البناء على الأساس الأول، وجاء من بعده تلميذه الشيخ الطوسي، وأحكمه وهكذا تكامل البناء الاستدلالي خطوة بعد خطوة وجيلا بعد جيل، حتى أصبحنا نرى اليوم هذه المدرسة الأصولية المتقنة لدى شيعة أهل البيت في الاستنباط الفقهي.

هذا بالاضافة إلى ما ذكرنا من أنه من خلال موقعه أصبح المرجعية الأولى لشيعة أهل البيت حتى أن مرجعيته امتدت إلى خراسان بحيث أن الحجاج الإيرانيين كانوا يعتمدون على فتاواه في حجهم ومناسكهم.

(١) الصدر؛ السيد حسن: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام. ٣٠٣ عن كتاب حياة بن أبي عقيل العماني

الشريف المرتضى
علي بن الحسين الموسوي

٣٥٥ - ٤٣٦هـ

يمكن تصنيف علماء المذاهب والأديان إلى صنفين أساسيين:

الصنف الأول: هم المؤسسون المبتكرون الذين يضعون الخريطة العلمية العامة لهذا المذهب أو الدين.

والصنف الثاني: هم الذين يقومون بوظيفة التشييد والبناء على تلك الأسس، والشرح على المتون والخريطة التي وضعها الصنف الأول.

وبالرغم من أن لكلٍّ فضله ودوره، إلا أن الصنف الأول في نظر كثير من الباحثين يعتبر أهم بكثير من الصنف الثاني. وذلك أنه يأتي في الأبواب المختلفة ليبتكر نظرية، ويتحرك في ارض لم تمهد من قبله، ولذلك فهو يحتاج إلى أن يكون ذا عقلية كبيرة، وقدرة منهجية متميزة.

وربما يكون الحديث المعروف بين الفريقين «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها إن الله يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها»[(١)] مشيرا إلى هذه الحقيقة. فإن الدين بما هو لا يحتاج إلى تجديد، ولكن المعرفة الدينية تحتاج إلى تجديد، وتطوير.

والشريف المرتضى علم الهدى علي بن الحسين الموسوي، هو من أولئك المؤسسين والمبتكرين في مذهب الإمامية، وقد عد أحد المجددين على رأس المئة الرابعة كما عن ابن الاثير الجزري في كتابه (جامع الأصول الستة)[(٢)]. ويشير إلى ما ذكرنا من جامعيته وابتكاره، ما نقله صاحب الأعيان عن أحد مترجميه وهو الدكتور

(١) كنز العمال ٣٤٦٢٦ وفي سنن أبي داود والمستدرك وغيرها.

(٢) نقله عنه السيد بحر العلوم في الفوائد الرجالية ٣/ ١١٨.

عبد الرزاق محيي الدين فقد قال في الشريف المرتضى:

كان مما انتهيت إليه في تقدير المرتضى في ثقافته الأدبية انه كان في طليعة المفسرين للقرآن الكريم بالرأي[١] من الشيعة فقد كان غالبهم مفسرين بالأثر من قبل ذلك.

وأنه كان من سابقيهم دعوة إلى فتح باب الاجتهاد في الفقه، وأسبقهم تأليفا في الفقه المقارن.

وأنه كان واضع الأسس لأصول الفقه لديهم، ومجلي الفروق بينها وبين أصول العقائد لدى الشيعة سواهم.

وأنه في علم الحديث كان أول من نادى الشيعة برفض شطر كبير من الحديث وبخاصة ما كان من خبر الآحاد فيها، وكان لعمله هذا فضل كبير في تمحيص أحاديث أهل البيت وفحصها.

وأنه في علم الكلام كان قِرن القاضي عبد الجبار رأس المعتزلة وشيخهم الذي إليه انتهت زعامتهم في القديم والحديث، وانه في جماع ذلك كان يعتبر مجدد المذهب الشيعي الامامي وباعثه في القرن الرابع الهجري.

ولقد رأيت في «المرتضى» أديبا ناقدا يعتبر في طليعة الناقدين، وأديبا ناثرا يعد من خيرة الأدباء المترسلين، وأديبا شاعرا، يسلك به في الشعراء الآليين الذين يملكون المادة الصالحة، والآلة المرهفة، ولا يملكون القدرة على الانتفاع بهما من أجل تحويلها إلى بضاعة تدخل سوق الأدب فتصيب حظا بالغا من تقيد ورواج[٢].

أساتذته:

توفر للشريف المرتضى عدد من الأساتذة الذين كان كل واحد منهم، فريدا في فنه وعلمه، فقد درس على يد الخطيب الأديب ابن نباتة [٣]، الذي كان يقول إنه حفظ مائة

(١) هناك معنيان للتفسير بالرأي، الأول ما يطلق على مثل التدبر واستعمال النظر في تفسير الآيات وعدم الاقتصار على التفسير النقلي بالمأثور، والثاني ما يكون مقابلا ومعارضا للتفسير بالمأثور والحديث، وإذا قبلنا المعنى الأول في حق الشريف المرتضى فلا ريب أن المعنى الثاني غير مقبول.

(٢) الأمين؛ السيد محسن: أعيان الشيعة ج ٨ ص ٢١٣. ظاهرا عن كتاب (أدب المرتضى).

(٣) عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل الفارقي، كان خطيب حلب، وبها اجتمع مع أبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة، وكان سيف الدولة كثير الغزوات، فكثرت خطبه في الجهاد ليحض الناس على نصر سيف الدولة، توفي سنة ٣٧٤ ذكر ذلك في الدرجات

فصل من خطب علي ابن أبي طالب ففاضت من جنانه ولسانه. وقد استفاد منه علماً كثيراً في الأدب والشعر والخطابة ويعده بعض العلماء أوحد أهل زمانه علماً وخطابة.

كما أخذ اللغة وعلومها عن محمد بن عمران المرزباني الكاتب المتوفى سنة ٣٨٤هـ كما ذكر ذلك في ترجمته، في مقدمة الذريعة إلى أصول الشيعة.

أما أستاذه المبرز فقد كان الشيخ المفيد محمد بن النعمان البغدادي العكبري الذي انتهت إليه رئاسة الشيعة الإمامية في زمانه،وقد أخذ الشريف العلم على يديه مدة تصل إلى عقدين من الزمن.

عصره:

عاش الشريف المرتضى في عصر البويهيين، وهؤلاء لأسباب مختلفة أطلقوا عنان الأفكار، وقُدر في زمانهم العلم وتنوفس فيه، فراجت سوقه.

ولهذا فإنه بالرغم من توجهات البويهيين الشيعية الواضحة، إلا أن ذلك لم يمنعهم من جعل (عبد الجبار الهمداني)[1] القاضي الأكبر، وهذا بدوره لم يأل جهدا في تشييد الفكر الاعتزالي في العقائد حيث كتب وهو في ذلك المنصب كتابه المعروف (المغني في التوحيد والعدل)، وفي مبحث الامامة جاء بحجج المعتزلة كاملة وفيها تخطئة لنظرية الإمامية القائمة على النص والنصب، وأن الخليفة بعد النبي ﷺ هو علي بن أبي طالب بلا فصل! ولم يلاحظ حال الحاكمين البويهيين ولا الوزير الأول الصاحب بن عباد الذي يعد من أعيان الإمامية وكبارهم.

وهذا يدل على جو الحرية الفكرية الذي وفره الحاكمون والمتنفذون آنئذ وهو الذي ينبغي أن يكون القاعدة السائدة في بلاد المسلمين.

الرفيعة وفي فلاسفة الشيعة ولعله المشهور بينهم، غير أن باحثين آخرين رأوا الذي درس عليه الأدب واللغة هو ابن نباتة السعدي: عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد ابن نباتة (بضم النون أبو نصر التميمي السعدي الشاعر ولد سنة ٣٢٧ وتوفى ببغداد سنة ٤٠٥ خمس وأربعمائة. له ديوان شعره مشهور.

(١) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد آبادي، أبو الحسين ت ٤١٥ هـ: قاض، أصولي. كان شيخ المعتزلة في عصره. وهم يلقبونه قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره. ولي القضاء بالري، ومات فيها. له تصانيف كثيرة، منها: (تنزيه القرآن عن المطاعن - ط) و (الأمالي) و (المجموع في المحيط بالتكليف - ط) الأول منه، و (شرح الأصول الخمسة - ط) و (المغني في أبواب التوحيد والعدل - ط) أحد عشر جزءا، و (تثبيت دلائل النبوة - ط) و (متشابه القرآن - ط). عن الأعلام - خير الدين الزركلي ٣. ٢٧٤

كتبه:

ألف الشريف كتبا كثيرة بلغت (١١٧ كتابا ورسالة وعدها محقق كتاب الانتصار بـ ١٢٣)، وإن نظرة فاحصة على أهم الكتب التي ألفها الشريف تبين لنا صحة ما ذكره آنفا الدكتور محي الدين، من كونه مبتكرا في علوم كثيرة في الأفق الشيعي الإمامي.

فمن كتبه:

تنزيه الأنبياء:

حيث التزم الإمامية بتنزيه الأنبياء (والأوصياء) عن الوقوع في الكبائر والصغائر، متميزين في ذلك على باقي المذاهب الكلامية، ونظرا لأنه يوجد في القرآن الكريم ما ظاهره نسبة الخطيئة والمعصية إليهم كما في آدم، ونوح ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى وخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وعليهم، كان لا بد من الاجابة على تلك الآيات، وقد فعل الشريف ذلك بكفاءة عالية، ثم عطف للحديث نفسه عما ينسب من الخطأ والخطل للأئمة عليهم السلام كعلي بن أبي طالب، والامام الحسن والحسين والرضا والمهدي.

والكتاب هذا موجود ومطبوع،يقع في ٢٣٨ صفحة.

وربما تكون بعض الإجابات موجودة في روايات متفرقة هنا وهناك، إلا أن الاستدلال العقلي على المسائل المختلفة، بهذا النحو من الاستيعاب والتفصيل قد لا نجد له مثيلا قبل الشريف المرتضى.

الشافي في الإمامة:

نستعين هنا بكلمة للمرحوم العلامة الشيخ محمد جواد مغنية في شأن هذا الكتاب والكاتب، فهي «مغنية» عن غيرها، قال: ذكر الشريف جميع الشبهات التي قيلت أو يمكن أن تقال حول الإمامة، وأبطلها بمنطق العقل، والحجج الدامغة. ولا أغالي إذا قلت أن كتاب الشريف هو أول كتاب شاف كاف في الدراسات الإسلامية الإمامية، بحيث لا يستغني عنه من يريد الكلام في هذا الموضوع، وبحثه بحثا موضوعيا، وليس من شك أن العلامة الحلي قد عنى كتاب «الشافي «حين قال مقرظا الشريف: «بكتبه استفاد الإمامية منذ زمنه رحمه الله إلى زماننا – بل وإلى آخر الزمان – وهو أي الشريف ركنهم ومعلمهم قدس

الله روحه وجزاه عن أجداده خيرا»[1]. وهو مطبوع في مجلدات أربعة.

وقد لخصه شيخ الطائفة الطوسي في كتاب (تلخيص الشافي)، واكتفى بما جاء فيه.

الذريعة إلى أصول الشريعة:

وهو كتاب في أصول الفقه، ولم يسبق بمثله في الأفق الشيعي الإمامي، إلا من استاذه الشيخ المفيد حيث كتب التذكرة بأصول الفقه، وعند المقارنة بين الكتابين يتبين الفرق لصالح ذريعة المرتضى من حيث الحجم حيث يبلغ هذا عدة أضعاف التذكرة، وتنوع وكثرة المواضيع أيضا. ولهذا السبب قيل إن الكتاب بقي مدار التدريس في الحوزات العلمية إلى أيام المحقق الحلي أي لمدة تقارب قرنين من الزمان من تأليفه. والكتاب مطبوع ويقع في مجلدين (٨٣٦ صفحة).

المقنع في الغَيبة:

(غيبة الإمام المهدي) في جزء واحد يبدأ في الحديث فيه عن أصل وجوب الامامة والعصمة، ثم يتحدث عن الغيبة وأن الجهل بحكمة الغيبة لا ينفي الحكمة، وينظّر باستتار النبي ﷺ والأئمة، ويفرق بين الغيبة وعدم الوجود .وفيه الأدلة على وجوده وغيبته وكيف تكون العلاقة بينه وبين الشيعة في زمن الغيبة والأجوبة على الإشكالات التي توجه إلى هذه النظرية. ويكفي في بيان قيمة الكتاب أن شيخ الطائفة الطوسي وهو أحد تلامذة الشريف المرتضى عندما ألف كتاب الغيبة قام بنقل أقسام بكاملها من كتاب أستاذه الشريف المرتضى.

الانتصار في الفقه:

وقد ذكر موارد اختلاف الإمامية في الفقه عن سائر المذاهب وما يرى إنه من متفرداتها القول به، واستدل على تلك الموارد بأدلتها، وبيّن وجود موافقين للإمامية فيها من سائر العلماء. وقد استعرض في هذا الكتاب الآراء التي امتاز بها فقه الإمامية في قسمي العبادات والمعاملات، ويقع في مجلد واحد (٦٠٠ صفحة).

(١) الشافي في الامامة ١. ١٩ مقدمة الكتاب.

الناصريات في الفقه:

وهو أشبه بدورة فقهية كاملة مختصرة حيث احتوى على ٢٠٧ مسائل في الفقه الاستدلالي المقارن، حيث عرض فيه لآراء المذاهب الأخرى وناقشها باختصار.

تلك كانت نماذج من عناوين كتبه الكثيرة النافعة.

وقد كان للشريف المرتضى‌ؒ عناية خاصة بالفقهاء وأهل العلم فقد أوقف قرية من أملاكه لكي ينفق عائدها على النشاطات العلمية من كتب للفقهاء والعلماء،من كاغذ (ورق) ومحابر وأدوات، وعين رواتب للعلماء والدراسيين والفقهاء بحسب حاجتهم المادية ومنزلتهم العلمية ، ولذلك نتعجب عندما نرى كاتبا يصف الشريف المرتضى بالبخل! فهل يعقل أن يكون بخيلاً ويوقف قرية كاملة أو يؤسس مكتبة يقول عنها ياقوت(لم نسمع عن مثلها في كل الدنيا) لاحتوائها على ثمانين ألف كتاب في زمن كان من الصعب أن يجتمع فيه هذا المقدار من الكتب لأسباب كثيرة، منها أن بعض الكتب كان ينسخ مرة واحدة فقط بخط مؤلفه، أو كونها غالية الثمن.

ومن ذلك ما ذكر أنه أشترى نسخة من كتاب الجمهرة لأشعار العرب لابن دريد بقيمة ستين ديناراً ليضمها إلى المكتبة فإذا به وهو يتصفحها يجد في غلافها الأخير شعرا كتبه بائعها وهو الأديب أبو الحسن القالي يقول فيه:

أنستُ بها عشرين حولاً وبعتها ... لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها ... ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية ... صغار عليهم تستهل شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... مقالة مكويّ الفؤاد حزين
وقد تُخرج الحاجات يا أمَّ مالكٍ ... كرائم من ربٍّ بهن ضنين

فلما علم الشريف بحاله وأنه قد باع الكتاب بسبب الحاجة أعاد له الكتاب وأرسل له أيضاً ستين ديناراً أخرى.

هذا مع العلم أن راتب الطالب الواحد مثل الشيخ الطوسي في ذلك الوقت كان اثني عشر ديناراً ،أي أن الكتاب كان بمبلغ كبير يصل إلى راتب خمسة طلاب، فنحن نعتقد أنه عندما يصف البعض الشريفَ بالبخل فهو يفعل هذا لأنه لا يملك ما يعيب به هذا

العالم الجليل.

وشتان بين ما قاله هذا الكاتب وبين ما قاله أبو العلاء المعري!فأبو العلاء الذي عُرف عنه عدم رضاه عن أحد لاعتداده بذاته عندما ذهب وزار الشريف المرتضى ورجع من عنده سأله الناس كيف وجدت الرجل؟ فقال:

يا سائلي عنه لما جئت أسأله	ألا هو الرجل العاري من العار
لو جئته لرأيت الناس في رجل	والدهر في ساعة والأرض في دار

فهو يصفه أنه خلاصة الناس كلهم وخلاصة العلم وأن الدهر والزمن قد تلخص فيه وفي الساعة التي قضاها معه وحصل منه على الفوائد.

الشريف المرتضىﷺ أثرى الساحة العلمية والدينية بالكثير وقد كان لسان فقهاء أهل البيت ولذا نستغرب من ابن كثير عندما تحدث عن الشريف المرتضى فصوره متفردا في مسائله عن الإمامية، فقال: «وقد نقل ابن الجوزي أشياء من تفرداته في التشيع، فمن ذلك أنه لا يصح السجود إلا على الأرض أو ما كان من جنسها، وأن الاستجمار إنما يجزئ في الغائط لا في البول، وأن الكتابيات حرام، وكذا ذبائح أهل الكتاب، وما ولوه هم وسائر الكفار من الأطعمة حرام، وأن الطلاق لا يقع إلا بحضرة شاهدين، والمعلق منه لا يقع وإن وجد شرطه، ومن نام عن صلاة العشاء حتى انتصف الليل وجب قضاؤها، ويجب عليه أن يصبح صائما كفارة لما وقع منه. ومن ذلك أن المرأة إذا جزت شعرها يجب عليها كفارة قتل الخطأ، ومن شق ثوبه في مصيبة وجب عليه كفارة اليمين، ومن تزوج امرأة لها زوج لا يعلمه وجب عليه أن يتصدق بخمسة دراهم، وأن قطع السارق من رؤوس الأصابع»[١].

فنقول: أما فتوى لزوم الإشهاد في الطلاق، فعليها إجماع الإمامية، دون النكاح حيث لا يوجبون فيه الشهود، بينما عكس غيرهم من المذاهب فأوجب في النكاح الشهود، ولم يوجبه في الطلاق.

وهذا الأمر بالاضافة إلى ما يقتضيه الاعتبار من حيث أن الشرع الإسلامي يبتغي بناء النكاح بأسهل ما يمكن وذلك يقتضي تقليل الشروط والقيود، وفي المقابل يسعى

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢. ٦٧

لتقليل الطلاق، وتعطيل السرعة فيه، وهو يقتضي زيادة الشروط والقيود (مثل أن لا يكون في زمان الدورة الشهرية، وأن يكون في طهر لم تحصل فيه مواقعة) ومنها أن يكون هناك شاهدان عادلان يشهدان إيقاع الطلاق.

ولم يخالف في ما ذكر أحد من علماء الشيعة [١]. ومن يخالف فهو محجوج بالدليل القرآني ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [٢]والروائي والاجماع.

كما أن الطلاق المعلق على شيء محتمل أو معلوم الوقوع غير صحيح، وقد أشار إليه المحقق النجفي في الجواهر، فقال: ويشترط في الصيغة تجردها عن التعليق على الشرط المتحتمل وقوعه، نحو «إن جاء زيد «وعلى الصفة المعلوم حصولها، نحو «إذا طلعت الشمس» في قول مشهور، بل لم أقف فيه على مخالف منا»[٣].

ولا يستحل الشيعة أكل ذبائح أهل الكتاب، وقد اشتهر هذا الحكم بينهم (كاد يكون من ضروريات المذهب في زماننا) كما رأى صاحب الجواهر[٤] وذلك لما جاء في القرآن الكريم في قول الله عز وجل ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأهل الكتاب لا يلتزمون بذكر اسم الله عز وجل ، إضافة إلى ما ورد في قوله تعالى ﴿إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ حيث جعل التذكية فعل المسلم، بمقتضى توجيه الخطاب له، فكأن التذكية لا تتيسر من غيرهم من أهل الكتاب. إضافة إلى (النصوص المستفيضة التي إن لم تكن متواترة بالمعنى المصطلح فمضمونها مقطوع به) كما صرح به في الجواهر.

أما الكتابيات فالقول فيها متعدد بينهم، فمنهم من يقول بجواز النكاح بهن دواما وانقطاعا ومنهم من يقول بجوازه منقطعا دون الدائم ومنهم من لا يجيزه، والسر في ذلك كيفية الجمع بين الآيات المباركات: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[٥] و ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ

(١) قال السيد علي الطباطبائي في رياض المسائل ٧. ٣١٦ (ولا بد في صحة الطلاق من شاهدين يسمعانه بإجماعنا، حكاه جماعة من أصحابنا، وبه استفاض أخبارنا. ففي الصحيح «طلاق السنة يطلقها تطليقة على طهر من غير جماع بشهادة شاهدين.

(٢) سورة الطلاق: من الآية ٢.

(٣) الجواهري، جواهر الكلام ٣٢. ٧٨.

(٤) جواهر الكلام ٣٦/٨٠.

(٥) سورة الممتحنة: من الآية ١٠.

مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾[١] وما ورد من الروايات.

وأما بالنسبة للاستجمار فهو لا يغني في البول لأنه(لا يجزي من البول إلا الماء) كما في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام. نعم هو يكفي، والخرق والورق في الغائط وقد جمعت الحكمين صحيحة زرارة (يجزيك من الاستنجاء) أي تطهير موضع الغائط (ثلاثة أحجار، بذلك جرت السنة من رسول الله صلى الله عليه وآله، أما البول فإنه لا بد من غسله)[٢].

ولا نريد تتبع بقية ما ذكره في البداية والنهاية، فإنه يخرج الحديث عن مساره.

الشريف وعدم الاحتجاج بخبر الواحد

نعم كان الشريف المرتضى من القائلين بعدم العمل بأخبار الآحاد، حيث أنها لا تفيد علما ولا توجب عملا. وقد تعرض لذلك في كتابه الأصولي: الذريعة، واستدل عليه وناقش القائلين بالعمل بها.

ورأى أنه ليس مستحيلا من ناحية العقل أن يتعبد الله سبحانه وتعالى عباده، بالعمل بخبر الواحد الثقة، في أمور العبادة، فتثبت به العبادات المفروضة، لكن هذا لم يحصل في رأيه، خصوصا مع انطواء ذلك على مفسدة احتمال كذب الراوي وهو احتمال قائم مما يوقع المكلفين في مفاسد. إضافة إلى أن خبر الواحد لا يصنع علما ولا ينتج قطعا.

نعم لو كانت هناك قرائن على صحة الخبر وصدوره أمكن العمل على طبقه.

وهو في عدم العمل بخبر الواحد موافق لأستاذه الشيخ المفيد محمد بن النعمان، لا سيما في أمور العقائد.

وإن كان من تأخر عن المرتضى، بدءا بتلميذه شيخ الطائفة الطوسي، فصاعدا قد بدؤوا بالتنظير للعمل بخبر الواحد، وتشييد الاحتجاج عليه، وبالتالي به، وجرت سيرة العلماء فيما بعد على التعامل مع هذه القضية كقضية مسلَّمة حتى أصبح مسلك الشريف المرتضى مهجورا في مقابل العمل بخبر الواحد الذي صار مشهورا في النظرية والتطبيق.

---

(١) سورة المائدة: من الآية ٥.

(٢) وسائل الشيعة ١/٣١٥.

ويعد الشريف المرتضى من الشعراء المبرزين، والناثرين المترسلين في نفس الوقت، فله في المضمار الأول صولات وجولات يشهد عليها ديوانه، وقد تنوعت ما بين الحماسة والافتخار، وبين الزهد والدعوة إلى التقوى، وبينهما محيط واسع من القصائد في أبواب مختلفة، كالرثاء والمدح، والوصف والغزل، وهو وإن لم يبلغ شهرة أخيه الشريف الرضي في الشعر، إلا أنه لم يكن قاصر الباع ولكن غلب عليه الإنشغال بالعلم والتحقيق والتأليف فغطى ذلك الجانب.

كما كان له منزلة مهمة في أيام البويهيين، حيث تقلد نقابة الطالبيين الأشراف، وكان نافذ الكلمة في حكام عصره.

فصلوات الله[1] على هذا العلم العيلم والبحر الزخار، وحشره الله مع سادته من أهل بيت محمد المصطفى عليهم آلاف التحية والثناء.

(١) كان الخواجه نصير الدين الطوسي إذا ذكر الشريف المرتضى قال: صلى الله عليه. فكان إذا لحظ استغراب الحاضرين، أجاب فورا: كيف لا يُصلى على المرتضى؟ ولا يخفى حسن الانتقال فيه!

شيخ الطائفة

الشيخ محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ـ ٤٦٠هـ

تعبر الألقاب مع صدقيتها عن المنزلة والموقع الذي يمثله صاحب اللقب والصفة بالنسبة إلى من منحه ذلك اللقب، فإنه لا يمكن أن يُعرّف الشخص في منزلته العلمية أو السياسية من خلال مقال في كل ذكر له. لهذا جاءت فكرة الالقاب مشيرة إلى الموقع الذي يحتله ذلك الشخص.

وقد تمنح الألقاب لاعتبارات سياسية مؤقتة وهذه لا تلبث ان تزول بمجرد زوال تلك الاعتبارات والرسميات. وهناك ألقاب يفرضها موقع الشخص من غير أن تمنح له باعتبار رسمي أو سلطوي، وهذه تزول الرئاسات والاعتبارات بل والدول وتظل ثابتة لأنها تحكي عن واقع لا يتغير.

إن منصب المفتي، وقاضي القضاة في الدول المسلمة المختلفة، لا يعني شيئا إلا حين يكون صاحبه مرضيا عليه من قبل الدولة فتمنحه هذا اللقب، وهي قادرة على تجريده منه متى شاءت وهو بهذا الاعتبار الرسمي والتلقيب الحكومي يصبح ذا قيمة، ومع عدمه لا يكون له ميزة! ولعل ما نقل عن ربيعة الرأي وهو أستاذ مالك يشير إلى هذا المعنى، فقد قيل إنه رآه أحدهم وقد تقنع بردائه في زاوية من المسجد وهو وحيد، بينما كان قد رأى تلميذه مالك وقد حف به الحشم والخدم وسار وراءه التلاميذ، فسأله عن ذلك متعجبا من حال الأستاذ والتلميذ! فقال له: يا بني درهم دولة خير من قنطار علم!!

في المقابل فإن من يترقى في العلم، ويحصل على اعتراف من أتباعه أو معاصريه بل من مناوئيه في تقدمه في فنه وعلمه، فإن هذا الاعتراف وذلك اللقب لا يتغير بتغير الزمان ولا بإرادة الحكام

لأنه لم يمنح من قبلهم وبواسطتهم!!

شيخ الطائفة (الإمامية) اللقب الرسمي الذي عرف به الشيخ محمد بن الحسن الطوسي المولود سنة ٣٨٥هـ في طوس من نواحي خراسان، وظل هذا اللقب علامة فارقة له إلى يومنا هذا بحيث إذا أطلق لا ينصرف إلا إليه، بالرغم من مجيء أعلام بعده ربما فاقوه في بعض الجهات العلمية.

ولم تكن حيازة هذا اللقب اعتباطا، في ظل وجود هذا العدد الهائل من العلماء والفقهاء من أساتذته وتلامذته، وسواهم من ذلك الزمان إلى يومنا هذا حيث يمر ما يقارب العشرة قرون مليئة بالمحققين المجتهدين والمتتبعين. وما ذلك إلا بسبب ما توفر عليه من علم كثير في مختلف الجوانب كما سيأتي، أفرغ جانبا كبيرا منه في كتب طبعت في زمانه وبعده.

هلما عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة نتعرف على (شيخ الطائفة).

كانت البداية في سنة ٣٨١هـ حينما ولد الحسن بن محمد في طوس من نواحي خراسان، ليتوجه بعد سنوات إلى دراسة مقدمات العلوم الدينية في أجواء بلده وضمن مدرسي تلك المنطقة وبعد أن أتقنها وفي عام ٤٠٨هـ وصل إلى بغداد حيث كانت حاضرة العلم الكبرى زمان الشيخ المفيد محمد بن النعمان العكبري ﷺ والذي كان زعيم الشيعة في وقته، وبقي فيها يدرس على يد الشيخ المفيد، وقد بدأ بشرح كتاب شيخه المفيد (المقنعة في الفقه) وأكمله بعد وفاته مما عرف بـ (تهذيب الأحكام) ويأتي الحديث عنه.

بعد وفاة شيخه المفيد سنة (٤١٣)هـ انتقل إلى درس الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي الذي أولاه عناية خاصة لما رأى من تفوقه ونبوغه، إلى أن توفي المرتضى سنة (٤٣٦)هـ.

بعد وفاة الشريف المرتضى صار الشيخ الطوسي محمد بن الحسن أبرز علماء الشيعة، بل والسنة أيضا في تلك الفترة، وفاقهم جميعا حتى أن الخليفة العباسي آنئذ وهو القائم بأمر الله عهد إليه بكرسي الكلام، وهو المنصب الذي لا يعطى إلا لمن أذعن الآخرون لعلمه وفضله. واستمر الحال هكذا (١١) سنة، أي إلى سنة (٤٤٧)هـ حين دخل طغرل بك قائد السلاجقة إلى بغداد لتبدأ فترة الظلمات العلمية فيها.

لقد كانت بغداد تعيش في الفترة السابقة على السلاجقة، أيام البويهيين الذي وإن تم الاختلاف في مذهبهم وأنهم هل كانوا زيدية أو إمامية كما هو الراجح إلا أن هناك اتفاقا على أن أجواء الحرية الفكرية والعلمية كانت سائدة، ولا سيما أيام وزارة الصاحب اسماعيل بن عباد، الشاعر المتميز والأديب المتفوق، إلى درجة أنه استدعى القاضي عبد الجبار المعتزلي (الشافعي المذهب) ليكون قاضيا على الري، وقد الف كتابه المغني في التوحيد والعدل، وجعل جزأه الأخير في الإمامة وأورد فيها كل الحجج التي يؤمن بها في عدم إمامة الأئمة الاثني عشر، وفي تثبيت ما يعتقده من خلافة الخلفاء. كل هذا وهو قاض لوزير شيعي هو الصاحب بن عباد وفي دولة شيعية .كما ذكرنا.

الأمر الذي دعا الشريف المرتضى إلى تأليف كتابه (الشافي في الإمامة) ردا على كتاب القاضي عبد الجبار المعتزلي.

هذا الجو من الحرية الفكرية والذي تميزت به فترة بني بويه من سيطرتهم على بغداد وحكومتهم سنة ٣٢١هـ إلى انتهاء فترتهم سنة ٤٤٧هـ على يد السلاجقة، تغير تماما بدخول العسكريين الأتراك السلاجقة، حيث صودرت الحرية العلمية لصالح تطرف الغوغاء، واستبدل البحث العلمي بالهجوم على المكتبات وحرقها، وضمن هذه الأجواء أحرقت مكتبة الشيخ الطوسي وهوجمت داره سنة ٤٤٩هـ وأراد أولئك الغوغاء قتله!

هذا الواقع الجديد وعلائم الفتنة المذهبية التي كان يسعرها الطائفيون من جهة ويتجاوب معها العسكر السلاجقة من جهة أخرى، حدا بشيخ الطائفة الطوسي درءا للفتنة وسد لباب الحرب المذهبية أن يهاجر منتقلا إلى جوار مرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵇ في النجف الأشرف، ليلقي رحله هناك، ولينتقل بانتقاله إليها أهل العلم وطلاب المعرفة والتحقيق فكان أن بدأت النجف عصرا جديدا مع الحوزة العلمية التي تأسست بانتقال شيخ الطائفة إليها.

ويبدو أن عاصفة التعصب لم تكن بين السنة والشيعة فقط بل حتى بين السُّنة أنفسهم، فإن التطرف لا يعرف الحدود القريبة والبعيدة. وفي ما نقله ابن كثير في البداية والنهاية إشارة واضحة إلى هذا الأمر فقد قال في حوادث سنة ٤٤٧هـ.: وفيها وقعت الفتنة بين السنة والرافضة على العادة، فاقتتلوا قتالا مستمرا، ولا تمكن الدولة أن يحجزوا بين الفريقين. وفيها وقعت الفتنة بين الأشاعرة والحنابلة، فقوي جانب الحنابلة قوة عظيمة، بحيث إنه كان ليس لأحد من الأشاعرة أن يشهد الجمعة ولا الجماعات.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وأربعمائة. وفيها ألزم الروافض بترك الاذان بحي على خير العمل، وأمروا أن ينادي مؤذنهم في أذان الصبح، وبعد حي على الفلاح: الصلاة خير من النوم، مرتين، وأزيل ما كان على أبواب المساجد ومساجدهم من كتابة: محمد وعلي خير البشر، ودخل المنشدون من باب البصرة إلى باب الكرخ، ينشدون بالقصائد التي فيها مدح الصحابة.. وأمر رئيس الرؤساء الوالي بقتل أبي عبد الله بن الجلاب شيخ الروافض، لما كان تظاهر به من الرفض والغلو فيه، فقتل على باب دكانه، وهرب أبو جعفر الطوسي ونهبت داره [1].

الحوزة العلمية في جوار باب مدينة العلم:

يقول الشاعر في حق مخالفه:

أردت مساءتي فأجرت مسرتي   وقد يحسن الانسان من حيث لا يدري

لو كان الذين طاردوا شيخ الطائفة الطوسي، واضطروه إلى الخروج من بغداد إلى النجف يعلمون ما الذي سينفتح على يده من الإنجاز لتركوا مطاردته وتوددوا إليه أن يبقى في بغداد!! فالشيخ الذي خرج إلى النجف (خائفا يترقب) أصبح محور الحركة العلمية، وكما الفراشات تنجذب إلى الضوء المشع، فقد استقطب الشيخ الطوسي أهل العلم ليس من بغداد والذين كانوا قد حضروا درسه، بل سائر طلاب العلوم من أطراف النجف ممن لم يسبق لهم حضور عنده.

وبالرغم من أن الفترة التي بقي فيها شيخ الطائفة في النجف كانت قصيرة (١١) سنة إلا أنها كانت حافلة بالبركة بما يكفي لكي تكون بداية قوية لحوزة علمية كبيرة ومؤثرة. وفيها أكمل الشيخ من كتبه ما كان بدأه في بغداد.

لقد كان الشيخ الطوسي رضوان الله عليه، عالما موسوعيا بل (عالَم) كبير من المعارف المتنوعة والعلوم المختلفة، فما من باب من أبواب العلم السائد يومئذ مما فيه منفعة، ومحل بحث إلا وطرقه وأبدى رأيا فيه، حتى ليقف الناظر متحيرا مدهوشا، كيف استطاع هذا الشيخ أن يؤلف كل هذه الكتب مع ما أحاط به من الظروف السياسية الضاغطة؟

(١) ابن كثير- البداية والنهاية ١٢. ٨٣.

ولم يكن عمله في كتبه جمعا، وتصنيفا، بل كان الغالب فيه أنه ابتكار وإبداء نظر.

وهذا الأمر جعله يهيمن على الساحة العلمية ليس في زمانه وعلى تلامذته المباشرين فحسب بل استمر إلى ما بعد وفاته قرابة قرن من الزمان، إلى أيام الفقيه المجدد ابن ادريس الحلي، حتى لقد خيف من أن هذه السيطرة العلمية سيكون لها آثار سلبية على الاجتهاد[١]، وإبداء النظر إذ كان الجيل الذي جاء بعد الشيخ يتهيب أن يأتي بآراء مخالفة لآراء شيخ الطائفة، أو يبدي مخالفة لنظرياته.

وبمرور على كتبه سيتبين أنها من الناحية الكمية كثيرة العدد حيث تجاوزت (٤٥) كتابا كما أشار إليه أكثر مترجميه[٢].

وسنأتي على ذكر أكثر تلك الكتب بحسب مواضيعها، ليتبين للقارئ العزيز موسوعية هذا العالم الجليل:

ففي تفسير القرآن وعلومه: كان كتاب التبيان في تفسير القرآن، والمسائل الدمشقية في تفسير القرآن: وهي اثنتي عشرة مسألة، والمسائل الرجبية في تفسير بعض آيات القرآن،

وفي الحديث: كان كتاب تهذيب الأحكام، والاستبصار فيما اختلف من الأخبار

وفي الفقه: مسائل الخلاف في الأحكام، النهاية، والمبسوط، مسألة في وجوب الجزية على اليهود والمنتمين إلى الجبابرة. مسألة في تحريم الفقاع. مسائل ابن البراج. المسائل الجنبلائية في الفقه. المسائل الحائرية في الفقه (٣٠٠ مسألة). المسائل الحلبية في الفقه، ومناسك الحج في مجرد العمل، الايجاز في الفرائض، الاقتصاد الهادي إلى سبيل الرشاد

وفي العقائد والكلام: تلخيص كتاب الشافي في الإمامة: لعلم الهدى السيد المرتضى، المفصح في الإمامة، وأصول العقائد، رياضة العقول، مقدمة في علم الكلام، وكتاب

(١) قال المحقق الطهراني آقا بزرك في مقدمة كتاب التبيان: مضت على علماء الشيعة سنون متطاولة وأجيال متعاقبة ولم يكن من الهين على أحد منهم ان يعدو نظريات شيخ الطائفة في الفتاوى، وكانوا يعدون أحاديثه أصلا مسلما، ويكتفون بها، و يعدون التأليف في قبالها، واصدار الفتوى مع وجودها تجاسرا على الشيخ وإهانة له، واستمرت الحال على ذلك حتى عصر الشيخ ابن إدريس فكان – أعلى الله مقامه – يسميهم بالمقلدة، وهو أول من خالف بعض آراء الشيخ وفتاواه وفتح باب الرد على نظرياته، ومع ذلك فقد بقوا على تلك الحال حتى ان المحقق وابن أخته العلامة الحلي ومن عاصرهما بقوا لا يعدُون رأي شيخ الطائفة.

(٢) أنظر آقا بزرك الطهراني ي مقدمة كتاب التبيان، و الشيخ مجتبى العراقي في مقدمة كتاب الخلاف، والشيخ حسن السعيد في مقدمة كتاب الاقتصاد.

الغيبة في المهدي المنتظر، وما لايسع المكلف الاخلال به، الفرق بين النبي والإمام، النقض على ابن شاذان (الأشعري) في مسألة الغار، المسائل الرازية في قضايا الوعيد، ما يعلل وما لا يعلل،

وفي الأصول: العدة في الأصول، والعمل بخبر الواحد وحجيته، شرح الشرح في الأصول، تمهيد الأصول في شرح جمل العلم والعمل،

وفي الرجال: اختيار معرفة الناقلين، ورجال الشيخ الطوسي، والفهرست

وفي السيرة والتاريخ: مقتل الإمام الحسين عليه السلام، مختصر أخبار المختار بن أبي عبيد الثقفي،

في الأدعية والزيارات: مصباح المتهجد، مختصر عمل يوم وليلة، مخنصر المصباح، هداية المسترشد وبصيرة المتعبد.

متفرقات: الأمالي، أنس الوحيد، المسائل الإلياسية: وهي مائة مسألة في فنون مختلفة.

نظرة في بعض كتب شيخ الطائفة:

يشكل كتابا الشيخ الطوسي: تهذيب الأحكام والاستبصار، نصف الكتب الأربعة الأساسية التي يعتمد عليها الفقهاء في استنباط الأحكام. فلنلق نظرة على كل منهما:

تهذيب الأحكام: هو أول كتاب استدلالي في الفقه في دورة فقهية كاملة، وهو عبارة عن شرح كتاب استاذه الشيخ المفيد رحمه الله يشتمل على (١٣٥٩٠) رواية، من الطهارة إلى الديات، وقد بدأ به في أيام حياة أستاذه عندما كان عمره ٢٦ سنة كما عن المحقق الطهراني.

وكما قلنا فهو أول كتاب فقهي استدلالي، فإن من سبقه من المؤلفين كالكليني والصدوق رحمهما الله كانا قد جمعا الأحاديث، ورتباها على أساس العناوين والفصول، ولم يتجاوزوا عبارة الأحاديث سواء في الأصول الاعتقادية أو الفروع الفقهية، والشيخ ابن أبي عقيل العماني وإن كان أول من ابتكر طرقا في الاستدلال الفقهي إلا أنه لم يصل إلينا بل ولا لمن قبلنا كتبه الاستدلالية حتى يلاحظ تأثيرها في الساحة العلمية، والشيخ المفيد رحمه الله بالرغم من أنه كان كثير التصنيف (صنف حوالي ٢٠٠ كتابا ورسالة) إلا أنه

لم يكتب دورة كاملة في الفقه الاستدلالي. ونفس الكلام يجري في حق استاذه الشريف المرتضى عليه الرحمة.

وقد حفظ شيخ الطائفة بهذا الكتاب ميراثا عظيما من الروايات، التي اخذها عن مصادرها الأصلية (الأصول الأربعمائة وغيرها) والتي كانت تحتوي عليها مكتبة سابور البويهي التي دمرها السلاجقة والمتعصبون، ومكتبة الشريف المرتضى استاذه التي لم تتعد ما جرى على سابقتها. فأصبحنا ببركة التهذيب في غنى عن الرجوع إلى تلك الأصول.

وأما الاستبصار فيما اختلف من الأخبار: فهو أول محاولة اجتهادية بهذا الحجم حيث يشتمل على كل أبواب الفقه لحل ما يتراءى من المعارضة والمناقضة بين أخبار أهل البيت ورواياتهم. وقد أورد فيه (٥٥١١) رواية. فقد التفت شيخ الطائفة إلى أن هناك روايات يعارض ظاهرها روايات أخر في أبواب مختلفة من الفقه، فكان أن قام بمحاولة التوفيق بينها وحل ما ظاهره المعارضة والمناقضة بينها.

وأما كتب الفقه: فأولها كتاب الخلاف: وهو كتاب في الفقه الاستدلالي المقارن بين المذاهب الإسلامية الأربعة بل وغيرها بالاضافة إلى مذهب الإمامية، وهو بعد كتاب الانتصار لأستاذه الشريف المرتضى يعد من أهم الكتب في هذا المجال، وهو أكثر استيعابا للأدلة، وأكثر تفريعا من الانتصار. وقد كان المرجع الديني السيد البروجردي أيام زعامته الدينية ومكثه في قم يصر على مراجعة الطلبة له، وحتى أنه جدد طباعته، وأمر بالاهتمام بتحقيقه، وكان يستشهد به في درسه ويرجع إليه.

وثانيها: كتاب المبسوط في الفقه: وهو أول كتاب في الفقه الإمامي يحتوي على تفريعات مفصلة (يقع في ٨ مجلدات بحسب الطبع الحديث) في كل الأبواب الفقهية، ويعد أول إنتاج في هذا المجال يرد فيه عمليا على دعوى المخالفين بأن الإمامية إنما هم أهل أخبار وحشو وليسوا أهل اجتهاد ولا قدرة لهم على التفريع والاستنباط، وقد أشار الشيخ الطوسي إلى أهمية هذا الكتاب في مقدمته حيث قال: و هذا الكتاب إذا سهل الله تعالى إتمامه يكون كتابا لا نظير له لا في كتب أصحابنا ولا في كتب المخالفين لأني إلى الآن ما عرفت لأحد من الفقهاء كتاب واحدا يشتمل على الأصول والفروع مستوفيا مذهبنا بل كتبهم وإن كانت كثيرة فليس تشتمل عليهما كتاب واحد، و أما أصحابنا فليس لهم في هذا المعنى ما يشار إليه بل لهم مختصرات، وأوفى ما عمل في هذا المعنى

كتابنا النهاية وهو على ما قلت فيه.

وثالثها: كتاب النهاية في مجرد الفتاوى: وهو أشبه بالرسالة العملية المعاصرة في الفقه حيث جرد الشيخ الأحكام من أسانيدها، وحررها إلى حد ما من اللغة الأخبارية التي وردت بها وجعلها في متناول المكلفين، وقد كان هذا الكتاب محور الدراسة العلمية في الحوزات إلى أن ظهر كتاب شرائع الإسلام للمحقق الحلي فأخلى الأول مكانه للشرائع!

ويعد كتاب التبيان في تفسير القرآن: عملا استثنائيا في التفسير، حتى أنه بسط هيمنته وسيطرته على الجو العام بعد الشيخ إلى حد أننا نلاحظ شدة تأثر الشيخ الطبرسي صاحب مجمع البيان به، إلى الدرجة التي يمكن عد مجمع البيان تلخيصا وترتيبا للتبيان! كما سيأتي الحديث عن مجمع البيان عند ترجمة مؤلفه.

وإذا كان إنتاج الشيخ الطوسي الحديثي يعد نصف إنتاج الكتب الأربعة الأصلية، فإن إنتاجه في الجانب الرجالي لا يقل أهمية، فمن بين (خمسة) أصول رجالية مهمة أو (ثمانية) مع إضافة من تأخر عن الشيخ، تشكل كتب الشيخ (اختيار معرفة الرجال أصله للشيخ أبي عمرو الكشي وهو مفقود، والاختيار الباقي للشيخ الطوسي. ورجال الشيخ -المعروف بالأبواب سابقا- والفهرست) كتبا أساسية لا يستغني الباحث الرجالي عنها.

تلامذته:

لن نتحدث عن تلامذة الشيخ الطوسي أو نذكر أسماءهم، فكل الجيل الذي جاء بعده في النجف الأشرف إلى مئة سنة يعدون من تلامذة مدرسته، وطلاب علمه.

وفاة الشيخ:

في سنة ٤٦٠هـ توفي شيخ الطائفة في النجف الأشرف، ودفن في منزله، الذي أصبح فيما بعد مسجدا باقيا إلى اليوم، باسمه حيث يقع في جهة باب مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام المعاكس لجهة القبلة.

الطبرسي وأرضية التقارب المذهبي

أبو علي الفضل بن الحسن

ت ٥٤٨هـ

لما كان القرآن الكريم فيه تبيان كل شيء تحتاجه الأمة في طريقها إلى الفلاح الدنيوي والفوز الأخروي، فلا ريب أن فيه أيضا علائم نور ومنارات ارشاد تشير إلى طريق الوحدة والتآلف بين أبنائها.

ولهذا فقد اعتبر القرآن الكريم الأمة واحدة في خطابه وتعامل معها على هذا الأساس ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[١]، وبالرغم من إدراك التنوع الموجود فيها مذهبيا وعقديا وفقهيا إلا أنه تعامل معها ككتلة واحدة، ذات علاقات واحدة ومقومات متماثلة، ولذلك منع عن التنازع والتشاحن، فإنه يذهب بالقوة والامكانات هباءا ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٢]. بل اعتبرهم إخوة، أي لم يكتف ببيان نسبة المجموع لبعضه، بل حتى نسبة البعض للبعض والأفراد للأفراد، فقال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣].

فمن مقومات الوحدة بين أبناء الأمة، وحدة العقيدة الأساسية: الاعتقاد بالله الواحد الأحد، والاعتقاد بنبوة المصطفى محمد ﷺ، والاعتقاد بالبعث والنشور يوم القيامة. ومن تلك المقومات أيضا: وحدة العبادات، فالجميع يتوجه إلى جهة واحدة في صلواته اليومية عابدا خاشعا، ويصوم شهر رمضان في كل سنة، ويحج إلى بيت الله الحرام في وقت معين وبمناسك خاصة. وهكذا سائر العبادات.

ومنها أيضا وحدة النظام الأخلاقي، فلا تجد توجيها أخلاقيا

(١) سورة الأنبياء: ٩٢

(٢) سورة الأنفال: من الآية ٤٦

(٣) سورة الحجرات: ١٠

عند فريق خاص يعارضه التوجيه الأخلاقي عند الفريق الآخر، وإنما الكل يعتقد بمنظومة أخلاقية واحدة.

والذي يحمي كل تلك المقومات هو القرآن الكريم، كلام الله سبحانه وتعالى المحفوظ بتمامه وكماله لا يأتيه الباطل (من نقص أو زيادة) من بين يديه ولا من خلفه، الذي تعهد الله عز وجل بحفظه فقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١).

والمهم في هذا الشأن أن هذا الحافظ للوحدة، لا يزال ولن يزال قائما، يتلى آناء الليل وأطراف النهار، ويشكل المرجعية التامة للمسلمين جميعا.

هذا في ذات حافظ الوحدة، وأرضية التقارب والتواصل، لكن المسألة التي لا تقل أهمية هي فهم آيات القرآن الكريم، والصورة التي يكونها أبناء المسلمين عن بصائره وتعاليمه.

ذلك أنه لا يكفي أن تكون الحقيقة موجودة، وإنما ينبغي أن يتصور المسلمون تلك الحقيقة، ويفهمونها بشكلها الواقعي. فقد (تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم).

قد يتخذ بعض (المرضى) من آيات القرآن الكريم وصفة للتفرقة والتنازع والتشتت، بينما يرى فيها من ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ خارطة طريق للوحدة والتكامل والتواصل. وهذا ما صنعه العالم الجليل أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي في تفسيره (بل تفاسيره) للقرآن الكريم، فلننظر إلى محطات من قطار حياته المباركة.

التعريف به:

هناك عدة أعلام يلقبون بالطبرسي وربما حصل الخلط عند القارئ العزيز بينهم، فلا بد من التفريق بينه وبين ولده الحسن بن الفضل وهو عالم جليل، اشتهر بكتابه (مكارم الأخلاق) وهو من الكتب الرائجة بين الناس في هذا المجال، حيث يشتمل على جملة من مكارم أخلاق النبي محمد ﷺ، في لباسه وطعامه وشرابه، وهيئته الشخصية، وعلى جملة من المستحبات في هذا المجال والروايات الواردة فيها عن الأئمة عليهم السلام. وربما ذكر بعضهم أنه توفي سنة ٥٤٨هـ، والظاهر أنهم خلطوا بين سنة وفاته ووفاة أبيه موضوع

(١) سورة الحِجْر: ٩

ترجمتنا صاحب التفسير.

والشخص الآخر المعروف أيضا بالطبرسي هو أحمد بن علي بن أبي طالب صاحب كتاب الاحتجاج وهو الذي يشتمل على مناظرات عقائدية، وقد اشتبه الأمر على غير واحد من الأعلام حين نسبوا الاحتجاج لصاحب تفسير مجمع البيان.

وهؤلاء ينسبون إلى (طبرستان) والنسبة إليها طبرسي، بطاء مفتوحة وباء كذلك وراء مسكنة. وقد ينسب إليها فيقال طبري.

أساتذته:

أشهر أساتذته كان الشيخ الحسن (أبا علي) ابن شيخ الطائفة الطوسي، الذي عرف بـ (المفيد الثاني) والذي كان من تلامذة الشريف المرتضى وأبيه شيخ الطائفة، ويعد من أعيان الفقهاء وله ذكر كثير في الكتب الفقهية الاستدلالية. ولمكانه في العلم والمعرفة لقب بالمفيد الثاني توفي سنة ٥١١هـ.

ومع أنه لم يدرك شيخ الطائفة الطوسي درسا وتعلما حيث توفي سنة (٤٦٠هـ)، إلا أن من الواضح تأثره الكبير بمسلكه وآرائه، سواء تلك التي أخذها عن ابن شيخ الطائفة استاذه، والتي كان كثير منها متأثرا بفكر الشيخ الطوسي، مثلما سبق وأن ذكرنا عن هيمنة الشيخ الطوسي على الحالة العلمية بعده إلى قرن من الزمان أو أكثر.

ويظهر هذا أيضا في كتاب الشيخ الطبرسي (مجمع البيان لعلوم القرآن) حيث يعد كتاب المجمع الصورة المرتبة والمنقحة لكتاب (التبيان) في تفسير القرآن لشيخ الطائفة الطوسي. كما سيأتي الحديث.

توجهه القرآني:

إدراك الشيخ أبي علي الطبرسي لأهمية القرآن الكريم في تكريس وحدة الأمة، وتوحيد منهجها الفكري، جعله يكرس أكثر جهده في (تفسير) القرآن وشرح مقاصده وغاياته، بأساليب مختلفة، فمنها ما هو مفصل كمجمع البيان، ومنها ما هو مختصر نسبيا يجمع بين ما ذكره في المجمع وفي الكاف الشاف كجوامع الجامع.

ومنها ما هو ترتيب لتفاسير أخر، من غير المدرسة الإمامية، وإضافة رأي الإمامية

إليه كعمله في كتاب (الكاف الشاف) حيث أنه اختصر كتاب الكشاف للقاضي جار الله الزمخشري [1] وأضاف إليه مختصر ملاحظاته وآرائه من مجمع البيان.

وينبغي أن نقف هنا أمام ملاحظة وهي أن الكثير من العلماء كتبوا تفاسير للقرآن، منها ما هو روائي، ومنها ما هو بلاغي ولغوي، ومنها ما هو قصصي، وهكذا. ولكن المهم هو الرسالة التي يحملها المفسر من خلال تفسيره للقرآن، وماذا يريد أن يقول لقارئ التفسير. وهذا هو الذي ميز الشيخ الطبرسي عن سائر المفسرين، حيث أنه قام بتهيئة الأرضية اللازمة للتقارب المذهبي بل للوحدة بين المسلمين، على مستوى المضمون والأسلوب، فهو على مستوى المضمون كان يأتي بالأفكار المتوافق عليها ويهجر الأخرى الشاذة والنادرة، وعلى مستوى الأسلوب كان يستشهد بأقوال أئمة المذاهب، والعلماء سواء أولئك الذين يتفقون معه في المذهب أو أولئك المختلفين معه، وسواء كان يقبل أقوالهم تلك أو يردها باحترام كامل.

وتميز مع ذلك تفسيره الكبير (مجمع البيان لعلوم القرآن) بميزات متعددة نشير إلى بعضها مستفيدين مما ذكره باحثون آخرون في حياة هذا العالم، وآثاره.

١. فمن ميزاته النفسية الاعتراف بفضل الغير: فهو يذكر في أول تفسير مجمع البيان فضل شيخ الطائفة في تفسيره (التبيان)، فإنه بعد أن عرض إلى أن غالب أصحابنا كانت تفاسيرهم مختصرات، «إلا ما جمعه الشيخ الأجل السعيد، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، قدس الله روحه، من كتاب (التبيان) فإنه الكتاب الذي يقتبس منه ضياء الحق، ويلوح عليه رواة الصدق، قد تضمن من المعاني الأسرار البديعة، واحتضن من الألفاظ اللغة الوسيعة، ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها، ولا بتنميقها دون تحقيقها، وهو القدوة أستضئ بأنواره، وأطأ مواقع آثاره»[2].

ولم تكن هذه الصفة صدفة في هذا الكتاب، ولا بدعا في هذا المورد، بل هي ملكة

(١) الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفى فيها. أشهر كتبه (الكشاف - ط) في تفسير القرآن، و (أساس البلاغة - ط) و (المفصل - ط) ومن كتبه (المقامات - ط) و (مقدمة الأدب - خ) في اللغة، و (الفائق - ط) في غريب الحديث، و (المستقصى - ط) في الأمثال، مجلدان، و (رؤوس المسائل - خ) وكان معتزلي المذهب، مجاهرا، شديد الانكار على المتصوفة، أكثر من التشنيع عليهم في الكشاف وغيره. عن الأعلام - خير الدين الزركلي - ج ٧ - ص ١٧٨

(٢) الطبرسي، تفسير مجمع البيان ١. ٣٣

تظهر في سائر الموارد. وإذا كان هذا في مثل والد استاذه قد يبدو طبيعيا، فإن الشيء الاستثنائي هو ما ذكره عن الشيخ جار الله الزمخشري، وهو المعتزلي في العقائد والحنفي في الفقه، فهو يختلف عن الطبرسي في كلا الجهتين، ومع ذلك فإنه يذكر عنه الفضل والعلم، وينعته بأفضل النعوت، وأنه كان من أسباب تأليفه لكتاب الجوامع فقد قال في مقدمة كتابه جوامع الجامع: «ومما حداني إليه وحثني وبعثني عليه، أن خطر ببالي وهجس بضميري، بل ألقي في روعي محبة الاستمداد من كلام جار الله العلامة ولطائفه، فإن لألفاظه لذة الجدة ورونق الحداثة، مقتصرا فيه على إيراد المعنى البحت، والإشارة إلى مواضع النكت، بالعبارات الموجزة والإيماءات المعجزة، مما يناسب الحق والحقيقة ويطابق الطريقة المستقيمة»[١].

وتراه عندما يتحدث عن كتاب الكشاف لجار الله الزمخشري، يصفه بأنه اجتمع فيه من بدائع المعاني وروائع الألفاظ ما لا يلقى مثله في كتاب [٢]!!

٢. جاء مجمع البيان مع اختصاره من حيث عدد الصفحات بالقياس إلى غيره جامعا لعلوم القرآن التي يحتاجها من يقرأ التفسير فنحن نرى أنه «بينما انصرف الزجاج إلى اللغة في تفسيره، و الثعلبي إلى الحكايات النادرة الصحيحة والموهومة، والقرطبي الى الخلافيات الفقهية والرازي إلى العلوم العقلية وشحنه بأقوالهم، جاء المجمع جامعا لمختلف الأمور، ولم يقسر القارئ على رأي بل عرض الاقوال عليه حتى يختار ما هو صحيح».

٣. ولهذا فقد «كان غاية في الاتقان، وحسن الترتيب والتبويب، وجمع إلى البحث عن اللغة والاعراب، بيان النظم، وسبب النزول، ثم فصل المعنى تفصيلا، لم يكن فيه إطناب ممل، ولا اختصار مخل، وهو بذلك من أحسن كتب التفسير تنسيقا وتأليفا، ومع ذلك فهو يورد الأقوال المختلفة، غير متعرض لنقد، أو اعتراض، بل تراه يسرد الأقوال، ويترك الحكم فيها للمطالع، ليشحذ ذهنه باختيار ما يراه

(١) الطبرسي، تفسير جوامع الجامع ١. ٥٠

(٢) وشتان بين هذا الأسلوب و الأسلوب الذي يتبعه بعض من عاصرناهم! فقد وقع في يدي كتاب بعنوان: المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف للزمخشري، وقد قدم أحد الدكاترة مقدمة، يبين فيها أن غرض الكتاب هو الرد على الزمخشري المعتزلي، وعلى ابن المنير الأشعري الذي (عالج الداء بالداء، فازداد المرض شبهة وشكا، فقد رد على البدعة ببدعة أخرى.. وأما المؤلف فقد قدم للكتاب بمقدمة تحدث فيها أن الذب عن عقيدة الأمة من أعظم الجهاد في سبيل الله وأن كتابه هذا يصب في هذا الإتجاه، ويجعل الرد على باطل ذلك الكتاب كما قال أكثر إلحاحا!! هذا مع أن الزمخشري وابن المنير يصنفان ضمن الدائرة المذهبية على أهل السنة ومؤلف الكتاب المذكور يصنف على نفس الدائرة!

صوابا، ويتعود به من لم يتعود ملكة النقد، والتمحيص»[1].

باقي كتبه:

ذكروا أن للشيخ الطبرسي (٢١) كتابا، من أشهرها بعد كتب التفسير، كتابه في سيرة النبي ﷺ، وسيرة الأئمة من بعده، والذي سماه (إعلام الورى بأعلام الهدى) وهو مطبوع ويقع في مجلدين، ومن المهم الاشارة فيه إلى أن الشيخ الطبرسي لم يقف من الروايات موقف الأسير العاجز وإنما موقف العالم الناقد، فرد بعض ما هو منقول، بل ربما اشتهر من غير أصل، وناقشها نقاشا علميا لا تغلب عليه العاطفة الولائية، وإنما الدقة العلمية. فمن ذلك ما جاء في بعض الكتب عن أن المهدي المنتظر إذا ظهر قتل حتى تجري الدماء إلى الركب وهدم المساجد وتغيير المحاريب وما شابه مما يشنع به مخالفو المذهب.فهو يجيب عن ذلك في سياق حديثه عن خصائص ودلائل الامام المهدي فقد ساق الاعتراض المذكور قائلا:

مسألة سابعة: قالوا: إذا حصل الاجماع على أن لا نبي بعد رسول الله ﷺ وسلم، وأنتم قد زعمتم أن القائم إذا قام لم يقبل الجزية من أهل الكتاب، وأنه يقتل من بلغ العشرين ولم يتفقه في الدين، ويأمر بهدم المساجد والمشاهد، وأنه يحكم بحكم داود عليه السلام لا يسأل عن بينة، وأشباه ذلك مما ورد في آثاركم، وهذا يكون نسخا للشريعة، وإبطالا لأحكامها، فقد أثبتم معنى النبوة وإن لم تتلفظوا باسمها، فما جوابكم عنها؟

الجواب: أنا لا نعرف ما تضمنه السؤال من أنه عليه السلام لا يقبل الجزية من أهل الكتاب، وأنه يقتل من بلغ العشرين ولم يتفقه في الدين، فإن كان ورد بذلك خبر فهو غير مقطوع به.

وأما هدم المساجد والمشاهد فقد يجوز أن يختص بهدم ما بني من ذلك على غير تقوى الله تعالى، وعلى خلاف ما أمر الله سبحانه به، وهذا مشروع قد فعله النبي ﷺ وسلم.

وأما ما روي من أنه عليه السلام يحكم بحكم داود لا يسأل عن بينة فهذا أيضا غير مقطوع به، وإن صح فتأويله: أنه يحكم بعلمه فيما يعلمه، وإذا علم الإمام أو الحاكم أمرا من الأمور فعليه أن يحكم بعلمه ولا يسأل البينة، وليس في هذا نسخ للشريعة. على أن هذا

(١) أحمد رضا في مقدمة تفسير مجمع البيان ١/٢٥.

الذي ذكروه من ترك قبول الجزية واستماع البينة، لو صح لم يكن ذلك نسخا للشريعة، لان النسخ هو ما تأخر دليله عن الحكم المنسوخ ولم يكن مصاحبا له، فأما إذا اصطحب الدليلان فلا يكون أحدهما ناسخا لصاحبه وإن كان يخالفه في الحكم، ولهذا اتفقنا على أن الله سبحانه لو قال: ألزموا السبت إلى وقت كذا، ثم لا تلزموه، أن ذلك لا يكون نسخا، لان الدليل الرافع مصاحب للدليل الموجب. وإذا صحت هذه الجملة، وكان النبي ﷺ وسلم قد أعلمنا بأن القائم من ولده يجب اتباعه وقبول أحكامه، فنحن إذا صرنا إلى ما يحكم به فينا - وإن خالف بعض الأحكام المتقدمة - غير عاملين بالنسخ، لان النسخ لا يدخل فيما يصطحب الدليل، وهذا واضح[١].

من تلامذته:

ابنه صاحب مكارم الاخلاق كما تقدمت الاشارة إليه في عنوان التعريف بالوالد، والشيخ محمد بن علي ابن شهراشوب المازاندراني صاحب مناقب آل أبي طالب والمتوفى سنة ٥٨٨هـ وقطب الدين الراوندي صاحب فقه القرآن وقصص الأنبياء المتوفى سنة ٥٧٣هـ، ومنتجب الدين علي بن بابويه صاحب فهرست الرجال.

وفاته:

توفي الشيخ الطبرسي سنة ٥٤٨هـ، ودفن في خراسان، وقد أصبح قبره اليوم على أثر التوسعة العمرانية في داخل مشهد الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

(١) الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى ٢ /٣١١

تجديد الخبير

محمد بن ادريس الحلي

٥٤٣ - ٥٩٨هـ

قد ورد في السنة عن النبي ﷺ (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[١].

وهو يشير إلى حقيقة واقعة في تاريخ العلوم في الإسلام، إذ ليس المقصود من تجديد الدين، تجديد ذات الدين، لأنه ثابت لا يتقادم ولا يتجدد، وإنما المقصود هو تجديد المعرفة الدينية، وفهم الدين.

وأوضح أنحاء ذلك التجديد في الفقه، ولذا وجدنا أن من شرح هذا الحديث وحاول أن يعين مصاديقه من المجددين كان ناظرا في الغالب إلى الفقهاء.

والدعوة إلى التجديد في الفقه تلقى قبولا ورواجا بين المثقفين والواعين، وهي دعوة حق بلا ريب، إلا أنه ينبغي التأكيد على بعض الحقائق في هذا المجال لتتضح الفكرة تماما:

١. التجديد في الفقه ينبغي أن يتم من خلال الخبراء به، المحيطين بقواعده وأصوله، والمهيمنين على (القديم) منه للانطلاق إلى الجديد. فليس من الصحيح أن يكون هذا المجال شرعة لكل وارد لكي يعمل فكره فيه بالنحو الذي يريد ويسمي ذلك تجديدا. إن أي مجال نظري وعلمي لا يمكن تطويره وتجديده إلا بواسطة الخبراء العارفين بواقعه الفعلي وتاريخه حتى يستطيعوا أن يطوروا هذا الموجود ويجددوا ذلك القديم.

(١) ورد في مصادر الحديث السنية كثيرا، فقد أورده ابو داود السجستاني في سننه، و الحاكم في المستدرك، والمتقي في كنز العمال. ونقله عنها من محدثي الشيعة النوري الطبرسي في خاتمة المستدرك.

وما نلاحظه من دعوات، بل ومحاولات، وممارسات من أشخاص باتجاه (تجديد) للفقه، وهم لم يتخصصوا فيه، هو أقرب للعبث منه إلى الجد.

بل قد يبلغ الاسفاف مداه عندما نجد بعض (الكتاب) ممن يكون لتوه قد عرف كيف يصوغ مقالة، فإذا به يجرب مقالته الأولى في الدعوة إلى تجديد الفقه، وعدم الحاجة إلى الفقه الموجود، وينتقد ما يسميه تارة بالفقه الذكوري، والفقه المتكلس و، و، ثم يرتقي منصة الحكم والفقاهة، لكي يسطّر مجموعة من الـ (يجب) ات!! ناسفا بذلك كامل التراث الفقهي الكبير، والكتب المدونة العميقة، والجهد الجبار النظري الذي بذله العلماء على مدى أحد عشر قرنا من الزمان!

٢. التجديد الذي يتحدث عنه هنا، وهو المطلوب لا يتوقف عند تغيير اللغة التي كتب بها المتن الفقهي، ولا في حذف مسائل انتفت الحاجة إليها بحسب تطور الزمان، أو في الاستدلال على مسائل جديدة لم تكن موجودة عند السابقين والأوائل، وإنما تمتد لتشمل المنهج المتبع في الاستدلال والاستنباط، وابتكار نظريات جديدة سواء في الأدلة، أو في أصل المنهج، تلك النظريات التي يتم مناقشتها والبرهنة عليها. وإثبات تقدمها وأفضليتها على سائر النظريات في الوصول بالعلم إلى مراحل متقدمة.

إننا نلاحظ أن الفقه الإمامي مر بمراحل متعددة وقد اختلف الباحثون في تحديدها باختلافهم في بدايات تلك المراحل وأبطالها إلا أن المتفق عليه هو أن كل مرحلة كانت تمثل تطورا وتغيرا بنحو ما عن المرحلة التي سبقتها، فإذا كان الشائع في زمان الكليني والصدوق ووالده الاقتصار على النصوص بألفاظها، وجمع ما تفرق منها في الأصول والكتب المختلفة، فإن المرحلة التي أعقبت ذلك والتي بلغت أوجها أيام شيخ الطائفة الطوسي في معالجة الروايات المتعارضة، واستنباط الأحكام الفرعية الكثيرة، والتأسيس لقواعد في أصول الفقه، تعد تجديدا منهجيا كبيرا بالقياس لما سبقها.

وإذا كانت هيمنة أفكار شيخ الطائفة كما سبق قد سببت حالة من الركود والتوقف الاجتهادي إلا أنها لم تدم طويلا بعدما جاء ابن ادريس ليقوم بتجديد حياة الفقه والاجتهاد فيه، وبالرغم من قصر عمره الشريف كما سيأتي إلا أن أثره كان كبيرا جدا في هذا المجال حيث فتح الباب للتجديد والنشاط العلمي والمنهجي.

وعندما ننتقل إلى زمان المقدس الأردبيلي وتلامذته نجد أنفسنا أمام تطور واضح

في طرق الاستنباط الفقهي، ونقلة واضحة في الفقه الشيعي، بل حتى عودة النشاط الأخباري على مستوى التصنيف الحديثي، وفيما بعد عودة المدرسة الأخبارية على مستوى المنهجية في الاستدلال، هو بنفسه يعد مرحلة من التطور الفكري، وإن كان البعض يراه جمودا وركودا في خط الاجتهاد، لكن من حيث أنه يقدم منهجا جديدا مخالفا للمنهج السائد فإنه يعتبر من الناحية المجردة تطورا وتحركا في الساحة العلمية.

وإذا جئنا إلى زمان ما بعد الوحيد البهبهاني الذي أرسى قواعد المدرسة الأصولية الحديثة، وثبتها بمن تخرجوا من تحت منبر درسه، حيث أصبحت هي المدرسة السائدة والشائعة إلى يومنا، فهو ينبئ عن مرحلة متميزة عن التي سبقتها، واستمر هذا حتى زمان الشيخ الأنصاري لكي يأتي بجملة من النظريات الأصولية في داخل هذه المدرسة، ما يعد تغييرا منهجيا كبيرا فيها.

وقد اختلف الباحثون في مصاديق الحديث المذكور، أولا: على أساس مذهبي، فمن هو مجدد لدى الإمامية قد لا يكون كذلك لدى مدرسة الخلفاء، وبالعكس. بل حتى في إطار المذهب، يحصل اختلاف تبعا لنظرة الباحث إلى الدور الذي قام به هذا الفقيه أو ذاك. فقد رأى الكثير من الباحثين العلامة الحلي ؒ مجددا بينما رآه الأمين الاسترابادي بخلاف ذلك.

لكن بعض الأسماء في تاريخ الشيعة العلمي، بقيت موضع تسالم بين الباحثين في أهمية دورها، فهذا ابن الأثير يتحدث عن ثقة الإسلام الكليني على أنه ممن ينطبق عليهم الحديث في المئة الثالثة، والشريف المرتضى في المئة الرابعة، وهكذا.

ولا ريب أن الفقيه صاحب السرائر، محمد بن ادريس العجلي الحلي المولود سنة ٥٤٣هـ [(١)] والمتوفى سنة ٥٩٨هـ، يعد لدى كثير من الباحثين من المجددين في الفقه، والذين خلفوا أثرا كبيرا في تاريخه العلمي. وذلك أننا لو ألقينا نظرة عامة على الوضع العلمي في زمان شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي ؒ، فإننا سنجد أن هذا الفقيه المفسر الأصولي المتكلم الرجالي، قد بسط هيمنته الفكرية على الساحة الشيعية، وقد كان ؒ غزير الانتاج في مختلف المجالات، ففي الفقه وجدنا له كتاب النهاية في الفقه المجرد، وتهذيب الأحكام في الفقه الاستدلالي الروائي، والمبسوط في تفريع الفروع الفقهية، وفي الرجال أكثر من كتاب، وفي العقائد كذلك، والتفسير والكلام. وهكذا.

(١) بناري، علي همت؛ ابن ادريس: زندكي وأنديشه (فارسي) بوستان كتاب قم ١٣٨١هـ ش.

وقد مُدّ له في عمره حتى تخرج على يديه جيل كبير من الفقهاء والمفسرين والمتكلمين، وكان هؤلاء يعرفون المستوى العلمي الراقي للشيخ ﵀، وكان هذا وغيره من الأسباب التي منعت الجيل اللاحق له من تلامذته من مناقشة آرائه ونظرياته، وكانت هذه الهيمنة الفكرية لآراء شيخ الطائفة ﵀ تهدد المجاميع العلمية لدى الطائفة لو استمرت بالتوقف والجمود الفكري، وربما انتهى باب الاجتهاد إلى الانسداد، كما حصل بالنسبة إلى سائر المذاهب الأخرى من مدرسة الخلافة، حيث أنهم لحسن ظنهم بمتقدميهم من أئمة الفقه الأربعة توقفوا عندهم، وإذا أراد أحد المتأخرين أن يجتهد فإنما يسمح له داخل إطار تلك المذاهب بالترجيح أو ما يشبهه.

وقد استمر هذا الحال إلى أكثر من قرن من الزمان تقريبا.

إلى أن جاء ابن ادريس الحلي ﵀، فقام بمحاكمة آثار الشيخ الطوسي علميا، ولم تمنعه هيبة الشيخ، واحترام ابن ادريس له في أن يفند ما لا يراه صحيحا من آرائه، معتمدا على عارضة استدلالية قوية، وقدرة على التتبع جيدة. وقد عبر البعض عن هذه الفكرة بأنه أول من فتح باب الطعن على الشيخ الطوسي ﵀، كما نجد في كلمات المحدث البحراني في كتابه اللؤلؤة قائلا: «وهذا الشيخ كان فقيها أصوليا بحتا ومجتهدا صرفا وهو أول من فتح باب الطعن على الشيخ (!) وإلا فكل من كان في عصر الشيخ أو من بعده إنما كان يحذو حذوه غالبا إلى أن انتهت النوبة إليه»[١].

وقد تحدث عن فترة التوقف تلك أو الركود كما سماها بعضهم، أكثر من درس مرحلة ما بعد الشيخ، واتفقوا في النتيجة وإن كانوا قد اختلفوا في الأسباب المؤدية إلى ذلك، مع أنهم أشاروا جميعا[٢] إلى هيمنة الشيخ الطوسي وأفكاره على الجو العلمي إلى قرن من الزمان بعده. وعبر الشهيد الصدر عن هذه الفكرة بقوله: «وقد أسند جماعة من العلماء ذلك الركود الغريب إلى ما حظي به الشيخ الطوسي من تقدير عظيم في نفوس تلامذته رفعه في أنظارهم عن مستوى النقد، وجعل من آرائه ونظرياته شيئا مقدسا لا يمكن أن ينال باعتراض أو يخضع لتمحيص. ففي المعالم كتب الشيخ حسن بن زين الدين ناقلا عن أبيه ﵁ أن أكثر الفقهاء الذين نشأوا بعد الشيخ كانوا يتبعونه في الفتوى تقليدا له لكثرة اعتقادهم فيه وحسن ظنهم به وروي عن الحمصي وهو ممن عاصر تلك الفترة أنه قال: «لم يبق للامامية مفت على التحقيق بل كلهم حاكٍ».

(١) الخوانساري، محمد باقر: روضات الجنات ٦. ٢٥٦ نقلا عن لؤلؤة البحرين.

(٢) راجع مقدمة معالم الدين للجنة التحقيق في مركز نشر جماعة المدرسين، ومقدمة عدة الأصول لمحققه محمد رضا الأنصاري.

وهذا يعني أن رد الفعل العاطفي لتجديدات الشيخ قد طغى متمثلا في تلك النزعة التقديسية على رد الفعل الفكري الذي كان ينبغي أن يتمثل في درس القضايا والمشاكل التي طرحها الشيخ والاستمرار في تنمية الفكر الفقهي. وقد بلغ من استفحال تلك النزعة التقديسية في نفوس الأصحاب أنا نجد فيهم من يتحدث عن رؤيا لأمير المؤمنين عليه السلام شهد فيها الإمام عليه السلام بصحة كل ما ذكره الشيخ الطوسي في كتابه الفقهي «النهاية»، وهو يشهد عن مدى تغلغل النفوذ الفكري والروحي للشيخ في أعماق نفوسهم. ولكن هذا السبب لتفسير الركود الفكري قد يكون مرتبطا بالسبب الأول، إذ لا يكفي التقدير العلمي لفقيه في العادة مهما بلغ لكي يغلق على الفكر الفقهي للآخرين أبواب النمو والتفاعل مع آراء ذلك الفقيه، وإنما يتحقق هذا عادة حين لا يكون هؤلاء في المستوى العلمي الذي يؤهلهم لهذا التفاعل فيتحول التقدير إلى إيمان وتعبد»[١].

انتقادات لجهد ابن ادريس التجديدي:

كأي محاولة تجديدية كان من الطبيعي أن تواجه جهود ابن ادريس معارضة في الوسط العلمي، المعاصر له بل والمتأخر عنه! وليس من الضروري أن تكون تلك المعارضة بسوء نية، بل ربما قام بها التقي الزاهد من العلماء، وحرصا فيما يرى على الدين، وذوذا عن حياض العلم، وحفاظا على أعلام الشريعة.

وهذا ما يواجهه وإلى اليوم الكثير من المصلحين، والمجددين في أكثر من مستوى، ابتداء من عدم التفهم لجهودهم وعدم وضعها في إطارها الصحيح، ومرورا بعزلهم اجتماعيا بالحديث ضدهم والتشكيك في نياتهم، وانتهاء بالتنظير إلى مضادة أفكارهم حتى ما كان صحيحا منها.

نعم تعرض ابن ادريس إلى مواجهة وانتقاد، بعضه كان قائما على أسس منهجية وهذا لا مانع منه، والكثير منه أقرب إلى التشويش، فمن ذلك ما تحدث عنه بعض العلماء من أن:

ابن ادريس قد أعرض عن أخبار أهل البيت بالكلية [٢].

أنه لم يعمل بأخبار الثقات. ورفض العمل بخبر الواحد.

---

(١) الصدر، محمد باقر: المعالم الجديدة للأصول. ٦٧

(٢) الحلي، ابن داود، رجال ابن داود. ٢٦٩

أنه تجرأ على شيخ الطائفة الطوسي وأساء الأدب له، فبتر الله عمره!

وقد انبرى غير واحد من العلماء لكي يدافعوا عن ابن ادريس. كما صنع ذلك التفرشي في نقد الرجال والخوانساري في الروضات، والميرزا النوري في خاتمة المستدرك، والسيد الخوئي في معجم رجال الحديث

وخلاصة ما ذكروه: أنه قد اختلط على ابن داود وهو منشأ القول بإعراض ابن ادريس عن أخبار أهل البيت بالكلية، اختلط عليه أمر عدم عمله بخبر الواحد، وأن هذا الخبر لا يفيد علما ولا عملا، وأمر عدم العمل بأخبارهم بالكلية. وهما يختلفان اختلافا بينا.

فالأول مسلك أصولي لا ينفرد به ابن ادريس، بل سبقه إليه السيد المرتضى وقد أكده في كثير من كتبه، وعمل فيها على هذا الأساس، والتزم بالعمل بالخبر المتواتر أو المحفوف بالقرائن والمفيد للعلم. وهذا هو الذي سلكه ابن ادريس. ولم يعرض عن أخبار أهل البيت، فإنه لو فعل ذلك كما قال بعضهم لما كان قادحا في عدالته فقط وإنما في إيمانه وتشيعه!

كيف؟ والحال أنه كان واسطة في انتقال الكثير من الأصول الحديثية إلى من بعده، حيث كان لديه الكثير من كتب الأصول في الحديث كجامع البزنطي، وابن بكير ومعاوية بن عمار، والحسن بن محبوب، ومحمد بن علي بن محبوب وموسى بن بكر وغيرهم [1] وقد أوردها في كتابه السرائر. وقد قال المحقق التستري في كتابه قاموس الرجال[2]: كيف و سرائره كلّه من طهارته إلى دياته مبتن على أخبارهم (عليهم السلام)؟

وحيث أن السيد الخوئي ﷺ قد أجاب عن الشبهات السابقة ببيان جيد، ننقله بنصه:

أما قول ابن داود إنه أعرض عن أخبار أهل البيت عليهم السلام بالكلية فهو باطل جزما، فإنه اعتمد على الروايات في تصنيفاته، وكتابه مملوء من الاخبار، غاية الامر أنه لا يعمل بالاخبار الآحاد، فيكون حاله كالسيد المرتضى وغيره ممن لا يعملون بالخبر الواحد غير المحفوف بالقرائن، ولأجل ذلك ذكر السيد التفريشي ما تقدم منه، كما تقدم عن الشيخ الحر ما ذكره من أن علماءنا المتأخرين قد أثنوا عليه واعتمدوا على كتابه.

(١) عد الباحث علي همت بناري في كتابه عن ابن ادريس ٢١ مصدرا بينها ١٤ مصدرا تعد من الأصول الروائية كما تقدم ذكر بعضها.

(٢) التسترى، محمد تقي:قاموس الرجال ٩. ٩٣

بقي هنا شيء: وهو أن المعروف في الألسنة أن ابن إدريس تجاسر على شيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي -قدس سره- جسارة لا ينبغي صدورها عن الجاهل فضلا عن مثل ابن إدريس، وهذه القصة لا أساس لها. ومن الغريب أن الشيخ المامقاني نسب ذلك إلى كتاب ابن إدريس، وقال: «وأقول في مواضع من السرائر أعظم مما نقله (العلامة) حتى أنه في كتاب الطهارة عند إرادة نقل قول بالنجاسة عن الشيخ يقول: وخالي شيخ الأعاجم أبو جعفر الطوسي يفوه من فيه رائحة النجاسة، وهذا منه قد بلغ في إساءة الأدب النهاية».

أقول: إن ما ذكره قدس سره خلاف الواقع، وليس من ذلك في كتاب السرائر عين ولا أثر، ويدل على ذلك أن الشيخ أبا جعفر الطوسي لم يكن خالا لابن إدريس، وإنما هو جده لامه، والشيخ المامقاني لم يلاحظ كتاب ابن إدريس وإنما ذكر ذلك اعتمادا على ما سمعه من أفواه الناس، وكيف يتكلم ابن إدريس بمثل ذلك وهو يعظم الشيخ أبا جعفر في موارد عديدة.

منها: قوله في أوائل الكتاب في توبيخ المتمسكين بالاخبار الآحاد حتى في أصول الدين: فقد قال الشيخ السعيد الصدوق أبو جعفر الطوسي رضي الله عنه وتغمده الله تعالى برحمته.

ومنها: ما قاله في باب الصلاة الجمعة وأحكامها، فإنه ذكر بعد نقل كلام عن السيد المرتضى حكاه الشيخ أبو جعفر الطوسي قدس سره : ولم أجد للسيد المرتضى تصنيفا ولا مسطورا بما حكاه شيخنا عنه (إلى أن قال) ولعل شيخنا أبا جعفر سمعه من المرتضى في الدرس وعرفه منه مشافهة دون المسطور، وهذا هو العذر البين، فإن الشيخ ما يحكي بحمد الله تعالى إلا الحق اليقين، فإنه أجل قدرا وأكثر ديانة من أن يحكى عنه ما لم يسمعه ويحققه منه (إنتهى). وغير ذلك من الموارد.

وأما منشأ هذه القصة التي لا أساس لها فهو قصور الفهم عن درك مراد ابن إدريس قدس سره من العبارة التي نذكرها، فإنه قدس سره ذهب إلى أن الماء المتمم كرا طاهرا، حتى فيما إذا كان المتمِّم والمتمَّم نجسين، واستشهد على ذلك بما رواه من أن الماء إذا بلغ كرا لم يحمل خبثا، ثم أيد ذلك بأنه يستفاد ويستشم من كلام أبي جعفر الطوسي قدس سره، قال: فالشيخ أبو جعفر الطوسي رحمه الله الذي يتمسك بخلافه ويقلد في هذه المسألة ويجعل دليلا يقوي القول والفتيا بطهارة هذا الماء في كثير من أقواله، وأنا أبين إن شاء الله

أن أبا جعفر رحمه الله يفوه من فيه رائحة تسليم المسألة بالكلية (طهارة الماء المتمم كرا) إذا تأمل كلامه وتصنيفه حق التأمل وأبصر بالعين الصحيحة وأحرز له الفكر الصافي، فإنه فيه نظر ولبس، إلى آخر ما ذكره – فترى أنه في عبارته يستظهر من الشيخ قدس سره القول بالطهارة استنصارا لمذهبه، وأين هذا من القصة الفظيعة، والله العاصم [1].

والعجيب أن البعض لم يتأكد من صحة النسبة السابقة (طعن ابن ادريس في الشيخ الطوسي وتجرئه عليه) حتى رتب عليها أثرا وهو سرعة وفاة ابن ادريس وأن الله بتر عمره. وهذه مع الأسف طريقة جرى عليها غير الواعين وربما تسربت إلى العلماء أيضا، عندما يجعلون الله عز وجل وكأنه كحال البشر، ينتقم من هذا وذاك لأنه عمل كذا. أو يوظفونه والعياذ بالله لديهم ليعاقب من لا يعجبهم في هذه الدنيا بالنحو الذي يقررونه هم!

فإن الذي عليه أهل التحقيق أنه توفي سنة ٥٩٨هـ وله من العمر ٥٥ سنة وقريب هذا المقدار من العمر كان عمر غير واحد من العلماء حيث توفي السيد بحر العلوم في مثل هذا السن تقريبا ٥٧ سنة وهكذا غيره.

دوره الأساس:

يعتقد الكثير من الباحثين أن الدور الأساس الذي قام به الفقيه المجدد الشيخ ابن ادريس هو أنه كسر الحاجز النفسي الوهمي الذي كان قائما عند قسم من العلماء، على أنه لا ينبغي معارضة شيخ الطائفة الطوسي في اختياراته وآرائه، فرأى أنه مهما علت القيمة العلمية لآرائه، فإنها غير عصية على النقد، وأنه لا ينبغي التوقف عندها بل البناء عليها والانطلاق منها إن كانت صحيحة، وهدمها إن كانت خاطئة.

إن أعظم مشكلة تطرأ في حياة الأمم علميا هي أن تعتقد أنه (ما ترك الآخر للأول) وأن المتأخرين ماذا سيقولون أكثر مما قاله المتقدمون زمانا؟ فـ (ليس وراء عبادان قرية) و(كل الصيد فهو في جوف الفرا) وهو لدى القدماء. حتى لقد أصبحت موافقة مشهور المتقدمين وعدم الانتقال عما هم عليه ميزة إيجابية! (هذا بالرغم من أننا لا نعتقد أنه ينبغي تعمد مخالفة مشهور الفقهاء ومناكفتهم على كل حال). الأمر الذي ألجأ بعض أعلام الفقهاء إلى التوقف قائلين: إن مخالفة المشهور مشكلة وموافقتهم من غير دليل

(١) الخوئي؛ أبو القاسم:معجم رجال الحديث ١٦. ٧٠.

أشكل [١].

إننا في الوقت الذي نعتقد فيه أن العلماء السابقين قد بذلوا غاية الجهد، ومبلغ الوسع في تحصيل الأدلة وصرفوا أعمارهم في سبيل هذا الهدف، وهي أعمال مشكورة، وجهود بالخير مذكورة، إلا أن كل جيل جاء حاول أن يرتقي مرتقى أفضل من سابقه، وأن يكمل ما نقص من متقدميه، ويصحح ما أخطأوا فيه. وهذا يقتضي أن لا تُفتح مدافع النقد على من يخالف السابقين، أو يُنكر على أراء المجددين. بأنه لم يقل بمقالتهم هذه أحد من قبلهم وهذا دليل عدم صحتها ، وكأن على الفقيه أن يأتي ليقول نفس الكلام الذي قاله من سبقه!! وقد أشار ابن ادريس إلى هذا المعنى: « .وكأني بمن يسمع هذا الكلام ينفر منه و يستبعده، و يقول: من قال هذا؟ و من سطره في كتابه؟ و من أشار من أهل هذا الفن الذين هم القدوة في هذا اليه؟ و ليس يجب إنكار شيء، و لا إثباته إلا بحجة تعضده، و دليل يعتمده»[٢].

وبالرغم من أن مسلكه في عدم قبول خبر الثقة (أخبار الآحاد) لم يأخذ مداه في الوسط العلمي، وأصبح من المسالك المهجورة، إلا أنه ليس من المطلوب أن يكون كل ما يأتي به شخص يصبح نهاية العلم، وإنما يتعرض له بالمناقشة والنقد.

كتب وتصانيف:

خلف ابن ادريس عددا من الكتب:

١. السرائر الحاوي لتحرير الفتاوى:

وهو كتاب فقه استدلالي في أبواب العبادات والمعاملات، من الطهارة إلى الديات وأتبعه القسم الأخير وهو المستطرفات من الكتب الروائية، وفيه أورد عددا من الروايات في الأحكام والأخلاق وغيرها. ويقع الكتاب بحسب الطباعة الحديثة في ثلاثة مجلدات. وهو أشهر كتبه وبه عرف فيقال صاحب السرائر.

٢. مختصر التبيان في تفسير القرآن:

والأصل كما هو معروف لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي، فقام ابن ادريس

(١) الهمداني؛ آقا رضا ٥٨٢/١

(٢) السرائر الحاوي لتحرير الفتاوى؛ ج١، ص: ٧٣ طبع جماعة المدرسين قم ايران

باختصاره والتعليق عليه. وربما عبر عن هذا الكتاب باسم (التعليقات).

٣. خلاصة الاستدلال:

وهي رسالة فقهية في إثبات فورية وجوب قضاء الصلوات الفائتة.

٤. مسائل ابن ادريس:

وهي عبارة عن خمس مسائل فقهية بسط فيها الكلام، رأيا واستدلالا.

وقد طبعت هذه الكتب في النجف الأشرف أخيرا، في أربعة عشر مجلدا بتحقيق العلامة السيد محمد مهدي الخرسان.

فتاوى مخالفة للمشهور:

بالرغم من فكره التجديدي، ونشاطه العلمي المتميز، كان له فتاوى لم يستقبلها الوسط العلمي، وظل القول بها نادرا وفي بعضها محصورا به. فمنها:

١. اعتقاده بأن ولد الزنا كافر!

٢. وأن التقيؤ العمدي في نهار الصيام لا يبطل الصيام.

٣. وأن الاعتكاف لا يجوز في غير المساجد الأربعة (المسجد الحرام، والنبوي، والكوفة، والبصرة) وأن ارتكاب أي معصية في أيام الاعتكاف يفسده.

٤. وأن صلاة الجمعة في زمان الغيبة غير جائزة، لاختصاصها بالإمام المعصوم أو منصوبه الخاص.

٥. وأنه لا يشترط في بني هاشم لأخذ الخمس الفقر، بل حتى الغني منهم يستطيع أن يأخذه.

٦. وأن من يترك الصلاة ثلاث مرات من غير عذر، أو يفطر ثلاثة أيام كذلك، فإن قتله واجب!

وغيرها من الفتاوى [(١)].

(١) للتفصيل يراجع كتاب: ابن ادريس لعلي همت بناري، مصدر سابق. ص ١٣٧

الخواجة وانقاذ الحضارة الإسلامية

نصير الدين الطوسي: محمد بن محمد بن الحسن

٥٩٧ - ٦٧٢هـ



للحديث عن شخصية اجتمعت فيها صفات الكمال بنحو مذهل كالشيخ نصير الدين الطوسي لا بد أن نشير كمقدمة إلى جناية بعض المؤرخين على التاريخ، وجناية بعض أهل الحاضر على حاضرهم! ثم نعطف الحديث على شخصية الطوسي.

نعم.. بعض المؤرخين جنوا جناية كبيرة على التاريخ، فلم يكونوا أمناء في تسجيله ونقله، وإنما انطلقوا من دوافع سياسية في تأييد بعض الحاكمين حينا، ومن دوافع طائفية ومذهبية حينا آخر، فخانوا رسالة المؤرخ، ولم يؤدوا الأمانات إلى أهلها!

وهذا ما صنعه «مؤرخو الأتراك المماليك في مصر والشام عندما أرخوا لفترة سقوط الدولة العباسية على يد المغول، حيث أرادوا تبرئة إخوانهم الأتراك بقيادة شرف الدين إقبال الشرابي، وأيبك الدواتدار، فاتهموا الشيعة وابن العلقمي»[١].

فهؤلاء مثل أبي شامة، وابن كثير، والذهبي، جمعوا عدم المعاصرة للتاريخ الذي دونوه، إلى جانب التعصب المذهبي، والعداء السياسي لمن كانوا يؤرخون لهم، فجاء ذلك التاريخ مسخا مشوها، تناقله من بعدهم من دون نظر أو تحقيق، وكأنه آية محكمة أو سنة ثابتة!

والخلف الذي جاء من بعدهم، سار خابط عشواء فبدأ يعيد إنتاج الخطأ من جديد ويبني عليه أبراجا من الأوهام كذلك (الدكتور!!) الذي رأى أن «هدف ابنِ العلقمي كان ان يزيلَ السُّنةَ بالكليةِ وأن يظهرَ مذهبه، وأن يعطلَ المساجدَ والمدارسَ، وأن يبني لمذهبه مدرسةً هائلةً ينشرون بها مذهبهم فلم يقدرهُ اللهُ على ذلك، بل أزال

(١) الغامدي د. سعد؛ مقابلة في ملحق الرسالة جريدة المدينة السعودية ٢٠١٠/٥/٧. ولتفصيل تلك المرحلة نشير إلى كتابه القيم: سقوط الدولة العباسية.

نعمتهُ عنه وقصف عمره بعد شهورٍ يسيرةٍ من هذه الحادثة»!!.

وفي استدعاء جديد للوهم، لم يرَ هؤلاء حقيقة الصراع الذي انتهى بهزيمة النظام البعثي، بل لم يروا المأساة التي كانت رحاها تدور بالمجتمع المسلم في العراق حتى أوردته المهلكة، وإنما رأوا أن «أحفاد ابن العلقمي «هم سبب ضياع بغداد!

بينما يفيد المحقق الغامدي الذي تخصص في تأريخ تلك الفترة وقرأ مصادر أحداثها من مؤلفين معاصرين لها وقريبي العصر منها، بل درس لغات المغول وقوانينهم ليخرج بعد بحث سنوات بكتاب قيم هو: سقوط الدولة العباسية: ودور الشيعة بين الحقيقة والاتهام. يقول في جواب سؤال: «كثر القول عن الشيعة بأنهم هم المتآمرون مع المغول وخاصة أبو طالب مؤيد الدين أحمد بن محمد بن العلقمي. وهذا الرجل عربي أصيل من بني أسد، كان شيعي المذهب وآخر وزير في الدولة واتهم أتباع مذهبه زورا وبهتانا بأنه كان السبب في سقوط تلك الدولة. للحقيقة والتاريخ لم يكن لأولئك الناس في سقوط العباسيين ناقة أو جمل.وبملء فيَّ وليكتب عني المؤرخون غيري ما يشاؤون. مصادري موثوقة وحيثياتي التي بنيت عليها هذا الرأي أثبتت أنه لم يكن للشيعة دور فقد تعرضوا في بغداد للأذية كما تعرض لها الآخرون، لو كان ابن العلقمي متآمرا مع المغول ضد أسياده لكان أول من يقتل على أيدي المغول، حسب قانونهم: الخائن لا يؤتمن فلا بد من إعدامه للعبرة.إن أكبر دليل على براءة بن العلقمي هو أن هولاكو استخدمه مع آخرين من موظفي الدولة العباسية ليديروا بغداد بعد رحيله عنها»[١].

كان هذا التمهيد ضروريا، لكي يتم الحديث عن الخواجة[٢] نصير الدين الطوسي الذي عاصر تلك الفترة، وشهد سقوط الدولة العباسية، وحاول جهده إنقاذ العلم والمعرفة الإسلامية.

فلنعد للحديث عن جهاته الشخصية، حيث نلتقي مع عالم قليل النظير، وذلك أننا نجد كثيرا من علمائنا بارعين في العلوم النقلية التقليدية كالفقه، والحديث والرجال. لكن القليل منهم من يملك ناصية العلوم الطبيعية باقتدار، مثل (الهندسة والجبر والحساب والمثلثات والفلك والهيئة والنجوم والفلسفة والمنطق) فإنه ﵀ قد برع فيها إلى حد أنه نقل أن العلامة الحلي وهو من هو قد أخذ عنه العلوم العقلية، ويصفه العلامة الحلي

(١) المصدر السابق

(٢) كلمة فارسية أو تركية الأصل تكتب بالواو وتنطق بحذف الواو (خاجه) ومعناها يدل على التعظيم والتكريم في حق من تطلق عليه، مثل معنى: السيد، أو المعظم.

بقوله: (وكان هذا الشيخ أفضل (أهل) عصره في العلوم العقلية والنقلية، وله مصنفات كثيرة في العلوم الحكمية، والأحكام الشرعية على مذهب الإمامية، وكان أشرف من شاهدناه في الأخلاق، نور الله مضجعه، قرأت عليه إلهيات الشفاء لأبي علي بن سينا، وبعض التذكرة في الهيئة تصنيفه)[١].

كان غزير الانتاج لا سيما في العلوم العقلية والطبيعية.ولهذا نجد أنه من بين (١٨٦) عنوان كتاب عدت[٢] من تأليفاته، كان هناك ٦٠ عنوانا في الهندسة والحساب والجبر والمنطق، و ٤٠ كتابا في الفلسفة والحكمة، وحوالي ٢٠ كتابا في العقائد والكلام، كما لم تخل عناوين كتبه من المواضيع الأخلاقية والتربوية.

ولعل من أشهر كتبه المعروفة في الحوزات العلمية كمنهج دراسي كتاب تجريد الاعتقاد. وهذا الكتاب يشتمل على قسمين: قسم في الفلسفة العامة، وبحث أحكام الوجود وما يتعلق بها. والقسم الآخر في الإلهيات حول صفات الله عز وجل و الاعتقاد بالنبي وصفاته والقرآن والإمامة والإمام والغيبة في عبارات مختصرة جدا ولكنها في غاية العمق[٣].

سيرته الدراسية في حياته المبكرة لم تشهد شيئا استثنائيا، من وجود مدرسين مشهورين بل ربما اشتهر بعضهم لأنه كان قد درس الشيخ نصير الدين. لكن دارسي حياته ومترجميه ذكروا أن كلا من العلامة الحلي، والشيخ علي بن ميثم البحراني درسا عليه وهو أخذ منهما أيضا. فقد ذكرنا قبل قليل كلام العلامة وفيه تصريح بأنه قد قرأ عليه إلهيات الشفاء لابن سينا، والتذكرة في الهيئة والفلك وهو من تصانيف الخواجه نصير الدين.

وكما يذكرون أنه حضر درس المحقق الحلي عند بحثه مسألة استحباب التياسر في القبلة، فاعترضه الشيخ نصير الدين في أنه إن كان التياسر هو إلى جهة القبلة فهو واجب وإن كان إلى غير القبلة فغير جائز. فأجابه المحقق بأن التياسر هو من القبلة

(١) الأنوار البهية - الشيخ عباس القمي - ص ١٤٢

(٢) الأمين، حسن: مستدركات أعيان الشيعة ١. ٢٣٧

(٣) قال فيه العلامة القوشجي وهو من علماء السنة وقد شرح الكتاب .: ان كتاب التجريد الذي صنفه المولى الأعظم قدرة العلماء الراسخين أسوة الحكماء المتألهين نصير الملة والدين تصنيف مخزون بالعجائب وتأليف مشحون بالغرائب فهو وإن كان صغير الحجم وجيز النظم فهو كثير العلم جليل الشأن حسن النظام مقبول الأئمة العظام لم يظفر بمثله علماء الأمصار مشتمل على إشارات إلى مطالب هي الأمهات مملو بجواهر كلها كالفصوص متضمن لبيانات معجزة في عبارات موجزة يفجر ينبوع السلاسة من لفظه ولكن معانيه لها السحر وهو في الاشتهار كالشمس في رابعة النهار تداولته أيدي النظار. نقلا عن كشف الحجب والأستار - السيد إعجاز حسين ٩٨

إلى القبلة، وأوضح ذلك بأن وظيفة من كان نائيا عن مكة أن يتجه في القبلة إلى الحرم، وموضع الكعبة في الحرم هو إلى جهة اليسار وليس على مسافة متساوية من جهاته. وبعد هذا كان بينهما مراسلات حول هذا الموضوع تبادلا فيها الرأي وأوضح المحقق الحلي أدلته في المسألة.

وقال البعض أنه قد أخذ عن العلامة الحلي الفقه،كما ذكروا أنه أخذ الفقه على الشيخ ميثم البحراني، الذي أخذ عنه الحكمة[1].

وربما يناقش الباحث في التلمذة والتعليم، من جهة الفترة التي يقضيها الطالب عند مدرسه ليصدق عليه ذلك العنوان، ولكن هذا يشير في مجمله إلى تفوق الشيخ نصير الدين في الفلسفة والحكمة بحيث يقصده مثل العلامة، وينسب إليه تلمذ مثل الشيخ ميثم البحراني وفي نفس الوقت إلى أنه لم يكن في الفقه كما كان معاصروه.

الدور الأبرز

الذي قام به النصير الطوسي كان مع مجيء المغول إلى بلاد المسلمين.واحتلالهم بغداد وقضائهم على الخلافة العباسية.

وسوف نستفيد من الدراسة القيمة التي أعدها الدكتور الغامدي عن سقوط الدولة العباسية ونختصر قدر الإمكان النتائج التي توصل إليها وهي تنم عن مجهود بحثي عميق ومتتابع.

بعد ان انتهى المغول بقيادة هولاكو خان من تدمير قلاع الاسماعيلية (أكثر من مئة قلعة) في شمال إيران، وتدمير دولتهم بالتالي، كروا راجعين للقيام بنفس العمل بالنسبة إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وذلك بعد أن دانت لهم سائر المناطق المسلمة التي كانت في طريقهم، بعضها عنوة كما حصل للدولة الخوارزمية، وبعضها الآخر باستسلام حكامها مثل الموصل وإذا نظرنا إلى المنطقة الممتدة من (خراسان ومازندران والعراق وفارس وكرمان وآذربيجان وجرجستان واللور والري والأرمن والروم وديار بكر والموصل

(١) النوري، الميرزا :خاتمة المستدرك ٢. ٤١٢ قال في ترجمته: الفيلسوف الأعظم الخواجة نصير الدين، الآتي ذكره. وقال الشيخ فخر الدين الطريحي في مجمع البحرين، في ترجمته في مادة مثم: إنه شيخ نصير الدين في الفقه. وفي اللؤلؤة، عن الرسالة المسماة بالسلافة البهية، للشيخ سليمان البحراني: وجدت بخط بعض الأفاضل المعتمدين أن الخواجة تلمذ على الشيخ كمال الدين ميثم في الفقه، والشيخ كمال الدين تلمذ على الخواجة في الحكمة.

وحلب)[١] لوجدناها قبل اقتحام بغداد خاضعة للمغول، والحكام الذين كانوا عليها إنما كانوا يحكمونها نيابة عن المغول وينفذون أوامرهم فيها. وفي سنة ٦٥٤هـ أعلن سيد الاسماعيليين الكبير استسلامه أمام هولاكو.

كان هولاكو قد بعث إلى المستعصم العباسي أثناء ذهابه لحرب الاسماعيليين يطلب منه الطاعة، وعلامة ذلك أن يبعث كتيبة من عسكره لمشاركة المغول في حرب الاسماعيليين. وكان كل من الوزير مؤيد الدين العلقمي والخليفة يؤيدان ذلك لدفع شر المغول عن بغداد، بينما رفض الدواتدار الصغير ذلك وأصر على عدم تجهيز الجنود وأرسل عوض ذلك بعض الهدايا مع رسالة ودية الأمر الذي أغضب هولاكو، فأرسل للخليفة بعد قضائه على الاسماعيليين أن يقابله، بعد هدم الأسوار والحصون حول بغداد، أو يرسل إليه أحد كبار معاونيه: ابن العلقمي أو الدواتدار أو سليمان باشا.

الخليفة الذي كان «مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموعا فيه غير مهيب النفس ولا مطلعا على حقائق الأمور، وكان زمانه ينقضي أكثر بسماع الأغاني والتفرج على المساخرة.!»[٢]، لم يكن يعرف ماذا يجب عليه أن يعمل، ولم يكن يملك السلطة لفرض ما يراه مناسبا على موظفيه[٣]، رد على رسالة هولاكو برسالة عنيفة فيها تهديد بقوة المسلمين التي لا تقهر! مع أنه لم يكن يملك نظرا لاستئثار المماليك بالأمر العسكري جيشا في بغداد! والتي كان قد اجتمع عليها كما يقول الغامدي، الصراع الطائفي والمذهبي الذي كان يغذيه بعض الزعماء، بل اشترك فيه حتى ابن الخليفة الأكبر! وزاد الأمر مشكلة الوضعُ الاقتصادي حيث تم إهمال نظام الري والصرف، ونتج عن ذلك انهيار عدد من السدود على نهري دجلة والفرات [٤]، وصادف ذلك الحال زيادة مياه دجلة وحدوث سيول وغرقت بعض المناطق، حتى أنه كان لا يمكن الوصول إلى دار الخليفة إلا في سفينة!

وكان الخليفة يعيش معزولا عن الواقع، فلم يكن يمكن الوصول إليه إلا بعد أبواب وحجاب، (وحاجبه دونه حاجب وحاجب حاجبه محتجب!). بالإضافة إلى أنه لم يكن رجل دولة، بل كان مشغولا بالندامى والطرب وكان ضعيف الهمة.حتى لقد ذكر بعض المؤرخين

(١) الغامدي، د سعد: سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والاتهام. ٢٦٠

(٢) المصدر ٢٠٢، نقلا عن ابن الطقطقا في كتاب الفخري في الآداب السلطانية

(٣) المصدر السابق ٢٧٩

(٤) المصدر. ٢٠٩

أنه عندما وصلت سهام المغول إلى ديوانه، وهذا يشير إلى قربهم منه كان يستمتع برقص جارية يقال لها: عرفة! وكان أقصى ما صنعه أنه أمر بزيادة الستائر![1]

وقد يخفف وطأة ضعف الخليفة لو كان هناك جهاز إداري وحكومي فعال، لكننا هنا أمام جهاز إداري مشلول تماما فهناك الوزير الأول مؤيد ابن العلقمي، وهناك الدواتدار الصغير الذي يفترض أنه أقل رتبة من ابن العلقمي إلا أن الدواتدار هذا لم يكن يأتمر بأوامر الوزير، بل كان النزاع بينهما سيد الموقف، والذي كان يخرج عن الحالة الشخصية إلى الحالة المذهبية ويكون الناس في طرفي بغداد من السنة والشيعة ضحية لذلك النزاع الذي ترتكب فيه المآثم والجرائم!

بعد هذا العرض المختصر لم يكن سقوط بغداد تحت يد المغول إلا نتيجة طبيعية تتبع مقدماتها. فقد جرت (أول وآخر معركة) بين القوات المغولية وقوات حكومة بغداد، حيث انهزم طلائع المغول في حركة استعراضية، وقام الدواتدار الذي لم يكن صاحب خلفية عسكرية، وكان كما يقول الغامدي على (جهل مطبق بحقيقة وضع عدوه) قام بتتبع تلك القوات، والتي لم تكن سوى طليعة القوات والجزء الظاهر من جبل الثلج، حتى وقع في كماشة القوات الأصلية، وفي فجر اليوم الثاني وبينما كانت قوات الخلافة غارقة في نومها باغتها المغول وأنزلوا بها هزيمة ساحقة ماحقة[2]. لم ينج فيها غير قلة كان من بينهم الدواتدار حيث هرب إلى بغداد.

كانت الهزيمة العسكرية هي الصاخبة ولكن المشكلة كانت فيما بعد، حيث أباح المغول عاصمة الخلافة قتلا ونهبا، وكانت بغداد منجم الثقافة والمعرفة الإسلامية، حيث كانت تحتضن الآلاف من العلماء، والمئات من المكتبات إلى جانب عشرات الآلاف من الكتب.

وهنا بدأ دور الخواجة نصير الدين الطوسي الذي كان قد استصحبه المغول من قلاع الاسماعيلية، في فئة قليلة من أصحاب الكفاءات الاستثنائية، حيث عرف عنه معرفته بالفلك وقضايا النجوم وكان المغول يعتقدون بها، فرأوا فيه ما ينفعهم في هذا المجال، وجاؤوا به من ذلك المكان، الخواجة رأى وغيره من عقلاء تلك المرحلة أن

(١) كتب ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية ١٣/٢٣٣: وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتّى أُصيبت جارية تلعب بين يدي الخليفة وتُضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت مولدة تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً، وأحضر السهم فإذا مكتوب عليه: «إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم»، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز وكثرة الستائر على دار الخلافة!.

(٢) الغامدي، سقوط الدولة العباسية /٣٠٣

هذه العاصفة المغولية الهوجاء لا يمكن التصدي لها بالمواجهة والمقاومة، وإنما لابد من الانحناء أمامها والحفاظ على ما يمكن من تراث المسلمين، ثم بعد هدوئها محاولة التأثير فيها. فقام بعدة أمور:

١. محاولة الحفاظ على التراث العلمي للمسلمين، ممثلا في الكتب والمكتبات، والعلماء.

وفي هذا الصدد حيث كان يعلم الخواجة أن المغول كان لهم تعلق بعلم النجوم والتنجيم، فركز على هذا الجانب واقترح على هولاكو أن يبني مرصدا للنظر في النجوم والفلك. وحيث لم يكن هولاكو يستشعر أهمية ذلك فقد قام نصير الدين بالتجربة التالية التي يتحدث عنها الصفدي قائلا: إنه كان ذا حرمة وافرة ومنزلة عالية عند هولاكو وكان يطيعه فيما يشير به عليه والأموال في تصريفه فابتنى بمدينة مراغة قبة ورصدا عظيما واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة حتى تجمع فيها زيادة على أربع مائة ألف مجلد! وقرر بالرصد المنجمين والفلاسفة والفضلاء وجعل لهم الجامكية وكان حسن الصورة سمحا كريما جوادا حليما حسن العشرة غزير الفضائل جليل القدر داهية.

حكى لي أنه لما أراد العمل للرصد رأى هولاكو ما ينصرف عليه، فقال له: هذا العلم المتعلق بالنجوم ما فائدته؟ أيدفع ما قدر أن يكون؟. فقال: أنا أضرب لمنفعته مثالا؛ ألقان يعني هولاكو يأمر من يطلع إلى أعلى هذا المكان ويدعه يرمي من أعلاه طست نحاس كبيرا من غير أن يعلم به أحد ففعل ذلك. فلما وقع ذلك كانت له وقعة عظيمة هائلة روعت كل من هناك وكاد بعضهم يصعق! وأما هو وهولاكو فإنهما ما تغير عليهما شيء لعلمهما بأن ذلك يقع فقال له: هذا العلم النجومي له هذه الفائدة، يعلم المتحدث فيه ما يحدث فلا يحصل له من الروعة والاكترات ما يحصل للذاهل الغافل عنه فقال لا بأس بهذا وأمره بالشروع فيه[١].

وقد استطاع بهذا العنوان أن يحفظ المكتبات والكتب التي أمر هولاكو بأن توضع تحت تصرفه، بل ما نهب ولم يتلف جمعه نصير الدين في تلك المكتبة. كما استطاع أن يحمي العلماء من الانتقام، بل لقد أرسل فخر الدين لقمان المراغي في سائر المناطق الإسلامية الخاضعة لسيطرة المغول لاستقدامهم إلى مراغه حيث تحولت إلى مركز

(١) الصفدي- الوافي بالوفيات ١. ١٤٧

للعلم والمعرفة، لحمايتهم أولا، والاستفادة من علومهم ثانيا.

٢. المحافظة على الأوقاف ودور العبادة والمشاهد: تمثل المساجد والمشاهد والمدارس الدينية والرباطات موقعا مهما في المجتمع المسلم آنئذ نظرا لما توفره من قيام المؤمنين بعبادة ربهم فيها، وتجديد ولائهم وتذكرهم لشخصيات الأولياء في الثانية، بالاضافة إلى تدارس العلم والمعرفة في الثالثة، وتجديد الاستعداد لمواجهة الأعداء، ولتزكية النفس في الرابعة.

ولهذا الدور فقد اكتسبت هذه المواقع عند المسلمين مقدارا من القداسة يتفاوت من موقع لآخر. غير أن الغازي المغولي لم يكن يمتلك هذه الفكرة أو يؤمن بها، فلا يختلف الحال عنده بين أن يهدم بيتا أو بيت الله! أو أن يحرق بستانا أو مشهدا. وهكذا.

للمحافظة على هذه المراكز طلب الخواجة نصير الدين الطوسي من هولاكو أن يفوض أمورها إليه، وأن لا يعمل فيها شيء بغير الرجوع إلى أمره، فكان له ما أراد ولذلك فقد بقيت هذه المواقع سالمة من الأذى من حيث تفويضها إليه.

وكانت الأوقاف تدر مقادير من المال فكانت هذه مصدرا جيدا من مصادر الإنفاق على أهل العلم بالاضافة إلى ما كان يحصل عليه من المخصصات، وكان تركيز الخواجة على الفلسفة والعلوم الطبيعية والتطبيقية أكثر وهذا ما نراه في المخصصات التي كان يعطيها لكل عالم بحسب تخصصه، «فقد عمل دار حكمة ورتب فيها فلاسفة، ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة دراهم، ودار طب فيها للطبيب في اليوم درهمان، ومدرسة لكل فقيه في اليوم درهم، ودار حديث لكل محدث نصف درهم في اليوم»[(١)].

٣. غير أن الانجاز الأكبر الذي صنعه الخواجه نصير الدين هو أنه أقنع هولاكو ومن معه من زعماء المغول أنهم إذا أرادوا أن يستمروا في حكم المسلمين، فلا بد أن يعلموا أبناءهم عادات المسلمين وطريقة حياتهم لكي يستطيعوا التعامل معهم في المستقبل وحكمهم، ولهذا ينبغي أن يعين لهم مدرسون يعلمونهم اللغة العربية وطرائق حياة المسلمين والعرب. واستجاب هولاكو لهذا الأمر، وأمر الخواجة أن يعين لهم مدرسا، فعين الخواجة تلميذه أبا الثناء الشيرازي. وظل يؤدبهم ويدربهم، وما أن بلغوا النضج حتى كانت عقلياتهم قد تعودت على الثقافة الإسلامية وأسلموا. ففي البداية كان (منكوخان) من أبناء هولاكو قد أعلن قناعته

(١) ابن كثير - البداية والنهاية ١٣. ٢٤٩

بالإسلام بشكل محدود، إلا أنه لما جاء الدور على الابن الآخر (تكودار) حتى خطب في الجند وأعلمهم باسلامه وتسمى بـ (أحمد) وأن من يحبه ينبغي أن يتابعه في ذلك، فأسلم أكثر الجنود الذين كانوا معه.

بل وجدنا بعد فترة قصيرة أن أحد الحكام المغول وهو الشاه محمد خدابنده قد أعلن التشيع في إيران.

كانت (أسلمة) الجيش المغولي الإنجاز الأكبر الذي استطاع الخواجة نصير الدين القيام به، بعدما حفظ المعرفة والعلم الإسلامي، وحرس الأوقاف والمساجد والمشاهد.

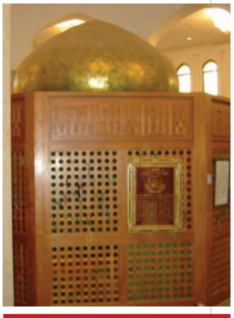
وإذا كان المحقق الطوسي الخواجة نصير الدين قد وافاه الأجل في سنة ٦٧٢هـ وذهب إلى لقاء ربه، وهذا أمر لا يعرى منه أحد، ولا يهرب منه شخص، فإن «أغراس الطوسي قد بدأت تؤتي أكلها فإذا بابن هولاكو يعلن اسلامه. وإذا كان الطوسي في ذلك الحين قد لقي وجه ربه فقد كان هناك تلميذه ومن أقرب المقربين اليه قطب الدين أبو الثناء محمود بن مسعود الشيرازي فاستدعاه تكودار الذي أصبح اسمه احمد تكودار وضم اليه جمعا من العلماء ليكونوا سفراءه إلى علماء بغداد وإلى السلطان منصور قلاوون ملك مصر فيحملوا إليهم النبأ العظيم نبأ إسلام ابن هولاكو وإسلام الدولة المغولية تبعا لإسلامه»[١].

---

(١) الأمين، السيد محسن – أعيان الشيعة ٩. ٤١٧

التوجه التقريبي
لدى الشيخ ميثم بن علي البحراني(1)

٦٣٦-٦٩٩هـ



أهمية إبراز نماذج التقريب ومناهجهم:

يتحسس كثير من المفكرين الإسلاميين أهمية إبراز نماذج التقريب، ورواد الحوار والانسجام بين مكونات الأمة الإسلامية. خصوصا مع ملاحظتهم للنتائج السيئة التي انتهت إليها خطوط التشنج المذهبي في الأمة. وما يزال الحبل على الجرار. في أكثر من بلد إسلامي.

إن من الواضح أن في الأمة توجهات متعددة؛ بعضها يدعو إلى الألفة والانسجام والتقارب، وينظّر لذلك ويسعى إليه عمليا. وبعض يعيش هاجس حراسة المذهب والحفاظ على الهوية الخاصة، وقسم ثالث يتجاوز ذلك لكيلا يرى أفقا غير الهجوم على المذاهب الأخرى، ولا يحمل رسالة غير تهديم ما عداه.

وإن من المؤسف أن يكون القسم الثالث عند كثير من أتباع كل مذهب هو الأكثر تقديرا واحتراما، بينما لا ينظر إلى القسم الأول عند كل فريق بنظرة جيدة، فدعاة التقريب الشيعة عند الشيعة، ودعاة التقريب السنة عند السنة ليسوا في التقدير والاحترام كنظرائهم من حراس المذهب، والذين يتبنون الهجوم على عقائد المذهب الآخر!

ولهذا فإن على المصلحين مسؤولية إبراز النماذج التقريبية من علماء وزعماء، والتذكير بسيرتهم، والعمل على إحياء مناهجهم في التقريب بين فئات المسلمين باعتبار ذلك هدفا ساميا، وقيمة عالية.

---

(١) مقال قدم للندوة العالمية الثانية لتكريم العالم الرباني الشيخ ميثم البحراني رحمه الله التي عقدت في طهران خلال ٢٣ ٢٤ رجب ١٤٢٧ بواسطة رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية والمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

إن إحياء فكر السيد البروجردي، والسيد شرف الدين، والإمام الخميني والتبليغ لمنهجهم في التقارب والحوار لهو أمر لا يستغنى عنه عموما وفي هذه الفترات خصوصا.

كما أنه لا بد من فك الارتباط غير الصحيح بين قوة الهجوم على الخصوم وبين شدة الولاء للمذهب من جهة، وبين الدعوة إلى التقريب والتعامل مع الآخر المذهبي بنفس مشترك وبين التفريط في الخصوصيات، فإن ذلك مما لا صحة له. إن الانطباع السائد في الجهتين وكأن الداعية للتقريب والتقارب مفرط في حق أئمته وقليل الغيرة على مذهبه، بينما الرافض للتقارب والشديد اللهجة في خلاف ذلك، هو المؤمن الحق. ليس بصحيح.

ومن المهم في هذا الباب أن يتم إبراز المنهج الذي اتبعته تلك الشخصيات في طريقها التقريبي، سواء كان ذلك من خلال المنهج في كيفية التعامل مع المسائل الخلافية كما صنعه الشيخ ميثم في شرحه لنهج البلاغة وصنعه العلامة في تذكرة الفقهاء في الخلاف الفقهي، وهكذا ما يقوم به بعض مراجع الأمة كالإمام الخميني في التطبيع الاجتماعي عبر الفتاوى الفقهية .أو غير ذلك بحيث لا يكتفى بالحديث عن أهمية هذا العمل فقط.

وسوف يكون حديثنا محاولة لاستخراج ملامح من المنهج التقريبي الذي كان لدى العالم الرباني الشيخ ميثم بن علي بن ميثم البحراني ﷺ.وسنلقي نظرة خاطفة على حياته ثم نتبعها بذكر شيء سريع عن عصره من جهة التطرف المذهبي، لكي يكون ذلك مدخلا للحديث عن منهجه التقريبي.

ذكر مترجموه بأن ولادته كانت في سنة ٦٢٣هـ بينما كانت وفاته سنة ٦٧٩هـ كما هو معروف عند أغلب المترجمين له لكنه لا يصح[1] لما ذُكر في مقدمة كتابه اختصار مصباح السالكين بأنه فرغ منه في سنة ٦٨١هـ..والصحيح أنه توفي سنة ٦٩٩هـ كما توصل إليه المرحوم الطهراني في طبقات أعلام الشيعة.

وقد ذكر آخرون دراسة الخواجة نصير الدين الطوسي عليه، والعلامة الحلي، بينما شكك بعض الباحثين في ذلك بالنحو المعهود من الدراسة والتلمذ، وذلك لأن الحوادث التاريخية المذكورة في حياة هؤلاء الأعلام لا تساعد على مثل ذلك النحو من التلمذ، واحتملوا أن يكون التفاعل بين هؤلاء الأعلام كان على طريقة المباحثات العلمية في المجالس التي تجمعهم، واستفادة كل واحد من هؤلاء الأعلام من الآخر في مجال

(١) اليوسفي الغروي، محمد هادي في مقدمة كتاب النجاة في القيامة ص٨

تخصصه وإبداعه، كأن يستفيد العلامة من الطوسي في مجال العقليات والثاني من الأول في النقليات والفقه وهما من الشيخ ميثم، وهكذا.خصوصا مع ملاحظة سفر الشيخ ميثم إلى العتبات المقدسة فيمكن أن يكون ذلك التفاعل خلال تلك السفرات، وقد نقل عن الشيخ ميثم في هذه السفرات أنه كان كثير الاجتماع بالعلماء والمذاكرة معهم.

ويبدو أن العصر الذي كان الشيخ ميثم يعيش فيه، كان لا يزال على وقع طائفي غير مستحسن، فقد سبق عصره المشاحنات التي كانت بين البويهيين والسلاجقة، والتي انتهت بانتهاء البويهيين على يد السلاجقة الذين دخلوا بغداد، وصبوا زيت طائفيتهم على نار جهل العوام التي كانت متقدة أساسا. بل قد وجدنا في تلك الفترة وما بعدها تمتد الحالات المتشنجة إلى المدارس المختلفة في داخل المذهب الواحد كما كان يحصل بين الحنابلة وغيرهم حتى لقد تمنى بعضٌ أن يفرض الجزية على الحنابلة لو كان له من الأمر شيء.

أما المسألة الطائفية بين السنة والشيعة فلعل أوضح تعبير عنها ما نجده في كتاب منهاج السنة للشيخ أحمد بن تيمية ت ٧٢٨هـ.

غير أن هذا لا يشكل كامل الصورة في العالم الإسلامي آنئذ، فقد كان إلى جانب هذا المنظر، منظر آخر يحرص فيه عدد من العلماء على التلاقي والاستفادة العلمية، والنظر إلى الآخرين بمنظار بعيد عن الحالة المتشنجة والشحن المذهبي.

ولا أدل على ذلك من المنهج الذي نلاحظه لدى شيخنا البحراني، فقد وجدنا هذا التفاعل بينه وبين علماء المذاهب الأخرى، إذ لم تمنعه مواقف بعضهم تجاه التشيع أن ينقل آراءهم، متى وجدها نافعة كما هو الحال في نقله لكلام طويل عن الشيخ أبي حامد الغزالي، في حقيقة التوبة من كتابه الإحياء بالرغم مما نقل من موقف الغزالي المتشنج تجاه الشيعة[1]. إضافة إلى عنايته في شرحه على النهج بذكر أقوال علماء السنة في المسائل المختلفة، ومناقشتها بنفس موضوعي هادئ بعيد عن التعبئة والشحن المذهبي. وإن الالتزام بمثل هذا المنهج في مثل تلك الظروف ليعد فضيلة كبيرة، ويكشف عن وعي استثنائي بالصالح الإسلامي، بحيث لا يستدرج لحالات التشاحن التي كانت سائدة آنئذ. ولهذا رأى بعض الباحثين أنه لابد أن يذكر للشيخ ميثم اعتداله في التشيع وتجنب

---

(١) د. زنكنه، مقال في مجلة رسالة التقريب عدد ٥٣

الخوض في الخلافات واللعن [١].

ونحن لا نستبعد أن يكون هذا التوجه هو المتبادل بين الشيخ ميثم، و(تلميذه وإن كان بالمعنى المشار إليه آنفا) العلامة الحلي أو تأثيره عليه في الانفتاح على الأفق الآخر، فقد درس العلامة على عدد من كبار علماء أهل السنة مثل علي بن عمر الكاتبي القزويني الشافعي، وبرهان الدين محمد بن محمد النسفي الحنفي، وابن الصباغ الحنفي. كما كانت له مع القاضي البيضاوي الشيرازي [٢]، صاحب التفسير، المتوفى (٦٨٥هـ) مكاتبات تفصح عن الخلق الإسلامي والعلمي النبيل، ومن تلك المكاتبات، كتاب بعثه البيضاوي فصدره بقوله: مولانا جمال الدين، أدام الله فواضلك، أنت إمام المجتهدين في علم الأصول.. فأجابه ابن المطهر بكتاب استهله بقوله: وقفت على إفادة مولانا الإمام أدام الله فضائله، وأسبغ عليه فواضله[٣].

ملاحظتان في شرح النهج:

في البداية لا بد أن نتوقف عند ملاحظة وهي أن كثيرا ممن كان همهم اصلاح الأمة، والدعوة إلى التقريب بين أطياف الأمة كان لهم شيء من الاهتمام بنهج البلاغة لأمير المؤمنين علي عليه السلام، فلقد حظي بالاهتمام من قبل الإمام الشيخ محمد عبده والدكتور صبحي الصالح، ومن الشهيد مرتضى المطهري، وآية الله شمس الدين وغيرهم.وقد يكون ما احتوى عليه النهج من أفكار في القمة، تدعو هؤلاء وغيرهم إلى الاستضاءة بأنواره.

ومن هؤلاء الشيخ ميثم بن علي البحراني، فقد شرح النهج شرحه الكبير باسم (مصباح السالكين) واختصره أيضا، وله شرح ثالث يعتقد أنه يتحد مع شرحه للكلمات المائة المختارة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

وأول ما يلفت النظر في شرحه للنهج هو أنه لم يكن قد مسوقا بظروف التقية التي تقتضي من البعض أن يختار ألفاظه بعناية حتى وإن كان معتقده خلاف ذلك ، وإنما

---

(١) المصدر السابق

(٢) عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، أبو سعيد، أو أبو الخير، ناصر الدين البيضاوي ت ٦٨٥هـ: قاض، مفسر، علامة. ولد في المدينة البيضاء (بفارس – قرب شيراز) وولي قضاء شيراز مدة وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها. من تصانيفه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ط «يعرف بتفسير البيضاوي، و «طوالع الأنوار – ط «في التوحيد، و «منهاج الوصول إلى علم الأصول – ط «، ورسالة في موضوعات العلوم وتعاريفها – خ «و «الغاية القصوى في دراية الفتوى – خ «في فقه الشافعية. خير الدين الزركلي؛ الأعلام ٤. ١١٠

(٣) الكثيري، السيد محمد: السلفية بين أهل السنة والإمامية. ٦٣٧

كان في ظرف يسمح له بحدود واسعة من الحركة في هذا المجال، فإن الشخص الذي قدم إليه كتابه وهو علاء الدين الجويني الوالي في زمان أحمد تكودار، يعد من موالي أهل البيت ﷺ، ولم يكن مختلفا معه في المذهب، وهذا يجعلنا نعتقد أن ما ذكره في شرح النهج يمثل فكره ومنهجه في التعامل مع القضايا التي شرحها من كلمات أمير المؤمنين ﷺ. ويكسب هذا الشرح أهمية استثنائية.

وثاني ما يلفت النظر:عنايته بنقل أقوال الجمهور في مواضع الاختلاف، وإنصافهم في النقل، ثم نقد ذلك بما يعتقده من الدليل. فإنه عندما يتحدث عن قضية أبي ذر مع عثمان تراه ينقل رأي غير الشيعة فيها، والقائل بأن الربذة كانت من اختيار أبي ذر بعد أن خيره الخليفة بين عدد من المواضع، ثم ينقل رأي الشيعة القائل بأنه أخرج إليها من غير اختياره، ويقوي الثاني باعتبار أن نص الخطبة عن الإمام يتناسب مع هذا الرأي (إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك) [(١)].

كما يستوقف الناظر أنه يعالج المسائل تلك بنفس بعيد عن الشحن والتعبئة ولعل نظرة على عدد من الخطب والكلمات التي شرحها ومقارنتها ببعض الشروح الأخرى تبين الفرق بين النحوين من الشرح: المتعقل والتعبوي. هلم معي لننظر في بعض الخطب التي تتعرض إلى موضوع الخلافة، وهو من المواضيع الأساسية التي تثير الخلاف بين فئات المسلمين كما هو واضح.

كيف عالج الشيخ ميثم مسائل الخلاف؟

إن الشيخ ميثم الذي يتحدث عن الموضوع الأصلي في الخلاف في شرحه للخطبة الشقشقية [(٢)] بنفس محايد يعرض في أصل ثبوتها إلى الخطأ الذي وقع فيه بعض الشيعة حيث ادعوا تواترها لفظا عن الإمام علي ﷺ، يتعرض إلى الخطأ الذي وقع فيه بعض السنة الذين ادعوا أن الخطبة لا تصح نسبتها إلى الإمام وأنه لم يصدر عنه تظلم أو تشكٍ، وبعد أن يقرر أن التصدي للاثبات والنفي في هذا المقام هو مظنة التهمة للشارحين. ينفي الأول ويعارض الثاني، فلا تواتر لفظي كما يدعيه بعض الشيعة وإلا لكان معلوما لدى جميعهم، ثم يبدأ في توجيه وتبرير فعل علماء السنة في إنكار صدورها

(١) مصباح السالكين ٣. ١٤٦
(٢) المصدر ١. ٢٥٣

عن الإمام، بأنهم ربما أرادوا تسكين خواطر العوام من أنه لم يكن بين الصحابة الأولين الذين هم أشراف المسلمين وساداتهم سوء أو خلاف ليقتدي بحالهم من سمع ذلك عنهم! ويرى أن هذا مقصد لطيف.

وأما لو كان المقصود هو أنه لم يقع فعلا شيء من ذلك الخلاف أو المنافسة في أمر الخلافة فإن ذلك لا يصح ولا ينكر حصوله إلا جاهل بالتاريخ وأخباره. ثم يذكر أن قضية التشكي والخلاف متواترة معنى لتعدد نقلها واختلاف الفاظها.

في قول أمير المؤمنين عليه السلام: «فلأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة التماسا لأجر ذلك وفضله وزهدا فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه»: قال الشيخ ميثم: إن غرضه كان صلاح حال المسلمين واستقامة أمرهم، وسلامتهم عن الفتن، وقد كان لهم بمن سلف من الخلفاء الثلاثة استقامة أمر، وإن كانت لا تبلغ عنده كمال الاستقامة. وفي نفس الشرح يقول: إن الفرق بين الخلفاء الثلاثة وبين معاوية في إقامة حدود الله والعمل بمقتضى أوامره ونواهيه ظاهر[1].

في شرح خطبة الإمام لما سأله أحدهم كيف استبد عليكم قومكم بالأمر؟ فقال: «أما الاستبداد علينا ونحن الأعلون نسبا والأشدون برسول الله صلى الله عليه وآله نوطا، فإنها كانت أثرة شحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين والحكم الله والمعود إليه القيامة»[2]، قال في الشرح: بأن الذين شحوا بها على رأي الإمامية هم من تقدموا عليه في الإمامة، وعند غيرهم هم أهل الشورى بعد عمر، ثم قال: بعد ان ذكر استشهاد الإمام بصدر بيت (فدع عنك نهبا صيح في حجراته) قال وجه المطابقة في الاستشهاد: أن السابقين من الأئمة وإن كانوا قد استبدوا بهذا الأمر فحديثهم مفهوم إذ لهم الاحتجاج بالقدمة في الإسلام والهجرة وقرب المنزلة من الرسول وكونهم من قريش فدع ذكرهم ونهبهم في هذا المقام، ولكن هات ما نحن فيه الآن من حديث معاوية بن أبي سفيان[3].

شرحه خطبة الإمام (لله بلاء (بلاد) فلان فلقد قوم الأود وداوى العمد وأقام السنة وخلف الفتنة ذهب نقي الثوب قليل العيب) فإنه في البداية قد نقل كلام بن أبي الحديد مترحما عليه (وشتان بينه في هذا وبين من قيّده بسلاسل الحديد!) الذي فسر المراد بأنه عمر دون أبي بكر لقصر مدة أبي بكر، ودون عثمان لتشعب الفتنة في عهده، ثم نقل

(١) المصدر ج٢/٢٠٥ شرح خطبة ٧٣.

(٢) المصدر ٣. ٢٩٣ خ ١٦١

(٣) المصدر ٣/٢٩٥

ما ذكره القطب الراوندي من أنه أراد بعض أصحابه ورده بما قاله ابن أبي الحديد من أن ظاهر هذه الصفات في شخص قد ولي الخلافة، ثم استقرب الشيخ ميثم أن يكون المراد هو أبو بكر دون عمر حيث قد انتقد في الشقشقية عهده[1]. ثم طفق يجيب عن سؤال: كيف يجتمع هذا المدح مع ما هو معهود عند الشيعة من تخطئتهم للخليفتين.

فانظر إلى الفرق بين هذا التفسير وبين تفسير غيره كالميرزا حبيب الله الخوئي في كتابه منهاج البراعة.

التوجه التقريبي لا يتجاوز حقائق التاريخ:

غير أن توجهه التقريبي لا يجعله يتجاوز حقائق التاريخ، أو يطوي عنها كشحا، فهو يعلق على قول الإمام عليه السلام (لم تكن بيعتكم إياي فلتة) بأنها تعريض ببيعة أبي بكر حيث قال فيها عمر: إنها فلتة وقى الله المسلمين شرها [2]. لكن يبقى تقييم المسألة ضمن حدودها.

وهكذا الحال في بقية المواقف فإنه عندما يتكلم عن شرح خطبة (اللهم إني أستعديك على قريش فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفؤوا إنائي وأجمعوا على منازعتي حقا كنت أولى به من غيري) يقول رأي الشيعة إن المقصود بالمجمعين على خلافه هم الخلفاء الثلاثة قبله، وقال غيرهم إن المقصود بهم هم المجمعون وقت الشورى فلا يدخل فيهم الشيخان، والقول الثاني ضعيف [3].

وهكذا عندما يتناول في الخطبة الشقشقية مواضع النقد والاشكال التي وجهها أمير المؤمنين عليه السلام لخلافة الخلفاء الأوائل، فإنه تعرض لها بالتفصيل.

فإن موقفه هذا لا يستدعي منه أن يتنازل عن ثوابته العقدية فإن نفس هذا الشيخ هو الذي يؤلف (استقصاء النظر في إمامة الأئمة الاثني عشر). والكتاب وإن لم نعثر على نصه إلا أنه من الطبيعي أنه ينطلق لإثبات إمامتهم.

ولعله لهذه الجهة التي تعتمد التوازن في الحكم على الأطراف الأخرى ،وأنه لم يعهد منه مسلك اللعن والشتم والتعبئة المذهبية وخصوصا ما يرتبط بالخلفاء الثلاثة، نفى المحققون صحة نسبة كتاب (الاستغاثة في بدع الثلاثة) الذي يعتمد مؤلفه منهجا شديدا

(١) المصدر ٤. ٩٧
(٢) المصدر ٣/١٦٤
(٣) المصدر ٤/ ٥٠

في هذه الجهة إلى الشيخ ميثم البحراني.

فقد نقل العلامة المجلسي نسبة الكتاب إلى الشيخ ميثم في البحار في موضعين، وكذا فعل صاحب الرياض، والشيخ سليمان البحراني شيخ صاحب الحدائق، و الشيخ عبد النبي الكاظمي في تكملة الرجال، وقد رد صاحب الحدائق تلك النسبة بأن منهجه الذي نراه في شرح النهج وغيره من كتبه، لا يتناسب مع الكتاب المذكور لا في هدف تأليفه، ولا في نمط الحديث عن الخلفاء ولذا ردت نسبة الكتاب إليه، من خلال تحليل نص الكتاب ومنهجية الشيخ ميثم.

(قال المحقق المحدث البحراني في اللؤلؤة بعد نقل ترجمة ابن ميثم، عن رسالة السلافة البهية في الترجمة الميثمية، لشيخه العلامة الشيخ سليمان البحراني، وعد الكتاب المذكور من مؤلفاته، وتوصيفه بأنه لم يعمل مثله ما لفظه: ثم إن ما ذكره شيخنا المذكور من نسبة كتاب الاستغاثة في بدع الثلاثة للشيخ المشار إليه غلط قد تبع فيه من تقدمه، ولكن رجع عنه أخيرا فيما وقفت عليه من كلامه، وبذلك صرح تلميذه الصالح الشيخ عبد الله بن صالح البحراني ﵀، وإنما الكتاب المذكور كما صرحا به لبعض قدماء الشيعة من أهل الكوفة، وهو علي بن أحمد أبو القاسم الكوفي، والكتاب يسمى كتاب البدع المحدثة، ذكره النجاشي في جملة كتبه، ولكن اشتهر في ألسنة الناس تسميته بالاسم الأول، ونسبته للشيخ ميثم، ومن عرف سليقة الشيخ ميثم في التصنيف، ولهجته وأسلوبه في التأليف، لا يخفى عليه أن الكتاب المذكور ليس جاريا على تلك اللهجة، ولا خارجا من تلك اللجة) [١]انتهى.

وأخيرا:

فإن التنوع المذهبي في الأمة حقيقة لا يمكن تجاهلها، والحوارات والنقاشات العقدية والفقهية أمر طبيعي ومفيد لإثراء الساحة العلمية والفكرية بمختلف النظريات، غير أنّا نحتاج إلى منهج في ذلك، يطلق العنان من جهة لنتائج العقل والفكر ويكون على مستوى عال من الأخلاقية في التعامل مع الرأي الآخر، والمذهب المخالف سواء في إنصافه أو في طريقة التعبير عنه وعن رموزه. وهذا ما وجدناه في نهج الشيخ ميثم في شرحه للنهج.

(١) النوري، الميرزا :خاتمة المستدرك ١. ١٦٩

العلامة الحلي نادرة الدهر

الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر

٦٤٨ ٧٢٨هـ

كل إنسان هو قصة في هذه الحياة، وهو جزء من التاريخ الانساني حيث يتشكل من غيره ومنه أيضا، من مواقفه وإنتاجه، وجهده وسعيه قل أو كثر.

ويخلّف الانسان شاء أو أبى صورة من الصور تبقى بعده، وهنا يختلف الناس، فإذا كان جميع الناس يأتون إلى هذا الدنيا راغمين، وليس باختيارهم أصل مجيئهم ولا توقيته، ويذهبون مجبورين كذلك، ليس لهم من أمرهم شيء، ولا يملكون لأنفسهم في هذا نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

إلا أن بإمكانهم أن يصنعوا الصور التي يريدونها، فبينما يرسم بعضهم صورة تقطر منها أطرافها دماء الضحايا، ويلونها عذاب الثواكل، ويعزف فيها أنين اليتامى، من أجل حطام دنيا زائل، أو مجد رئاسة آفل (يتطعمونها برهة ثم يلفظونها جملة)، حتى يسجل التاريخ في كتابه بعد ذلك صفحة تنطوي أيام لذتها بالنسبة لهم، وتبقى دهور لعنتها عليهم.

بينما يقوم هؤلاء بما عبر عنه بعضهم بقوله:

وكنت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

يعيش البعض الآخر غافلا ساهيا سادرا (ما بين نثيله ومعتلفه) كما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام، حتى إذا اخذ نصيبه من الدنيا رحل عنها من غير أثر يذكر أو علم يؤثر، وهذا وإن كان لا يقاس بسابقه لجهة أنه لم يؤذ أحدا، إلا أنه لم يستثمر حياته في ما خلق له. ووجوده في الحياة أشبه بلفظ المجاز الذي يستعمل في غير ما وضع له!

وهناك أناسٌ .. تجلى الله سبحانه وتعالى لهم حتى عبدوه حق

عبادته، وعملوا له ما استطاعوا، وتجلى فيهم حتى كانوا مصداق قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين).

أولئك الذين ملؤوا التاريخ مآثر والجغرافيا نورا وحكمة. فإذا فتحت بيت قرونهم فهم فيه الأنوار السواطع ليس في القرن السابع فحسب، بل يبقى عاطر ذكرهم، وعالي علمهم نافعا إلى سائر القرون.

في طليعة هذا الركب، مجددو القرون علما وفقها ومعرفة، حيث أن الله سبحانه وتعالى (يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها)، ومن ألمع أولئك شخصية كان العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن المطهر رضوان الله تعالى عليه. حيث أنه بشيء من التتبع يلاحظ الناظر المتأمل مقدار الأثر الذي تركه العلامة الحلي بعده، سواء على مستوى الدعوة إلى طريق أهل البيت عليهم السلام، أو على مستوى الاستدلال والاستنباط الفقهي في ابتكاره لمناهج ظلت هي السائدة إلى يومنا هذا، أو على مستوى العطاء العلمي والفكري الباقي في كتبه الكثيرة ومؤلفاته كما سيأتي الحديث عنها.

في الحلة وهي مدينة تقع جنوب بغداد على بعد ١٠٠ كيلو منها كانت ولادة الحسن بن يوسف، في أسرة علمية، ورث منها حب العلم من طرفيه.

فوالده وأستاذه الأول هو الشيخ سديد الدين يوسف بن علي بن المطهر، وهو العالم الجليل الذي أشار إليه المحقق الحلي صاحب الشرائع على أنه أعلم تلاميذه بالأصولين (الفقه والكلام) عندما سئل عن خيرة تلامذته، وهو نفسه الذي ذهب لمقابلة هولاكو عندما اجتاحت جيوشه مدن العراق واستطاع أن يحيده عن تدمير الحلة، وأن يأخذ منه أمانا لأهلها[1].

وخاله المحقق الشيخ نجم الدين ابو القاسم جعفر بن الحسن، صاحب الكتب المهمة في الفقه والأصول، وأفضلها كتاب (شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام) الذي يعد منذ زمان تأليفه وإلى يومنا هذا في طليعة المتون الفقهية، المنظمة تنظيما منهجيا راقيا، وهو على اختصاره (أربعة أجزاء بالطبع الحديث) دورة فقهية كاملة، فيها إشارات

(١) ربما يقال إنه لماذا لم يلجأ الشيخ سديد الدين إلى إعلان الجهاد ضد الغزاة، بالرغم من ان تاريخ الشيعة كان تاريخ الثورة والمقاومة؟ والجواب عن ذلك أن الجهاد هو عمل منطلق من الشرع والعقل معا، وليس بمعزل عنهما، فإذا كانت المقاومة انتحارا بكل المعاني، وأراد الانسان أن يختار هذا الجانب فقد يكون ذلك سائغا له كشخص، ولكنه لا يستطيع أن يغامر بالمجتع الذي جعله موفدا منه، وإنما عليه أن يلاحظ مصلحة موكليه وموفديه ولا ريب أنه لم يرَ مع ملاحظة تلك الظروف أن مصلحة المجتمع الضعيف في مقاومة هذا الشلال من القوة.

إلى الأدلة، وقد شرح ما بين شرح مزجي واستدلالي، وبصورة التعليقة أكثر من ٧٠ مرة.

ولم يكن دور السيد علي بن موسى بن طاووس في تربيته أقل من دور أبيه وخاله، ولعل أكبر تأثيره فيه الجانب الأخلاقي والمعنوي الروحي، حيث عرف السيد بن طاووس بأنه صاحب الكرامات والتي تحدث عنها العلامة الحلي نفسه.

والشيخ كمال الدين ميثم بن علي البحراني، كان من طبقة المحقق الحلي استاذ العلامة، وقد روى العلامة عن الشيخ ميثم البحراني، وبعض العلماء يرون أن العلامة درس على يد الشيخ ميثم. وهكذا الحال بالنسبة إلى الشيخ الخواجة نصير الدين الطوسي كما تقدم في ترجمته، فقد نقل أنه أخذ الفقه من العلامة الحلي كما درسه العلوم العقلية.

ولم يقتصر أخذ العلامة على علماء المدرسة الإمامية، وإنما تعداهم ليدرس ويتباحث مع علماء مدرسة الخلفاء، فقد ذكر في بعض إجازاته أسماء عدد من العلماء الذين أخذ عنهم، وأنصفهم ذكرا وثناء، فقد تحدث عن الشيخ شمس الدين محمد الكيشي الشافعي، وقال عنه إنه كان من أفضل علماء الشافعية، وكان من أنصف الناس في البحث، كنت أقرأ عليه وأورد عليه اعتراضات في بعض الأوقات فيفكر ثم يجيب تارة وتارة أخرى يقول: حتى نفكر في هذا عاودني هذا السؤال. فأعاوده يوما ويومين وثلاثة. فتارة يجيب، وتارة يقول: هذا عجزت عن جوابه[١]. والشيخ برهان الدين النسفي الحنفي، المصنف في الجدل وهذا الشيخ كما قال العلامة كان عظيم الشأن زاهدا مصنفا في الجدل، استخرج مسائل مشكلة، قرأت عليه بعض مصنفاته في الجدل، وله مصنفات متعددة [٢].

دور العلامة في تشيع إيران:

لقد ذكرنا في بعض كتبنا[٣] أنه على العكس مما يزعم من أن منشأ التشيع فارسي، فإن التشيع كان هدية العرب إلى إيران في مراحل خمس[٤]:

(١) الحسون: الشيخ فارس في مقدمة كتاب إرشاد الأذهان.

(٢) المصدر نفسه

(٣) صفحات من التاريخ السياسي للشيعة /١٠٥

(٤) استفدنا هنا من الدراسة القيمة التي أعدها الباحث رسول جعفريان:الشيعة في إيران.

- المرحلة الأولى: بدايات تشيع الموالي في العراق، تشيعا سياسيا بحسب التعبير.
- الثانية: تشيع بعض المناطق مثل قم على أثر هجرة العرب إليها من أيام الأمويين بعد منتصف القرن الأول.
- الثالثة: مرحلة قيام الدولة البويهية في منتصف القرن الرابع.
- الرابعة: التزام بعض سلاطين المغول بالتشيع وإعلانه المذهب الرسمي في إيران في القرن الثامن.
- الخامسة: قيام الدولة الصفوية في منتصف القرن العاشر.

وتعد المرحلة الرابعة والخامسة أهم المراحل لجهة التزام النظام السياسي الحاكم بالتشيع كمذهب وعقيدة، وتبنيه نشره والدفاع عنه.

وفي هذه المراحل جميعا كان الدور الأهم لو لم يكن الوحيد من نصيب العلماء والفقهاء العرب الذين جاؤوا من الكوفة وبغداد والحلة ولبنان والبحرين. وفي المرحلة الرابعة يكاد يكون العلامة الحلي رضوان الله تعالى عليه بطل المشهد بلا منازع حيث وإن تعددت رواية الأسباب التي دعت السلطان المغولي إلى التفكير في اتخاذ مذهب جديد غير المذاهب السائدة، إلا أنها تتفق على أن بطل المشهد كان العلامة الحلي. وذلك أنه بعد أن أسقط المغول الخلافة العباسية، وسيطروا على العراق وغيرها من البلاد المسلمة. وبعد أن زاح دخان المعارك، تأثر كثير منهم بالفكر الإسلامي والعقائد الدينية العامة، غير أن قضية المذاهب كانت قضية ساخنة، فبالرغم من أن بلاد المسلمين كانت قد تعرضت إلى تلك المشاكل إلا أن الصراعات المذهبية كانت على أشدها. وكان كل فريق يريد أن يستقطب شخصيات المغول لمذهبه ويبعدهم عن المذهب الآخر لكي يستقوي المذهب بانتمائهم إليه.

يقال: إن بعض السلاطين المغول مثل غازان خان اتخذ موقفا متوسطا بين المذاهب فكان يتعاطف مع الجميع، ويسمح للجميع بممارسة نشاطه.وإن كان يميل إلى التشيع.

إلا إن اختيار السلطان أولجايتو محمد خدابنده التشيع صراحة وإعلانه اياه على انه المذهب الرسمي، وتغيير الخطبة لكي تصطبغ بصبغة شيعية، والتظاهر بالشعائر الشيعية، شكل دفعة قوية لانتشار المذهب.

فإنهم يذكرون في تشيعه عدة حوادث:

منها أنه مل من النزاع الحاصل بين الشافعية والاحناف فكل منهم يشوه له مذهب الآخر، فاقترح عليه سيد تاج الدين الأوجي أن ينظر في التشيع(1).

ومنها: أنه غاضب زوجته فطلقها ثلاثا في مجلس واحد، وكان يفتش عن مخرج لا ينتهي إلى أن تنكح زوجا غيره(2).

فكان أن استقدم العلامة الحلي، الذي ناظر علماء بقية المذاهب وفاقهم، فأعلن السلطان تشيعه على أثر ذلك.

---

(1) ذكر ذلك الشيخ فارس الحسون في مقدمته لكتاب إرشاد الأذهان للعلامة الحلي، فبعد أن بين جانبا من الحيرة التي حصلت لأمراء المغول على اثر الاختلاف الحاصل بين الشافعية والأحناف قال:. فلما رأى الأمير طرمطار تحيره في أمره قال له: إن السلطان غازان خان كان أعقل الناس وأكملهم فمال إلى مذهب التشيع ولا بد أن يختاره السلطان، فقال: ما مذهب الشيعة؟ قال الأمير طرمطار: المذهب المشهور بالرفض، فصاح: يا شقي تريد أن تجعلني رافضيا! فأقبل الأمير يزين مذهب الشيعة ويذكر محاسنه له، فمال السلطان إلى التشيع. وفي هذه الأيام ورد على السلطان السيد تاج الدين الآوي الإمامي مع جماعة من الشيعة، فشرعوا في المناظرات مع القاضي نظام الدين في محضر السلطان في مجالس كثيرة، وكانت مناظرتهم بمثابة المقدمة للمناظرة الكبيرة التي وقعت بعد هذا بين علماء السنة والعلامة الحلي بمحضر السلطان. وبعد مناظرة السيد الآوي عزم السلطان السفر إلى بغداد ثم الذهاب إلى زيارة قبر أمير المؤمنين علي عليه السلام، وعند القبر رأى مناما يدل على حقية مذهب الإمامية، فعرض السلطان ما رآه في المنام على الأمراء، فحرضه من كان منهم في مذهب الشيعة على اعتناق هذا المذهب الحق، فصدر الأمر بإحضار أئمة الشيعة، فطلبوا جمال الدين العلامة وولده فخر المحققين، وكان مع العلامة من تأليفاته كتاب نهج الحق وكتاب منهاج الكرامة، فأهداهما إلى السلطان، وصار موردا للألطاف والمراحم. فأمر السلطان قاضي القضاة نظام الدين عبد الملك - وهو أفضل علماء العامة، أن يناظر آية الله العلامة، وهيأ مجلسا عظيما مشحونا بالعلماء والفضلاء من العامة، منهم المولى قطب الدين الشيرازي وعمر الكاتبي القزويني وأحمد بن محمد الكيشي والمتسيد ركن الدين الموصلي. فناظرهم العلامة وأثبت عليهم بالبراهين العقلية والحجج النقلية بطلان مذاهبهم العامية وحقيقة مذهب الإمامية.

(2) ذكره السيد الأمين في الأعيان: ج5، ص:396 ناقلا إياه عن الشيخ محمد تقي المجلسي فقال: ذكر التقي المجلسي في شرح الفقه ان السلطان الجايتو محمد المغولي الملقب بشاه خربندا غضب على احدى زوجاته فقال لها أنت طالق ثلاثا ثم ندم فسال العلماء فقالوا لا بد من المحلل فقال لكم في كل مسألة أقوال فهل يوجد هنا اختلاف؟ فقالوا لا، فقال أحد وزرائه: في الحلة عالم يفتي ببطلان هذا الطلاق، فقال العلماء ان مذهبه باطل ولا عقل له ولا لأصحابه ولا يليق بالملك ان يبعث إلى مثله، فقال الملك أمهلوا حتى يحضر ونرى كلامه فبعث فاحضر العلامة الحلي فلما حضر جمع له الملك جميع علماء المذاهب فلما دخل على الملك اخذ نعله بيده ودخل وسلم وجلس إلى جانب الملك فقالوا للملك ألم نقل لك انهم ضعفاء العقول فقال اسألوه عن كل ما فعل فقالوا لماذا لم تخضع للملك بهيئة الركوع فقال لان رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يركع له أحد وكان يسلم عليه وقال الله تعالى فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة ولا يجوز الركوع والسجود لغير الله قالوا فلم جلست بجنب الملك قال لأنه لم يكن مكان خال غيره قالوا فلم اخذت نعليك بيدك وهو مناف للأدب قال خفت ان يسرقه بعض اهل المذاهب كما سرقوا نعل رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا ان اهل المذاهب لم يكونوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بل ولدوا بعد المائة فما فوق من وفاته. كل هذا والترجمان يترجم للملك كلما يقوله العلامة، فقال للملك: قد سمعت اعترافهم هذا فمن أين حصروا الاجتهاد فيهم ولم يجوزوا الاخذ من غيرهم ولو فرض انه أعلم؟! فقال الملك ألم يكن أحد من أصحاب المذاهب في زمن النبي صلى الله عليه وآله ولا الصحابة قالوا لا، قال العلامة: ونحن نأخذ مذهبنا عن علي بن أبي طالب نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وأخيه وابن عمه ووصيه وعن أولاده من بعده. فسأله عن الطلاق، فقال باطل لعدم وجود الشهود العدول. وجرى البحث بينه وبين العلماء حتى ألزمهم جميعا فتشيع الملك وخطب بأسماء الأئمة الاثني عشر في جميع بلاده وامر فضربت السكة بأسمائهم وامر بكتابتها على المساجد والمشاهدعن علي بن أبي طالب نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وأخيه وابن عمه ووصيه وعن أولاده من بعده. فسأله عن الطلاق، فقال باطل لعدم وجود الشهود العدول. وجرى البحث بينه وبين العلماء حتى ألزمهم جميعا فتشيع الملك وخطب بأسماء الأئمة الاثني عشر في جميع بلاده وامر فضربت السكة بأسمائهم وامر بكتابتها على المساجد والمشاهد.

العلامة الحلي ودوره في البناء العلمي للشيعة:

من جملة معرفات علم الفقيه، أثره الكتابي الذي يتركه من بعده للوسط العلمي حيث يكون لسانا ناطقا مستمرا بعده يتعرف الباحثون من خلاله على أفكاره وآرائه ولسان حاله في ذلك (هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ)، ولا يستطيع أحد في هذه الحالة أن ينكر علمه إذا اطلع على ما كتب، خصوصا إذا لاحظ أن الكتاب قد صنف في مرحلته الزمنية المعينة.

كما أن من معرفات علم العالم، أثره في من بعده من حيث تغير طريقة الاستدلال والاستنباط بالنحو الذي طرقه وعرفه هذا العالم. فإذا أضاف هذا العالم مباني جديدة أثرت على الوسط العلمي (سواء قبلها ذلك الوسط العلمي أو ناقشها وبقيت محلا للأخذ والرد) فهذا أيضا معرف آخر للعالم. بخلاف ما إذا مر على هذا الوسط، مرورا هادئا لا يثير سؤالا، ولا يفتح باب جواب ولا يحل مشكلة ولا يصنع مشكلة!

وقد اجتمع الأمران في العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن المطهر ﵀ بأفضل ما يمكن اجتماعه لأحد، ففي الجانب الثاني وهو:

أثره في الحوزات العلمية:

يعتبر العلامة الحلي ﵀ تعالى مؤسسا لما سمي بالاصطلاح الجديد في علم الرجال، وهو تقسيم الأخبار والروايات إلى أربعة أقسام:

١. الصحيح: وهو ما اتصل سنده إلى المعصوم برواية العدل الإمامي عن مثله.

٢. والحسن: وهو ما اتصل سنده إلى المعصوم برواية الممدوح الإمامي عن مثله أو عن العدل الامامي.

٣. والموثق: وهو ما اتصل سنده إلى المعصوم برواية الثقة غير الامامي عن مثله أو عن الامامي.

٤. والضعيف: وهو ما سوى ما تقدم.

وهذه الطريقة الجديدة في تصنيف الأخبار أنتجت نتائج مهمة، منها أنها وضعت مقياسا واضحا (سنديا) لقبول الخبر ورده، ومسطرة يمكن عن طريقها تصحيح الرواية وتحديد الموقف منها، في الوقت الذي كان هذا المصطلح غير واضح. فبين من كان

يعتقد بصحة أحاديث الكتب الأربعة (الكافي، والفقيه والتهذيب، والاستبصار) كما ذهب إليه أكثر المحدثين الأخباريين[1]، وبين من كان يعتقد بأن الطريق لتصحيح الحديث هو التعرف على القرائن التي تفيد الوثوق بصدوره عن المعصوم. وكلا المسلكين كما هو رأي أتباع مدرسة الوثوق السندي لا ينبني عليه منهج علمي صارم.

وبالرغم من أنه قد ينسب ذلك على نحو الترديد كما في مقدمات الحدائق إلى السيد ابن طاووس شيخ العلامة وأستاذه، إلا أن الذي كرس هذا المصطلح في الفقه، وحوله إلى منهج كان هو العلامة حتى لو لم نقل بأنه كان المبتكر له، وهو غير بعيد كما أشار إليه بعضهم من أن اطلاع العلامة على منهجية مدرسة الخلفاء، حداه إلى أن يضع ضوابط أيضا للروايات في المدرسة الشيعية، وهذا الكلام وإن كان يقال أحيانا في سياق الانتقاد والاتهام، إلا أنه لو فرضنا صحته لا يكون شيئا سيئا، إذا كانت نتيجته وضع منهجية صارمة في الاستدلال.

ولدوره ذاك فقد نسب إليه الأمين الاسترابادي أنه أول من سلك طريقة الاجتهاد من أصحابنا كما قال، وهو وإن لم يكن صحيحا فإنه مسبوق به، وإنما كان الأمين يريد بذلك التشنيع على العلامة حيث أن الاسترابادي مخالف لطريقة المجتهدين والاجتهاد، إلا أنه يشير إلى دور العلامة في تكريس هذه المنهجية.

هذا بغض النظر عن اختياراته الفقهية الخاصة في المسائل والتي نسخ في بعضها قول من تقدمه بحيث أصبح يؤرخ للمسألة بما قبل العلامة وما بعده، وهي كثيرة لكنها باعتبارها مسائل فرعية لا نتحدث عنها الآن، لكنها تشير إلى تلك الذهنية المتوقدة والتجديدية للعلامة ﵀.

كما أن العلامة ﵀ كان بعد الجيل الأول من الفقهاء كشيخ الطائفة ممن خاض في بحر بحث الفقه المقارن بين المذاهب الإسلامية، في كتاب تذكرة الفقهاء الذي يعرب عن تبحره وإحاطته بالأدلة، وكذلك كتابه منتهى المطلب. ولا يستغني الباحثون في الفقه المقارن عن هذين الكتابين.

(١) انظر الأمين الأسترابادي في الفوائد المدنية، والفيض الكاشاني في الأصول الأصيلة، والمحدث البحراني في مقدمات الحدائق الناضرة والحر العاملي في خاتمة وسائل الشيعة.

كتب العلامة الحلي وأثاره:

نقل عن المحدث الشيخ يوسف البحراني قوله: لقد قيل إنه وزع تصنيفه على أيام عمره من يوم ولادته إلى موته، فكان قسط كل يوم كراسا، مع ما كان عليه من الاشتغال بالإفادة والاستفادة والتدريس والأسفار والحضور عند الملوك. والمباحثات مع الجمهور ونحو ذلك من الأشغال، وهذا هو العجب العجاب الذي لا شك فيه ولا ارتياب [١].

وبالفعل فإن من ينظر إلى عدد كتبه بتعداد مجلداتها الكثيرة، ولم تكن في الغالب نقولات، وإنما هي إعمال فكر واستدلال، مع اختلاف ميادينها، وتعدد مواضيعها، لا بد أن يستولي عليه العجب، بل يغرق في الإعجاب بهذه الشخصية الاستثنائية.

وقد ذكر الشيخ الحسون في مقدمته الوافية عن شخصية العلامة الحلي (١٠١) عنوانا من عناوين الكتب التي ثبتت نسبتها للعلامة، و (٢٣) كتابا يشك في نسبتها إليه. وقد فهرسها بعضهم بأن (للعلامة رحمه الله ما يناهز ثلاثين كتابا في الكلام وأصول الدين والجدل والاحتجاج وآداب البحث والمناظرة. وعشرين كتابا في الفقه وحده بينها ما كان في عدة مجلدات. وسبعة كتب في أصول الفقه وفي التفسير كتابين، وفي الحديث خمسة كتب، وفي الرجال ثلاثة كتب، وفي المعقول ستا وعشرين كتابا، وفي الأدعية كتابين، وفي النحو أربعة كتب، وفي الفضائل كتابين إلى غير ذلك من مؤلفاته)[٢].

ونحن نشير هنا إلى بعض عناوين كتبه المهمة مع شيء من التعريف المختصر لها:

ففي الفقه:

له كتب استدلالية، منها تذكرة الفقهاء (١٤ مجلدا) وهو فقه استدلالي مقارن بين المذاهب، وينتصر فيها لأدلة مذهب الإمامية، ومنها مختلف الشيعة (٩ مجلدات) وهو فقه استدلالي مقارن ولكن بين أقوال فقهاء الشيعة ينتصر فيها لآرائه ويستدل عليها، ومنتهى المطلب (٤ مجلدات) وهو جمع بين الطريقتين السابقتين.

وفي الفقه له أيضا فقه مجرد عن الدليل: مثل إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان (مجلدان) الذي بلغ الاهتمام به به أن له قرابة (٥١) شرحا وتعليقة، والرسالة السعدية

---

(١) الحسون، فارس في مقدمة إرشاد الأذهان ١. ١٥٣ نقلا عن لؤلؤة البحرين.

(٢) الحسيني، أحمد في مقدمة تبصرة المتعلمين. ٩

وقد بدأها بالبحث الكلامي عن الله وصفاته والنبي المصطفى وميزاته ولزوم اتباع منهج أهل البيت عليهم السلام، ثم ثنى بذكر مسائل الوضوء والصلاة، ثم فصل عن الأخلاقيات، وختمها بذكر العدل واجتناب الظلم، (حيث أن الكتاب ألف لأحد الحاكمين المسمى بخواجه سعد الدين).

وله أيضا: تبصرة المتعلمين، وهو كتاب فقهي كامل (من الطهارة إلى الديات) وقد حظي باهتمام كبير، بحيث كان محور الدراسة في الحوزات العلمية، إلى وقت قريب، ومحل شرح وتحشية العلماء عليه.

وله أيضا قواعد الأحكام في مسائل الحلال والحرام، ذكر فيه ما يقارب من (٦٦٠) قاعدة في الفقه، وكتاب تحرير الأحكام الشرعية الذي يحتوي على قرابة أربعين ألف فرع فقهي، في استعراض من غير استدلال.وله كتاب نهاية الاحكام في معرفة الأحكام، يشتمل على كثير من الأبواب الفقهي، مع استدلال مختصر ومركز.

وأما كتبه الكلامية والعقدية:

ففي طليعتها: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، والأصل للفيلسوف الخواجة نصير الدين الطوسي، ويكفي الكتاب أصلا وشرحا من الفخر ما قاله العلامة القوشجي[(١)] من أنه لولا كشف المراد لما فهمنا مراد تجريد الاعتقاد. والكتاب يحتوي على قسمين، الأول في مباحث الحكمة العامة، والثاني في الحكمة الخاصة بدءا بوجود الله تعالى، وقضايا النبوة والإمامة وسائر الاعتقادات.

وكتاب الألفين في إمامة أمير المؤمنين، رتبه على أساس ألف دليل على إمامة الامام علي عليه السلام، وألف دليل في إبطال شبه الطاعنين فيها. ولم يكتمل.

ومنهاج الكرامة في معرفة الإمامة، وفيه بعد الحديث عن الاعتقاد بالله وصفاته، الحديث عن الامامة عموما وإمامة أمير المؤمنين وأهل البيت خصوصا، ١والاستدلال عليها.

ونهج الحق وكشف الصدق، وهو الذي كتبه واهداه للسلطان المغولي الشاه محمد

(١) علي بن محمد القوشجي، علاء الدين ت ٨٧٩هـ: فلكي رياضي، من فقهاء الحنفية. أصله من سمرقند. كان أبوه من خدام الأمير «ألغ بك «ملك ما وراء النهر، يحفظ له البزاة وقرأ علي على الأمير ألغ بك – وكان ماهرا في العلوم الرياضية – ثم ذهب إلى بلاد كرمان فقرأ على علمائها، وصنف فيها «شرح التجريد – ط «للطوسي، وعاد. وكان ألغ بك قد بنى «رصدا «بسمرقند، ولم يكمل، فأكمله القوشجي. الأعلام – خير الدين الزركلي – ج ٥ – ص ٩

خدابنده الذي تشيع على يد العلامة، فكتب له هذا الكتاب مفصلا في الاعتقادات، بدءا من مباحث التوحيد ثم النبوة والامامة والاستدلال من القرآن على إمامة أمير المؤمنين وأولاده، وختمه بأمهات المسائل الفقهية.

ومنتهى الوصول إلى علمي الكلام والأصول، وأسمه يدل على محتواه.

ومنهاج اليقين في أصول الدين. والباب الحادي عشر.

وفي علم الأصول:

له عدد من الكتب منها: نهاية الوصول في علم الأصول (٤ مجلدات)، وتهذيب طرق الوصول إلى علم الأصول، ومبادئ الوصول إلى علم الأصول. وغيرها.

شهادات قيمة في دوره وأثره:

لا يعرف الفضل أحد أكثر من أهله، ولا يقيم العالمَ في بازار التقييم أحسن من خريت العلم والفقاهة، ولذا سوف نورد شهادتين فقط من عشرات الشهادات التي قيلت في حق العلامة، شهادتين من فقيهين عظيمين في المدرستين (مدرسة المحدثين ومدرسة المجتهدين)، الأولى للمحدث الفقيه الشيخ يوسف البحراني الذي تأتي ترجمته حيث قال في حق العلامة: وكان هذا الشيخ وحيد عصره، وفريد دهره، الذي لم تكتحل حدقة الزمان له بمثل ولا نظير، كما لا يخفى على من أحاط خبرا بما بلغ إليه من عظم الشأن في هذه الطائفة ولا ينبئك مثل خبير.. وبالجملة فإنه بحر العلوم الذي لا يوجد له ساحل، وكعبة الفضائل التي تطوى إليها المراحل[1].

والأخرى: شهادة من السيد مهدي بحر العلوم -تأتي ترجمته- في حق العلامة حيث قال:علامة العالم وفخر نوع بني آدم، أعظم العلماء شأنا وأعلاهم برهانا. سحاب الفضل الهاطل وبحر العلم الذي ليس له ساحل، جمع من العلوم ما تفرق في جميع الناس، وأحاط من الفنون بما لا يحيط به القياس، مروج المذهب والشريعة في المائة السابعة، ورئيس علماء الشيعة من غير مدافعة، صنف في كل علم كتبا، وآتاه الله من كل شئ سببا، أما الفقه فهو أبو عذره وخواض بحره.. وأما الأصول والرجال فإليه فيهما تشد الرحال وبه تبلغ الآمال وهو ابن بجدتها ومالك أزمتها. أما المنطق والكلام فهو الشيخ الرئيس

(١) لؤلؤة البحرين: ٢١٠

فيهما والإمام [١].

بين العلامة والشيخ البيضاوي

يعد الشيخ ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي الشيرازي المتوفى سنة ٦٩٢هـ، من أعاظم علماء الشافعية، ومن أهم مفسري المسلمين، ومذ ألف كتابه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) في تفسير القرآن والذي عرف بتفسير البيضاوي، فقد استقطب اهتمام علماء المدرستين، وذلك لما كان يتمتع به البيضاوي من دقة وذكاء وسعة تتبع. وقد ذكروا في شأنه أيضا أنه وجه رسالة يناقش فيها العلامة الحلي ﵀، بعدما اطلع على قول العلامة في كتاب القواعد، (ولو تيقنهما - أي: الطهارة والحدث - متحدين متعاقبين وشك في المتأخر، فإن لم يعلم حاله قبل زمانهما تطهر وإلا استصحبه)، وبدأ في تلك الرسالة بقوله: يا مولانا جمال الدين أدام الله فواضلك، أنت إمام المجتهدين في علم الإصول، وقد تقرر في الأصول مسألة إجماعية، هي: أن الاستصحاب حجة ما لم يظهر دليل على رفعه، ومعه لا يبقى حجة. بل يصير خلافه هو الحجة. إلى آخر ما ذكر في مناقشته لقول العلامة.

فكان أن أجابه العلامة بكتاب جاء فيه: وقفت على ما أفاده مولانا الإمام العالم أدام الله فضائله وأسبغ عليه فواضله، وتعجبت من صدور هذا الاعتراض عنه، فإن العبد ما استدل بالاستصحاب بل استدل بقياس مركب. إلى آخر ما ذكر في جوابه). ثم أنفذه إلى شيراز، ولما وقف القاضي البيضاوي على هذا الجواب استحسنه جدا وأثنى على العلامة[٢].

وأنت ترى عزيزي القارئ مقدار الاحترام الذي يكنه كل من العلمين العالمين لصاحبه، بالرغم من اختلاف مدرستهما الفقهية والعقدية!

ولهذا يحق للمرء أن يعجب بهذه الأخلاقية العالية، ويتعجب في نفس الوقت من معاصر العلامة الآخر، الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ، وأنه كيف كان يرد على العلامة بأبشع الألفاظ، وأقذع النعوت، كما جاء في كتاب (منهاج السنة)! فهو يبدأ في خطبة الكتاب مشنعا حتى على لقب المؤلف واسم جده (ابن

(١) الفوائد الرجالية ٢. ٢٥.

(٢) الحسون، فارس في مقدمة إرشاد الأذهان ١. ١٤٨.

المطهر) والمؤلف لا دخل له في اسم الجد، فقال ابن تيمية: كما أن من ادعى الطهارة وهو من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، بل من أهل الجبت والطاغوت والنفاق، كان وصفه بالنجاسة والتكدير أولى من وصفه بالتطهير ! أو عندما يريد المناقشة يقول: إن هذا المصنف الرافضي الخبيث الكذاب المفتري!!

وأنت تعلم عزيزي القارئ أن كلا ينفق من بضاعته!

صاحب العوالي

محمد بن علي بن ابراهيم بن أبي جمهور الأحسائي

ت ٩٣٠هـ

أشرنا عند الحديث عن الشيخ ابراهيم بن سليمان القطيفي إلى حقيقة أن تاريخ العلماء والفقهاء في منطقة يكشف عن تجذر الفكر الديني في تلك المنطقة، ويبين أن وجود أتباع ذلك الفكر أو المذهب الديني في تلك المنطقة ليس طارئا ولا نتيجة ظرف سياسي، فإن بروز عالم في مستوى الاجتهاد والاستنباط الفقهي يشير إلى بيئة علمية تفاعل معها هذا العالم حتى وصل إلى هذه المرتبة، وتلك البيئة لا ريب أنها تحتاج إلى محضن اجتماعي يرعاها، وهو ما يشير إلى تاريخ الفكر أو المذهب في هذه المنطقة.

وهذا الأمر كما هو صادق في منطقة القطيف التي عرفت تاريخيا باسم (الخُط) أو حتى (البحرين) فإنه أيضا يصدق في مثل الأحساء[١] التي حمل عالمنا الفقيه المحدث والفيلسوف ابن أبي جمهور وهذا ما اشتهر به النسبة إليها.

وتشكل الفترة التي عاش فيها، فترة متميزة من حيث التطور العلمي في مناهج الاستدلال، بعد فترة المحقق والعلامة الحليين، فقد شهدت هذه الفترة بروز علماء كبار صنفوا وألفوا الكثير من الكتب التي بقيت إلى مراحل متأخرة محل التعليق والمناقشة والبحث.

فقد برز فيها الشهيد الثاني، ووالد البهائي وابنه، والمحقق الكركي، والمحقق الأردبيلي، وغيرهم. ولا ريب أن بروز شخص بين هؤلاء الفحول يحتاج إلى قدرات استثنائية. وقد حصل ابن أبي جمهور على تلك القدرات فأصبح علَما يشار إليه، ونجما يهتدى به.

(١) الأحساء جمع (حسي): الأرض الصخرية المغطاة بطبقة رملية تختزن مياه الأمطار. بحيث يمكن الحصول عليها نقية عذبة بحفر عمق بسيط جداً ولكثرة الاحسية في هذا الموقع عرفت المنطقة بالأحساء، وتتبع بحسب التقسيم الاداري المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية، ويوجد فيها أكثرية من أتباع أهل البيت الإمامية كما تضم عددا كبيرا من الشافعية، وبقية المذاهب الأربعة.

ذلك أنه بعدما طوى دراساته الأولية في بلده على يد والده سافر بعدها بمدة إلى العراق ليحضر درس الشيخ حسن الفتال الذي وإن لم يؤثر عنه كتب تُعرّف به إلا أن أخذ الأعاظم عنه خير معرف.. ولا نعلم الفترة التي قضاها في العراق إلا أنه في سنة ٨٧٧هـ عزم على الحج عن طريق الشام، وفي طريقه قصد الشيخ علي بن هلال الجزائري (في بلدة كرك نوح في لبنان) الذي يذكر بالإعظام ضمن أساتذة المحقق الكركي، والفاضل القطيفي، وبقي معه مدة قليلة استفاد منها كما قال مترجموه شيئا كثيرا.

بعد أن قضى حجه سافر إلى العراق من جديد ومنها إلى خراسان قاصدا زيارة الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام، حيث نزل فيها عند السيد محسن الرضوي وفي هذا المنزل حصل بين الشيخ الأحسائي وبين الفاضل الهروي مناظرة عقدية سوف نشير إليها فيما بعد.

رؤية في النقاش العقدي والمناظرات:

المناظرات بين العلماء والاحتجاج من قبل كل فريق لرأيه والاستدلال عليه، وتفنيد رأي الخصم ليس شيئا جديدا، ولا يقتصر على جانب دون آخر، بل يشمل الأصول كما يشمل الفروع الفقهية، غير أن الذي يكتسب إثارة خاصة، وأهمية هو المناظرات في الأصول الاعتقادية نظرا لأنه يترتب عليها مع ثبوت أحد الجانبين وتفنيد الجانب الآخر أن يكتشف صاحب هذا الجانب أن طريقه كان طريق مزلة، وعلى غير الجادة.

ونحن نشاهد في هذه الأيام انتشار البرامج الحوارية العقدية، والمناظرات بين أتباع المذاهب الإسلامية، وأصبحت القنوات الفضائية لتكتسب مشاهدين جددا تطعم برامجها بمثل هذه الحوارات، حتى تستفيد من متابعة أنصار كل مذهب ليرى نتيجة (المباراة)!

ومن الواضح للناظر الأضرار الكثيرة المترتبة على مثل هذه المناظرات، في أنها:

١. تشحن نفوس المسلمين: البعض منهم ضد البعض الآخر، فبينما هم يعيشون في تسالم اجتماعي وأحيانا انصهار اجتماعي، فإذا بهذه البرامج توقفهم على خط المواجهة، فهذا سني وذاك شيعي وعلى كل منهما أن يقف في وجه الآخر، وينتصر لمن يمثله على القناة. فلا يمكن والحال حال مواجهة قوية أن يبقى ذلك الصفاء والسلم في مكانه.

وقد لاحظنا بعض هذه البرامج كيف أن الناس يتركون ما بيدهم لكي يشاهدوا تلك البرامج طامعين أن ينكسر خصمهم وأن يمرغ أنفه في التراب، بما يذكر بصورة المراهقين الذين يشاهدون مباراة كرة القدم بين فريقهم المفضل والفريق المنافس له!

إن كثيرا مما يقوم به دعاة الوحدة بين المسلمين، والتقارب، أو التعايش الاجتماعي، ليذبح على منحر هذه البرامج. وإن أفضل هدية تقدم للمتطرفين في الأمة هي هذه البرامج.

٢. تشوه صورة المذاهب: فتخرج هذه المذاهب لدى الجميع بصورة مشوهة مما ينتج أثرا عكسيا في التمسك بالدين ككل. وذلك أن كلا المتناظرين لا يأتي بأفضل ما لدى خصمه، ولا بالحسن مما لديه، وإنما يركز على أسوأ ما لديه من عقائد وأحكام، مما يستنكره الطبع العام، ويستفز السامع. ويقوم الثاني بنفس الدور.

وهكذا يتلقى السامعون والمشاهدون أسوء ما في المذهبين أو المذاهي من أمور. وهي التي تبقى في الذاكرة أما الصور الجميلة التي قد يحملها كل من المذهبين فلا يكون لها محل من الالتفات.

٣. لا تنتهي إلى الحق: وذلك أن كلا الطرفين ما دام على الملأ وتحسب عليه كلماته من قبل مناصريه ومخالفيه، يسعى إلى أن لا يقر بما يستفيد منه الطرف الآخر حتى لو كان التسليم به حقا. وإنما يكابر في ذلك ويسعى لكي يحرج مناظره ومخالفه. فكل منهما يريد إسقاط حجة مناظره ولذلك لا يستطيعان الوصول إلى الحق. بل إن معدي هذه البرامج عادة ما لا يريدون الوصول إلى نتيجة فإن ذلك يفسد حماس البرنامج وإثارته. فيبقون حريصين على أن يكون البرنامج صاخبا!

٤. ولا تصل إلى الاتفاق: بل يخرج كل منهما من البرنامج وهو أبعد عن الطرف الآخر من وقت دخوله فيه. ولهذا رأينا مع كثرة هذه المناظرات والحوارات فإنها ليس فقط لم تقرب بين الأطراف، وإنما زادت الخرق شقا جديدا.

والصحيح من الحوار فيما نراه يكون في النقاط التالية:

بعد التسليم بأنه لا يمكن إلغاء المناظرات أو النقاشات العقدية، فإنه ينبغي أن

تحصر بين العلماء المتخصصين في هذا الجانب ولا يصح أن يُشغل الناس بها فإن الأكثر ليس لديهم أدوات هذه المناظرات ولا معلوماتها، وأيضا حتى يتجنب تحول هذه النقاشات العقائدية إلى انفصال اجتماعي في وقت يعيش فيه أبناء المذاهب في مجتمعات مختلطة، في المدرسة والعمل والحي السكني.

وربما يكون لهذا الغرض نهى الامام جعفر الصادقعليه السلام عن الكلام في أيامه إلا للمختصين فقد أثر عنه كثيرا (كفّوا عن الكلام) وقد استثنى عددا من أصحابه من هذا النهي [1].

والابتعاد بهذه المناظرات عن الاعلام كفيل بالوصول إلى نتائج، فإن سطوة الأنصار والمشجعين مما لا ينكر أثرها في تصلب كل طرف على مواقفه، وعدم قبوله بالحق من الطرف الآخر. كما أن الابتعاد هذا يجعل الطرف (المنهزم) أقرب إلى تقبل نتيجة انتصار خصمه عليه على الأقل في هذه الجولة! بخلاف ما لو كان على الملأ وأمام أنصاره.

كما ينبغي أيضا تحديد أهداف النقاش والحوار فالإنسان لا يملك غير مدة محدودة من العمر لا تفي بأن يتحاور في كل شيء ولأجل كل شيء، فلا بد أن ينتخب من الحوارات ما يحقق أغراضا صحيحة. ومطلوبة. وفي الحوار المذهبي، والديني نعتقد أن هناك ثلاثة أهداف أساسية:

الحوار للتعارف:

فإن الناس أعداء ما جهلوا عادة، ويوفر الحوار الهادف إمكانية في التعرف على ما يقوله الطرف الآخر، فبغض النظر عن أننا نقبل ما يقول أو لا نقبل، ينبغي أن نعرفه كما يصف نفسه. إن مرحلة المعرفة للشخص أو الفكر هي قبل مرحلة القبول أو الرفض.

(فكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم).

إن من المشاكل القائمة بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين غيرهم. ما يكون منشؤه عدم المعرفة، وفائدة الحوار أنه يمهد الطريق للتعارف.

الحوار للتعايش الاجتماعي:

تتجاور المذاهب في بلاد المسلمين، والأديان في العالم، ولا سبيل أمام هؤلاء، لتنمية

(١) آل سيف، فوزي: بناء القادة في منهج أهل البيت.

البلدان وعمرانها، ولا للعيش الرغيد في هذه الدنيا، بل (لمطلق العيش) غير التعايش، فإن البديل عنه هو الاحتراب، وفيه هلاك الدارين.

الحوار يعرف كل طرف الطرف الثاني، فيجعله أقدر على صناعة علاقة متوازنة معه.

الحوار للوصول إلى نقاط الاشتراك:

نقاط الاختلاف بين الأفراد، وبين المذاهب وبين الأديان لا تنتهي. فلو أراد شخص أن يحصر ما بينه وبين زيد من نقاط الاختلاف لانتهى عمره قبل أن ينتهي من الحصر، لكن نقاط الاشتراك بين الأفراد وبين المذاهب والأديان محصورة ويمكن البناء عليها. لقد وجدنا القرآن الكريم يبني العلاقة بين المسلمين وبين أهل الكتاب على (كلمة سواء) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١].

إن التركيز على نقاط الخلاف، وإبراز أوجه الفرق والتمايز، عمل لا ينتهي إلى نتيجة غير مزيد من الانفصال الذي هو واقع أصلا.

بعد هذه المقدمة، نشير إلى أن المناظرة التي حصلت بين ابن أبي جمهور الأحسائي وبين الفاضل الهروي، كانت في هذه الأطر السابقة من محاولة التعرف على رأي الطرف المقابل والوصول إلى تحديد نقاط الاختلاف والاشتراك.

وقد نقل الميرزا الخوانساري في روضات الجنات عن رسالة المناظرة التي دونها ابن أبي جمهور ذاكرا فيها ما وقع بينه وبين الفاضل الهروي في مجالس ثلاثة المجلس الأول للمناظرة

وكان في منزل السيد يوم الضيافة بحضرة الطلبة والأشراف، فكان أول ما تكلم به بعد التهنئة أن قال: يا شيخ ما اسمك؟

قلت: محمد.

فقال: من أي بلاد العرب؟

فقلت: من بلاد الهجر المشهور بالأحساء أهل العلم والدين.

(١) سورة آل عمران: ٦٤.

فقال: أي شيء مذهبك؟

فقلت: سألتني عن الأصول أو الفروع؟

فقال: عن كليهما!

فقلت: أما مذهبي في الأصول فما قام لي الدليل عليه، وأما في الفروع فلي فقه منسوب إلى أهل البيت عليهم السلام.

فقال: أراك إمامي المذهب؟

فقلت: نعم، أنا إمامي المذهب فما تقول؟

فقال: إن الإمامي يقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا فصل.

فقلت: نعم، وأنا أقول ذلك.

فقال: أقم الدليل على دعواك.

فقلت: لا أحتاج إلى إقامة الدليل على هذا المدعى.

فقال: لم؟

قلت: لأنك لا تنكر إمامة علي بن أبي طالب أصلا، بل أنا وأنت متفقان على أنه إمام بعد رسول الله، ولكن أنت تدعي الواسطة بينه وبين الرسول، وأنا أنفي الواسطة، فأنا وأنت مثبت فإقامة الدليل عليك، اللهم إلا أن تنكر إمامة علي أصلا وتقول إنه ليس بإمام أصلا ورأسا فتخرق الاجماع، فيلزمني حينئذ إقامة الدليل عليك.

فقال: أعوذ بالله ما أنكر إمامته ولكن أقول إنه الرابع بعد الثلاثة.

فقلت: إذا أنت تحتاج إلى إقامة الدليل على دعواك لأني لا أوافقك على إثبات هذه الوسائط. فضحك الحاضرون من الأشراف والطلبة، وقالوا: إن العربي لمصيب والحق أحق بالاتباع، إنك مدعي وهو منكر، والمنكر لا يحتاج في إثبات دعواه إلى البينة.

فلما ألزمته قال: الدلائل على مدعاي كثيرة.

فقلت: أريد واحدة منها لا غير.

فقال: الاجماع من الأمة على إمامة أبي بكر بعد الرسول بلا فصل، وأنت لا تنكر

حجية الاجماع.

فقلت: نعم أنا لا أنكر حجية الاجماع، ولكن أقول: ما تريد فيه، لأن بالإجماع الاجماع من كثرة القائل بذلك في هذا الوقت، أو الاجماع الحاصل من أهل الحل والعقد يوم موت الرسول؟ إن أردت الأول فلا حجية فيه، لأن المخالف موجود، والكثرة لا حجة فيه بنص القرآن، لأنه يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ولم تزل الكثرة مذمومة من كل الأمور حتى في القتال قال الله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

وإن أردت الثاني فلإثباته طريقان: طريق على مذهبي ولا يلزمك، وهي أن الاجماع عندنا إنما يكون حجة مع دخول المعصوم.. إلى أن قال: وطريق على مذهبك وهي أن الاجماع هو اتفاق أهل الحل والعقد من أمة محمد ﷺ على أمر من الأمور. وهذا المعنى لم يحصل لأبي بكر يوم السقيفة، بل كان فضلاء الأصحاب وزهادهم وعلماؤهم وذو الأقدار منهم وأهل الحل والعقد غيبا لم يحضروا معهم السقيفة بالاتفاق، كعلي وابنيه، والعباس وابنه عبد الله، والزبير، والمقداد، وعمار، وأبو ذر، وسلمان، وجماعة من بني هاشم وغيرهم من الصحابة كانوا مشتغلين بتجهيز النبي ﷺ، فرأى الأنصار فرصة باشتغال بني هاشم فاجتمعوا إلى سقيفة بني ساعدة لإصابة الرأي[2]. إلى آخر تلك المناظرة.

وكان هذا الذي أوردناه نموذجا للمناظرة الهادفة إلى التعريف بما عليه المناظر، وبيان أدلته ما يتفق معه وما يختلف وتحريه للحق بحسب ما يرى.

تأسيس بنية الاتفاق الفقهي:

من الخطوات المهمة جدا والتي قام بها الشيخ ابن أبي جمهور الأحسائي رحمه الله، هي تقريب التراث الفقهي النبوي إلى ساحة الاستدلال في الفقه الامامي، فهو رحمه الله قد ألف كتاب (عوالي اللئالي العزيزية)، وهو قد حقق بهذا عدة أهداف:

الأول اجتماعي

وهو ما أشار إليه رحمه الله في مقدمة العوالي، من أن البعض يتصور أن علماء الطائفة

(١) سورة البقرة: من الآية ٢٤٩.

(٢) روضات الجنات ٧/٢٩.

ومحدثيها فقراء في رواياتهم الأحاديث عن رسول الله مباشرة، وأنه ليس لديهم إلا ما هو عن الأئمة المعصومين، وقد عد مخالفوهم أن اهتمامهم بأحاديث رسول الله ﷺ ميزة لهم على علماء الطائفة، و «صار عوام أهل هذه الطائفة وأبناء هذه الحجة الأنيقة، كالأيتام الذين لا كافل لهم ولا موصل يوصلهم إلى حقايق أسلافهم، حتى ظن كثير منهم، أنه ليس لأصحابنا من الأحاديث مثل ما لخصومهم، وانهم قطعوا التعلق والعلاقة بينهم وبين الأحاديث الواردة عن سيد البشر، وامام المحشر، النبي المطهر، وليس الامر كما ظن اخوان الجهل والغرور. فحداني ذلك، وحثني على وضع هذا الكتاب: تذكرة لأولي البصائر من الاخوان، وانقاذ الأيتام، عوام الطائفة من عماية الجهل الحاصل لهم بمخالطة أهل الزيغ والبهتان» [1].

الثاني: جدلي إلزامي

فإنه لاحظ أن لدى علماء الطائفة مسائل كثيرة عقدية وفقهية انفردوا بها واستدلوا عليها بأقوال الأئمة الطاهرين، مع أن لهم سندا فيها من أقوال الرسول المصطفى ﷺ، وهو لا ريب أبلغ في إلزام الخصوم من أقوال الأئمة الأطهار ﷺ، مثل أن ترك الصيام في السفر هو على نحو العزيمة لا الرخصة، وأن الغسل يجب على الرجل والمرأة بمجرد المواقعة والادخال حتى لو لم يحصل إنزال خلافا لمن قال من الصحابة أن الغسل مشروط بإنزال المني لأن الماء من الماء! بينما صريح الحديث النبوي: إذا التقى ختانه وختانها وجب الغسل أنزل أو لم ينزل! وأن النبي قد جمع بين الصلاتين من غير عذر ولا في سفر.

الثالث: فقهي استدلالي

وذلك أن كثيرا من المسائل الفقهية تبتني على دليل ينحصر بالمأثور عن رسول الله ﷺ، ومن أمثلة ذلك: (الإسلام يجبُّ ما قبله)،و(الناس مسلطون على أموالهم) و(لا تبع ما ليس عندك) و في الخيار (البيِّعان لكل واحد منهما على صاحبه الخيار ما لم يفترقا) و (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) وأن (الطلاق بيد من أخذ بالساق) و(اقرار العقلاء على أنفسهم جائز) وفي الوقف (حبس الأصل وسبل الثمرة).و(من أحيا أرضا ميتة في غير حق مسلم فهو أحق بها) وأن (ذكاة الجنين ذكاة أمه) وفي القضاء (البينة على المدعي واليمين على من أنكر) وفي العقوبات (ادرؤوا الحدود بالشبهات)،

---

(١) الأحسائي، ابن أبي جمهور: عوالي اللئالي ١. ١٦.

وفي الضمانات (على اليد ما أخذت حتى تؤدي) وأنه (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) و (الصلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما). و(المسلمون على شروطهم الا شرطا حرم حلالا أو أحل حراما).

ويكاد يكون المصدر الأساس في اعتماد الفقهاء لهذه الأحاديث النبوية الشريفة، هو كتاب ابن أبي جمهور عوالي اللئالي [(١)].

وسهولة تناول هذه القواعد والأصول الفقهية بعد أن نقلها ابن أبي جمهور في كتابه وتم تناقلها من بعده، لا ريب أنه صنع ثراء في الفقه الامامي.

وأما باقي كتبه فهي وإن كانت لا تتمتع بنفس الشهرة التي حصلت لكتاب العوالي، إلا أنها مهمة ومفيدة، ولا سيما كتابه (الأقطاب الفقهية) الذي يجري على نهج القواعد والفوائد للشهيد الأول، أو نضد القواعد للمقداد السيوري، فهو يشتمل على عدد كبير من القواعد الفقهية والأصولية التي تنفع الفقيه والباحث، ويمكن له الاعتماد عليها في الاستنباط.

وقد جمع الشيخ الحسون في مقدمته لكتاب الأقطاب الفقهية أسماء كتبه على النحو التالي:

١. أسرار الحج.
٢. الأقطاب الفقهية.
٣. شرح معين الفكر في شرح الباب الحادي عشر.
٤. قبس الاقتداء أو الاهتداء في شرائط الإفتاء والاستفتاء.
٥. كاشف الحال عن أحوال الاستدلال: وهو في بيان طريق الاستدلال على التكاليف الشرعية وكيفية أخذها من الأصول الدينية.

(١) وقد ذكر المؤلف طريقه فيها، مما أخرجها عن الارسال، وهذا ما أشار إليه آية الله المرعشي النجفي في مقدمة كتاب العوالي مجيبا على الاشكالات والنقود التي وجهت للكتاب، ومنها إشكال الارسال في الأحاديث مما يوهنها، قال: واما إشكال الارسال: فغير وارد أصلا لان كل ما أودع فيه الا ما صرح بارساله مسندات ببركة المشيخة التي ذكرها، وهذه المشيخة كمشيخة شيخنا الصدوق في الفقيه والفارق ان هذا الشيخ ذكر المشيخة في أول الكتاب في رسالة مستقلة منحازة والصدوق جعل المشيخة في آخر الكتاب. فان هذا الشيخ قال إن ما أودعت في هذا الكتاب فاني أرويها بهذه الطرق السبعة، وأكثر تلك المودعات فيه مروية مسموعة عن شيخه العلامة الثقة الجليل الشيخ رضي الدين عبد الملك بن الشيخ شمس الدين إسحاق بن الشيخ رضى الدين عبد الملك بن الشيخ محمد الثاني ابن الشيخ محمد الأول ابن فتحان القمي الأصل نزيل كاشان المتوفى بعد سنة ٨٥١ هـ بقليل، وكان هذا الرجل من أعلام عصره وكان يروى عن الفاضل المقداد وابن فهد وغيرهما، فليراجع إلى معاجم التراجم. وانى رأيت عدة نسخ من هذا الكتاب في خزائن الكتب مشتملة على المشيخة ونسخا غير مشتملة، فمن ثم اشتبه الامر على من نسب الارسال إليه.

٦. كشف البراهين في شرح زاد المسافرين: في أصول الدين.

٧. رسالة في لزوم العمل بأخبار الأصحاب في هذا الزمان.

٨. المجلي لمرآة المنجي: وهو شرح لكتابه مسالك الأفهام في علم الكلام.

٩. مسالك الأفهام في علم الكلام.

١٠. المسالك الجامعية في شرح الرسالة الألفية الشهيدية.

١١. معين الفكر في شرح الباب الحادي عشر.

١٢. مناظرة ابن أبي جمهور مع الفاضل الهروي العامي في المشهد الرضوي في مجالس ثلاثة في مسألة الإمامة.

١٣. عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية.

١٤. درر اللئالي العمادية في الأحاديث الفقهية.

الفاضل القطيفي

الشيخ ابراهيم بن سليمان

كان حيا إلى سنة ٩٤٥هـ

من فوائد تأريخ العلماء وترجمة حياتهم، الكشف عن الحالة العلمية والمذهبية التي سادت في عصرهم، وهذا يكتسب أهمية لجهة معرفة التطور التاريخي للمجتمعات التي عاشوا فيها، إذ من المعلوم أن وجود العالم في وقت معين يعتبر مرآة للنشاط العلمي في وقت وجوده، بل ويكشف لنا عن انتماء ذلك المجتمع الديني أو المذهبي في الفترة تلك.

وسيكون هذا نافعا في تأكيد بعض الأفكار، ورد بعضها. فإذا قال بعض مثلا بأن التشيع وافد على المنطقة العربية من إيران، كانت هجرة العلماء العرب من لبنان والعراق والبحرين إلى إيران في البدايات من أيام العلامة الحلي، وفيما بعد أيام المحقق الكركي، ردا واضحا على هؤلاء حيث أن إيران كمجتمع لم تنتم للتشيع إلا بعد مرور قرابة ستة قرون من بداية الإسلام. ولم يصبح التشيع المذهب الحاكم على مستوى كل البلاد إلا بعد أكثر من تسعة قرون من بداية الإسلام.

وهكذا الحال عندما يتحدث بعض غير الواعين ضمن خلفية متعصبة، ناعيا على شيعة القطيف أو الأحساء ارتباطهم بعلمائهم ومرجعياته، ناميا ذلك إلى أن أصولهم المذهبية جاءت من إيران، فإنه يتجاوز الكثير من الحقائق التاريخية التي تشير إلى أن هذه المنطقة والبحرين دخلها الإسلام في السنة السادسة للهجرة في نسخته الشيعية، وتولى عليها في الغالب ولاة كانوا على خط منسجم مع أهل البيت عليهم السلام، ولذلك ظل هذا الاتجاه هو الاتجاه السائد منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا بالرغم من تعرضها لضغوط مختلفة[١].

---

(١) للتفصيل يراجع للمؤلف كتاب: صفحات من التاريخ السياسي للشيعة، فصل تشيع القطيف والأحساء.

وكان من الطبيعي أن تشهد فترات التاريخ لهذه المنطقة والمجتمع بروز علماء وفقهاء، كان من ألمعهم الشيخ ابراهيم بن سليمان المعروف بين العلماء بـ (الفاضل القطيفي).

ولقب الفاضل الذي عرف به في الكتب الفقهية، يشير إلى منزلته العلمية، وذلك أننا نجد أنه يطلق على بعض أعيان الطائفة مثل (المحقق الحلي صاحب الشرائع، وابن أخته العلامة الحلي رحمهما الله) وحيث يعبر عنهما بالفاضلين في كثير من الكتب الفقهية، وبهذا اللقب ذكره الحر العاملي فقال (عالم فاضل فقيه)[١] والمحدث البحراني عندما يتكلم عن الشيخ القطيفي يصفه بالإمام الفقيه الفاضل المحقق المدقق [٢]. كما استشهد بكلماته بعنوان الفاضل القطيفي وناقشها الشيخ مرتضى الأنصاري في كتابه المكاسب في أكثر من موضع.

إن بروز هذا العالم الجليل ليشير عادة إلى وجود حالة علمية في منطقته تدعو إلى المعرفة، ومستوى من الفكر يتسلقه المتعلم حتى يصل إلى أعلى الدرجات، وليس طبيعيا أبدا أن ينبغ شخص بهذا المستوى العلمي من دون أن يكون في محيطه الذي يعيش فيه حالة علمية داعية إلى ذلك.

وبالرغم من أننا لا نجد في كتب التراجم تفاصيل دراسته ومدرسيه في القطيف، سوى ما يذكر من أنه درس في اوائل عمره على يد والده في القطيف، ثم غادرها إلى النجف في العراق ليستقر فيها إلى آخر حياته.

بين الفاضل القطيفي والمحقق الكركي:

ولا يكاد يذكر الفاضل القطيفي إلا ويذكر معه المحقق الشيخ علي عبد العال الكركي، وذلك أنهما يكادان أن يكونا ممثلين لخطين متوازيين في ما يرتبط بالتعامل مع السلطات الزمنية في زمان الغيبة. وربما نجد آثار هذين المنهجين كلاًّ أو بعضاً في هذه الأزمنة لدى بعض الفقهاء موجودة.

ولم تخل العلاقة بينهما والجدل الدائر في المسائل المختلفة من حدة لفظ، يلحظ في كتاباتهما، وزاد الأمر شدةً تعصبُ من جاء بعدهما لأحد الطرفين بالغض من شأن منافسه أو معاصره.

---

(١) أمل الآمل ٢. ٨.

(٢) مقدمة السراج الوهاج عن كشكول البحراني.

فليكن لنا تقديم وتمهيد يشرح بشكل إجمالي الأوضاع التي عاش فيها كلا الفقيهين، وأنتجت اختلافا بينهما في عدد من المسائل المرتبطة بالعلاقة مع الدولة والسلطة.

فبعد تحول صفي الدين الأردبيلي من طريقته الصوفية إلى التشيع، وقيام خلفائه فيها بتأسيس نواة جيش سيطر بالتدريج على إيران، ومجيء الشاه اسماعيل وحكمه لمناطق إيران (كيلان وفارس) من سنة (٩٠٦ إلى ٩٣٠) هجرية ثم هزيمته أمام الأتراك العثمانيين في معركة جالديران، جاء إلى الحكم الشاه طهماسب الذي كان صغير السن، ولكنه تميز مع شبابه بالذكاء والقدرة واستطاع أن يهادن أعداءه في البداية لكي يبني إيران داخليا ثم استطاع استعادة ما فقد من الأراضي، بل أحدث نهضة علمية مهمة في إيران، وقد ساعده على ذلك طول مدة حكمه التي استمرت ٥٤ سنة (من سنة ٩٣٠ إلى ٩٨٤) هجرية، وأيضا استقدامه لأكابر العلماء الشيعة من مختلف المناطق.

فبعد أن استقر اعلان التشيع في إيران باعتباره مذهب الدولة الرسمي، بعث إلى عدد من علماء الشيعة في لبنان والعراق والبحرين، لكي يأتوا إلى إيران، ويبثوا علومهم.

لقيت دعوة الشاه طهماسب أذنا صاغية من كثير من العلماء، كان أبرزهم المحقق الثاني الشيخ علي عبد العال الكركي، الذي كان يعد في زمانه في طليعة الفقهاء. واستجاب هذا وأولئك لطلب الشاه طهماسب. وجاء المحقق الكركي من لبنان لكي يصبح الرجل الأول في مملكة الشاه طهماسب إلى حد قيل بأن (منصوب الشيخ لا يُعزل ومعزول الشيخ لا يُنصب).

وكان من الطبيعي أن يؤسس هذا الوضع لجملة من القضايا في كيفية تعامل الفقهاء في زمن غيبة المعصوم، وهي التي كانت محل نقاش بين المحقق الكركي، والفاضل القطيفي. وهي وإن لم تكن سياسية بالمعنى الشائع أي أنها لم تكن تخضع لأدوات المسألة السياسية والموقف السياسي، بل كانت أدوات البحث فيها شرعية، ولكن الفهم لتلك الأدوات، والنظر إليها كان مختلفا بين الفقيهين. ولعلنا من خلال ما سنشير من الأمثلة نوضح ما سبق:

١. فأول ما نقل من الإختلاف بين الفقيهين، الموقف من هدايا السلطان، وهل يقبلها الفقيه أو لا؟

ذلك أنهم نقلوا أن الشاه اسماعيل قبل الشاه طهماسب كان يبعث إلى المحقق الكركي المال في النجف، ليعين بها طلاب العلم، وذكر أنه كان يبعث (٧٠) ألف دينار

كما ذكر السيد الأمين في الأعيان [١]، فاعترض عليه الفاضل القطيفي في قبوله لهدايا السلطان تلك. ونقلوا حوارا بصيغ مختلفة بين الفقيهين حول المسألة حاصله:أنه لما جاءت هدايا الشاه اسماعيل إلى المحقق الكركي، ورفضها الفاضل القطيفي، اعترصه الكركي بقوله: إن القطيفي ليس بأفضل من الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، كما أن الشاه ليس بأسوأ من معاوية بن أبي سفيان، وقد قبل الامام الحسن هدايا معاوية، فبالأولى أن يقبل مثل القطيفي هدايا الشاه اسماعيل. بل يكون القطيفي قد ارتكب حراما أو مكروها بترك التأسي بالإمام عليه السلام.

وقد أجابه القطيفي [٢]: بأن التعرض لجوائز الحكام مكروه! واستشهد بما ذكره الشهيد في الدروس بأن «ترك أخذ ذلك من الظالم أفضل، ولا يعارض ذلك أخذ الحسن عليه السلام جوائز معاوية، لأن ذلك من حقوقهم بالأصالة».

وقد انتصر فيما بعد لكل من الفقيهين أنصار، ففيما رأى السيد الأمين في الأعيان أن موقف الفاضل القطيفي يعد جمودا، فمن أحق بهذا المال من الفقيه المجتهد؟ وهل كان الشيخ الكركي يستطيع أن يقوم بما قام به، لولا قبوله تلك الهدايا. ثم أقر بأن التورع عن تلك الهدايا هو طريق السلامة، ولكنه انتقد ما اعتبره إطالة لسان من الفاضل القطيفي بحق الكركي وكان ينبغي عليه حمل فعل الكركي على الصحة. بل كان الكركي أبعد غورا وأصح رأيا، وأقوى سياسة في ذلك.

بينما رأى صاحب رياض العلماء الشيخ عبد الله الأفندي أن موقف القطيفي هو الأحق بالتأييد وأن كلام المحقق الكركي مغالطة، لأن القياس بين الامام الذي هو مالك حقيقة لما في يد الحاكم وبين غيره كالفقيه قياس مع الفارق، فيبطل الكلام عن التأسي، وأيضا فإن الإمام كانت ظروفه تقتضي قبوله الهدايا كعلامة على أنه لم ينقض الصلح، ولا توجد هذه الظروف لدى المحقق الكركي مع سلطان زمانه، وبأن قبول الهدايا مستلزم للركون إلى الظالم (حيث الانسان عبّد الاحسان) والركون محرم.

٢. كما اختلفا في موضوع الخراج من الأرض المفتوحة عنوة وهل يجوز أخذه من الحاكم في هذا الزمان أو أنه مرهون بإذن الامام المعصوم؟ وهذا الاختلاف جر إلى تأليف رسالة فقهية، من قبل المحقق الكركي، يستدل فيها على جواز ذلك، ورد عليه

(١) الأمين؛ السيد محسن: أعيان الشيعة ٨/٢٠٩.

(٢) مقدمة السراج الوهاج: طباعة مركز النشر التابع لجماعة المدرسين، قم ايران.

الفاضل القطيفي برسالة ينقض فيها أدلته، ودخلت المسألة بشكل واضح إلى البحث الفقهي، بحيث انتصر المحقق الأردبيلي فيما بعد للفاضل القطيفي، وانتصر بعض معاصريه كالشيخ ماجد بن فلاح الشيباني للكركي. وهكذا.

ففي رسالة (قاطعة اللجاج في تحقيق حل الخراج) [1] افتتح المحقق الكركي المسألة بتصويرها هكذا: «لم نجد بدا من التعلق بالغربة لدفع الأمور الضرورية من لوازم متممات المعيشة، مقتفين في ذلك الأمر جمع كثير من العلماء، وجم غفير من الكبراء الأتقياء، اعتمادا على ما ثبت بطريق أهل البيت ﷩: من أن أرض العراق ونحوها مما فتح عنوة بالسيف لا يملكها مالك مخصوص، بل هي للمسلمين قاطبة، يؤخذ منها الخراج والمقاسمة، ويصرف في مصارفه التي بها رواج الدين بأمر إمام الحق من أهل البيت ﷩ كما وقع في أيام أمير المؤمنين ﵇.

وفي حال غيبتهم ﵇ قد أذن أئمتنا ﵇ لشيعتهم في تناول ذلك من سلاطين الجور كما سنذكره مفصلا، فلذلك تداوله العلماء الماضون والسلف الصالحون غير مستنكر ولا مستهجن. وفي زماننا حيث استولى الجهل على أكثر أهل العصر، واندرس بينهم معظم الأحكام، وخفيت مواقع الحلال والحرام، وهدرت شقاشق الجاهلين، وكثرت جرأتهم على أهل الدين، استخرت الله وكتبت في تحقيق هذه المسألة رسالة على وجه بديع، تذعن له قلوب العلماء ولا تمجه أسماع الفضلاء. واعتمدت في ذلك أن أبين عن هذه المسألة التي أفل بدرها، وجهل قدرها، غيرة على عقائل المسائل، لا حرصا على حطام هذا العاجل، ولا تفاديا من تعريض جاهل. فإن بموالينا أهل البيت ﵇ أعظم أسوة وأكمل قدوة، فقد قال الناس فيهم الأقاويل، ونسبوا إليهم الأباطيل، وبملاحظة لو كان المؤمن في جحر ضب يبرد كل غليل. وكان تاريخ فراغه منها في سنة ٩١٦هـ.

وبعد هذا التاريخ بثمان سنوات! قام الفاضل القطيفي بكتابة رسالة رد فيها على المحقق الكركي، وانتهى فيها إلى حرمة ذلك وعدم جوازه وسماها (السراج الوهاج لدفع لجاج قاطعة اللجاج). وتحتوي هذه الرسالة على مقدمات في حرمة كتمان العلم وفي لزوم اجتناب الفقهاء للسلطان وفي أن الفقهاء هم أفضل الناس بعد المعصومين إذا

(١) يقسم العلماء في هذا الموضوع الأرض إلى أقسام: منها ما فتح صلحا ومنها ما فتح عنوة أي بقوة السلاح، والثانية أي المفتوحة عنوة تكون ملكا لجميع المسلمين لا لمالك خاص، بل ولا لجيل خاص منهم، ويستطيع المسلمون أن يزرعوها أو يعمروها في مقابل خراج (أشبه بالضريبة في هذه الأزمنة يدفعها الزارع لإمام المسلمين، وهذا في زمان الحضور لا كلام فيه، ولكن الأمر في زمان الغيبة فهل يمكن للسلطة الزمنية أن تأخذ الخراج من هؤلاء الناس ليصرف في مصالح المسلمين، وهل يمكن للفقيه أن يتعامل مع هذه السلطة الزمنية ويقبل منها؟ أو أن أخذ هذا الخراج غير جائز؟.

لزموا التورع، وفي أن الحيل الشرعية منها ما هو جائز ومنها ما هو غير جائز. ثم شرع في الرد على ما تقدم من المحقق الكركي جملة جملة بأدلته.

٣. واختلفا أيضا في مسألة إقامة صلاة الجمعة في زمان الغيبة، فبينما ذهب المحقق الكركي إلى وجوبها ولزوم إقامتها مع وجود الفقيه[١]، ذهب الشيخ ابراهيم القطيفي إلى حرمتها وعدم جواز إقامتها، لأن من شروطها وجود الامام المعصوم.

٤. وأيضا اختلفا في مسألة السجود على التراب المطبوخ بالنار. ففيما ذهب الكركي إلى الجواز رأى الفاضل القطيفي عدم الجواز وألف رسالة في هذا المعنى يناقشه فيها.

كما أن الموقف العام من التعاون مع الدولة الصفوية كان محل خلاف بين الفقيهين، فبينما كان المحقق الكركي يستلم هدايا السلاطين الصفويين كما تقدم، وانتهي به الأمر إلى أن انتقل فيما بعد أيام السلطان طهماسب إلى إيران وتولى الكثير من الأمور حتى صارت مشيخة الإسلام بيده، وتعيين القضاة يتم تحت سلطته، مكث فيها إلى أن توفي سنة ٩٤٥هـ. بينما كان موقف الفاضل القطيفي متحفظا تجاه التعاون مع السلطة الصفوية ولم يقبل البقاء هناك بعد أن زارها.

هذا كله بالرغم من أنهما كانا شريكي درس واحد كما يرى بعض الباحثين لأستاذهما الشيخ علي بن هلال الجزائري.

باقي كتبه:

١. الهادي إلى سبيل الرشاد في شرح الاِرشاد.
٢. نفحات الفوائد ومفردات الزوائد.
٣. رسالة في أحكام الرضاع.
٤. رسالة في محرّمات الذبيحة.
٥. رسالة في الصوم ينقل عنه الأَردبيلي في «مجمع الفائدة».
٦. رسالة في أحكام الشكوك.
٧. شرح الألفية للشهيد والأصل رسالة فيها ألف حكم من أحكام الصلاة.

---

(١) جامع المقاصد ٢. ٣٨٠ ورسالته الخاصة بصلاة الجمعة.

٨. تعليقات على الشرائع.
٩. تحقيق الفرقة الناجية.
١٠. رسالة في حرمة صلاة الجمعة في زمان الغيبة.
١١. شرح الأسماء الحسنى.
١٢. الرسالة الرضاعية في عموم التنزيل.
١٣. الرسالة الحائرية في تحقيق المسألة السفرية.
١٤. شرح للمختصر النافع.

وقد أقام مجاورا قبر أمير المؤمنين عليه السلام طيلة حياته في النحف، مرتقيا مدارج العلم والعمل، حتى لقد قيل إنه حظي بلقاء الامام الحجة المنتظر، كما ذكر ذلك المحدث البحراني في لؤلؤة البحرين فقال: وقد رأيت بخط بعض الفضلاء أنه حكى عن بعض أهل البحرين في حق الشيخ هذا - قدس سره ان هذا الشيخ قد دخل عليه الإمام الحجة عليه السلام في صورة رجل يعرفه الشيخ، فسأله: أي الآيات من القرآن في المواعظ أعظم؟ فقال الشيخ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١) فقال عليه السلام: صدقت يا شيخ ثم خرج فسأل أهل البيت خرج فلان فقالوا ما رأينا أحدا داخلا ولا خارجا.

رحمه الله وأحسن في الجنة مثواه.

(١) سورة فصلت: ٤٠.

ثاني الشهيدين

الشيخ زين الدين بن علي الجبعي العاملي

٩١١هـ ٩٦٦هـ



في تاريخ علماء الإمامية عندما يطلق لقب الشهيد ينصرف إلى الشيخ محمد بن مكي العاملي (٧٦٨هـ) وإذا أضيف إليه وصف الثاني انصرف إلى الشيخ زين الدين بن علي الجبعي العاملي (٩٦٦هـ).

وبالرغم من أن الشهادة قتلا ليست شيئا نادرا في تاريخ الإمامية وعلمائهم، بل كان القتل على يد الظالمين والطواغيت لكثير منهم عادة، وكانت كرامتهم كأئمتهم من الله الشهادة.

إلا أنه قد عرف الشهيدان بهذه الصفة، دون غيرهما إما بسبب طريقة القتل المفجعة التي حصلت لهما ولأسباب تغدو تافهة فذهب دمهما الزكي هدرا ثمنا لأهواء نفسية وأحقاد شخصية، أو لمقامهما العلمي الشامخ الذي كان في زمانهما لا يبارى، بل في لاحق الأزمنة كما يرى بعض[1].

فالشهيد الأول راح ضحية حسد وغل نفسي من بعض حملة العلم. وبالرغم من أن العلاقة التي ينبغي أن تسود بين العلماء هي علاقة التواصل والاستفادة وفهم مذهب الآخر ودليله، وهو الأمر الذي طبقه أول الشهيدين عندما أخذ العلم من كثير من علماء المسلمين الذين لم يكونوا يتفقون معه في المذهب. إلا أن الأحقاد الشخصية والمنافسة غير الشريفة أحيانا تؤدي إلى سفك دماء طاهرة. وهذا ما حصل لأول الشهيدين كما يذكره الحر العاملي في كتابه أمل الآمل، ونحن ننقل ما يتعلق بشهادته منه، قال:

وكانت وفاته سنة ٧٨٦هـ، اليوم التاسع من جمادي الأولى، قتل

---

(١) يظهر هذا من استعراض كلمات من ترجم حياة الشهيدين، فقد وصف الأول بعضهم بأنه أفقه جميع فقهاء الآفاق، وبعضهم قيده بأنه بعد المحقق أفقه الفقهاء، بينما رأى آخرون متأخرون بأن أفقه فقهاء الشيعة هو ثاني الشهيدين.

بالسيف ثم صلب ثم رجم ثم أحرق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بدمشق في دولة بيبرس وسلطنة برقوق بفتوى القاضي برهان الدين المالكي وعباد بن جماعة الشافعي بعد ما حبس سنة كاملة في قلعة الشام..وكان سبب حبسه وقتله أنه وشى به رجل من أعدائه وكتب محضرا يشتمل على مقالات شنيعة عند العامة من مقالات الشيعة وغيرهم، وشهد بذلك جماعة كثيرة وكتبوا عليه شهاداتهم، وثبت ذلك عند قاضي صيدا، ثم أتوا به إلى قاضي الشام فحبس سنة. ثم قتل وصلب ورجم ثم أحرق [1].

التواصل العلمي طريق الفهم والتقارب:

إن ما تعيشه مجتمعاتنا المسلمة اليوم من شحن طائفي لهذه الفئة ضد الأخرى، ولهذا المذهب تجاه ذاك، ليدفعنا إلى التفكير في سعة أفق الشهيد الثاني، ورؤيته الثاقبة في أن جزءا من حل مشكلة الأمة يتمثل في التواصل العلمي والمعرفي بين العلماء وأهل الفكر، ومن خلال هؤلاء ينبغي أن تعوَّد الفئات على احترام بعضها بعضا والمذاهب على تقدير خبرائها وفقهائها.

وإذا وجدت حوادث تثير الفتنة وانساق فيها بعض المتعصبين من أي طرف، فهذا لا يدل على شيء كما يدل على لزوم التواصل وفائدته. وضمن هذا الاطار يتحدث ثاني الشهيدين عن أنه درس في دمشق ومصر وأخذ العلم عن ستة عشر عالما من علماء المذاهب الإسلامية الأخرى غير الإمامية، بل نراه يمدح بعض هؤلاء مدحا بالغا، فقد نقل عنه في ترجمته لحياته:

ورحلت إلى مصر في أول سنة (٩٤٢هـ) لتحصيل ما أمكن من العلوم، واجتمعت في تلك السفرة بجماعة كثيرة من الأفاضل، فأول اجتماعي بالشيخ شمس الدين بن طولون الدمشقي الحنفي، وقرأت عليه جملة من الصحيحين وأجازني روايتهما مع ما يجوز له روايته في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة.

واشتغلت بها على جماعة، منهم: الشيخ شهاب الدين أحمد الرملي الشافعي: قرأت عليه «منهاج النووي «في الفقه وأكثر «مختصر الأصول «لابن الحاجب وشرح العضدي مع مطالعة حواشيه منها السعدية والشريفية. وسمعت عليه كتبا كثيرة في الفنون العربية والعقلية وغيرهما، فمنها شرح التلخيص المختصر في المعاني والبيان لملا سعد الدين،

(١)) أمل الآمل ١. ١٨٢.

ومنها شرح تصريف العربي ومنها شرح الشيخ المذكور لورقات إمام الحرمين الجويني في أصول الفقه وتوضيح ابن هشام في النحو وغير ذلك مما يطول ذكره. وأجازني إجازة عامة بما يجوز له روايته، سنة (٩٤٣هـ).

ومنهم الملا حسين الجرجاني: قرأنا عليه جملة من «شرح التجريد» للملا علي القوشجي مع حاشية ملا جلال الدين الدواني و «شرح أشكال التأسيس» في الهندسة لقاضي زاده الرومي و «شرح الجغميني» في الهيئة له. ومنهم الملا محمد الاسترآبادي: قرأنا عليه جملة من «المطول» مع حاشية السيد الشريف و «الجامي» شرح الكافية. ومنهم الملا محمد الكيلاني: سمعنا عليه جملة من المعاني والمنطق.

ومنهم الشيخ شهاب الدين بن النجار الحنبلي: قرأت عليه جميع «شرح الشافية» للجاربردي وجميع «شرح الخزرجية» في العروض والقوافي للشيخ زكريا الأنصاري وسمعت عليه كتبا كثيرة في الفنون والحديث منها: الصحيحان، وأجازني جميع ما قرأت وسمعت وما يجوز له روايته في السنة المذكورة.

ومنهم الشيخ أبو الحسن البكري: سمعت عليه جملة من الكتب في الفقه والتفسير وبعض شرحه على المنهاج. ومنهم الشيخ زين الدين الحري المالكي: قرأت عليه «ألفية بن مالك».

ومنهم الشيخ المحقق ناصر الدين اللقاني المالكي، محقق الوقت وفاضل تلك البلدة. لم أر بالديار المصرية أفضل منه في العلوم العقلية والعربية. سمعت عليه «البيضاوي» في التفسير وغيره من الفنون.

ومنهم الشيخ ناصر الدين الطلاوي الشافعي: قرأت عليه القرآن بقراءة أبي عمرو ورسالة في القراءات من تأليفه. ومنهم الشيخ شمس الدين محمد أبي النجا النحاس قرأت عليه «الشاطبية «في القراءات والقرآن العزيز للأئمة السبعة، وشرعت ثانيا أقرأ عليه للعشرة ولم أكمل الختم بها. ومنهم الشيخ الفاضل الكامل عبد الحميد السمهودي قرأت عليه جملة صالحة من الفنون، وأجازني إجازة عامة.

ومنهم الشيخ شمس الدين محمد بن عبد القادر الفرضي الشافعي: قرأت عليه كتبا كثيرة في الحساب الهوائي، و «المرشدة «في حساب الهند الغباري، و «الياسمينية» وشرحها في علم الجبر والمقابلة. و «شرح المقنع» في علم الجبر والمقابلة. وسمعت عليه بعض شرح «الوسيلة». وأجازني إجازة عامة. وسمعت بالبلد المذكور من جملة

متكثرة من المشايخ يطول الخطب بتفصيلهم، ومنهم الشيخ عميرة، الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق والشيخ شهاب الدين البلقيني والشيخ شمس الدين الديروطي وغيرهم[1].

وإنما نقلنا هذه المقطوعة عنه بطولها وتفاصيلها لأجل أن يتبين أن العلم يتخطى الحاجز المذهبي وربما يوجد علم نافع عند من يخالفني في المذهب، وعلى العاقل أن يفتش عن الحكمة أين ما كان موقعها. ويتبين بذلك خطأ من يتصور أن المخالف لي ما دامت عقيدته فاسدة فكل شيء عنده مبني عليها وهو فاسد. كما يشير إلى أن أعلم العلماء هو من يعلم ما لديه وما لدى غيره ويحيط بهما. ويؤكد على أهمية احترام العلماء وإن كانوا على خلاف ما نذهب إليه.

كما يؤكد على أن الانفتاح على المذاهب الأخرى مهم، وإن كان بعض غير الواعين يرفضونه، وأمثال هؤلاء شنوا على الشيخ المترجم حملة بوصمه بأنه متأثر بالتسنن.

الأب يكتشف النبوغ المبكر:

يتحدث الشهيد الثاني عن بدايات دراسته فيقول إنه ختم القرآن الكريم وهو ابن تسع سنين، وكان ذكيا جدا، وقد اكتشف والده وهو استاذه فيما بعد في الفقه ومقدمات العلوم ذلك فيه، فعندما سلمه إلى معلمه قال له: إياك أن تضربه وإذا لم يعجبك شيء فيه أعلمني بذلك وأنا أتصرف معه!

وقارئ هذه السطور يدرك الفرق في التربية بين منهجين: ما قام عليه بعض الجاهلين بأساليب التربية الذين يكون شعارهم للمعلم أن يأخذ الصبي لحما ويرده لهم عظما!

وبعد دراسة المقدمات على يد والده، سافر إلى منطقة أخرى في لبنان وهي (كرك نوح) حيث كان يوجد المحقق الكركي علي عبد العالي، ودرس على يده، وغيره.

وبدأ في التصنيف الفقهي الاستدلالي والاجتهادي بعد الثلاثين من العمر، وقد أكثر من التأليف والانتاج، ولهذا فإنه وبالرغم من قصر المدة التي عاشها لأنه استشهد وعمره خمس وخمسون سنة،مع سفره الكثير للقاء العلماء والأخذ منهم والمباحثة معهم، واشتغاله غالبا في حقله لمعيشة أهله، حيث ذكر بعض تلامذته أنه كان يخرج ليلاً على حماره لكي يجمع الحطب ويحضره إلى بيته من أجل التدفئة والطبخ، وكان يحتاج إلى

(١) مسالك الأفهام ١ - ص المقدمة ١٤.

حراسة كرم الزراعة ليلاً، إلا أنه بورك له في عطائه العلمي بحيث نقل أنه ألف أكثر من تسعة وسبعين كتاباً ورسالة، بعضها في مجلدات ضخام كمسالك الأفهام.

أسفار من أجل التقارب المذهبي:

بالاضافة إلى ما ذكرناه من تفاعل الشهيد الثاني علميا مع علماء سائر المذاهب الإسلامية ودراسته على يدهم، ومباحثاته معهم في دمشق ومصر. رأى بثاقب نظره أن يتوجه إلى مركز الخلافة العثمانية التي تسيطر على لبنان وسائر البلاد العربية، ويُنظر إليها على أنها التي تمثل المسلمين. بل منها يُعين أهل الإفتاء والتدريس وتعطى ولايات المدارس الدينية وإمامة المساجد المهمة. وهكذا، فلو أمكن التأثير فيها بنحوٍ يكون توجه الاعتدال والإنصاف حاكما لتغير وضع المسلمين.

وعلى أثر ذلك توجه إلى الآستانة، والتقى بقاضي القضاة قاضي زاده الرومي هناك ونزل ضيفا عليه، وأعجب القاضي (الرومي)[1] به إعجابا عظيما لما وجد عنده من الاحاطة العلمية والقدرة الفريدة، ويقال أن الشهيد كتب له خلال الفترة التي كان فيها ضيفا عنده رسالة فيها عشرة علوم، وفي كل علم عشر مسائل مهمة، في الفقه، والأصول، والفلسفة، والمنطق والتفسير، وقدمها إليه.

ويقال هنا أن قاضي القضاة عرض عليه أن يكون مدرسا في أي مدرسة من المدارس الدينية التابعة للخليفة العثماني، في لبنان ورد الشهيد بأنه لم يأت طالبا للوظيفة وإنما ليتباحث مع العلماء ويسمع منهم. فألزمه القاضي بذلك واختار المدرسة النورية الكبرى في بعلبك بشمال لبنان [٢].

وعند عودته من تركيا مر على بعلبك وبدأ يدرس في مدرستها تلك الفقه عارضا آراء المذاهب الخمسة، فعلت في نفوس الطلاب مكانته وعرفوا منزلته وقدره، وساعده بالإضافة إلى سعة علمه سعة أفقه وشرح صدره حيث لم يكن متعصبا ضد أحد، وانتشر

(١) أحمد بن محمود الأدرنوي، شمس الدين، قاضي زاده ت ٩٨٨هـ: فقيه حنفي، من الروم. كان أبوه قاضيا بأدرنة وتولى هو قضاء حلب بضع سنوات ثم قضاء القسطنطينية، فقضاء عسكر الروم ايلي، وأبعد في أواخر أيام السلطان سليم، وأعيد في أيام مراد خان. ثم قلد الفتوى بدار السلطنة إلى أن توفي. له كتب، منها (نتائج الأفكار – ط في تكملة فتح القدير لابن الهمام، في فروع الحنفية، و حاشية على شرح المفتاح لم يتمها، و حاشية على شرح الوقاية لصدر الشريعة – خ في الأزهرية. خير الدين الزركلي في الأعلام ١. ٢٥٥.

(٢) كما أعطي والد الشيخ البهائي الشيخ حسين بن عبد الصمد الحارثي الذي كان مصاحبا للشهيد وصديقا له منصب التدريس في مدرسة في بغداد.

الطلاب يحدثون بفضله[1]. وكان على قدرٍ من الإنصاف للخصوم إلى درجة أن بعض المتعصبين من الشيعة اتهموه بالتسنن!

عقرب الحسد يتحرك في ساعة الشهادة:

إذا كان أصحاب النعم الدنيوية محسودون، فإن أصحاب النعم المعنوية والدرجات العلمية محسودين أكثر.إلا أن العجيب في هذه المعادلة أن حسدة أصحاب الدنيا عادة لا يملكون ما يملك المحسود من المال والثروة، إلا أن حسدة العلماء كثيرا ما كانوا من العلماء أنفسهم! ولا ينبغي أن يستغرب هذا، ويقال أنه كيف يحسد العالمُ العالمَ والفقيهُ الفقيهَ؟ مع أنهم يعرفون عقوبة الحسد وأضراره؟

ولا ريب أن هذا تبسيط ساذج في معرفة الانسان، فالقضية في النفس والمجتمع لا ترتبط بمعرفة أن هذا حسن أو قبيح. وإنما في قدرة الانسان بعد المعرفة على مقاومة نوازع الغضب والحسد والشهوة!

إن معارك كثيرة، وحروبا متعددة تقوم على أثر حب الرئاسة، وإن دماء تسفك من أجل تحصيل الوجاهة، وهي وأن غُلفت بالدفاع عن الدين أو المذهب إلا أنها ترجع إلى (حب الدنيا) الذي هو (رأس كل خطيئة).

وشهيدنا العاملي ﵀، تعرض لحسد ومنافسة قاضي صيدا، قيل إن اسمه (ابن معروف)[2]، ويظهر من هذه القصة أنه بالخير غير معروف. وكان قد حمل في نفسه على الشهيد أنه عندما ذهب إلى الآستانة في تركيا، لم يستأذن منه أو يخبره بعزمه ذلك، وزاد غيظا عندما علم عن علو منزلة الشيخ واجتهاده في الفقه، ثم إكرامه الذي حصل

(١) تحدث الشهيد وتلميذه بن العودي عن تلك الفترة واصفين لها بأفضل الأوصاف، فقال كما نقل عنه صاحب أعيان الشيعة ج ٧ ص ١٥٣: أقمنا ببعلبك ودرسنا فيها مدة في المذاهب الخمسة وكثير من الفنون وصاحبنا أهلها على اختلاف آرائهم أحسن صحبة وعاشرناهم أحسن عشرة وكانت أياما ميمونة وأوقاتا بهجة ما رأى أصحابنا في الاعصار مثلها. قال ابن العودي كنت في خدمته تلك الأيام ولا أنسى وهو في أعلى مقام ومرجع الأنام وملاذ الخاص والعام ومفتي كل فرقة بما يوافق مذهبها ويدرس في المذاهب كتبها وكان له في المسجد الأعظم بها درس مضافا إلى ما ذكر وصار أهل البلد كلهم في انقياده ومن وراء مراده بقلوب مخلصة في الوداد وحسن الإقبال والاعتقاد وقام سوق العلم بها على طبق المراد ورجعت إليه الفضلاء من أقاصي البلاد.

(٢) لم أعثر على ترجمة له، وهذا من عبر الزمان وحكمة الحياة فإن من يشي بغيره حتى يقتل لكي يبقى يعاقب بضد ما أراد، فبينما بقي الشهيد الثاني علما سامقا يدرس عنه العلم، ويمتلئ بذكره نادي الفضل، خمد ذكر منافسه حتى لا تجد خبرا عنه. نعم يوجد في كتاب الأعلام للزركلي تعريف لشخص يسمى ابن معروف، وتتوافق فترته الزمنية مع فترة الشهيد ولعله هو،وإن يوهم الأمر أنه لم يشر إلى فترة توليه القضاء في صيدا بل ذكر أنه تولى القضاء بنابلس، فقد ذكره في ج ٧ - ص ١٠٥ قائلا: ابن معروف (٩٣٢ - ٩٩٣ هـ = ١٥٢٥ - ١٥٨٥ م محمد بن معروف الأسدي الرصاد (أو الراصد) تقي الدين: فلكي، عالم بالحساب. من القضاة. ولد بدمشق، وولي القضاء بنابلس، وتوفى بإستامبول. له كتب.

عليه أثناء وجوده في تركيا، واطلع على تعيينه مدرسا وإماما في أكبر مدارس بعلبك وهي المدرسة النورية كما أشرنا.

وسنحت له فرصة الانتقام عندما رفع إلى الشهيد قضية تداعى فيها رجلان، فحكم بميزان الشرع لأحدهما على الآخر، وكعادة بعض الناس الذين يريدون التقاضي إلى العالم إذا حكم لهم، ويرفضونه إذا حكم عليهم، ذهب المحكوم عليه إلى صيدا وأخبر هذا القاضي الذي حكم له على غريمه، وحرر محضرا بذلك، وآخر للسلطان العثماني ضمّنه مجموعة من التهم والافتراءات التي تنتهي إلى عقوبة الشيخ زين الدين مثل أنه: وجد في أطرافنا رجل مبتدع يزعم أنه لا يعترف بالأئمة الأربعة! ولا يراعي لهم حرمة ويزعم أنه مجتهد وهو ينشر بدعته بين الناس! وقد اتبعه على أفكاره خلق من الناس ونحن نخشى عليهم من التغير!!

وأشهد على ذلك شهود الزور وأرسل إلى السلطان الذي أمر أن يستدعى الشخص المذكور! ليجمع بينه وبين العلماء عنده ويرى مقالته[1].

هكذا هم أصحاب المصالح الشخصية، يتظاهرون بالحرص على الناس ومصالح الناس! حتى أن فرعون كان يخاطب السحرة المؤمنين بأنهم إنما آمنوا بموسى ليخرجوا الناس من مدينتهم! ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

هنا الخوف على تغير مذهب الناس وهو أمر ظني لا يقابله الخوف من إراقة دم مسلم محترم وهو محرم قطعي!!

ولا ريب أن القاضي المذكور قد ضرب على الوتر الحساس لدى العثمانيين الذين كانوا يعيشون حالة حرب محتدمة مع الصفويين في إيران والذين كانوا يرفعون شعار التشيع، وقد توفر على الجبهتين سلطانان قويان كان كل منهما يعيش همّ الانتصار على قرينه والفتح، واستخدم في تلك الحرب كل الأسلحة الممكنة ومنها سلاح الفتاوى والتكفير من قبل كل فريق للفريق الآخر. فقد كان في الطرف العثماني السلطان سليمان القانوني الذي استمرت سلطته قرابة نصف قرن من الزمان، وفي الطرف الصفوي كان الشاه طهماسب الذي حكم هو الآخر أكثر من نصف قرن، وكان التطرف المذهبي عاليا

(١) الحر العاملي. أمل الآمل ١/٩٠.

(٢) الاعراف. ١٢٣.

في الطرفين!

يقال أن الرسول الذي جاء ليأخذ الشيخ زين الدين من بلدته لم يجده فيها وعلم أنه في طريق الحج، فذهب خلفه حتى وجده قريبا من الحجاز! وإذ أراد إرجاع الشيخ عرض عليه الشيخ أن يحج معه على نفقته هو إن كان يخشى أن يهرب، ثم يعود معه، وهكذا كان فأحجه الشيخ على نفقته وكان معه في المناسك كلها.

«فلما فرغ من الحج سافر معه إلى بلاد الروم فلما وصل إليها رآه رجل فسأله عن الشيخ فقال هذا رجل من علماء الشيعة أريد ان أوصله إلى السلطان فقال أو ما تخاف ان يخبر السلطان بأنك قد قصرت في خدمته وآذيته وله هناك أصحاب يساعدونه فيكون سببا لهلاكك بل الرأي ان تقتله وتأخذ رأسه إلى السلطان فقتله في مكان على ساحل البحر»[١]

وهكذا مشورة حمقاء على رجل أشدّ حمقاً أودت بقامة علمية من وزن الشيخ زين الدين العاملي ثاني الشهيدين، تعاضد في شهادته الحسد والحمق لكي ينجزاها.

جاء القاتل ومعه رأس الشهيد الثاني إلى السلطان فسأله: ما هذا؟ فقال: هذا رأس الرجل الذي بعثتم في طلبه!

فالتفت القاضي عبد الرحيم العباسي [٢] وكان الشيخ الشهيد قد تعرف عليه في سفرته السابقة إلى الآستانة وقرأ عليه، وتعرف العباسي على فضيلة الشيخ زين الدين العلمية، فعرف رأسه.

وسأل السلطان[٣] هذا الرسول: من أمرك أن تقتله؟

(١) أعيان الشيعة ج ٧ ص ١٥٧.

(٢) عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الفتح العباسي (٨٦٧ - ٩٦٣ هـ = ١٤٦٣ - ١٥٥٦ م: عالم بالأدب، من المشتغلين بالحديث. ولد ونشأ بمصر، وذهب إلى القسطنطينية مع رسول من قبل السلطان الغوري إلى السلطان بايزيد، فعرض عليه بايزيد تدريس الحديث في عاصمته، فاعتذر، وعاد إلى مصر. فلما انقرضت دولة الغوري انتقل إلى القسطنطينية وأقام إلى أن توفي بها. من كتبه (معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص - ط أربعة أجزاء، و (فيض الباري بشرح غريب صحيح البخاري - خ و (نظم الوشاح على شواهد تلخيص المفتاح. يلاحظ القارئ المتأمل هنا أنه يوجد تخالف بين كون القاضي العباسي حاضرا بعد شهادة الشهيد التي كانت في سنة ٩٦٦هـ على ما ذكره مترجمو حياته وبين كون القاضي العباسي هذا قد توفي في سنة ٩٦٣هـ، أي قبل الحادثة بثلاث سنين، فأحد التاريخين، بعد تمامية القصة، لا بد أن يكون غير دقيق. وقد ذكر بعض مترجمي حياة الشهيد أنه توفي قبل هذه السنة لكن المشهور عليها، فقد نقل في أمل الآمل عن كتاب تاريخ جهان آرا بالفارسية أنه توفي سنة ٩٦٥هـ، وعن بعضهم أنه أرخه شعرا بما يعادل ٩٦٤ وهو لا يحل الاشكال. وليس لدينا مصدر آخر يذكر سنة وفاة القاضي العباسي غير ما ذكره الزركلي في الأعلام ٣. ٣٤٥.

(٣) يظهر من خلال التأريخ الذي استشهد فيه الشيخ زين الدين، أن السلطان العثماني كان سليمان القانوني الذي حكم في الفترة ما بين ٩٢٦ و٩٧٤.

فقال: أحدهم قال لي كذا وكذا!

فرد عليه العباسي: أن السلطان قال أن تحضره حتى نرى كلامه ونناقشه فكيف تقتله، أنت الآن قاتل شخص عمداً من غير جناية فتقتل كما قتلت ،فقتل. وصدق من قال (بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين).

النتاج العلمي للشهيد الثاني:

يتعجب الناظر في حياة ثاني الشهيدين حين يرى الغزارة والعمق في إنتاجه في وقت واحد. فربما يستطيع البعض أن يكثر من التأليف ولكن قد لا تجد فيه الدقة الكافية، وقد ترى وجود الدقة مع قلة التأليف والتصنيف. هذا مع قلة الفترة الزمنية التي عاشها بالقياس إلى غيره من العلماء حيث لم يتجاوز عمره (٥٥) عاما، ومع أنه كان في مطلع عمره يعمل في كرم (بستان عنب) له في النهار، وينقل الحطب والماء إلى أهله في الليل، أي لم تكن الأمور الحياتية والمعاشية ميسرة له حتى يتفرغ بالكامل للتأليف.

فقد عدّ له السيد الأمين في الأعيان، (٧٩) كتابا ورسالة. اشتهر بعضها، وصار محور الدراسة العلمية في الحوزات الشيعية، ولا يزال بالرغم من مرور ما يقارب خمسة قرون على تأليفها.

منها كتاب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية: ويقع في عشرة أجزاء بالطبع الحديث. وهو شرح استدلالي مزجي على كتاب اللمعة الدمشقية للشهيد الأول الشيخ محمد بن مكي العاملي، وقد كتبه الشهيد الأول استجابة لطلب قادة (سربداران)[1] في خراسان لا كما يقوله البعض من أنه كتبه في السجن على ما حققه بعض الأفاضل.

ومنها مسالك الأفهام في شرح شرائع الإسلام: ويقع في ١٥ مجلدا بالطبع الحديث، ومن المعلوم أن كتاب شرائع الإسلام للمحقق الحلي ﵀ كان ولا يزال من النصوص الفقهية المتينة والمتقنة التي لقيت اهتماما واسعا من قبل العلماء والباحثين ولذلك يقول بعضهم إن ما عرف من الشروح على هذا الكتاب تجاوز المائة، إلى زمان صاحب

(١) سربداران: أي المشنوقون، اسم لحركة تحررية صارت فيما بعد دولة، وذلك أنه بعد استيلاء المغول على إيران في القرن الثامن الهجري، واضطهادهم لأهل خراسان وسبزوار، بمصادرة الأموال وانتهاك الأعراض، ثار أحد العلماء بإسم شيخ خليفة، وواصل المسيرة بعده تلميذه شيخ حسن الجوري، واستطاع أعقاب هؤلاء أن يحكموا خراسان وأطرافها قرابة نصف قرن من الزمان باستقلال عن المغول، وانتهت دولتهم في سنة ٧٨٨ هـ. وقد سُموا بهذا الاسم كما يقول صاحب روضات الجنات لأنهم كانوا يقولون، إن استطعنا دفع الظلم وإلا فلتكن رؤوسنا على المشانق حيث لا نتحمل الظلم بعد هذا أبدا.. وقد كاتبوا الشيخ محمد بن مكي العاملي المعروف بالشهيد الأول ليأتي إليهم ويكون قاضيهم فلم يفعل وزودهم بكتاب فقهي كتبه لهم هو اللمعة الدمشقية.

الذريعة الطهراني.

إلا أن شرح الشهيد الثاني الاستدلالي (المسالك) يعتبر من أفضلها حيث أنه جمع بين اختصار العبارة وجامعية الدليل، وهو مختصر في باب العبادات مفصل في المعاملات.

ومنها روض الجنان في شرح إرشاد الأذهان وهو شرح استدلالي لكتاب العلامة الحلي (إرشاد الأذهان) والموجود منه مطبوعا باب الطهارة والصلاة.

ومنها كتاب تمهيد القواعد الأصولية والعربية لتمهيد الأحكام الشرعية، وهو كتاب وصفه مؤلفه بأنه (واحد في فنه)، ويشتمل على مائة قاعدة أصولية ولغوية تنفع طالب العلم في استنباط الأحكام الشرعية، وتتبين آثارها فيها.

ومنها كتاب مسكن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد: وهو كتاب أنتجته معاناة الشهيد ومكابدته الألم حيث أنه لم يكن يبقى لديه ولد، «فمات له أولاد ذكور كثيرون قبل الشيخ حسن الذي كان لا يثق بحياته أيضاً» كما قال السيد الأمين.

ويستطيع الناظر أن يرى بوضوح مقدار ألم الشيخ زين الدين من جهة، مثل ما يرى صبره ورضاه بما قسم له في مقدمة ذلك الكتاب حيث يقول «فلما كان الموت هو الحادث العظيم، والأمر الذي هو على تفريق الأحبة مقيم، وكان فراق المحبوب يعد من أعظم المصائب، حتى يكاد يزيغ له قلب ذي العقل، والموسوم بالحدس الصائب، خصوصاً ومن أعظم الأحباب الولد، الذي هو مهجة الألباب، ولهذا رتب على فراقه جزيل الثواب، ووعد أبواه شفاعته فيهما يوم المآب.

فلذلك جمعت في هذه الرسالة جملة من الآثار النبوية، وأحوال أهل الكمالات العلية، ونبذة من التنبيهات الجلية، ما ينجلي به إن شاء الله تعالى الصدأ عن قلوب المحزونين، وتتكشف به الغمة عن المكروبين، بل تبتهج به نفوس العارفين، ويستيقظ من اعتبره من سنة الغافلين».

ومنها كتاب منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، ضمنه أخلاق أهل العلم دارسين ومدرسين، ونصائح مهمة في طلب العلم

ومنها كتاب الرعاية في علم الدراية: وهو كتاب في جزء واحد كتبه على سبيل الايجاز والاختصار وأحال من يطلب التفصيل على كتابه الآخر (غنية القاصدين في معرفة اصطلاح المحدثين) الذي وصفه بأنه بلغ الغاية في الاستقصاء.

ومنها أجوبة لمسائل مختلفة وردت إليه مثل: جوابات المسائل الهندية، والشامية، والمباحث النجفية، وجوابات ستين مسألة، وجوابات الشيخ أحمد ظاهر.

ومنها كتاب شرح الألفية والنفلية حيث كتب الشهيد الأول في شرحه لحديث منقول عن النبي أن للصلاة ألف حد، فذكر ألف واجب من واجباتها، ثم أتبعه بالنفلية حيث نقل عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام، أن لها أربعة آلاف حد، فبقي الباقي وهو المستحبات.

وجاء الشهيد الثاني فشرح ما أسسه الشهيد الأول.

وقد ذكر في أعيان الشيعة عناوين كتبه كاملة فليراجع من شاء التفصيل.

قداسة النفس وتحرر الفكر

المقدس أحمد بن محمد الأردبيلي

ت ٩٩٣هـ



﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾(١)

فيما كان الشاب (محمد) في طريقه، يماشي ساقية متفرعة من النهر، متجها إلى منزله وإذا به يرى تفاحة نضرة، قد حملها الماء من الاتجاه المخالف، وسرعان ما صارت في فمه متلذذا بطعمها! وبعد أن ذهبت سكرة لذة الأكل، وجاءت فكرة التأمل، تساءل في نفسه عن أنه كيف أكلها ولا يعلم عن رضى صاحبها؟ فمن الذي أحل له ذلك؟ وصارت المسألة في نفسه، فعزم على أن يتتبع مصدر التفاحة تلك ليستحل صاحبها، حتى يتجنب بقاء الطعام المحرم في بطنه!

وصل إلى بستان فيه شجر تفاح فعلم أن ضالته هنا، ودخل ليجد صاحب البستان موجودا فيه، وقص عليه قصته وطلب منه أن يحلله مما فعل مجانا أو بالمال الذي يبذله ثمنا للتفاحة المأكولة! وذُهل عندما رآه يرفض العرض الذي قدمه مصرًا على أنه إنما يحلله لو تزوج ابنته المبتلاة بأنها لا تمشي ولا تسمع ولا ترى!! ودون ذلك فإنه لن يحلله مما أكل! أمام الورطة الكبيرة التي وقع فيها بين مأزقين: بقاء الطعام غير الحلال في بطنه، وبقائه في أسر زواج تكون الزوجة فيه بتلك الصفات المذكورة، اختار البلاء على الحرام!

وفي ليلة الزفاف كان الأمر مفاجئا بالنسبة له، فقد وجد المرأة التي ينبغي أن تكون بالنحو المذكور آنفا مختلفة تماما، فقد وجد

(١)) الطلاق ٢، ٣

نفسه أمام شبه ملاك رقة وجمالا وكمالا! وحين عاد إلى والد زوجته متعجبا، قال له: هي هكذا فهي لم تمش إلى معصية، ولم تسمع حراما، وكفت بصرها عما حرم الله عليها، وكنت أنفس وأضن بها على سائر الشباب وأرى أن من يتزوجها لا بد أن يكون في الدرجة العالية من التقوى وحين رأيتك مستعدا إلى هذا المقدار أن تتورط بزوجة مبتلاة ظاهرا من أجل أن لا يكون في بطنك الحرام، وجدتك أهلا للزواج بها!

من هذه الفتاة الطاهرة وذلك الأب الورع جاء (المقدس) الملا[1] أحمد الأردبيلي! الذي صار فيما بعد من عظماء فقه الإمامية والذي يطلق عليه في العلميات لقب المحقق وفي العمليات والعبادات وتهذيب النفس لقب المقدس والذي توفي سنة ٩٩٣هـ.

إن أول ما يواجهنا مما يختص به الأردبيلي هو أنه كان متحرر الفكر، وجريء الرأي في الجوانب العلمية إلى درجة كبيرة جدا، وبنفس المقدار كان محتاطا ومقدسا في الأمور العملية والعبادية.

مع أنه في العادة يكون المتقدس عملا والمحتاط في عباداته، أيضا محتاطا في آرائه فلا يخالف مشهور المتقدمين، بينما نلاحظ في حالة المحقق الأردبيلي أنه لم يتقيد مع تورعه وتقدسه برأي غيره من أعاظم المتقدمين من العلماء، بل إذا ظهر له الرأي المخالف لهم قويا اتبعه.

في الجانب العلمي له مؤلفات متعددة من أشهرها كتاب (زبده البيان في أحكام القرآن) تعرض فيه إلى آيات الأحكام في القرآن واستدلاله بها وله نظريات ابتكارية وتحقيقات دقيقة فيما يرتبط بالاستفادة باستنباط الأحكام الشرعية.

المقدس: نادرة من الزمن الماضي:

على أثر الابتعاد عن الشخصيات المعنوية من جهة، ورؤية نماذج مزورة عن الايمان والسمو الأخلاقي من جهة أخرى، يتبادر إلى ذهن بعض القراء الكرام، أن ما ينقل من قصص عن مثل المقدس الأردبيلي، هي نوع من المبالغات، أو حتى الخيال الكاذب! ولكن الحقيقة أن هؤلاء الأعاظم، قد راضوا أنفسهم بالتقوى، وعلقوها بالملأ الأعلى، فجاءت هكذا.

(١) الملا في اللغة الفارسية تعنى العالم الكبير. بينما هي في الاصطلاح المتداول لدى العرب في الخليج من يعلم القرآن أو ينشد رثاء ومدح أهل البيت. واردبيل بلدة كبيرة في شمال إيران.

هلم معي عزيزي القارئ، لنقرأ ثلاث حكايات، لا تنتمي إلى عالم الظاهر، الذي نتعامل معه، ونتأثر به! هلم لنذهب إلى عالَم آخر هو عالم المقدس الأردبيلي:

- بدأ بالدراسة الدينية في غرفة بإحدى المدارس الدينية بالنجف الأشرف وكان مشغولاً بدرسه وعبادته وحالته المعنوية، في هذه الأثناء أحد الطلاب أن يشاركه في حجرته فاعتذر منه، ولكن الطالب أصر على ذلك، فقال له إنه يرتاح وحده لأنه يقوم الليل ولديه برنامج سوف يزعجه إذا بقي معه!

فقال الطالب أنه مستعد للتحمل، ورد عليه الأردبيلي: تأتي لكن بشرط أن لا تخبر أحداً عما يحصل في الغرفة لا في قضايا العبادة ولا قضايا الطعام. فقبل الطالب.

في الأيام الأولى لاحظ الطالب أن زميله في الغرفة (الاردبيلي) صائم النهار أكثر أيام الأسبوع، ويفطر على كسرة خبز وشيء بسيط من الطعام، الأمر الذي لم يعتد عليه هذا الطالب، حيث شحب لونه بعد فترة من الزمان، مما حدا ببعض أقاربه أن يسأله عما إذا كان مريضاً، وأن يلح عليه حتى أخبره بوضعه مع زميله الأردبيلي وأنه مضطر لأن يجاريه بذلك، فأعطاه أكلاً طيباً ومبلغا ماليا جيدا له ولزميله.

عند المساء عاد الاردبيلي ووجد طعاماً من ألوان مختلفة فسأله ،وأخبره الطالب بما حدث مع قريبه وعن إعطاء الهدية وطلب منه قبولها ومن ثم هو حر بما يفعله بها ، فقال له الاردبيلي هذا إخلال بالشرط بيننا فلا يمكن لنا الاستمرار، ولا بد أن تغادر هذه الغرفة لغرفة أخرى، أو أغادرها أنا.

يقال إنه احتلم تلك الليلة وربما يكون على أثر ذلك الطعام وأراد أن يقوم إلى صلاة الليل ولكن لم يكن يوجد حمام للاغتسال في المدرسة، فذهب إلى الحمام العمومي بالنجف ووجده مغلقاً فطرق الباب وخرج له عامل الحمام فطلب منه أن يسمح له بالاغتسال فرد عليه أن يعود قبل صلاة الفجر بنصف ساعة لذلك ، فطلب منه أن يسمح له بالاغتسال الآن ويعطيه أجراً مضاعفاً[1] فأبى العامل وظل الاردبيلي يعرض عليه المال بزيادة إلى أن عرض عليه أن يعطيه كامل المال الذي وصله هدية من قريب الطالب وهو ربما يعادل راتب العامل لعدة أشهر.

فقبل العامل بذلك وتركه يغتسل. وعلى أثر هذا الانقطاع إلى الله تعالى، والسعي بذل هذا المال الكبير من أجل أن لا تفوته صلاة الليل، حصل له توفيق في العلم ونبوغ

(١) تكررت هذه القصة في حياة السيد بحر العلوم الطباطبائي كما سيأتي في الحديث عن ترجمته.

استثنائي، وذلك أن العلم (ليس بالتعلم وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه)[١] كما في الخبر عن الامام جعفر الصادق عليه السلام.

- كان عطوفاً على الفقراء ويرى نفسه واحدا منهم، وفي أيام زعامته كما نقل تعرضت النجف إلى جدب وقحط فقلت الأرزاق والأطعمة، وأمام هذا كان الناس يحاولون تخزين المؤونة من طعام وغيره، كل بحسب ما لديه من مال، وأما الفقراء فقد ضاقت بهم الأمور فنظر المولى الاردبيلي (أعلى الله مقامه) إلى ما كان عندهم في المنزل من طعام مختلف ودعا الفقراء وقسم كل هذا الطعام عليهم بالتساوي وأخذ إلى نفسه قسما بنفس المقدار الذي أُعطى لكل فقير.

فقالت له زوجته: كيف تفعل هذا؟ غداً نموت جوعاً!

لم يعبأ بكلامها، بل ذهب في اليوم الثاني للاعتكاف بمسجد الكوفة! احتارت المرأة ما تصنع ولا يوجد لديها طعام. وبعد رحيل المقدس بقليل وإذا بالباب تطرق فسألت من الطارق؟ فقال: أرسلني صاحب الدار بالمؤونة لكم، ففتحت الباب وإذا بالأرزاق والأطعمة من كل نوع وظلت تطبخ لمدة ثلاثة أيام وهي تقول سبحان الله هذا أفخر طعام أنا تذوقته!

وعندما عاد المقدس من الاعتكاف قالت له زوجته ما أروع الطعام الذي أرسلته لنا والمقدس لا يعلم بأمر الطعام أصلاً ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجًا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾.

- ما نقله العلامة المجلسي في بحار الأنوار[٢]: أخبرني جماعة عن السّيّد الفاضل: آمير علام[٣]، قال: كنت في بعض الليالي في صحن الرّوضة المقدسة بالغري على مشرّفها السّلام، و قد ذهب كثير من اللّيل فبينا أنا أجول فيها إذ رأيت شخصا مقبلا نحو الرّوضة المقّدسة فأقبلت إليه فلمّا قربت منه عرفته انّه استاذنا الفاضل العالم التقي الزّكي مولانا أحمد الأردبيلي قدّس اللّه روحه فأخفيت نفسي عنه حتى أتى الباب و كان مغلقا فانفتح له عند وصوله إليه و دخل الرّوضة فسمعته يكلم كأنّه يناجي أحدا، ثم خرج و أغلق الباب فمشيت خلفه حتى خرج

(١) المجلسي، المولى محمد باقر: بحار الأنوار ١. ٢٢٥.

(٢) ٥٢. ١٧٥.

(٣) مير علام التفريشي، من تلامذة المحقق الأردبيلي، وقد أوصى أن يقوم على التدريس بعده.

من الغرّي و توجه نحو مسجد الكوفة فكنت خلفه بحيث لا يراني حتى دخل المسجد و صار إلى المحراب الّذي استشهد أمير المؤمنين عليه السّلام عنده، و مكث طويلا، ثم رجع و خرج من المسجد واقبل نحو الغري فكنت خلفه حتى قرب من الحنّانة، فأخذني سعال لم اقدر على دفعه، فالتفت إلي فعرفني، و قال: أنت مير علام؟ قلت: نعم، قال: ما تصنع هاهنا؟ قلت: كنت معك حيث دخلت الروضة المقدّسة إلى الآن، و اقسم عليك بحق صاحب القبر أن تخبرني بما جرى عليك في تلك الليلة من البداية إلى النّهاية.

فقال: أخبرك على أن لا تخبر به أحدا ما دمت حيّا، فلمّا توثق ذلك منّي قال: كنت أفكّر في بعض المسائل و قد أغلقت عليّ فوقع في قلبي أن آتي أمير المؤمنين عليه السّلام و اسأله عن ذلك، فما وصلت إلى الباب فتح لي بغير مفتاح كما رأيت فدخلت الرّوضة و ابتهلت الى اللّه تعالى في أن يجيبني مولاي عن ذلك، فسمعت صوتا من القبر: أن إئت مسجد الكوفة و سل القائم صلوات اللّه عليه، فإنّه امام زمانك، فأتيت عند المحراب، و سألته عنها فأجبت، و ها أنا أرجع إلى بيتي».

وقد يكون بعض الناس معذورين، عندما لا يصدقون مثل هذه الأمور، لأن الحجم الذي تعرف عليه هؤلاء والصور الموجودة في أذهانهم، ممن يحيطون بهم، في مستوى غير المستوى الذي نتحدث عنه! فإذا كان يتعايش مع أشخاص تتسع ذمتهم لسرقة المليارات من مال الناس، أو المال العام! من دون أن تطرف أعينهم، فماذا يعني الحديث عن أكل تفاحة في النهر؟ وإذا كان الالتزام بأصل الفرائض يعد مفخرة فأين يبقى مجال للحديث عن إعطاء مبالغ طائلة لكي يغتسل عن جنابة تمنعه عن صلاة مستحبة في الليل؟ وهكذا.

هذا عن المقدس الأردبيلي.

ماذا عن (المحقق) الأردبيلي؟

يتحدث الكثير من الباحثين عن أن القداسة والاحتياط لا تتوافق مع التجدد في الفكر والجرأة في الفتوى؟ ولذلك وجدنا أن الغالب فيمن يعرفون بالتقدس العملي، والاحتياط العبادي، أن يكونوا مبتعدين عن الفتوى، غير متجرئين عليها، فضلا عن الإقدام على التجديد فيها، ومخالفة المشهور من أساطين الفقه، وفحول السابقين،

فترى قسما منهم يبقى أسير من سبقه، حتى لو لم يكن الدليل عنده تاما على مسلك السابقين! ويكون عندهم رأي المشهور في مسألة كأنه خامس الأدلة بعد الكتاب والسنة والعقل والإجماع!

المحقق الأردبيلي ﵀، تميز بأنه إلى جانب كونه (مقدسا) للغاية، ومحتاطا للنهاية في أمر العبادات، والأخلاق. فقد كان مجددا في الفقه، ومتحررا في أحكامه متبعا للدليل الذي يظهر له. ولا تمنعه الهيمنة الفكرية التي يفرضها قدامى العلماء من أن ينتخب مسلكا غير الذي سلكوه.هذا مع احترامه لمن سبقه، وتعظيمه له.بل ربما دعاه ذلك الاحترام إلى أن يقول إنه لم يفهم مقصود المستدل، لا أنه خطأ! غير أن هذا لم يكن يدفعه إلى موافقته والتسليم له.

ولهذا وجدناه في كثير من الأحيان يشكك في ما هو متسالم عليه بين الفقهاء، ويفتح لمن بعده أبوابا للنظر والتأمل، كما أشار إليه صاحب مفتاح الكرامة وصاحب الجواهر والوحيد البهبهاني.

وعند النظر إلى كتابه المشهور (مجمع الفائدة البرهان في شرح إرشاد الأذهان) في أربعة عشر مجلدا، وهو دورة فقه استدلالي، شرح فيها كتاب إرشاد الأذهان للعلامة الحلي ﵀، جمع فيه بين التحقيق والتتبع، كما أشار إلى ذلك بعض الفقهاء[1]، بل صرح مثل العلامة المجلسي[2] بأن كتبه في غاية الدقة والتحقيق. وقد يتهيأ لفقيه دقة نظر وتحقيق وتدقيق، ولكنه لا يكون كثير التتبع، وقد ينعكس الأمر، ولكن المحقق الأردبيلي أعلى الله مقامه جمع بين الحسنتين.

وقد تعرض الحجة السيد أحمد الحسيني في مقالة مفصلة عن (المنهج الفقهي للمحقق الأردبيلي)[3] إلى عدد من الموارد التي خالف فيها المحقق الأردبيلي من سبقه وسلك مسلكا خاصا به نشير إلى جانب مما ذكره.

منها ما ذكره في موضوع القبلة وأنه لا يرى التدقيق التي يتحدث عنه في علم الهيئة والفلك، وإنما أمر القبلة عرفي وهو أسهل ما يكون، حيث تشير إليه الآية المباركة بأن يتوجه (شطر المسجد الحرام).

(١) آية الله الشيخ علي بناه اشتهاردي. مقابلة في فقه أهل بيت (فارسي).

(٢) بحار الأنوار ١/٤٢.

(٣) فقه: كاوشي نو در فقه اسلامي ٩. ١٣٧٥ هجري شمسي.

ومنها تعميم ما جاء في أحكام السبق إلى كل عمل فيه فائدة عقلائية كرفع الأثقال، ومسابقات الجري، والمصارعة ما لم يكن مضرا، فلا مانع منه.

ومنها عدم المنع عن استعمال المتنجسات في غير ما ثبت، وجواز بيعها، وشرائها في ما له منفعة محللة. خلافا للقول بعدم جواز بيع المتنجس.

ومنها القول بعدم نجاسة الخمر وإن كان حراما، فإنه لا دلالة صراحة على نجاسته من آية أو رواية مع إمكان حمل روايات غسل اليد على الاستحباب.

ومنها معذورية الجاهل بطريق الاجتهاد والتقليد، إذا فرضنا مصادفة عبادته للواقع، وأن عبادته لو وقعت بدون أي منهما، فخلافا لما ذهب إليه غيره من بطلانها وإن طابقت الواقع، فقد قال بأنها صحيحة، لأن المعرفة ليست جزءا من المأمور به ولا شرطا لصحته.

شيء عن منهجه وتلامذته:

يعرف أثر صاحب المنهج الخاص بما غرسه من خصوصيات ذلك المنهج في تلامذته وأتباعه، وبهذا المقياس فإن المحقق الأردبيلي بالاضافة إلى تربيته طلابا على وفق منهجه وطريقية، كان شديد التأثير فيهم حتى لقد سماهم المتأخرون عنهم، مع أن أولئك التلامذة كانوا أفذاذا في مستوياتهم، ومشاهير في علمهم، سماهم المتأخرون عنهم بـ (أتباع الأردبيلي).

ولقد عبر بعض عن هذه الحقيقة بالقول: إن النتائج التي كانت مجرد احتمال لدى المحقق الأردبيلي، كان صاحب المدارك (السيد محمد العاملي) يحصل له ظن بها، ونفسها هي تكون محل قطع ويقين بالنسبة لصاحب الذخيرة (المحقق السبزواري)[(١)]!

وأما عن المنهج العام للمحقق الأردبيلي في فقهه، فقد وصف بأنه:

اعتمد كثيرا على الجانب العقلي: وربما يكون هذا ليس بعيدا عن عما كان سيتمخض عنه الأفق بعد ذلك بمدة قصيرة من تحرك التوجه الأخباري الحديثي في الساحة العلمية الإمامية، وربما كان هذا التوجه ضروريا للابتعاد عن التقيد بالحالة الحرفية للنصوص، والتي كانت بالاضافة إلى تقديس السابقين والذي كان من الممكن أن يعيق الحاضرين

(١) المصدر السابق.

عن ابتكار نظريات جديدة وأفكار حديثة، تخالف ما كان عليه السابقون. وقد رأى بعض الفقهاء المعاصرين: أننا حين ننظر إلى نتاجه الفقهي نجد أنه يعتمد على البرهان العقلي مثلما يصنع الفيلسوف أو الرياضي لإثبات نظرياته[1]. وقد أرجع بعضهم هذا إلى أنه عاش في بيئة رياضية وفلسفية أثرت على طريقته حتى في الاستدلال الفقهي.

التشدد في الجانب الروائي والرجالي: فبالرغم من أنه لم يعتمد مقاييس حادة تجاه أخبار الآحاد برفضها ما لم يحصل الاطمئنان بها كما صنع ابن ادريس صاحب السرائر، ولا حدد الاستفادة من خبر الواحد بخصوص الصحيح الأعلائي (الذي يرويه خصوص الامامي الثقة عن مثله) كما صنع صاحب المدارك، إلا أن التدقيق في الروايات وجعلها تحت مجهره الصارم رواية ودراية يلحظ بشكل عام في كتابه مجمع الفائدة، ويلحظ بشكل أوضح لدى تلامذته كالسيد محمد صاحب المدارك، والشيخ حسن ابن الشهيد في منتقى الجمان. وقد أدى هذا بالأول منهما إلى حذف الروايات الضعيفة من دائرة الاستدلال وعدم الاستفادة من الروايات (الموثقة)!

الشجاعة في انتخاب الموقف والفتوى:

لا ريب أن للماضين ضغطا على المتأخرين، لا سيما وأن التاريخ يكسب المتقدم هالة من القداسة والاحترام، فكيف إذا كان الشخص الذي يعيش في الماضي مقدسا بالفعل؟ ولهذا وجدنا أن قسما من المجتهدين ربما بقوا ضمن (أسر) رأي المتقدمين. ويحتاج الفقيه إلى شجاعة أدبية بحيث يتجاوز هيمنة أقطاب العلم والفقاهة السابقين لكي يفتي برأي توصل إليه ولا يلاحظ فيه رأيهم!

وما نقل عن المحقق الأردبيلي هو نموذج من ذلك، ففي فقهه نرى شجاعة في إبداء الرأي فهو يرى أن الفقيه إذا تبين له أن الأمر الفلاني حلال فلا معنى لأن يحتاط بالترك مراعاة لقول آخرين.وهكذا لو توصل إلى أن الأمر الكذائي واجب فكذلك لا معنى لأن يقول بالاحتياط في فعله لأن غيره يقول بعدم الوجوب.

تلامذة متميزون:

يذكر غير واحد من مؤرخي حياة المحقق الأردبيلي شيئا مهما عن طريقته مع بعض تلامذته، ومن خلالها يمكن اكتشاف أسلوبه في التربية العلمية. فهو عندما يرى بعض

(١) آية الله الشبيري الزنجاني في مقابلة مع مجلة فقه المذكورة.

الطلاب الاستثنائيين الذين يمكن لهم أن يطووا مراحل دراسية في فترة زمنية قصيرة، يتابعهم بالتشجيع والتعليم حتى يبرعوا.

وما كان بين الشيخ حسن (صاحب المعالم) ابن الشهيد الثاني والسيد محمد صاحب المدارك، يشير إلى ذلك، فإنهما كانا شريكي درس «وكانا مدة حياتهما كفرسي رهان ورضيعي لبان متقاربين في السن وقد أخذا نصيبا وافرا من العلم واتفق لهما الفوز بلقاء المقدس الأردبيلي والمولى عبد الله اليزدي والاخذ منهما وعن حدائق المقربين انهما لما قدما العراق وردا على المولى الأردبيلي وسألاه ان يعلمهما ماله دخل في الاجتهاد فأجابهما إلى ذلك وعلمهما أولا شيئا من المنطق واشكاله الضرورية ثم أرشدهما إلى أصول الفقه. وقال: ان أحسن ما كتب في هذا الشأن هو شرح المختصر العضدي غير أن بعض مباحثه ليس له دخل في الاجتهاد وتحصيله مضيع للعمر، فكانا يقرآنه عليه ويتركان تلك المباحث من البين انتهى.

ونقل انهما قالا للمحقق الأردبيلي نحن لا يمكننا الإقامة مدة طويلة ونريد ان نقرأ عليك على وجه نذكره ان رأيت ذلك صلاحا قال: ما هو؟ قال: نحن نطالع وكل ما فهمناه ما نحتاج معه إلى تقرير بل نقرأ العبارة ولا نقف وما يحتاج إلى البحث والتقرير نتكلم فيه فأعجبه ذلك فقرأ عليه مدة قليلة على هذا النحو فكان جمع من تلامذة المحقق الأردبيلي يهزأون بهما كذلك فقال لهم المحقق عن قريب يتوجهون إلى بلادهم ويأتيكم مصنفاتهم وأنتم تقرأون في شرح المختصر فكان كذلك فإنهما لما رجعا صنف الشيخ حسن المعالم والمنتقى والسيد محمد المدارك ووصل بعض ذلك إلى العراق قبل وفاة المولى المحقق ﷺ»[1].

فمن تلامذته البارزين:

١. السيد محمد بن علي الموسوي العاملي المتوفى سنة (١٠٠٩هـ) مؤلف (مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام) وغيره من الكتب النافعة.

٢. الشيخ حسن بن زين الدين العاملي ابن الشهيد الثاني المتوفى سنة (١٠١١هـ) مؤلف (معالم الدين) و (منتقى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان).

ويعد بعض آخر من تلامذة مدرسته ومنهجه ولم يتتلمذوا عليه مباشرة، مثل المولى

(١) القمي، الشيخ عباس: الكنى والألقاب ٢. ٣٨٦ ٧.

محمد باقر بن محمد مؤمن السبزواري المتوفى سنة (١٠٩٠هـ) مؤلف كتاب (كفاية الأحكام) و (ذخيرة المعاد). ومثله الملا محسن الفيض الكاشاني المتوفى (١٠٩١هـ) مؤلف كتاب الوافي ومفاتيح الشرائع، فإنه وإن كان اتجاهه العام محسوبا على الأخباريين إلا أنه كان يبدي الاعجاب بطريقة المحقق الأردبيلي ويتفق معه ومع تلامذته في اختياراتهم كما أشار إلى ذلك بعض المؤلفين [1].

(١) المدرسي، السيد حسين: مقدمه‌اى بر فقه شيعه (فارسي) ٥٧.

شهادة بلون الدم

القاضي نور الله المرعشي الشوشتري

٩٥٦ـ١٠١٩هـ

للحديث عن القاضي الشهيد نور الله الشوشتري، أرى من اللازم التقديم بمقدمتين:

الأولى: أنه كان في فقهائنا الإمامية من هو محيط بفتاوى وأدلة المذاهب الأربعة، بنحو يُظن أنه من أتباع تلك المذاهب، بل ربما تفوق في معرفته بها على من هو من علمائها! وهذه نقطة تميز مهمة، ذلك أن من غير الصعب أن يحيط العالم بآراء مذهبه ويأنس بها ويدافع عنها، ولكن من الصعوبة بمكان الاحاطة بفقه مذهب آخر، فتوى وأدلة، وذلك أنه ينتمي إلى منظومة أخرى غالبا لا تتطابق مع المنظومة التي يتبعها في فقه مذهبه!

إنهم يتسابقون في هذا حتى يصبح (أعلم العلماء أعلمهم باختلافهم) كما نقل عن إمام المذهب الحنفي أبي حنيفة، وقد وجدنا بين علمائنا من هو محيط بفقه غيره أكثر من إحاطة أصحاب المذهب أنفسهم، فهذا شيخ الطائفة الطوسي الذي أبرز معرفته بفقه المذاهب (الأربعة وغيرها) في كتاب الخلاف بشكل منقطع النظير، حتى لقد توهم بعض مترجميه ناسبا إياه إلى أهل السنة وقال إنه شافعي المذهب!

وهذا الشهيد الثاني الذي كان يدرّس في المدرسة النورية في بعلبك على المذاهب المختلفة وقد تقدمت ترجمته وإحاطته بفقه مدرسة الصحابة.وسيأتي الحديث عن السيد بحر العلوم الطباطبائي وأنه بقي في مكة المكرمة يلقي دروسا في الفقه على المذاهب المختلفة حتى كان أتباع كل مذهب من المذاهب الأربعة يظنه منهم لإحاطته بمبانيهم وسعة تتبعه.

القاضي نور الله الشوشتري كان من هذا الصنف الموسوعي، والمحيط معرفة بآراء لمذاهب الفقهية الأخرى وقد ساعده

ذلك على البقاء في بيئة غير مسالمة للمذهب الجعفري. هذا بالاضافة إلى معرفته التخصصية بدرجة الاجتهاد في فقه أهل البيت عليهم السلام.

والثانية: أنه قد توجد ظروف تحول الخلاف العقدي بل والفقهي بين المسلمين الى حالة من العداء والتشنج الطائفي حتى تنتهي إلى معارك تراق فيها الدماء. فيتحول بفعل هذه الظروف مسار القضية من كونه التزاما ذاتيا في الفكر الى عمل عدائي ضد الغير في الخارج ، ينتهي الى الضرب والجرح حتى يصل إلى القتل. ولا ريب أن هذه الحالة ليست حالة طبيعية.

الحالة الطبيعية هي اختلاف الاراء والاجتهادات (في الاراء الفقهية والاعتقادات).

ولا يتم التحول هكذا صدفة، أو عفوا، وإنما تتحرك عوامل على صناعة هذا التحول، وأهم تلك العوامل هو العامل السياسي (وقد يكون للعوامل الشخصية أثر).

لقد شهدنا في أثناء الصراع السياسي بين الأتراك العثمانيين وبين الفرس الصفويين كيف استخدم كلا الطرفين الخلاف المذهبي سلاحا ماضيا، فهؤلاء يستحلون دماء الرافضة، وأولئك يبيحون دماء النواصب. ويعبئ كل فريق جيشه على أنه يقاتل كما قاتل أصحاب الجيل الأول في الإسلام!

السياسيون هنا والحاكمون لأنهم يريدون أن يصادروا الأموال، ويحتلوا الأراضي، ويقتلون فلا بد من إيجاد أرضية تسكت صوت الضمير المعارض لمثل هذه الأمور، ولا أفضل من أرضية النزاع الطائفي.

وفي الغالب يذهب ضحية هذا الصراع خيرة أبناء الأمة من الفريقين على يد حثالتها من الفريقين.

وهكذا ذهب الفقيه المتكلم القاضي نور الله الشوشتري شهيدا، بنحو فجيع يمثل: الشهادة الدامية التي يصدق عليها قول النبي (فوق كل برٍّ برٌّ حتى يقتل المرء في سبيل الله فليس فوقه بر)[1].

كيف كانت البداية؟ وكيف ختم حياته بالشهادة؟

كانت ولادته في شوشتر في جنوب إيران، والتي حين تُعرَّب يقال (تستر) وفيها درس،

(١) الصدوق، محمد بن علي بن بابويه: الخصال /٩.

ثم انتقل إلى خراسان حيث مشهد الامام الرضا عليه السلام في سنة ٩٧٩هـ، وفيها عكف على التحقيق والبحث والمدارسة ولا يأتي ذكر مفصل عن أساتذته، غير أنه لا بد أن يكون قد استفاد من والده السيد محمد الذي أجازه الفاضل القطيفي ابراهيم بن سليمان[١]، وفي سنة ٩٩٢هـ ولظروف غير معلومة، انتقل من مشهد و حطت به الرحال في الهند، أيام مملكة جلال الدين محمد أكبر شاه التيموري الذي سمع بمجيئه وأنه رجل فاضل في العلم، فاستقدمه وسمع منه، فأكبره واحترمه، وطلب منه أن يكون في ركابه وأن يعمل في القضاء عنده، ونقل أنه قد جرت بينه وبين أحد علماء عصره مسألة كان فيها حاضر الجواب، وذلك أن العالم الآخر ادعى أن ما يقوله علماء الكلام من أن الروح مجردة لا يصح، وذلك لأن القرآن الكريم أثبت لها الحركة، والانتقال من مكان إلى مكان، وهو من شأن الجسم لا المجرد، كما في قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾[٢]. ولما لم يكن لدى الحاضرين جواب، أجابه السيد الشوشتري برد ذلك حيث لم يكن هناك ذكر للروح حتى يعود الضمير عليها، بل الظاهر أن الضمير عائد على القلوب، كما وقع في آية ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[٣].

يظهر أن الشاه جلال الدين محمد أكبر لم يكن متعصبا، بالرغم من أنه كان على المذهب الحنفي وقد يكون ذلك راجعا إلى شخصيته وكونه محبا للعلم والمعرفة، ومن يكون هكذا لا يكون في الغالب متعصبا، وإنما يعجب بأهل الفكر وحملة العلم، وأيضا إلى ما ذكروه من أن الصفويين قد ساعدوا هذه الدولة في مواجهة أعدائها، فخفض هذا من مستوى التعصب الطائفي.

وعلى هذه القاعدة فقد استدعى الشاه جلال الدين، السيد نور الله الشوشتري ليكون القاضي الأول في مملكته. الأمر الذي لم يعجب الكثير من علماء ذلك الوقت، ممن كانوا مقربين من البلاط الحاكم، لا سيما وأنهم يعتقدون بانتماء السيد نور الله للتشيع مادام قادما من خراسان ومولودا في جنوب ايران.

وقبل الشوشتري العرض من الشاه جلال الدين، بشرط أن يقضي بما يترجح له من آراء المذاهب، حيث أنه كما قال للشاه، مجتهد يستطيع أن يرجح بين أقوال أئمة المذاهب الأربعة، ولن يتخطاها!!

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) سورة الواقعة: ٨٣.

(٣) الحسيني؛ جلال الدين: فيض الاله في ترجمة القاضي نور الله ص ٢٠ هامش.

وبالفعل فقد كان يقضي بين الخصوم بما يعتقده من الحق، ويبحث في أقوال المذاهب عما يؤيده، ومرت الأيام على هذا الأساس، وهذا يشير إلى أن مواطن الاتفاق بين الشيعة والمذاهب الأربعة كثيرة جدا، ولا سيما في أمور المعاملات بالمعنى الأعم، حيث هي مجال قضاء السيد الشوشتري.

فإنه ربما تكون الاختلافات في الأمور العبادية كثيرة إلا أنها ليست كذلك في أمور المعاملات، حيث تقوم تلك الأمور على أدلة عقلية أو عقلائية أو عمومات وقواعد، ومناشؤها تكاد تكون واحدة بين الفريقين [١].

ولم يهدأ للمنافسين له بال، فالحسد الشخصي هنا لا يترك للشخص مجالا، ويصبح كل هم هذا الشخص أن يسقط محسوده الذي يعتقد فيه أنه أخذ موقعه الخاص!! واعتدى على مقامه. ولا مانع هنا أن يتوسل بالمذهب والدين، وأن وجود هذا الشخص خطر عليهما، ومثلما نشهد في كل وقت حين تتحرك السياسة حينا، والمصلحة الشخصية حينا آخر، للمواجهة ولكنها تغلف بغلاف الحرص على الدين، والدفاع عن المذهب! فكانوا يرفعون إلى الشاه جلال الدين عن القاضي نور الله كلاما، وتقارير كيدية، ولكن جلال الدين لم يكن يعبأ بها بعدما وثق في القاضي الشوشتري، الذي كان قد أحكم أمره.

إلى أن توفي الشاه جلال الدين، وقام بالأمر بعده ابنه جهانكير شاه، وكان هذا متعصبا! فاستطاع بعض الطائفيين من العلماء أن يؤثر عليه، وعملوا له كمينا. عندما أمروا شابا أن يظهر التلمذة على القاضي، وأن يرافقه ويتعلم منه، بل يخدمه في منزله، حتى إذا اطمأن إليه وأظهر أنه من محبي أهل البيت! اطلع على بعض كتبه ومصنفاته التي كان يعدها، ومنها كتاب مجالس المؤمنين الذي يعرب بشكل واضح عن قوة تشيعه[٢].

وعندما وجد هذا الكتاب (وقيل كتاب إحقاق الحق) لديه واستنسخه منه، أوصله إلى مخالفيه المتآمرين عليه، وهؤلاء بدورهم أخبروا الحاكم جهانكير عن الكتاب وماذا يعني. فحكموا عليه. بأن يضرب بالأسلاك الشائكة في الشمس حتى يموت!!

فانظر إلى التعصب وماذا ينتج؟ وهل ترى عزيزي القارئ أن الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ رحمة للعالمين، ينتج هذا التعذيب؟ هل تعتقد أن الله سبحانه وتعالى يحكم

(١) لتفصيل ذلك يراجع كتاب ابن أبي جمهور الأحسائي، عوالي اللئالي، وتقدم الحديث فيه.

(٢) بتصرف من فيض الاله في ترجمة القاضي نور الله ص ٣١.

على من يكون في مذهبه مواليا لأهل بيت نبيه، ويضطر نظرا للظروف الاستثنائية التي صنعها الحاكمون وأعوانهم أن يخفي مذهبه تقية، وأن يخدم غيره من دون أن يكشف عن حقيقة مذهبه. هل ترى حكم الله فيما حكموا على هذا السيد من أبناء النبي من مئات الجلدات بالأسلاك الشائكة، والتي لم يتحمل وهو في ذلك السن (٦٣ سنة) إلا يسيرا منها حتى قضى نحبه شهيدا؟.

كتبه ومصنفاته:

كان القاضي الشهيد الشوشتري غزير الانتاج، متنوعه، متدفق الحماس في الجانب العقدي والدفاع عن مذهب أهل البيت عليهم السلام. فالمعروف ان لديه ما يزيد على (٩٠) كتابا ورسالة في مختلف الفنون. تنوعت ما بين كلام وحكمة، وتفسير وعقائد، ورجال ومنطق، وشعر وبلاغة. وبهذا يتبين الجانب الموسوعي في معارف هذا العالم الجليل الذي جمع بين الحسنيين العلم، والشهادة.

فمن كتبه العقائدية:

إحقاق الحق: وهذا الكتاب هو رد على الفضل بن روزبهان، الذي نقض على العلامة الحلي، ورد على كتابه نهج الحق.

والصوارم المهرقة، في الرد على كتاب الصواعق المحرقة لابن حجر. ومجالس المؤمنين في مشاهير رجال الشيعة. ومصائب النواصب، ورسالة في رد ما كتب بعضهم في نفي عصمة الانبياء عليهم السلام. والنور الانور في مسألة القضاء والقدر رد فيه على رسالة لبعض الهنود من معاصريه، وحاشية بحث عذاب القبر من شرح القواعد، ورسالة في أمر العصمة ورسالة في تحقيق آية الغار.

وقد طبع أخيرا كتاب باللغة الفارسية بعنوان (أسئله يوسفيه) وهو عبارة عن مكاتبات بين المير يوسف على الاسترابادي والقاضي نور الله الشوشتري، يجيب فيها القاضي على أسئلة المير يوسف ومناقشاته حول علم النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه هل يعلم النبي كل ما في ضمائر الناس كما ذهب إليه الأول أو لا، كما ذهب إليه القاضي.

وفي الفقه:

رسالة في المسح على الرجلين وغسلهما. واللمعة في صلاة الجمعة حاشية على

قواعد العلامة- ورسالة في نجاسة الخمر - ورسالة في مسألة الفأرة - ورسالة في غسل الجمعة، ورسالة متعلقة بقول العلامة الحلي في آخر كتاب الشهادات من قواعده وهو قوله «إذا زاد الشاهد في شهادته أو نقص قبل الحكم «، ورسالة في ركنية السجدتين، ورسالة في مسألة لبس الحرير.

وفي الأصول:

حاشية على شرح تهذيب الاصول، ورسالة شرح مختصر العضدي.

وفي المنطق:

حاشية على تهذيب المنطق لملا جلال، وحاشية على شرح الشمسية في المنطق.

وفي الحكمة:

شرح مبحث حدوث العالم من انموذج الدواني - وشرح الجواهر وحاشية على مبحث أعراض شرح التجريد- وشرح على اثبات الواجب القديم لملا جلال- ورسالة في أن الوجود لا حد له. وحاشية على الهيات شرح التجريد - وحاشية على شرح الهداية في الحكمة.

وفي التفسير:

أنس الوحيد في تفسير آية العدل والتوحيد. وحاشية على تفسير البيضاوى. و تفسير آية الرؤيا وتفسير آية «انما المشركون نجس». رسالة في تفسير قوله تعالى «فمن يرد الله ان يهديه بشرح صدره للاسلام»

وفي الدعاء والأخلاق:

شرح دعاء الصباح والمساء لعلي صلوات الله عليه بالفارسية- رسالة في الادعية، و خيرات الحسان.

وفي الحديث:

شرح على تهذيب الحديث، تراجم وضاعي الحديث

في البلاغة واللغة والشعر:

حاشية على المطول، ديوان شعره

وفي علم الهيئة:

رسالة في الاسطرلاب تشتمل على مائة باب.

وغيرها من الكتب.

الشيخ البهائي:عالَم من المواهب

محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملي

٩٥٣- ١٠٣٠هـ

الرجال الموسوعيون في التاريخ نوادر. وخدمتهم لمجتمعاتهم وللعلم عالية بنقلهم المستوى العلمي إلى مراحل متقدمة، حيث تجد الواحد منهم يعدل مجموعة من العلماء.

ومن أولئك الموسوعيين العظام كان الشيخ بهاء الدين العاملي المعروف بالشيخ البهائي، الذي ولد في مدينة بعلبك شمال لبنان، ويُنمى إلى الحارث الهمداني[١]، من أصحاب الامام علي عليه السلام من قبيلة همدان اليمنية [٢].

وفي وقت مبكر أخذ العلم عن أبيه الشيخ حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي، الذي كان من أبرز تلامذة الشهيد الثاني زين الدين بن علي الجبعي، وحين شد الوالد الرحال إلى إيران بدعوة من المحقق الثاني الشيخ علي عبد العال الكركي (صاحب جامع المقاصد) ضمن سعيه لنشر مذهب أهل البيت عليهم السلام فيها، أيام الشاه طهماسب الصفوي، سافر الولد مع والده وعمره حوالي

(١) الحارث (الأعور) بن عبد الله الهمداني أثنى عليه علماء الفريقين فقد عده ابن قتيبة في المعارف ص ٣٠٦ من الشيعة في عداد صعصعة بن صوحان وأصبغ بن نباته وأمثالهما، وترجم له الذهبي في (ميزان الاعتدال)، ج ١ ص٢٠٢ وقال: من كبار علماء التابعين. ونقل هو وابن حجر في تهذيب التهذيب ص١٤٥ عن أبي بكر ابن أبي داود أنه قال: كان الحارث أفقه الناس وأحسب الناس، وأفرض الناس، تعلم الفرائض من علي عليه السلام. وفي (خلاصة تهذيب الكمال) ص ٥٨: انه أحد كبار الشيعة.
وكان الامام يخصه بمحبته ويبادله إياها كما ذكر ذلك العلامة الأميني في الغدير فقال: ورد قوم من الشيعة على الإمام وهو فيهم فجعل يعني الحارث يتأود في مشيته ويخبط الأرض بمحجنه وكان مريضا فأقبل عليه أمير المؤمنين عليه السلام وكانت له منه منزلة فقال: كيف تجدك يا حارث؟!.
قال: نال الدهر مني يا أمير المؤمنين! وزادني أوارا وغليلا اختصام أصحابك ببابك!.
قال: وفيم خصومتهم؟ قال: في شأنك والبلية من قبلك، فمن مفرط غال، ومقتصد قال، ومن متردد مرتاب، لا يدري أيقدم أو يحجم.
قال: فحسبك يا أخا همدان؟ ألا إن خير شيعتي النمط الأوسط، إليهم يرجع الغالي وبهم يلحق التالي. إلى آخر حديثه معه. توفي سنة ٦٥هـ.

(٢) وهذا أحد الأمور التي تؤكد ما ذكرناه في كتاب صفحات من التاريخ السياسي للشيعة، وفاقا للدكتور الشيخ جعفر المهاجر في كتابه التأسيس لتاريخ التشيع في لبنان وسورية من أن بداية التشيع في لبنان كان على أثر هجرة القبائل اليمنية وبالذات قبيلة همدان بسبب تعرضها للعنف والمضايقة الأموية، عقابا على مواقفها المتفانية في صف أمير المؤمنين علي عليه السلام. وللتفصيل يراجع ما سبق.

الثمان سنوات. وبقي الولد تحت رعاية والده تعليما وتربية، إلى سنة ٩٨٤هـ حيث توفي والده في البحرين ودفن فيها[1].

براعة في العلم:

المتتبع لحياة الشيخ البهائي يحار من تنوع معارفه، وتميز قدراته، حيث جمع في شخصيته ما لا يجتمع آحاده في بعض العلماء! فهو كما قال بعض الباحثين «فقيه مع الفقهاء ومحدث مع المحدثين وصوفي مع المتصوفة وفيلسوف مع الفلاسفة ورياضي مع أصحاب التعليم وهو نحوي مع النحاة إلى غير ذلك».

وهو أيضا شاعر من أعاظم الشعراء، وفلكي من كبار الفلكيين، ومهندس تشهد له آثاره الباقية على براعته في هذا الفن، وبالرغم من أن بعض الباحثين قد شكك في أن تكون الصورة المأثور عن الشيخ البهائي هي الصورة الواقعية، وعزاها إلى نسبة الناس الغرائب والأساطير لمن يعتقدون فيهم، مثلما هو الحال في ما نسب إلى ابن سينا [2].

إلا أن ذلك لا ينفي براعته وتميزه، فإن هذه الآثار الباقي بعضها لم تنسب إلى غيره، ولو كان الأمر مجرد قصص منقولة أو ادعاءات محضة لأمكن التزيد فيها، إلا أننا أمام قضايا بعضها قائم بالفعل.

فمما ينقل عن براعته الهندسية ما ذكر عن بنائه لحمام يسخن بشمعة واحدة استمرت ثلاثة قرون بعده، يقول أحد الباحثين أن ذلك تم في سنة ١٠٢٥هـ، قال «وفيها أرّخ بناء الحمّام الّذي كان من العجائب في أصفهان، والّذي اشتهر انّه من تصميم البهائي في هندسة بنائه، وانّه أوقد تحت خزانته شمعة لم تنطفئ طيلة ثلاث قرون أو أكثر، وكان ماء الحمّام حاراً طيلة تلك المدة.

چون (يكي) از درون برون آمد (صحت وعافيت) بود تاريخ

وفي التاريخ نكتة تاريخية وهي انّ (يكي) بحساب الجمل تساوي (٤٠) تنقص من

(١) في اختيار والد الشيخ البهائي للبحرين وانتقاله إليها بعد أدائه الحج، منصرفا عن البقاء في إيران، ينقل أنه رأى رؤيا تفيد بصلاح حال أهلها وأنهم من أهل الجنة، فأحب أن يكون معهم، وهذا هو المشهور المتداول في ترجمته، بينما رأى الباحث السيد عدنان العوامي أن ذلك عائد إلى أن الأوضاع السياسية في الدولة الصفوية قد تغيرت وساد اضطراب على أثر وفاة الشاه طهماسب، وما كان من التكريم والدور الذي يقوم به العلماء الذين استقدمهم الشاه طهماسب قد تحول إلى إهمال وعدم رغبة من قبل السلاطين الجدد. أقول لا يمنع أن يكون الأمران من قبيل توارد الدواعي.

(٢) الدوري؛ د عبد العزيز: لمحات اجتماعية. ٣. ٧٦.

حساب جملة (صحت وعافيت) الّتي تساوي ١٠٦٥، فيكون الباقي ١٠٢٥ [١].

وهكذا كان أيضا في «الإتجاه الرياضي: فكان يسيطر على كثير من محاولاته ومعالجاته لمسائل علمية، وبخاصة لمسائل ما وراء الطبيعة، إعمال البراهين الرياضية، وفي الكشكول أكثر من شاهد على ذلك، ففي عرضه بطلان (اللاتناهي) مثلا فقد استدل ببراهين رياضية وهندسية.

وقد عرض السيد الأمين العاملي في الأعيان[٢] تلخيصا لكتابه خلاصة الحساب، بما يشير إلى تفوق هذا العالم وسبقه للكثير من متخصصي هذا العلم، كما نقل ما ذكره الدكتور جلال شوقي الأستاذ بكلية الهندسة في جامعة القاهرة الذي شرح في كتاب الأعمال الرياضية لبهاء الدين العاملي بعض نظريات الشيخ البهائي، المطبوع في تلك الفترة في بيروت.

و «في علوم الكيمياء والفيزياء والرادار: فقد أثر عنه انّه استطاع تحطيم الذرّة، والسيطرة على طاقتها، مستخدماً لها في الحاجات، كما توصل إلى اكتشاف قوانين الانعكسات الصوتية (الصدى) وتطبيق النظرية عملياً في تصميم بناء بعض مساجد أصفهان الشهيرة (مسجد الشاه)[٣] كما وضع قواعد ضغط الماء وتساوي سطوحه»[٤].

وقد نسب[٥] إليه هندسة بناء (منار جنبان) أي المنارتان المهتزتان في اصفهان، وهما منارتان متباعدتان، إلا أنك لو هززت المنارة الأولى فإن الثانية تهتز بتبع ذلك، إلا أن ما يؤكده البعض لو صح من أنهما قد بنيتا في سنة ٧١٦هـ يخالف هذه النسبة[٦].

وهكذا الحال ما نسب إليه من بناء مشهد الامام علي عليه السلام في النجف الأشرف، وأنه بترتيب معين، فقد شكك فيه بعضهم تبعا لأن بناء المشهد كان سابقا على ولادة الشيخ البهائي في أيام الصفويين.

(١) الخرسان؛ السيد محمد مهدي في مقدمة الكشكول للبهائي، نسخة الكترونية قرئت من موقع www.haydarya.com بتاريخ ٢٠١٢/٢/٨.

(٢) الأمين، السيد محسن: أعيان الشيعة ٩. ٢٣٧.

(٣) يعرف الآن بمسجد الإمام، وقد جربت ذلك عند زيارتي إياه، فعندما تقف على طوبة في وسط المسجد وتتحدث يتردد صدى صوتك مرارا، بينما إذا نزلت عنها وتحدثت يكون صوتك عاديا بلا صدى!.

(٤) المصدر السابق.

(٥) كما في موقع الحضرة الرضوية ..www.aqrazavi.org/index.php?module=pagesetter&func.

(٦) www.ic-el.com/magazine/no١/Entertainment/main.htm.

وإذا كانت العادة أن من يمتلك العقل الهندسي والرياضي والعلمي الدقيق إلى تلك الدرجة، يكون أشبه بحاسب آلي لا عواطف له ولا مشاعر لانشغاله بالحدود والمعادلات، فإن هذا أمر غير صادق في نموذج الشيخ البهائي، فكلما ازداد دقة في معادلاته الرياضية والهندسية تدفق رقة في مشاعره وأدبياته، ولك أن تأخذ مثالين في ذلك: الأول قصيدته في مدح النبي المصطفى ﷺ، قالها حين رأى في المنام كما قيل شخص النبي، فأنشا يقول:

وليلة كان بها طالعي ... في ذروة السعد واوج الكمال
قصّر طيبُ الوصل من عمرها ... فلم تكن الا كحل العقال
واتصل الفجر بها بالعشا ... وهكذا عمر ليالي الوصال
اذ اخذت عيني في نومها ... وانتبه الطالع بعد الوبال
فزرته في الليل مستعطفا ... أفديه بالنفس وأهلي ومال
واشتكي ما أنا فيه البلى ... وما ألاقي اليوم من سوء حال
فاظهر العطف على عبده ... بمنطق يزري بنظم اللئال
فيا لها من ليلة نلت في ... ظلامها ما لم يكن في خيال
أمست خفيفات مطايا الرجا ... بها وأضحت بالعطايا ثقال
سقيت في ظلمائها خمرة ... صافية صرفا طهورا حلال
وابتهج القلب باهل الحمى ... وقرت العين بذاك الجمال
ونلت ما نلت على أنني ... ما كنت استوجب ذاك النوال

والأخرى قصيدته المهدوية الرائية، التي وقعت محلا للمعارضة من قبل فحول الشعراء (المتخصصين في هذا الجانب) ومنهم الشيخ أبو البحر جعفر الخطي رحمه الله.

فقد ذكروا أنه في سنة ١٠١٦هـ في شهر رجب كان الشيخ البهائي في أصفهان، فوفد عليه أبو البحرالشيخ جعفر الخطي وجماعة من أهل البحرين فأنزلهم بداره وأكرم وفادتهم، وعرض أبو البحر على الشيخ كماله وأدبه، فاقترح عليه الشيخ معارضة قصيدته الرائية (وسيلة الفوز والأمان) والتي تتضمن بعد المطلع المعتاد في الشعر العربي القديم من التغزل بمواطن نجد والجزيرة العربية، ثم التألم من الزمان الذي أخر الشاعر عن مستواه ومقامه، لكي يتخلص منها إلى مدح الامام المهدي عجل الله فرجه، ويذكر صفاته ثم يستنهضه لنصرة دين الحق وتغيير الباطل. ونحن ننقلها لما فيها من

عاطفة جياشة، ومعان راقية، ونظم بديع:

سرى البرق من نجد فهيج تذكاري عهودا بحزوى والعذيب وذي قار
وهيج من أشواقنا كل كامن وأجج في أحشائنا لاعج النار
ألا يا لييلات الغوير وحاجر سقيت بهام من بني المزن مدرار
ويا جيرة بالمأزمين خيامهم عليكم سلام الله من نازح الدار
خليلي ما لي والزمان كأنما يطالبني في كل وقت بأوتار
فأبعد أحبابي وأخلى مرابعي وأبدلني من كل صفو بأكدار
وعادل بي من كان أقصى مرامه من المجد ان يسمو إلى عشر معشاري
أ لم يدر أني لا أذل لخطبه وان سامني بخسا وأرخص أسعاري
مقامي بفرق الفرقدين فما الذي يؤثره مسعاه في خفض مقداري
واني امرؤ لا يدرك الدهر غايتي ولا تصل الأيدي إلى سبر أغواري
أخالط أبناء الزمان بمقتضى عقولهم كي لا يفوهوا بإنكار
وأظهر اني مثلهم تستفزني صروف الليالي باحتلاء وامرار
واني ضاوي القلب مستوفز النهى أسر بيسر أو آمل باعسار
ويضجرني الخطب المهول لقاؤه ويطربني الشادي بعود ومزمار
ويصمي فؤادي ناهد الثدي كاعب بأسمر خطار وأحور سحار
وأني سخي بالدموع لوقفة على طلل بال ودارس أحجار
وما علموا اني امرؤ لا يروعني توالي الرزايا في عشي وأبكار
إذ دك طود الصبر من وقع حادث فطود اصطباري شامخ غير منهار
وخطب يزيل الروع أيسر وقعه كؤود كوخز بالأسنة سعار
تلقيته والحتف دون لقائه بقلب وقور في الهزاهز صبار
ووجه طليق لا يمل لقاؤه وصدر رحيب من ورود وإصدار
ولم أبده كي لا يساء لوقعه صديقي ويأسى من تعسره جاري
ومعضلة دهماء لا يهتدى لها طريق ولا يهدى إلى ضوئها الساري
تشيب النواصي دون حل رموزها ويحجم عن أغوارها كل مغوار
أجلت جياد الفكر في حلباتها ووجهت تلقاها صوائب انظاري

فأبرزت من مستورها كل غامض ... وثقفت منها كل قسور سوار

أأضرع للبلوى وأغضي على القذى ... وأرضى بما يرضى به كل مخوار

وأفرح من دهري بلذة ساعة ... واقنع من عيشي بقرص وأطمار

إذاً لا ورى زندي ولا عز جانبي ... ولا بزغت في قمة المجد أقماري

ولا بل كفي بالسماح ولا سرت ... بطيب أحاديثي الركاب وأخباري

ولا انتشرت في الخافقين فضائلي ... ولا كان في المهدي رائق أشعاري

خليفة رب العالمين وظله على ... ساكني الغبراء من كل ديار

هو العروة الوثقى الذي من بذيله ... تمسك لا يخشى عظائم أوزار

امام هدى لاذ الزمان بظله ... والقى اليه الدهر مقود خوار

ومقتدر لو كلف الصم نطقها ... بأجذارها فاهت اليه بأجذار

علوم الورى في جنب أبحر علمه ... كغرفة كف أو كغمسة منقار

فلو زار أفلاطون أعتاب قدسه ... ولم يعشه عنها سواطع أنوار

رأى حكمة قدسية لا يشوبها ... شوائب انظار وأدناس أفكار

باشراقها كل العوامل أشرقت ... لما لاح في الكونين من نورها الساري

امام الورى طود النهى منبع الهدى ... وصاحب سر الله في هذه الدار

به العالم السفلي يسمو ويعتلي ... على العالم العلوي من غير انكار

ومنه العقول العشر تبغي كمالها ... وليس عليها في التعلم من عار

همام لو السبع الطباق تطابقت ... على نقض ما يقضيه من حكمه الجاري

لنكس من أبراجها كل شامخ ... وسكن من أفلاكها كل دوار

ولانتثرت منها الثوابت خيفة ... وعاف السرى في سورها كل سيار

أ يا حجة الله الذي ليس جاريا ... بغير الذي يرضاه سابق أقدار

ويا من مقاليد الزمان بكفه ... وناهيك من مجد به خصه الباري

أغث حوزة الايمان واعمر ربوعه ... فلم يبق منها غير دارس آثار

وأنقذ كتاب الله من يد عصبة ... عصوا وتمادوا في عتو واصرار

يحيدون عن آياته لرواية ... رواها أبو شعيون عن كعب الأحبار

وفي الدين قد قاسوا وعاثوا وخبطوا ... بآرائهم تخبيط عشواء معسار

وانعش قلوبا في انتظارك قرحت　　　وأضجرها الأعداء أية اضجار
وخلص عباد الله من كل غاشم　　　وطهر بلاد الله من كل كفار
وعجل فداك العالمون بأسرهم　　　وبادر على اسم الله من غير إنظار
تجد من جنود الله خير كتائب　　　وأكرم أعوان وأشرف أنصار
بهم من بني همدان أخلص فتية　　　يخوضون أغمار الوغى غير فكار
بكل شديد البأس عبل شمر دل　　　إلى الحتف مقدام على الهول صبار
تحاذره الأبطال في كل موقف　　　وترهبه الفرسان في كل مضمار
أيا صفوة الرحمن دونك مدحة　　　كدرّ عقود في ترائب أبكار
يهنى ابن هاني إن أتى بنظيرها　　　ويعنو لها الطائي من بعد بشار
إليك البهائي الحقير يزفها　　　كغانية مياسة القد معطار
تغار إذا قيست لطافة نظمها　　　بنفحة أزهار ونسمة أسحار
إذا رددت زادت قبولا كأنها　　　أحاديث نجد لا تمل بتكرار

وقال: قد أمهلتك شهراً على معارضتها، وكان أبو البحر بديهي النظم فقال: بل يوماً، بل في مجلسي هذا، ثمّ اعتزل ناحية، وأنشأ قصيدة في ٥٥ بيتاً وأعطاها لراوية شعره الغنوي فقام وأنشدها ومطلعها:

هي الدار تستسقيك مدمعك الجاري
فسقياً فأجدى الدمع ما كان للدار

إلى أن قال فيها مادحاً للشيخ البهائي:

إلى ماجد يعزى إذا انتسب الورى　　　إلى معشر بيض أماجد أخيار
ومضطلع بالفضل زرّ قميصه　　　على كنز آثار وعيبة أسرار
سمي النبيّ المصطفى وأمينه　　　على الدين في ايراد حكم واصدار
به قام بعد الميل وانتصبت　　　دعائم قد كانت على جرف هار

واستمر بمدحه إلى قوله:

جُهلت على معروف فضلي فلم يكن　　　سواه من الأقوام يعرف مقداري

فقال الشيخ وهو يشير إلى جماعة من سادات البحرين وأعيانهم: وهؤلاء يعرفون

قدرك إن شاء الله، واستمر الغنوي في انشاد بقية القصيدة، وقد عرج فيها على مدح صاحب الزمان عليه السلام حتّى أتى على آخرها. وقد استحسن الشيخ البهائي نظم أبي البحر الخطي أيما استحسان.

وقد بلغت قصيدته الرائية تلك من الاشتهار، أن صار محلا للمعارضة والمجاراة من الشعراء المعاصرين له كأبي البحر كما سبق، والمتأخرين عنه كالعلامة السيد علي بن خلف المشعشعي الحويزي بقصيدة مهدوية مطلعها:

هي الدار ما بين العذيب وذيقار   عفت غير سحم ماثلات وأحجار

وممن جاراها: الشاعر الفاضل علي بن زيدان العاملي المتوفى (١٢٦٠هـ) بمعركة وله عقب هنالك، جارى قصيدة شيخنا البهائيبقصيدة اولها:

حنانيك هل في وقفة ايها الساري   علىالدارفيحكمالصبابةمنعار[١]

وقد شطر القصيدة السيد عبد الله البحراني الموسوي.

ونزوع نحو الحرية:

الملاحظ لحياة الشيخ البهائي يجد في نفسه نزوعا نحو التحرر من قيود المجتمع والمحيط، وتطلعا لأن يعيش بعيدا عن اشتراطات المناصب والمقامات الاجتماعية، تلك التي تفرض على البعض أن يحيا غير حياته، فيكون مبتهج الظاهر بائس الباطن.

إننا نجد أن ما نسب إلى الشيخ البهائي من التصوف والعزلة يصب في هذا المنحى، وهكذا ما كان عليه من حب السفر والسياحة. بل إن مرورا عابرا على شعره وما تناوله من مواضيع مختلفة، ليشير إلى تلك الروح التواقة للحرية والانعتاق!

بل إنه «ما كان على جلاله قدره يتحرج من النزول إلى ميادين المدينة والاختلاط بالسواد والوقوف مع المارة على حلقات الألعاب البريئة كألعاب الحواة ومروضي الحيوان وغيرها من الألعاب ضاربا بمظاهر التزمت والتصنع عرض الحائط «[٢].

وعلى مدى عقدين من الزمان (من ٩٨٤- ١٠٠٥) وجدناه يتنكر، ولا يعرّف شخصه بل يلبس ملابس الدراويش ويسافر إلى مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وقد نقل

(١) الأميني؛ عبد الحسين: الغدير ١١/٢٧٩.

(٢) أعيان الشيعة ج ٩ ص ٢٣٤.

صاحب الأعيان[1] خبر أسفاره إلى مصر والقدس ودمشق وحلب، ونحن ننقله بتمامه منه:

قال وكان يجتمع مدة اقامته بمصر بالأستاذ محمد بن أبي الحسن البكري وكان الأستاذ يبالغ في تعظيمه فقال له مرة: يا مولانا انا درويش فقير فكيف تعظمني هذا التعظيم؟

قال شممت منك رائحة الفضل وامتدح الأستاذ بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

يا مصر سقيا لك من جنة   قطوفها يانعة دانية

ثم قدم القدس. وحكى الرضي بن أبي اللطف المقدسي قال: ورد علينا من مصر رجل من مهابته محترم فنزل من بيت المقدس بفناء الحرم عليه سيماء الصلاح وقد اتسم بلباس السياح وقد تجنب الناس وأنس بالوحشة دون الإيناس وكان يألف من الحرم فناء المسجد الأقصى ولم يسند أحد مدة الإقامة إليه نقصا فألقي في روعي انه من كبار العلماء الأعاظم فما زلت لخاطره أتقرب ولما لا يرضيه أتجنب فإذا هو ممن يرحل إليه للأخذ منه وتشد له الرجال للرواية عنه يسمى بهاء الدين محمد الهمداني الحارثي فسألته عند ذلك القراءة عليه في بعض العلوم فقال بشرط أن يكون ذلك مكتوما وقرأت عليه شيئا من الهيئة والهندسة ثم سار إلى الشام قاصدا بلاد العجم وقد خفي عني امره واستعجم.

وقال المنيني: ولما ورد دمشق نزل بمحلة الخراب عند بعض تجارها الكبار واجتمع به الحافظ الحسين الكربلائي القزويني والتبريزي نزيل دمشق بصاحب الروضات الذي صنفه في مزارات تبريز واستنشده شيئا وكثيرا ما سمعت انه تطلب الاجتماع بالحسن البوريني فأحضره له التاجر الذي كان عنده بدعوة وتأنق في الضيافة ودعا غالب فضلاء محلته فلما حضر البوريني المجلسي راى فيه البهائي بهيئة السياح وهو في صدر المجلس والجماعة محدقون به وهم متأدبون غاية التأدب فعجب البوريني من ذلك وكان لا يعرفه ولم يسمع به فلم يعبأ به ونحاه عن مجلسه وجلس غير ملتفت إليه وشرع على عادته في بث دقائقه ومعارفه إلى أن صلوا العشاء ثم جلسوا فابتدر البهاء في نقل بعض المناسبات وأخذ في الأبحاث فأورد بحثا في التفسير عويصا فتكلم عليه بعبارة سهلة فهمها الجماعة كلهم ثم دقق في التعبير حتى لم يبق من يفهم ما يقول الا البوريني ثم

(١) المصدر السابق ص ٢٤١.

اغمض في العبارة فبقي الجماعة كلهم والبوريني معهم صموتا جمودا لا يدرون ما يقول غير أنهم يسمعون تراكيب واعتراضات وأجوبة تأخذ بالألباب فعندها نهض البوريني واقعا على قدميه فقال إن كان ولا بد فأنت البهاء الحارثي إذ لا أحد اليوم بهذه المثابة الا هو فاعتنقا وأخذا بعد ذلك في إيراد أنفس ما يحفظان وسأل البهاء من البوريني كتمان امره وافترقا تلك الليلة ثم لم يقم البهاء فاقلع إلى حلب.

العودة إلى الأدوار الاجتماعية:

إذا كان الشيخ البهائي قد عكف سنين طويلة على تهذيب النفس ومجاهدتها، ونزع عوامل السيطرة والأبهة منها، ومن خلال تخليه عن البهارج الدنيوية روضها وقمع تطلعها حتى صارت تحت إرادته، ولم يكن طوع أمرها، واستعان في ذلك عليها بما ورد عن المعصومين من أساليب التهجد والتبتل والخضوع لله عز وجل من الأدعية والمناجاة، والنوافل والصلوات، ثم أتم ذلك بتنكره وسياحته في عالم المسلمين، مستفيدا ومفيدا، متعلما ومرشدا، وخالط السوقة وعامة الناس حتى لا يشعر بتميزه عليه (مع أنه متميز على علمائهم ومتفوق)، فقد آن له بعد هذه الدورة التربوية التي استمرت طويلا أن يعود للعمل الاجتماعي والسياسي.

ولهذا فقد قبل عرض الشاه عباس الصفوي سنة ١٠٠٥هـ أن يكون شيخ الإسلام. ومن أولى منه بذلك وأحق؟

وقد استمر في هذا الدور المهم، توجيها وتعليما وإرشادا إلى أن وافته المنية في سنة ١٠٣٠هـ.

تلامذة عظام وكتب متنوعة:

تدل على المرء آثاره، ولقد خلف الشيخ البهائي ثلاثة أنواع من الآثار التي تشير إليه وتدل عليه، فمن آثاره ما تقدم من أمور هندسية وفلكية ورياضية، ومن آثاره تلامذة كانوا عيون الدهر علما ومعرفة، وهؤلاء كثيرون وهم يشيرون إلى تعدد آفاق الشيخ البهائي، حيث برز بعضهم في الحديث، وآخرون في الفقه، وغيرهم في الفلسفة والعرفان وهكذا، فمن تلامذته كان الشيخ محمد تقي المجلسي (الأول) والد العلامة المجلسي صاحب البحار واستاذه، ومن تلامذته المبرزين في الفقه الفاضل الجواد الكاظمي صاحب كتاب مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام، وشرح اللمعة. ومنهم صدر الدين الشيرازي المعروف

بالملا صدرا وهو من أشهر فلاسفة القرن الحادي عشر، وله كتاب (الأسفار الأربعة) الذي يدرس في الحوزات العلمية في المستويات العالية في الفلسفة، بالاضافة إلى عدد آخر من الكتب.وهكذا العالم الكبير الملا محسن الفيض الكاشاني المتنوع المواهب.

وأما كتبه فقد ذكر مترجموه أنها كثيرة فمنها:

١. كتاب الحبل المتين في إحكام أحكام الدين جمع فيه الأحاديث الصحاح والحسان والموثقات وشرحها شرحا لطيفا خرج منه الطهارة والصلاة ولم يتمه فيه ألف حديث وزيادة يسيرة.

٢. كتاب مشرق الشمسين وإكسير السعادتين جمع فيه آيات الأحكام وشرحها والأحاديث الصحاح وشرحها خرج منه كتاب الطهارة لا غير فيه نحو من أربعمائة حديث.

٣. كتاب العروة الوثقى في تفسير القرآن خرج منه تفسير الفاتحة لا غير.

٤. الحديقة الهلالية في شرح دعاء الهلال.

٥. حاشية الشرح العضدي على مختصر الأصول.

٦. الزبدة في الأصول، ولغز الزبدة.

٧. رسالة في المواريث.

٨. ورسالة في الدراية.

٩. رسالة في ذبائح أهل الكتاب.

١٠. رسالة اثني عشرية في الصلاة عجيبة.

١١. رسالة في الطهارة.

١٢. رسالة في الزكاة.

١٣. رسالة في الصوم.

١٤. رسالة في الحج.

١٥. الخلاصة في الحساب.

١٦. الكشكول كبير.

١٧. المخلاة.

١٨. الجامع العباسي بالفارسية في الفقه لم يتم،

١٩. الصمدية في النحو لطيفة.

٢٠. التهذيب في النحو.

٢١. بحر الحساب.

٢٢. توضيح المقاصد فيما اتفق في أيام السنة.

٢٣. حاشية الفقيه لم تتم.

٢٤. جواب مسائل الشيخ صالح الجزائري اثنتان وعشرون مسألة.

٢٥. جواب ثلاث مسائل أخر.

٢٦. جواب المسائل المدنيات.

٢٧. شرح الفرائض النصيرية للمحقق الطوسي لم يتم.

٢٨. رسالة في نسبة أعظم الجبال إلى قطر الأرض.

٢٩. تفسيره الموسوم بعين الحياة.

٣٠. تشريح الأفلاك.

٣١. رسالة الكر.

٣٢. رسالة الأسطرلاب عربية سماها الصحيفة.

٣٣. رسالة أخرى في الأسطرلاب فارسية سماها التحفة الحاتمية.

٣٤. شرح الصحيفة الموسوم بحدائق الصالحين.

٣٥. حاشية البيضاوي لم تتم.

٣٦. حاشية المطول لم تتم.

٣٧. شرح الأربعين حديثا.

٣٨. رسالة في القبلة.

٣٩. كتاب سوانح الحجاز من شعره وإنشائه.

٤٠. مفتاح الفلاح.

٤١. حواشي الكشاف.

٤٢. حاشية الخلاصة في الرجال.

٤٣. حاشية الإثنى عشرية للشيخ حسن.

٤٤. حاشية القواعد الشهيدية.

٤٥. رسالة في القصر والتخيير في السفر.

٤٦. رسالة في أن أنوار سائر الكواكب مستفادة من الشمس.

٤٧. رسالة في حل إشكالي عطارد والقمر.

٤٨. رسالة في أحكام سجود التلاوة.

٤٩. رسالة في استحباب السورة ووجوبها.

٥٠. شرح شرح الرومي على الملخص ذكره في الحديقة الهلالية.

٥١. حواشي الزبدة.

٥٢. حواشي تشريح الأفلاك.

٥٣. حواشي شرح التذكرة.

هذا ما ذكره الحر العاملي في كتابه أمل الآمل[١].

(١) العاملي؛ محمد بن الحسن الحر: أمل الآمل ١/١٥٥.

صاحب الوسائل
محمد بن الحسن الحر العاملي

١٠٣٣-١١٠٤هـ

أنزل الله على نبيه المصطفى آياته المحكمة وأحكامه المبينة، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة للناس. غير أن طبيعة الحياة الانسانية وما فيها من التفاصيل المتكثرة، وحاجاتهم المتجددة، تجعل أي كتاب مهما كان مفصلا بحاجة إلى تفصيل أكثر، وشرح أوسع لمختلف الحالات، مما أنشأ الحاجة إلى السنة القولية، وكلام رسول الله ﷺ.

كما أن تشريعات القرآن، وأوامره بحاجة إلى ترجمان عملي، وتجسيد ظاهر.

وكانت سيرة النبي ﷺ هي ذلك الترجمان، فإذا أراد المسلم أن يصلي احتاج إلى مثال ظاهر يقتفي أثره في الكيفية، فكان النبي يصلي ويأمر الناس بأن (صلوا كما رأيتموني أصلي)[١]، وعندما أرادوا الحج واحتاجوا إلى من يعلمهم المناسك كان ﷺ هناك قائلا: (خذوا عني مناسككم)[٢].

ولذا فإنه لا يُصغى إلى ما يقوله البعض من أنه يكفي القرآن الكريم، أو أن (حسبنا كتاب الله) بمعنى عدم الاحتياج إلى السنة والحديث. وذلك أن القائل بهذه المقولة سوف يواجه إشكالات عريضة في تفاصيل العقائد، وتفاصيل الشريعة، فهل يستطيع القائل بذلك أن يتعرف على قضايا اليوم الآخر وما فيه؟ أو أنه يقدر على معرفة كيفية الصلاة وأعداد ما تجب فيه الزكاة، فضلا عن شروط صحة المعاملات؟ وهكذا.

ولذا فقد شجع النبي المصطفى ﷺ على حفظ سنته، وضبط حديثه للعمل بما يقول من جهة، ولنقله إلى الأجيال اللاحقة والتالية

(١) صحيح البخاري ١/١٥٥ وعوالي اللئالي ٣/٨٦.

(٢) سنن البيهقي ٥/١٢٥.

من جهة أخرى، فقد يوجد في تلك الأجيال من يكون أفقه فيها، وأقدر على فهم تلك السنة. فقال: (نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[١].

وكان من الواضح في تاريخ المسلمين أن هناك موقفين تجاه تدوين السنة النبوية، فقد كان من المسلمين من لا يرى ضرورة لتدوين (كل) ما يقوله الرسول ﷺ، بمبررات مختلفة كأن يقولوا بأن رسول الله بشر كسائر الناس يرضى يوما ويغضب آخر، ويحب تارة ويبغض أخرى، وفي هذه الأثناء فإن تدوين كل ما يقوله سيجعل تلك الأحاديث التي قيلت في ظروف خاصة، يجعلها قوانين عامة. وهذا ما لم يكونوا يرونه صحيحا. وقد نقل التاريخ أن بعض هؤلاء قد أنكروا على عبد الله بن عمرو بن العاص تدوينه (كل) ما يقوله النبي، وعاتبوه في ذلك.ففي مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو قال كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش عن ذلك وقالوا تكتب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الغضب والرضا فأمسكت حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه الا حق [٢].

ويظهر من ذلك أن الفئة المعارضة لكتابة (كل) الحديث النبوي لم تكن ضعيفة في وجودها الاجتماعي، وإنما تمثل (قريشا)! وتستطيع أن تنهى وتأمر!

واستمر هذا التوجه في عدم تأييد كتابة الحديث وتدوينه حتى عصر ما بعد الرسول بالرغم من أن مقتضى القاعدة أن يتم الاهتمام بحديثه صلى الله عليه، لكيلا تندثر تلك الثروة العلمية، فقد نقل عن الخليفة أبي بكر أنه ظل يتقلب ليلته حتى أصبح وأمر بإتلاف ما كتب من الأحاديث! فقد نقل المتقي الهندي في الكنزعن القاسم بن محمد قال: قالت عائشة: جمع أبي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت خمسمائة حديث، فبات ليلة يتقلب كثيرا، قالت: فغمني! فقلت تتقلب لشكوى أو لشيء بلغك؟ فلما أصبح قال: أي بنية هلمي الأحاديث التي عندك فجئته بها فدعا بنار فأحرقها وقال، خشيت أن أموت وهي عندك فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدثني

(١) نقله الكليني في الكافي ١. ٤٠٣ بسند معتبر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس في مسجد الخيف فقال. ونقله أيضا احمد بن حنبل في المسند بنفس العبارة.

(٢) مسند احمد – الإمام احمد بن حنبل – ج ٢ – ص ١٩٢ وذكره أيضا في سنن الدارمي، والمستدرك على الصحيحين.

فأكون قد تقلدت ذلك [١].

وهنا يلاحظ أن المبرر المذكور هو غير ما ذكرته قريش وهو أنه يخاف أن يكون الناقل عن النبي غير أمين، فيكون بنقله يتحمل تبعة ذلك، وهو مبرر غير صحيح فهنا يمكن أن يبقي ما نقله مباشرة عن النبي، أو يبقي ما هو واثق من نقله أو ناقله.

وحين نأتي إلى أيام الخليفة عمر وجدنا سببا آخر يذكر لعدم تدوين الحديث، وهو الخشية من اختلاط القرآن بالحديث النبوي، فقد ذكر المتقي الهندي في موضع آخر من كتابه[٢] عن الزهري عن عروة أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر رضي الله عنه يستخير الله فيها شهرا، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتابا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدا.

ولم يكتف الخليفة عمر بهذا بل منع الصحابة الذين يسافرون خارج المدينة للغزو أو التبليغ عن إشاعة الحديث، وأكد عليهم أن لا يشغلوا الناس بغير القرآن!! فعن قرظة بن كعب: قال خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى صرار [٣] فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال أتدرون لم مشيت معكم قالوا نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا!

فقال إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم! جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم امضوا وأنا شريككم فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب.[٤]

وفي المقابل كان الامام علي عليه السلام ومن سار في خطه من الصحابة وبني هاشم يحرصون على تدوين سنة النبي صلى الله عليه وآله، ويؤكدون على حفظها، وكان ذلك انسجاما مع توجيهات النبي حيث كان يتم التأكيد على (استعن بيمينك) و(قيدوا العلم بالكتابة).وكانت أحاديث النبي المكتوبة عندهم تساوي قيمة كثيرة كما يشير إليها حديث فاطمة الزهراء عليها السلام،

(١) كنز العمال ١٠. ٢٨٥.

(٢) كنز العمال ١٠. ٢٩١.

(٣) موضع ماء خارج المدينة في طريق القوافل إلى العراق.

(٤) ابن عبد البر؛ جامع بيان العلم وفضله ٢. ١٢٠.

فعن ابن مسعود، قال: جاء رجل إلى فاطمة عليها السلام فقال: يا ابنة رسول الله، هل ترك رسول الله صلى الله عليه وآله عندك شيئاً: تطرفينيه [١]. فقالت: يا جارية، هات تلك الحريرة! فطلبتها فلم تجدها، فقالت: ويحك اطلبيها، فإنها تعدل عندي حسنا وحسينا.[٢]

ولذا فقد كان لدى أهل البيت عليهم السلام عدد من الصحف والأحاديث التي احتوت على علم رسول الله صلى الله عليه وآله وكانوا يتوارثونها كما صرحوا بذلك في مواضع مختلفة وأشاروا إليها، فنلاحظ أنه يرد ذكر كتاب علي عليه السلام بإملاء رسول الله وخط علي، ومنها صحيفة الجامعة وكتاب الجفر.

واستمر أتباع أهل البيت في التدوين وكتابة أحاديث الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وآله وشهد هذا الأمر تطورا واضحا أيام الإمام الصادق عليه السلام، حيث كان له من التلامذة العدد الكبير في المدينة والكوفة حين نزلها وصارت مصنفاتهم أرضية الجوامع الحديثية الكبرى فيما بعد.

بينما بقي خط الخلافة الرسمي على موقفه في رفض التدوين للسنة النبوية، وبطبيعة الحال لم يكن يعترف بإمامة الأئمة فلم ينقل عنهم رواياتهم، واستمر ذلك إلى أيام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ، حيث أمر بأن يتم تدوين حديث رسول الله. وهذا وإن كان عملا حسنا إلا أنه جاء متأخرا جدا، وذلك أن كثيرا من الأحاديث قد ماتت بموت حفظتها ورواتها حيث لم يدونوها ولم تنقل عنهم إذ أن النهي في العصور الأولى امتد إلى منع الحديث. كما أن الفترة الأموية الأولى شهدت حركة وضع للأحاديث لتأييد النهج الأموي[٣].

وفي منتصف القرن الثالث الهجري وجدنا أول المصنفات الحديثية تعتمدها الدولة مثلما كان كتاب الموطأ، حيث أمر المهدي العباسي، مالكا بن أنس أن يصنف كتابا لكي يحمل الأمة عليه! وقيل إن الذي أمره بذلك كان أبا جعفر المنصور العباسي[٤].

وبالرغم من وجود مصنفين إلى جانب مالك بن أنس، إلا أن كتبهم ومصنفاتهم لم تتداول ولم تبق.

---

(١) أي تهدينه إلي.

(٢) دلائل الامامة – محمد بن جرير الطبري (الشيعي). ٦٥.

(٣) للتفصيل يراجع كتاب أضواء على السنة المحمدية للشيخ محمود أبو رية.

(٤) ذكر كلا الروايتين محمد بن جرير الطبري في كتابه المنتخب من ذيل المذيل ١٤٣.

وبعد ذلك بمدة صنف إمام المذهب الحنبلي أحمد بن حنبل المتوفى سنة (٢٤١هـ) كتابه (مسند أحمد)، وجاء بعد ذلك دور أصحاب الجوامع الحديثية الكبرى بدءا من البخاري (ت ٢٥٦هـ) وبعده أصحاب الكتب الستة كمسلم والترمذي وابن ماجه والنسائي وأبي داود.

هذا في الوقت الذي بلغت فيه كتب الإمامية وأصولهم الحديثية إلى ذلك الوقت (زمان الغيبة الصغرى) ما يقرب من (٦٠٠٠) كتاب، أهمها ما عرف بـ (الأصول الأربعمائة)، تلك الكتب وهذه الأصول كانت أرضية تأليف المجموعات الحديثية الكبرى لدى الإمامية.

فقام الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ) بتأليف كتابه الكافي وقد تقدم الحديث عن الكليني والكافي، وتلاه في التصنيف الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالصدوق (ت ٣٨١هـ)، وألف كتاب (فقيه من لا يحضره الفقيه)، وتلاهما الشيخ محمد بن الحسن الطوسي المعروف بشيخ الطائفة (ت ٤٦٠هـ) وألف كتابيه (تهذيب الأحكام) وهو شرح استدلالي روائي على كتاب استاذه الشيخ المفيد (المقنعة)، والآخر (الاستبصار في ما اختلف من الأخبار) في الجمع بين ما ظاهره التنافي بين أخبار أهل البيت عليهم السلام.

وبقيت تلك الكتب عليها مدار البحث العلمي الفقهي خصوصا عدة قرون إلى أن جاء شيخنا المترجم الحر العاملي، وألف كتاب (وسائل الشيعة) فتقدم من الناحية العملية في الاستفادة منه على الكتب التي كانت أساسا له. وسيأتي حديث عن هذا الكتاب بعد الحديث عن مؤلفه.

المحدث محمد بن الحسن الحر العاملي:

كانت ولادته في سنة ١٠٣٣هـ في بلدة مشغرة من الجنوب اللبناني، كما ذكر ذلك مترجمو حياته. ويرجع نسبه إلى الحر بن يزيد الرياحي الشهيد في كربلاء[(١)]، وهنا ينبغي أن نشير إلى نقاط:

■ منها أن تأثير الأنساب والأسر الطيبة في الأبناء والأحفاد، مما لا يكاد ينكر وهو

(١) الحر بن يزيد الرياحي اليربوعي: قائد عسكري، من بني تميم بعثه عبيد الله بن زياد أيام ولايته على الكوفة، على رأس فرقة مقاتلة (١٠٠٠) رجل، للقبض على الإمام الحسين قبل وصوله إلى الكوفة، فتقابلا في منطقة (ذو حسم) ولم يحصل بينه وبين الامام قتال، وإنما ظل يساير الحسين إلى أن وصلا إلى كربلاء، وانتهى به الأمر في يوم عاشوراء بعد أن رأى عددا من مواقف الطرفين إلى أن أصبح في جيش الإمام الحسين وقاتل ضد الأمويين واستشهد إلى جانب أصحاب الحسين سنة ٦١هـ، وكان مثال التوبة والانتقال من معسكر الضلالة إلى الهداية. له قبر ومشهد في ضواحي كربلاء.

وإن لم يكن حتميا وضروريا، بمعنى صلاح كل من أنجبوا، إلا أن التأثير ذاك بنحو الاقتضاء وأنه أحد العوامل، مما لا ينبغي إنكاره، بل تشير حقيقة تأثر الأبناء بصفات الآباء وقوانين الوراثة (حتى في غير الصفات البدنية) وتدل عليه التجربة والاستقراء الاجتماعي. ويمكن تفسير ما ورد من الروايات الكثيرة في اختيار من أنجبتهم الأسر الطيبة، في الزواج والمسؤوليات الاجتماعية[١] بهذا المعنى.

- ومنها تأييد ما ذكره بعض المحققين من أن نشوء التشيع في لبنان، كان على أثر هجرة قبائل شيعية في فترات مختلفة بدأت في العصر الأموي، حين اشتد الضغط على شيعة الامام علي عليه السلام في الكوفة، فهاجرت تلك القبائل إلى الشمال السوري واللبناني ثم الجنوب، ومن خلال استقرارها في تلك المناطق انتشر التشيع[٢].

وبنو رياح وهم أسلاف الحر العاملي تميميون هاجروا إلى جنوب لبنان، وإن كنا لا نعلم عن التاريخ الدقيق عن هجرتهم إلا أن ذلك لا يضر بأصل الفكرة بل يعتبر شاهدا عليها.

وقد ترجم حياته في كتابه (أمل الآمل في أحوال علماء جبل عامل)، مبينا أن دراسته كانت على يد والده وكان عالما فاضلا بل قيل إنه أعلم أهل مصره في الشرعيات، وعمه وجده وخال أبيه، وبقي في تلك البلدة إلى أن بلغ أربعين سنة.

وبعدها سافر إلى العراق لزيارة المراقد المقدسة للأئمة عليهم السلام، وثنى بالسفر إلى إيران حيث سيحط في آخر الأمر بحدود سنة ١٠٧٣هـ بطوس ومشهد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وسيجاور مقيما هناك إلى أن توفي.

وقد قيل[٣] إنه في أثناء سفره إلى مشهد الرضا مرّ في طريقه بمدينة اصفهان حاضرة إيران في ذلك الوقت وحصل له هناك عدة قضايا تعرب عن منزلته العلمية والأخلاقية. فقد التقى بالعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي صاحب كتاب بحار الأنوار،

(١) في وصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لمالك الأشتر وعهده إليه كما في نهج البلاغة ٣. ٩١: ثم ألصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة. ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم، وشعب من العرف.

(٢) المهاجر: الشيخ علي، التأسيس لتاريخ التشيع في سورية ولبنان، ويراجع أيضا كتاب صفحات من التاريخ السياسي للشيعة، لكاتب هذه السطور.

(٣) وسائل الشيعة ؛طبعة آل البيت ج ١ - ص ٧٨ مقدمة التحقيق.

وقد أجاز كل منهما الآخر أن يروي عنه.وهي التي تسمى بـ (الاجازة المدبجة).

كما يعرب عن سرعة بديهته وكمال جرأته ما حصل بينه وبين الشاه الصفوي في حينه، فقد حكي إنه ذهب - أثناء إقامته بأصفهان - إلى مسجد الشاه سليمان الصفوي، فدخل بدون استئذان، وجلس على ناحية من المسند الذي كان الشاه جالسا عليه، فسأل عنه الشاه فأخبر إنه عالم جليل من علماء العرب، يدعى محمد بن الحسن الحر العاملي، فألفت إليه وقال: (فرق ميان حر وخر چقدراست) أي: كم هو الفرق بين حُر و خَر؟ وخر بالفارسية معناها الحمار و حُر هو اسم الشيخ. فقال له الشيخ على الفور: (يك متكى) أي مخدة واحدة، فعجب الشاه من جرأته وسرعة جوابه [1].

ومع وصوله إلى مشهد الامام الرضا، تحلق حوله طلاب العلم والحديث وكان بارعا فيه، حيث يعد من أعلام المدرسة الأخبارية وسيأتي حديث عنها في موضع آخر. وتتبين براعته في هذا الفن من خلال استعراض كتبه المتعددة وهي لا تخرج عن هذا غالبا.

وقد أذعن سائر العلماء بعلو كعبه في العلم، ولذلك فقد أسند إليه منصب قاضي القضاة وعُد شيخ الإسلام في تلك الديار.

كتبه ومؤلفاته:

ذكر الحر العاملي نفسه في كتابه (أمل الآمل) أن عدد كتبه ٢٢ كتابا، وعدها غيره بأنها (٢٤) وقد يكون ذلك لتداخل بعض الأسماء.

١. أشهر كتبه وأكثرها نفعا حتى اليوم، كتاب تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، المعروف حاليا بوسائل الشيعة.

وقد وصفه بأنه يشتمل على «جميع أحاديث الأحكام الشرعية الموجودة في الكتب الأربعة وسائر الكتب المعتمدة أكثر من سبعين كتابا، مع ذكر الأسانيد وأسماء الكتب وحسن الترتيب وذكر وجوه الجمع مع الاختصار، وكون كل مسألة لها باب على حدة بقدر الامكان» [2].

وقد استغرق في تأليف هذا الكتاب مدة ١٨ سنة، وراجعه كما قيل ثلاث مرات.وإذا

(١) وسائل الشيعة (آل البيت ج ١ - ص ٧٩ مقدمة التحقيق.

(٢) العاملي، الحر: أمل الآمل ١. ١٤٢.

كان قد تم تأليفه سنة (١٠٨٨هـ) فهذا يعني أنه قد بدأ في تأليفه منذ كان في بلده في مشغرة أي حوالي سنة (١٠٧٠هـ)، وقبل بداية سفره باتجاه العراق ثم إيران. وفيه ميزات كثيرة نشير إلى بعضها.

أ. من حيث العدد يحتوي الكتاب على (٣٥٨٦٨) حديثا، وقد اشتمل على كل الأبواب الفقهية،وإضافة إلى ذلك فقد جمع ما تفرق في الكتب الأربعة المعروفة لدى الإمامية، بل وغيرها كما تقدم نقل كلامه، وبالتالي فهو يغني غالبا عنها في أبواب الفقه..

وهذا العدد الكبير من الأحاديث نقله مسنَدا، وإذا كان له أكثر من سنَد أشار إليه مما يسهل للفقيه مهمة المقارنة بين الأسانيد ومناقشتها.وقد أشار إلى فائدة ذلك فقال: ومن طالعه اطلع على ما اتفق لجماعة من الأصحاب في هذا الباب، مثل: حكمهم على كثير من الروايات بأنها ضعيفة. مع وجودها بطرق أخرى، هي عندهم - أيضا - صحيحة. ودعواهم في كثير من المسائل أنها غير منصوصة. مع ورودها في نصوص صريحة. وحصرهم لأدلة بعض المسائل في حديث واحد، أو أحاديث يسيرة. مع كون النصوص عليها كثيرة [١].

ب. «ومن ميزاته الهامة أنه جمع في كل باب، كل الأشباه والنظائر من الأحاديث فيجد الباحث في مكان واحد الأحاديث المتفقة سندا ومتنا، مجموعة في باب واحد متقاربة، فيكون بإمكانه الوقوف على القرائن المؤدية إلى تصحيح المتن أو السند أو كليهما بسهولة تامة وملاحظة سريعة»[٢].

ج. وبالرغم من أن الحر العاملي لما كان على مسلك المحدثين الأخباريين فهو ممن يعتقد بـ (صحة أحاديث الكتب المعتمدة) وبوجوب العمل بها، وبضعف الاصطلاح الجديد في تقسيم الحديث إلى صحيح وحسن وموثق وضعيف، الذي تجدد في زمن العلامة[٣]. وقد أورد في الفائدة التاسعة من الخاتمة عشرين وجها في الاستدلال على صحة الأحاديث المنقولة عن الكتب تلك.

إلا أن ذلك لا يعني اكتفاءه بمسلكه ذاك، وإنما يلاحظ أنه غالبا يرتب الأحاديث في

(١) وسائل الشيعة ١. ٧.

(٢) الجلالي: السيد محمد رضا الحسيني، في مقدمة خاتمة الوسائل ٣٠. ٩ طبعة آل البيت.

(٣) العاملي: الحر؛ خاتمة الوسائل ٣٠. الفائدة التاسعة ٢٥٢.

كل باب بادءا بالحديث (الصحيح حتى عند أهل الاصطلاح الجديد)، ولذا يكون الكتاب مفيدا للجميع حتى من لا يقبل مسلك المحدثين.

كتبه الأخرى:

وقد أشار إلى سائر كتبه في كتابه (أمل الآمل) مع بيان موضوعها، ونحن ننقلها من ذلك الكتاب:

فمنها:

١. كتاب الجواهر السنية في الأحاديث القدسية

٢. الصحيفة الثانية من أدعية علي بن الحسين عليه السلام الخارجة عن الصحيفة الكاملة.

٣. الفصول المهمة في أصول الأئمة عليهم السلام تشتمل على القواعد الكلية المنصوصة في أصول الدين وأصول الفقه وفروع الفقه وفى الطب ونوادر الكليات.

٤. هداية الأمة إلى أحكام الأئمة عليهم السلام، ثلاث مجلدات صغيرة منتخبة (من وسائل الشيعة).

٥. الفوائد الطوسية، خرج منه مجلد يشتمل على مائة فائدة في مطالب متفرقة، (وهي عشر رسائل).

٦. إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، مجلدان، يشتمل على أكثر من عشرين ألف حديث وأسانيد تقارب سبعين ألف سند منقولة من جميع كتب الخاصة والعامة.

٧. فهرست وسائل الشيعة، يشتمل على عنوان الأبواب وعدد أحاديث كل باب ومضمون الأحاديث، مجلد واحد، ولاشتماله على جميع ما روي من فتاواهم عليهم السلام سماه كتاب من لا يحضره الامام.

٨. أمل الآمل في علماء جبل عامل.

٩. رسالة في الرجعة سماها الايقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة وفيها اثنا عشر بابا تشتمل على أكثر من ستمائة حديث وأربع وستين آية من القرآن (وأدلة كثيرة) وعبارات المتقدمين والمتأخرين وجواب الشبهات وغير ذلك.

١٠. رسالة في الرد على الصوفية تشتمل على اثنى عشر بابا واثني عشر فصلا فيها

نحو ألف حديث في الرد عليهم عموما وخصوصا في كل ما اختصوا به.

١١. رسالة في تسمية المهدي عليه السلام سماها كشف التعمية في حكم التسمية.

١٢. رسالة الجمعة في جواب من رد أدلة الشهيد الثاني في رسالته في الجمعة.

١٣. رسالة في الاجماع سماها نزهة الاسماع في حكم الاجماع.

١٤. رسالة في خلق الكافر وما يناسبه.

١٥. رسالة تواتر القرآن.

١٦. رسالة الرجال.

١٧. رسالة أحوال الصحابة.

١٨. رسالة في تنزيه المعصوم عن السهو والنسيان.

١٩. رسالة في الواجبات والمحرمات المنصوصة من أول الفقه إلى آخره في نهاية الاختصار سماها بداية الهداية وقال في آخرها: فصارت الواجبات ألفا وخمسمائة وخمسة وثلاثين والمحرمات ألفا وأربعمائة وثمانية وأربعين.

٢٠. رسالة في أحواله.

٢١. رسالة في الوصية لولده.

٢٢. كتاب العربية العلوية واللغة المروية

٢٣. ديوان شعر يقارب عشرين ألف بيت أكثره في مدح النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، وفيه منظومة في المواريث، ومنظومة في الزكاة، ومنظومة في الهندسة، ومنظومة في تاريخ النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام.

في سنة ١١٠٤هـ، وفي جوار الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام، توفي محمد بن الحسن الحر العاملي المشغري، ودفن في جوار المشهد، ومع التوسعة العمرانية للمشهد أصبح قبره في داخل المشهد وهو ظاهر للعيان يتوافد إليه أهل العلم يترحمون عليه ويقرؤون له القرآن.

غواص بحار الأنوار: العلامة المجلسي

محمد باقر بن محمد تقي

١٠٣٧- ١١١١هـ



يمكن القول أن توجيه النبي ﷺ وحديثه المشهور (من حفظ من أمتي أربعين حديثا بعثه الله عالما) لم يكن الغرض منه مجرد الحفظ والترديد بحيث يتحول المسلم الحافظ إلى آلة تسجيل، بقدر ما كان الغرض منه حفظه (عن الضياع) ونقله (بين الأجيال) الأمر الذي يؤدي إلى تراكم (المعرفة).

ولهذا كان مهمّاً أن يحفظه الحافظون في كل مرحلة بغض النظر عن قدرتهم على الاستفادة منه بالكامل في تلك المرحلة. فـ (رب حامل علم إلى من هو أعلم منه) [(١)]، و(رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) [(٢)].

بل يمكن القول أن المعرفة الانسانية ما كان لها أن تصل إلى ما وصلت إليه، لولا وجود عنصر الحفظ لعلم السابقين والبناء عليه من قبل اللاحقين. إذ بدون ذلك يتعين على العالم أن يبدأ دوما من نقطة الصفر، ومن المبادئ التصورية لكل علم، حتى ينتقل منها إلى المراحل التالية، وقد ينتهي عمره دون أن يصل إلى ما ينبغي أن يصل إليه. غير أن وجود هذا التراكم العلمي المحفوظ، جعل العلماء اللاحقين يبنون على القواعد تلك ما وصلوا إليه من النتائج، فكان أن تطورت المعرفة البشرية.

وإذا كان هذا المعنى صادقا في المعارف البشرية، فإنه أوضح في المعارف الصادرة عن الوحي بصورة مباشرة وغير مباشرة فكان حفظ القرآن مهما ومطلوبا، وكان حفظ الحديث النبوي والإمامي شيئا لازما.

وبالرغم من أن هذا الثاني -حفظ الحديث النبوي والامامي-

(١) الطبراني عن رسول الله صلى الله عليه وآله في المعجمين الأوسط والصغير.

(٢) الكليني في الكافي ١. ٤٠٣.

تعتريه المصاعب، لأجل أنه ليس كل ما نقل عن النبي أو الامام عليهما السلام، صحيح النسبة إليه، أو معروف الجهة والدلالة. ويحتاج بلا شك إلى بذل الجهد للاطمئنان أو (الظن الخاص) إلى صدوره، وانتسابه.

إلا أن هذه هي مرحلة أخرى بعد الجمع والحفظ إذ لو أريد إجراء مقص النقد والتدقيق حين الجمع، ومن المعلوم أن هذا يتأثر بمستوى وتوجه الناقد والمدقق لضاع الكثير من ذلك التراث والعلم بناء على أنه ليس صحيحا في رأي هذا الناقد الجامع. ولكن الصحيح هو أن يجمع ما وصل إلى العالم من تراث ومعارف، ثم تأتي المرحلة الثانية بعمله هو أو عمل الجيل الذي بعده، ليتم القيام بالنقد والتحقيق والتصحيح والتضعيف، ويأتي جيل آخر ليناقش نفس (العمل المجموع أولا) فربما وصل إلى نفس النتائج وربما ضيقها أو وسعها.

فيبقى لدى الأمة مساحة واسعة من العلم الذي بقي منذ القدم، وتراكم، وحُفظ، ويأتي الباحثون بعد ذلك ليحققوا فيه.

وهذا هو العمل المهم الذي قام به العلامة المولى محمد باقر بن الشيخ محمد تقي المجلسي رحمه الله. في موسوعته الضخمة المسماة (بحار الأنوار: الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار).

فإنه وخلال عشرين سنة من عمره بدأ يجمع ما كان في الكتب المتداولة المشهورة، ولم يكتف بذلك وإنما بدأ يبحث عن الكتب المغيبة لأجل استيلاء القمع السياسي والفكري، والمغمورة لأجل قلة الاعتناء بها، ومجهولة القدر لأجل انصراف طلبة العلم عنها، واستعان في ذلك بجماعة من الاخوان سافروا في مختلف البلاد لتحصيلها وشرائها واستنساخها، ما يذكرنا اليوم بما تقوم به المؤسسات البحثية والعلمية. بل بذل جاهه في هذا المعنى كما يذكر ذلك بعض تلامذته[1] من أنه طلب من حاكم عصره إرسال هدايا إلى حاكم اليمن لتحصيل كتاب ينفعه في تأليف البحار. حتى اجتمع عنده من المصادر الأصلية، والأصول المعتبرة ما لم يجتمع عند غيره، وما لم يحصل في كتب السابقين.

(١) قال السيد عبد الله حفيد السيد نعمة الله الجزائري:سمعت والدي عن جدي رحمة الله عليهما، أنه لما تأهب المولى المجلسي لتأليف بحار الأنوار، وكان يفحص عن الكتب القديمة، ويسعى في تحصيلها، بلغه أن كتاب مدينة العلم للصدوق، يوجد في بعض بلاد اليمن فأنهى ذلك إلى سلطان العصر، فوجه السلطان أميرا من أركان الدولة سفيرا إلى ملك اليمن بهدايا وتحف كثيرة لخصوص تحصيل ذلك الكتاب، وإنه كان أوقف السلطان بعض املاكه الخاصة، على كتاب البحار لتكتب من غلتها النسخ وتوقف على الطلبة. بحار الأنوار ١٠٢ – ص ٣٤.

وبدأ العلامة المجلسي في تنضيد ما كان جمعه بنحو بديع، فـ« ابتكر التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم حيث كان يأتي بالآيات المرتبطة بالموضوع، ويشرحها في منظومة واحدة، ويفسرها دفعة واحدة مما يمكنه من فهم علاقة بعضها ببعض »[1].

ويتميز كتاب بحار الأنوار على ما سواه من الكتب الحديثية الأخرى المؤلفة قبله بميزات كثيرة نذكر منها:

١. الموسوعية:

فبينما جاءت الموسوعات الحديثية السابقة له في عدد مجلدات لا يتجاوز بالطباعة الحديثة خمسة عشر جزءا في مثل تهذيب الاحكام، وأقل من ذلك في مثل الكافي فضلا عن الاستبصار. جاء بحار الأنوار في ١١٠ مجلدات. وقد اعتمد على عدد كبير من المصادر ذكر منها في مقدمة البحار؛ قرابة أربعمائة اسم من كتب علماء الإمامية، وأقل من مئة من كتب باقي المسلمين.

٢. الإستيعاب لأبواب العلم المختلفة:

فإذا قارناه ببعض الكتب الذي سبقته، وجدنا أنها في الغالب إما في الفقه أو يضاف إليها بعض ما يرتبط بالعقائد، أو الوصايا والأخلاقيات. وأما البحار فإنه يحتوي كما ذكره بعضهم على ثلاثة آلاف باب من أبواب العلم المختلفة، ويبدأ من الأصول الاعتقادية في التوحيد وما يرتبط به من مباحث في معرفة الله إلى قضايا النبوة وفيها يبحث تاريخ الأنبياء ثم يعطف على تاريخ نبينا المصطفى محمد ﷺ، فيبحث هذا بشكل مفصل بحيث ذكر بعض الباحثين[2] أنه بالرغم من أن الدورة الصفوية قد شهدت مؤلفين كثيرين تحدثوا عن سيرة الأنبياء و المعصومين، إلا أن أيا منهم لم يصل إلى سعة وتنظيم ما جاء في بحار الأنوار، ففيه اربعة مجلدات حول قصص الأنبياء (١١- ١٤) وهي تضم بالاضافة إلى الروايات الواردة من أهم مصادر الشيعة، آيات القرآن المفسرة في هذا الموضوع، ثم سيرة النبي ﷺ والتي تضم ثمانية مجلدات (١٥-٢٢) وبعده في خمسة مجلدات أورد ما يرتبط بالامامة وما يرتبط بحياة الأئمة المعصومين وفاطمة الزهراء في اثنين وعشرين مجلدا (٣٢ – ٥٣). وبهذا يعد بالفعل في ما يرتبط بحياة الانبياء والمرسلين والحجج المعصومين من غير نظير.

(١) السبحاني: الشيخ جعفر: مقال بعنوان ترجمة العلامة المجلسي رحمه الله، في الموقع الالكتروني imamsadeq.com.

(٢) مقال باللغة الفارسية في موقع http://www.rasekhoon.net. قرئ بتاريخ ١٤٣٣/١/٢٦.

ولم يقتصر على أبواب الأصول الاعتقادية، وإنما تناول أبواب الآداب والسنن ومكارم الأخلاق، وأيضا الخطب والمواعظ، وأبواب الفقه المختلفة في العبادات والمعاملات. فبحق إنه موسوعة شاملة لا يكاد يستغنى عنها.

٣. لم يكن مجرد جمع لما ورد في سائر الكتب:

فهذه القضية وإن كانت مهمة، لبعض الأغراض كما تقدم إلا أننا وجدنا العلامة المجلسي يوكل غالبا مهمة الكتابة والاستنساخ لغيره، ويحرص بنفسه على إبداء النظر في النص المنقول، إما بشرحه وتفسيره، أو بجمعه مع غيره، أو الاجابة على التساؤلات التي يثيرها النص أو ترتبط به. يعضده في ذلك قدرة استثنائية في المسائل العقلية التي كان قد برع فيها دراسة، أوائل أيام دراسته، وقدرة متميزة في المسائل النقلية ومعرفة الأخبار. هذا بالرغم من أنه كان في أصل تصديه لهذا الأمر يهدف إلى جمع الأخبار وحفظها عن الضياع، دون الشرح والتحقيق وبيان وجه التعارض والجمع بين الأحاديث.

عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة. لقد استلم الحديث عن البحار قيادنا، عن التعريف بشخصية المؤلف وبداياته، فلنعد إلى العلامة المجلسي، صغيرا يتربى على يد والده المولى محمد تقي المجلسي الذي يعد من أعاظم علماء الإمامية، ومن عبادها إلى حد أنه نسب خطأ إلى التصوف، لكثرة ما كان عليه من العبادة والذكر.

وكان الولد هدية الله سبحانه إلى الوالد الذي أدركته في بعض أوقاته حالة من القرب إلى الله سبحانه شعر وكأنها وقت استجابة الدعاء، وفي هذه الأثناء كان الولد الصغير محمد باقر يبكي، فسأل الوالد ربه أن يجعل هذا الولد ناشرا لعلوم أهل بيت الرسالة!! فكان كما أراد بفضل الله [(١)].

وكان الوالد بالاضافة إلى جهة عبادته وتهجده، عالما كبيرا فقد شرح كتاب (من لا يحضره الفقيه) للشيخ الصدوق، وعندما أراد الولد تكميل شرح الكتب الأربعة اكتفى بما صنعه والده في الكتاب المذكور وصرف همته إلى شرح الكافي والتهذيب.

بعد أن تربى في اصفهان على يد والده وأخذ عنه العلم، وعن علماء آخرين، متحليا

(١) نقل ذلك المحدث النوري في كتابه الفيض القدسي في حياة العلامة المجلسي، المطبوع ملحقا بالبحار، بهذا النص: إنه في بعض الليالي، بعد الفراغ من التهجد، عرضت لي حالة عرفت منها، أنى لا أسأل من الله تعالى شيئا حينئذ إلا استجاب لي، و كنت أتفكر فيما أسأله تعالى من الأمور الأخروية والدنيوية وإذا بصوت بكاء محمد باقر في المهد، فقلت: إلهي بحق محمد وآل محمد عليهم السلام اجعل هذا الطفل، مروج دينك، وناشر أحكام سيد رسلك صلى الله عليه وآله، ووفقه بتوفيقاتك التي لا نهاية لها. البحار ج ١٠٢ - ص ١١.

بنبوغ مبكر، ولذلك ما أن صار عمره ٣٣ سنة حتى أصبحت له الرئاسة العلمية في اصفهان، واعترف له من سواه بالفضل، وكان له من التلامذة كما سيأتي الحديث ما يصل إلى ألف طالب ومتعلم.

نقاط عن بعض أدواره:

ويمكن لنا أن نوجز بعض الأدوار التي قام بها العلامة المجلسي في حياته في اصفهان بالنحو التالي:

١. التأليف والتصنيف:

وفي هذا المجال نحن نلاحظ عدة خصائص في تأليفاته:

الأولى: أن بعضها كان موسوعيا، وكان كأنه يخاطب الحوزات العلمية في زمانه وما بعده، ويؤلف لكي لا تضيع الثروة العلمية والمعرفية التي خلفها أهل البيت عليهم السلام، ونقلها رواتهم وحملة علمهم. وفي هذا المجال يبرز كتاب بحار الأنوار كما تقدم كشامة بيضاء في غرة الدهر. حيث لم ينتشر حتى الآن [1]. أي بعد ما يزيد على ثلاثة قرون من الزمان، ما يوازن هذا العمل العلمي الجبار. وقد تقدم الحديث آنفا عن الكتاب وما فيه.

والثانية: كان كما رأى الشيخ السبحاني من المبتكرين في التأليف باللغة الفارسية، فإن أغلب كتبه التي كتبت لعامة الناس كانت باللغة الفارسية في وقت لم يكن التأليف باللغة الفارسية شائعا، إذ أن المخاطب بالكتب عادة هم أهل العلم والحوزات العلمية وهذه كانت تتدارس غالبا باللغة العربية.

ويظهر أن ذلك راجع إلى الدور الذي كان يقوم به العلامة المجلسي كما سيأتي في محاربة خرافات المتصوفة التي انتشرت في أواخر زمان الصفويين، وأصبحت تشكل تهديدا للفكرة الشيعية بتحريفها عن اتجاهها الصحيح، وسنأتي على الحديث عليها، فكان العلامة المجلسي في هذه التأليفات يخاطب عامة الناس وهم لا يتقنون غير الفارسية فليس من المعقول أن يؤلف كتابا جماهيريا، المقصود منه تثقيف عامة الناس بلغة غير لغتهم.

(١) هذا بالرغم من أنهم يتحدثون عن أن تلميذه الشيخ عبد الله الاصفهاني لديه موسوعة لو طبعت قد تصل إلى أربعمائة مجلد.

وكذلك كان الغرض من تأليفه باللغة الفارسية توضيح تعاليم أهل البيت عليهم السلام في الأخلاق والفقه وأصول العقائد، ولذلك رأى بعضهم أن (كتابه حق اليقين كان سببا في تشيع سبعين ألفا من الإيرانيين)[١].

والثالثة: أنه كان بالاضافة إلى جمعه المستوعب وتنظيمه الرائع لما حصل عليه، كان له قدرة تحقيقية ونقدية عالية، أبرزها في كثير من أبواب البحار، إلا أن الموضع الذي تجلت فيه هذه القدرة بشكل أكبر كان شرحه على أصول الكافي، في كتابه (مرآة العقول في شرح أحاديث آل الرسول) فهو يعالج كل حديث معالجة سندية تدل على تضلعه في علم الرجال، وتمرسه فيه، ثم يناقش دلالته ومعناه، ويشير إلى ما يعارضه، أو ما يوضحه بحيث لا يبقى فيه وجه غموض.

وقد استمر في التأليف والتصنيف حتى تجاوزت كتبه سبعين كتابا، بعضها كالبحار في ١١٠ مجلدات وبعضها كمرآة العقول دون ذلك في ٢٦ مجلدا، وملاذ الأخيار في شرح تهذيب الأخبار في ١٦ مجلدا، ونحن نلاحظ أنه لم يترك التأليف مع ما كان عليه من المسؤوليات الاجتماعية من القضاء وشيخوخة الإسلام والتدريس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى سنة وفاته حيث ذكر أنه ألف كتابه (حق اليقين) في سنة ١١٠٩هـ أي قبل سنة واحدة من وفاته.

٢. تربية العلماء العارفين بالأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام:

فإن الناظر يلاحظ أنه قد انتشر ما قبل زمان العلامة المجلسي وأيامه، التوجه الفلسفي والعرفاني بشكل كبير في الساحة العلمية في إيران، حتى أن العلامة المجلسي نفسه كان في أول أيام شبابه قد برع في هذا الجانب، غير أنه لما كان أخباري المسلك والتوجه وإن كان باعتدال،علم (أن زلال العلم لا ينقع إلا إذا أخذ من عين صافية نبعت عن ينابيع الوحي والالهام، وأن الحكمة لا تنجع إذا لم تؤخذ من نواميس الدين ومعاقل الأنام. فوجدت العلم كله في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأخبار أهل بيت الرسالة الذين جعلهم الله خزانا لعلمه وتراجمة لوحيه)[٢].

فرأى أن الطريق المناسب في تغيير الاتجاه العام السائد آنئذ هو القيام بتربية

(١) (الدوري؛ د عبد العزيز في لمحات اجتماعية من تاريخ العراق ٧٩/١ ناقلا عن دوايت دونلد سن في عقيدة الشيعة.

(٢) بحار الأنوار. المقدمة ج ١. ٣.

علماء متخصصين في الجانب النقلي والروائي، وأشرك بعض هؤلاء بشكل عملي في ترتيب بحار الأنوار، حيث أنهم كانوا يعملون تحت يده ويكتسبون بذلك خبرة، بالاضافة إلى التعلم في الدرس والبحث. وبالفعل فقد برز في تلك الفترة من تلامذته الذين تجاوز الألف كما رآه السيد نعمة الله الجزائري، برز منهم محدثون، صنفوا وأثروا هذا الجانب، فمنهم من ألف في الرجال مثل المولى محمد بن علي الأردبيلي صاحب كتاب (جامع الرواة) الذي لا يزال إلى اليوم من الكتب المهمة في هذا الشأن. ومنهم السيد الجزائري الذي تقدم ذكره، والميرزا عبد الله الأفندي الاصفهاني الذي قيل إن لديه موسوعة حديثية ضخمة تتجاوز البحار عددا .وقد ترجم لهؤلاء التلامذة المحقق السيد أحمد الحسيني في كتابه (تلامذة العلامة المجلسي)، وأنهى عددهم ترجمة إلى ما يزيد عن المائتين من العلماء.

٣. القضاء على المنكرات في المجتمع:

كان للعلامة المجلسي شخصية مهمة في مجتمع اصفهان وهي عاصمة الدولة الصفوية آنئذ وترقى فيما بعد حتى أصبح حائزا على منصب شيخ الإسلام، وهو بمثابة المرجعية الدينية الكبرى في الدولة فاستطاع أن ينجز ما يقتضي التدخل الرسمي وقوة السلطان، ويمكن لنا أن نلاحظ في هذا الجانب أمورا كما ذكرها مترجمو حياته:

فلم يقصر في الحديث مع الحاكمين من أجل منع المنكرات والمحرمات، بقوة السلطان، فقد تحدث مع السلطان الشاه عباس الثاني أول سلطنته وكان هذا الشاه قد طلب منه أن يخبره عن رغبته ومطالبه، فكان أن أخبره أن طلبه الأول والأخير أن يصدر قانونا بمنع الخمور والمعاقبة عليها، حيث كان يتم التغاضي عنها من قبل السلاطين السابقين، وهكذا كان لفترة من الزمان.

كما أنه كان له دور كبير في محاربة بعض الفرق التي وجدت منافذ عبر ما يسمى بالعرفان (الهندي) حيث سعى هؤلاء من خلال بعض الرياضات الخاصة بعرفاء الهنود، أن ينفذوا بالتدريج إلى الحالة الدينية (المتصوفة) في اصفهان، واستمروا في هذا الأمر إلى حد أنهم صار لهم مراكز معروفة، وكانوا يموهون على الناس من خلال أقاويل خاطئة، إلى حد أنهم نصبوا تمثالا (لعله تمثال بوذا أوغيره) وكانوا يتقربون إليه، ويتمسحون به، فلما سمع العلامة المجلسي بذلك أنهى الأمر إلى الشاه سليمان الصفوي، واستصدر منه الأمر بتحطيم ذلك الصنم، وتهديم الموقع الذي كانوا يجتمعون فيه. كما ذكر ذلك

في الفيض القدسي[١].

بل شن حربا لا هوادة فيها على التصوف الكاذب الذي انتشر في تلك الفترة، وهو علامة على تضييع بوصلة الطريق الحق، فإن التصوف هذا، بما يعنيه من الغياب عن الواقع السياسي والاجتماعي يستهدف تغييب الأمة عن دورها، فيستفيد من ذلك الغياب الطامعون والظالمون للسيطرة على قرارها السياسي وثروتها الاقتصادية كما أنه بمعنى الالتقاط للمناهج (الروحية) غير الواردة من طريق الوحي، ينتهي إلى غير الطريق الذي أراده الله عزوجل، ولذلك وجدنا أئمة الهدى عليهم السلام يحاربون هذه الطرائق، فقد روى عبد الصمد بن بشير.

قال: دخلت امرأة على أبي عبد الله عليه السلام فقالت: أصلحك الله إني امرأة متبتلة، فقال: وما التبتل عندك؟ قالت: لا أتزوج، قال: ولم؟ قالت: ألتمس بذلك الفضل فقال: انصرفي، فلو كان ذلك فضلا لكانت فاطمة عليها السلام أحق به منك، إنه ليس أحد يسبقها إلى الفضل.

وعندما أراد بعضهم أن يزيد في بعض النوافل وكيفياتها، منعه الامام عليه السلام، وعندما تساءل ذلك الرجل عن أنه أليس الله يحب النوافل، أجابه بنعم ولكنه يبغض الابتداع.

وعندما كثر في اصفهان وجود المتصوفة الكاذبة، واتخذوا لهم التكايا والزوايا والخانقاهات، وكان هذا يشكل خطرا كبيرا.

ولقد تنبه العلماء في تلك الفترة إلى هذا الخطر فكتبوا الكثير من الكتب (صاحب الحدائق، والميرزا القمي) في الرد على أفكار وممارسات الصوفية وأفتوا -ولا زالوا- بما يحذر الناس منها [٢].

---

(١) وقد حكي له عن صنم في إصفهان، يعبده كفار الهند سرا، فأرسل إليه، وأمر بكسره بعد أن بذل الكفار أموالا عظيمة للسلطان على أن لا يكسر، بل يخرجونه إلى بلاد الهند، فلم يقبل، فلما كسر كان له خادم يلازم خدمته، فوضع في عنقه حبلا خنقه، من أجل فراق الصنم. بحار ج ١٠٢ - ص ٢٠.

(٢) ومن ذلك ما جاء في كتاب إرشاد السائل للسيد الكلپايكاني - ص ١٩٧ من الاستفتاء حول هذه الطريقة:
ما هو التصوف، وهل يجوز اعتناق مذهب الصوفية، وهل في علمائنا الإمامية من ينسب إليه هذا المذهب أو من هذا المذهب؟
بسمه تعالى: اختلفت الآراء في تعريف التصوف، والقول الفصل في المقام أن الحق في الطريقة القويمة والمنهج الذي سار عليه أصحاب الأئمة «رضوان الله عليهم «تبعا لأئمتهم الأطهار «عليهم السلام «وتبعهم علمائنا الأبرار، وصلحاء الشيعة وأسلافهم، وما خالف ذلك بدعة وضلال فلا منهج في العبادة ولا طريق ولا رياضة في مجاهدة النفس وتزكيتها وتهذيبها غير ما يستفاد من الكتاب والسنة النبوية والأئمة الهداة «عليهم السلام «ولذا فيجب الاحتراز عما يخترعه أولئك كاختراع السلاسل، والأخذ عن غير الفقهاء، في الرياضة والتفريق بين الشريعة والطريقة، ولا يجوز اعتناق طريقتهم أو الركون إليهم، ولا نرى من علمائنا الإمامية أحدا قد سلك مسلكهم أو يرضى بعقيدتهم، عصم الله المسلمين من شرور المبدعين إن شاء الله.

ولا بد من التفريق بين التصوف هذا، وبين التعبد الشرعي، والتوجه إلى الله وفق ما ورد عن النبي والمعصومين عليهم السلام فإن لديهم مدرسة رائعة في الارتباط بالخالق قوامها النوافل الواردة والأدعية الرائعة ذات المضامين العالية، التي نجدها في الصحيفة السجادية وأمثالها من كتب الأدعية الموثوقة.

ولهذا فقد رد العلامة المجلسي بقوة على من نسب إلى والده الميل إلى الصوفية، وأكد أن ذلك منه كان طريقة لهداية أولئك، إلى هذا المنهج فقد قال في آخر رسالة الاعتقادات: وإياك أن تظن بالوالد العلامة نور الله ضريحه أنه كان من الصوفية ويعتقد مسالكهم ومذاهبهم، حاشاه عن ذلك، وكيف يكون كذلك؟ وهو كان آنس أهل زمانه بأخبار أهل البيت عليهم السلام وأعلمهم وأعملهم بها، بل كان سالك مسالك الزهد والورع وكان في بدو أمره يتسمى باسم التصوف ليرغب إليه هذه الطائفة ولا يستوحشوا منه، فيردعهم عن تلك الأقاويل الفاسدة الأعمال المبتدعة، وقد هدى كثيرا منهم إلى الحق بهذه المجادلة الحسنة. ولما رآى في آخر عمره أن تلك المصلحة قد ضاعت ورفعت أعلام الضلال والطغيان وغلبت أحزاب الشيطان وعلم أنهم أعداء الله صريحا تبرء منهم، وكان يكفرهم في عقائدهم الباطلة وأنا أعرف بطريقته وعندي خطوطه في ذلك [١].

وقد أشار المحدث البحراني في اللؤلؤة إلى مقاومة العلامة المجلسي للصوفية وسائر أهل الابتداع بقوله عنه: العلامة الفهامة غواص بحار الأنوار، و مستخرج لئالئ الاخبار وكنوز الاثار، الذي لم يوجد له في عصره ولا قبله ولا بعده قرين في ترويج الدين واحياء شريعة سيد المرسلين، بالتصنيف والتأليف والامر والنهي وقمع المعتدين والمخالفين، من أهل الاهواء و البدع و المعاندين سيما الصوفية المتبدعين.

و هذا الشيخ كان اماما في وقته في علم الحديث و سائر العلوم، شيخ الإسلام بدار السلطنة اصفهان، رئيسا فيها بالرئاستين الدينية و الدنيوية، اماما في الجمعة و الجماعة.

وهو الذي روج الحديث ونشره، لا سيما في الديار العجمية، وترجم لهم الاحاديث العربية بأنواعها بالفارسية، مضافا الى تصلبه في الامر بالمعروف و النهي عن المنكر، و بسط يد الجود و الكرم لكل من قصد و أمّ.[٢]

(١) الرسائل العشر – ابن فهد الحلي – من مقدمة المحقق السيد مهدي الرجائي ص ٨.

(٢) ملاذ الأخيار في فهم تهذيب الأخبار؛ المقدمة، ص: ٣٠.

المحقق البحراني: الشيخ يوسف بن الشيخ أحمد آل عصفور

ت ١١٨٦هـ

يتفاوت الناس والعلماء في تعاملهم مع نقاط الاختلاف، فبينما تجد البعض منهم يقوم بتضخيم الخلاف، ويجعل من كسر الخصم بالتالي رسالته في الحياة، ولا ينظر له إلا بعين اختلافه معه، بل يحول المسألة أو المسائل العلمية المختلف فيها، إلى اختلاف اجتماعي وفرز جماهيري.

ويتصاعد الأمر حين ترتبط العلاقات بين تلك الفئات الاجتماعية بالخلاف العلمي بين أصحاب النظريات، فتغدو علاقات الزواج، والرحم، والصداقة أسيرة اشتداد أو ضعف الخلاف العلمي!

ولقد شهدنا في عصرنا كيف أن الخلافات المذهبية بين المنتمين إلى مذاهب اسلامية مختلفة تؤثر في العلاقات والروابط، بل الخلافات الفقهية في داخل المذهب الواحد كيف تقسم الأسرة والقبيلة.

وتجد البعض الآخر من العلماء الربانيين الواعين، ممن يجعلون الخلاف العلمي في إطاره المدرسي، بل يسعون لتحريرذلك الخلاف وتحديده ضمن حدوده الحقيقية. والتفتيش عن نقاط الاشتراك والوفاق للبناء عليها .بالرغم من قلة هؤلاء وكثرة أولئك، لسهولة الطريق الأول وانسجامه مع الحالات النفسية والمصالح الشخصية وصعوبة الثاني واقتضائه التخلي عن كثير من الدوافع الذاتية، والتفتيش عن الأنصار.

من طليعة القلة القليلة الثانية كان المحدث والمحقق الشيخ يوسف آل عصفور البحراني، الذي كان بحقٍ جامعَ الأصوليين والأخباريين.

ولكي نكون في جو ما قام به المحقق البحراني، صاحب الحدائق الناضرة، ينبغي أن نلقي نظرة تاريخية خاطفة على المدرستين: الأصولية والأخبارية في الفقه الشيعي الإمامي.

كان شيعة أهل البيت عليهم السلام في عصر حضور الأئمة يعتمدون على ما يصلهم من خلال وكلائهم ورواتهم من الروايات والأخبار في حل مسائل العقيدة والفقه، ولم يكن هناك حاجة أساسية إلى الاجتهاد، إلا بمقدار ما يتم من خلاله تطبيق القواعد العامة على مواردها ومصاديقها، إن كان هذا يسمى اجتهادا. أو في بعض الحالات لحل ما يتراءى ظاهرا من المعارضة بين الروايات المتوفرة بين أيدي الرواة، والتي يذكرها الفقهاء المعاصرون في باب التعادل والترجيح.

ومع زمان غيبة الامام المهدي عجل الله فرجه، برزت الحاجة ملحة لتدوين الروايات وجمعها كي يتم الرجوع إليها، فكانت المدونات الحديثية الكبرى، كالكافي للشيخ الكليني، وفقيه من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق، وفيما بعد تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي.

وبعد هذه الفترة يمكن القول أنه نشط التوجه الاجتهادي في الوسط العلمي الشيعي، فكان الكثير من علماء هذه الفترة يحسبون عليه، ويعدون من (الأصوليين) كالشيخ المفيد، وتلميذه الشريف المرتضى، وشيخ الطائفة الطوسي، ومن جاء بعده كسلاّر وابن ادريس، فضلا عمن تأخر عن هؤلاء كالمحقق الحلي، والعلامة، والشهيدين والمحقق الثاني الكركي. واستمر هذا التوجه في النمو والازدياد. وسيأتي بعض وجوه الفرق بين المدرستين الفقهيتين.

في الجهة الأخرى يمكن تصنيف أصحاب المدونات الحديثية الأساسية كالكليني والصدوق على(المدرسة الأخبارية أو مدرسة المحدثين)، ثم نرى تراجعا في هذه الجهة إلى أيام الفيض الكاشاني صاحب الوافي وغيره (توفي سنة ١٠٩٤هـ) والعلامة المجلسي صاحب البحار(توفي سنة ١١١١هـ) حيث عاد شيء من الألق إلى هذه المدرسة وشهدت الساحة العلمية الشيعية علماء كبارا ينافحون عن هذا التوجه، كالحر العاملي صاحب الوسائل (توفي ١١٠٤هـ)، وقبلهم الشيخ محمد أمين الاسترابادي (توفي سنة ١٠٣٣هـ) والذي بعث الحياة من جديد في التوجه الأخباري، وأعطى له زخما كبيرا، وأدخل المدرستين في مواجهة واضحة. فقد ألف كتاب (الفوائد المدنية) وشنع فيها

على المجتهدين الأصوليين في ما قاله من عملهم بالاجتهاد وهو كما يرى العمل بالرأي والقياس، وتقديمهم العقل على النص، واستيراد علم الأصول من علماء السنة إلى الحالة الشيعية، وتربيع أقسام الحديث كما صنع ذلك العلامة مع أنه يفترض أن يتعاملوا مع الأحاديث المدونة في موسوعات الفقه معاملة الصحيح.

وكما تصدى الاسترابادي بقوة لنقد منهج المجتهدين، فقد واجهه بحزم أكبر الوحيد البهبهاني (توفي ١٢٠٨هـ) واستطاع أن يتغلب على فكرته، وكانت تلك المواجهة النظرية، وما تلاها من تأليفات تبناها تلامذة الوحيد البهبهاني بداية الانسحاب الكبير الذي طرأ على المدرسة الأخبارية، التي وإن استمرت ممثلة في بعض الفقهاء العظام كالشيخ يوسف البحراني وبعض أساتذته إلا أنها اقتربت ممثلة فيه من المدرسة الأصولية، وفقدت زخم المواجهة الذي كان قد بثه فيها المحدث الاسترابادي..

لقد كان منهج الشيخ يوسف منهج المصالحة بين المدرستين، ورفع الحواجز بين التوجهين، وقد استمر هذا التوجه إلى حد أنك لا تستطيع أن تميز بين محدث أخباري وبين مجتهد أصولي، كما أشار إلى ذلك بعض فقهائنا المعاصرين [(١)].

الفروق المتصورة بين المدرستين: الأصولية والأخبارية:

لقد تحدث المحدث الشيخ يوسف البحراني في مقدمات كتابه: الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة عن جهات الاختلاف بين المدرستين، وحاول في آخر الأمر أن يجمع بينهما، ونحن هنا نشير إلى القارئ العزيز حول تلك الفروق، مع أنه لا تنضبط هذه الفروق بشكل دقيق نظرا لوجود آراء لعلماء في كل مدرسة قد تتطرف يمينا وشمالا.، حتى لقد أنهاها بعض علماء المحدثين كما في المقدمة الثانية عشر من الجزء الأول للحدائق إلى ما يزيد عن أربعين فرقا، لكن كلامنا هو في المحصلة العامة.

١. النظرة إلى الإجتهاد:

يرى المحدثون الأخباريون أن الإجتهاد - وهو العمل بالرأي والاستنباط من خلال القياس غير الجائز لأن دين الله لا يصاب بالعقول - ليس جائزا، بل إنه وافد من مدرسة الخلفاء إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وأن دور الفقيه بعد فهم أخبار أهل البيت هو تيسير وصول عامة الناس إليها. والعمل بتلك الأخبار.

(١) الطباطبائي الحكيم: محمد سعيد؛ الأصولية والأخبارية فرقة واحدة.

بينما يرى الأصوليون المجتهدون أن الإجتهاد لا يعني ما تقدم، فإنه مرفوض وإنما هو استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، ومن جملة تلك الأدلة أخبار أهل البيت ﰅ، وحيث أن العامة لا سبيل لهم إلى معرفة تلك الأخبار والنظر في أسانيدها وتعارضها وطرق الجمع بينها، كان لابد من قيام المتخصصين العالمين بهذا واستنباط الأحكام من خلال تلك العملية.

٢. النظرة إلى الأخبار والأحاديث:

يرى المحدثون الأخباريون أن ما جاء في الكتب الأربعة (الكافي، ومن لا يحضره الفقيه، وتهذيب الأحكام، والاستبصار) قطعي السند، أو على الأقل موثوق بصدوره، وبناء على هذا فلا معنى للبحث في علم الرجال، ويرتبون بعض المقدمات التي تفيد هذه النتيجة من جهد العلماء والرواة وسعيهم الدؤوب في جمع الأحاديث وتهذيبها والحفاظ عليها، وقد أشار إلى ذلك تفصيلا الحر العاملي في الجزء الأخير من كتابه وسائل الشيعة في الفائدة السادسة والتاسعة.

وإذا كانت كذلك فلا معنى أيضا لتقسيمها إلى أقسام أربعة (صحيح وحسن وموثق وضعيف) كالذي فعله العلامة الحلي واستاذه.

بينما يخالف الأصوليون في ما تقدم، فلا يرون قطعية الصدور في أخبار الكتب الأربعة، وأنها بالتالي فيها الصحيح وفيها غير الصحيح، ولأجل أن يفتي الفقيه معتمدا على حجة شرعية فلا بد من البحث في سند تلك الأحاديث.

٣. النظر إلى أدلة الفقه:

يرى المحدثون الأخباريون أن الأدلة والحجج الشرعية على المكلف ليست سوى: القرآن والسنة أي الأخبار، وحيث أن القرآن لا يُفهم إلا من خلال أخبار أهل البيت ﰅ فانحصر الطريق الشرعي والدليل على الأحكام في الأخبار. وأما الاجماع فلا قيمة له ما لم يكن معبرا عن قول المعصوم ﰆ فينتهي بالتالي إلى الخبر والرواية. والعقل أيضا لا يتقدم على النص في مواضع التعارض، بل النص مقدم عليه، وفي مواضع التوافق يكون المرجع النص كذلك، فانتهى سبيل الأدلة إلى دليل واحد في حقيقة الأمر وهو الأخبار. وربما لوجود هذا التركيز على أخبار المعصومين، غلبت عليهم التسمية بالأخباريين.

بينما يرى المجتهدون الأصوليون بأن كل دليل من الأدلة الأربعة قائم بنفسه، فالقرآن

الذي خوطب به عامة الناس ونُزل هدى للناس، ظواهر ألفاظه حجة، وهكذا العقل فإن بحوث الاستلزامات العقلية يمكن أن تشكل دليلا على ما تنتهي إليه، وكذا الاجماع مع فرض تحققه هو دليل مستقل. هذا بالاضافة إلى الأحاديث وأخبار المعصومين.

٤. النظر إلى مسائل وقواعد فقهية:

يرى المحدثون الأخباريون أنه لما كان الفقيه لا يقوم بشيء سوى توضيح وتيسير الخبر عن المعصوم، وليس لرأيه واجتهاده قيمة كبرى، فإن هذا لا يختلف بين كون الفقيه حيا، أو ميتا. إذ لا يعتمد على رأيه حتى يقال أن الميت لا رأي له. وإنما يقوم بالتوضيح والإيصال للحديث. ولهذا فإنهم يرون جواز تقليد الميت ابتداء حيث أنه بشرحه للحديث في كتبه يستطيع ايصاله للمكلفين فلا فرق هنا بينه وبين الحي.

كما يرون أن الموقف الشرعي في مقابل الشبهات التحريمية، وهي ما احتمل فيها الحرمة أو الإباحة، هو الاحتياط ومقتضاه الاجتناب حتى مع عدم وجود علم إجمالي. وهذا ما يصطلحون عليه بتثليث الأشياء والوقائع، (فحلال بيِّنٌ وحرام بين، وشبهات بين ذلك) وفي هذه الأخيرة ينبغي الاحتياط.بينما رأى المجتهدون فيها البراءة وجواز الارتكاب.

المحدث الجامع للمدرستين:

في كتابه الحدائق حاول المحدث البحراني ﵀ فض النزاع من الخارج بين الأخباريين والأصوليين، بعد ما رأى أن الإعراض عن الخوض فيه أولى، ثم يبدو أنه وضع منهجه في الحدائق على هذا الأساس، وقد أفلح فيه، ولعل هذا بالاضافة إلى قوته العلمية وتتبعه الروائي جعل كتاب الحدائق حاضرا بقوة في الحوزات العلمية الأصولية ولا يستغني عنه الفقهاء عادة، إما بالتأييد أو النقد، فلم يكن رأي صاحب الحدائق بالرأي الذي يسكت عنه أو يعرض عنه!

وكان من الممكن أن يتعمق الصراع إلى حد الانفصال الحقيقي بين المدرستين، والانقطاع عن بعضهما البعض، إلا أن المحقق البحراني ﵀ وضع كتابه الحدائق بنحو يختصر فيه المسافة بين المدرستين، ويجسّر العلاقة بين الاتجاهين الفقهيين، وكان قويا في حجته ومستوعبا في تتبعه، الأمر الذي جعل المدرستين متآخيتين في الاستدلال،

وإن اختلفتا في الاختيارات. وقد وجدنا تأثيرا مهما لصاحب الحدائق في عدد من المجتهدين الأصوليين المتأخرين بعده، وهذا يحتاج إلى بحث خاص وتتبع.

كما أنه حاول أن يستحضر مشتركات المدرستين الأساسية، ويعوم الاختلافات إلى حد أنه يجعلها مثل اختلافات علماء كل مدرسة، بل احيانا حتى تعدد آراء العالم نفسه بحسب كتبه وفترته الزمنية.

قال [1]: كنت في أول الأمر ممن ينتصر لمذهب الأخباريين، وقد أكثرت البحث فيه مع بعض المجتهدين من مشايخنا المعاصرين، وأودعت كتابي الموسوم بالمسائل الشيرازية مقالة مبسوطة مشتملة على جملة من الأبحاث الشافية والأخبار الكافية تدل على ذلك وتؤيد ما هنالك. إلا أن الذي ظهر لي بعد اعطاء التأمل حقه في المقام وامعان النظر في كلام علمائنا الأعلام هو اغماض النظر عن هذا الباب وارخاء الستر دونه والحجاب، وإن كان قد فتحه أقوام وأوسعوا فيه دائرة النقض والابرام.

(أما أولا) فلاستلزامه القدح في علماء الطرفين والازراء بفضلاء الجانبين كما قد طعن به كل من علماء الطرفين على الآخر، بل ربما انجر القدح في الدين سيما من الخصوم المعاندين، كما شنع به عليهم الشيعة من انقسام مذهبهم إلى المذاهب الأربعة، بل شنع به كل منهم على الآخر أيضا.

(وأما ثانيا) فلأن ما ذكروه في وجوه الفرق بينهما جله بل كله عند التأمل لا يثمر فرقا في المقام).

ثم شرع في توجيه نقاط الاجتماع وكيف أن ما ذكر من الفروق ليس عاما، فأنت تجد الشيخ الصدوق وهو معدود في طليعة الأخباريين يوافق الأصوليين في تثنية المسائل، بينما ثلّث الشيخان المفيد والطوسي وهما من فقهاء المجتهدين المسائل مثلما ذهب إليه الأخباريون. وهكذا.

المحقق البحراني والهمة العالية:

الذي ينظر إلى حياة الشيخ يوسف بدقة، يرى أنه حجة على غيره من أهل العلم، فالظروف التي مر بها لو مر بها غيره من ذوي الهمم الفاترة، لكان في زوايا الهموم نسيا

(١) البحراني، الشيخ يوسف: الحدائق الناضرة - ١. ١٦٧.

منسيا، بينما لم تمنعه تلك الأحوال الصعبة[١] والظروف السيئة عن التأليف لمجموعة كبيرة ومهمة من الكتب المفيدة، كان أبرزها كتاب الحدائق الناضرة، ويتعجب المتأمل من هذا العزم، والتركيز الذي حظي به، مع كل تلك الهجرات، والسفرات، والخوف والجوع ونقص الأموال، والتهديد بالقتل!

فمنذ بعد بلوغه الخامسة بدأت الحروب بين القبائل المتنازعة في البحرين، والتي لم تهدأ حتى قام العمانيون بالهجوم على البحرين، وقد تعاضد الطمع وحب الاستحواذ والاحتلال مع توجهات طائفية للمهاجمين حيث كان ينتمون إلى مذهب الخوارج، فاحتلت البحرين بعد معارك سفكت فيها الدماء، وسلبت الأموال، وأحرقت المساكن واضطر وجهاء البلد إلى الهجرة عنها بعيالهم، وكان والد الشيخ يوسف من جملة من جلا عنها إلى القطيف، بينما أبقى ابنه في البحرين لحراسة البيت والمحافظة على الكتب.وكان يرسل الكتب إليه بالتدريج في ظروف صعبة.

حاول والده الشيخ أحمد العودة بأهله إلى البحرين غير أن تجدد المشاكل فيها والتي جرت إلى إحراق منزله وما كان فيه، جعله يمرض ويموت الوالد بعد شهرين. موصيا إياه أن لا يترك أهله.

فبقي في القطيف سنتين درس فيها على يد الشيخ حسين الماحوزي واستفاد منه، وبعد هدوء الوضع في البحرين رجع إليها وبقي فيها خمس سنين يدرس لدى الشيخ البلادي.

سافر بعد ذلك إلى شيراز حيث أكرمه حاكمها، وأقام عنده صلاة الجمعة وكان يفتي ويرشد إلى أن اضطربت الأمور فسافر منها إلى بعض أطرافها (فسا) واشتغل بتأليف الحدائق وكان يعمل في الزراعة بيده، ثم حصلت اضطرابات هناك بثورة بعض أشرارها هناك، وكانت النتيجة الهجوم على بيت الشيخ البحراني وإتلاف أمواله ومنها كتبه، حيث قال

وأعظم حسرة أضنت فؤادي ... تفرق ما بملكي من كتاب.
لقد ضاقت علي الأرض طرا ... وسد علي منها كل باب
طوتني النائبات وكنت نارا ... على علم بها طي الكتاب

(١) لتفصيلها يراجع مقدمة الحدائق.المحقق السيد عبد العزيز الطباطبائي ص ٩.

والذي سلم كان ما بدأه في الحدائق.فانتقل منها إلى اصطهبانات.فلم يطب له المقام فيها، فهاجر إلى كربلاء (حوالي ١١٦٩هـ) حيث استقر بجوار الإمام الحسين عليه السلام، وأكمل تأليف الحدائق وغيرها من الكتب النافعة.

تلامذة وتأليفات:

كربلاء التي نزلها المحدث البحراني كانت تشهد نهضة علمية كبرى، بحضور الفقيه المجدد محمد باقر المعروف بالوحيد البهبهاني، والذي التف حوله مجموعة طيبة من الطلاب الذين صاروا فيما بعد أساطين الفقه والأصول في الطائفة، مثل السيد محمد مهدي بحرالعلوم الطباطبائي، والشيخ جعفر كاشف الغطاء،والسيد مهدي الشهرستاني، والشيخ مهدي النراقي، والسيد علي الطباطبائي العاملي (صاحب الرياض). وغيرهم.

وقد كان مجيء الوحيد البهبهاني سببا في أن يتراجع زخم المد الأخباري الذي بعثه الشيخ محمد أمين الاسترابادي لا سيما في جانبه السلبي الهجومي.

وكان صاحب الحدائق المحدث البحراني، يلتقي مع الوحيد البهبهاني في مناقشات تستمر طويلا، مع أن الشيخ يوسف لم يكن يوافق غلاة الأخباريين، ولم يكن يرضى بتطرف بعض المجتهدين في نفي المدرسة الاخبارية كما أشار إلى ذلك، ونقلنا كلامه.

ولعل هذا المسلك هو الذي جعل عددا من أفاضل طلاب الوحيد البهبهاني، كصاحب الرياض، وبحر العلوم، وغيرهما يستمرون على حضور درس صاحب الحدائق، مع أن الأجواء العامة كانت ضد التوجه الأخباري في تلك الفترة.

بل إن هذا المسلك المعتدل والجامع هو الذي جعل الشيخ يوسف يوصي إلى الوحيد البهبهاني أن يتولى الصلاة عليه عند موته، وهذا ما حصل بالفعل.

عد مترجموه كتبه بما يقارب من خمسين كتابا، أهمها كما تقدم:

١. كتاب الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة وهو فقه استدلالي يقع في ٢٥ مجلدا.

٢. كتاب الدرر النجفية وهو يشتمل على مطالب فقهية وقواعد، طبع في مجلدين.

٣. كتاب سلاسل الحديد في تقييد ابن أبي الحديد، يتضمن معارضة ابن أبي الحديد في شرحه للنهج في مواضيع الخلافة والصحابة.

٤. كتاب النفخات الملكوتية في الرد على الصوفية.

٥. الكشكول.

٦. لؤلؤة البحرين.

٧. معراج النبيه في شرح الفقيه.

٨. مجموعة رسائل: في المنع من الجمع بين فاطميتين. رسالة في أفضلية التسبيح في الركعتين الأخيرتين. رسالة في تحقيق معنى الإسلام والإيمان. رسالة في انفعال الماء القليل بالنجاسة. رسالة في الرد على السيد الداماد في القول بعموم المنزلة في الرضاع. رسالة في الصلاة متنا وشرحا. رسالة في إتمام الصلاة في الحرم الأربعة. وغيرها من الرسائل.

٩. أجوبة مسائل متفرقة: أجوبة المسائل البحرانية. أجوبة المسائل الشيرازية. أجوبة المسائل البهبهانية. الكازرونية، الخشتية، البهبهانية.

المهدي في مكة

السيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي

١١٥٥ـ ١٢١٢هـ

سبعة وخمسون عاما هي كل عمر السيد مهدي بحر العلوم[١]! وعجيب أن تتسع هذه السنوات لهذه الشخصية وأن تحتويها! مع تعدد أبعادها، فقها وأصولا وفلسفة وشعرا وأدبا ودراية ورجالا، وفقه خلاف وسياحة وسفرا!

فمن حين بُشّر به أبوه في رؤيا صادقة، أخبر عنها بأن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام، أعطى لمحمد بن اسماعيل بن بزيع أحد خلص أصحابه شمعة وأوقدها على بيت والد بحر العلوم الطباطبائي[٢] البروجردي فأضاءت وشعت في الجهات الأربع مد البصر. كان من الواضح لدى أهله أن دورا كبيرا ينتظر هذا المولود، وهكذا كان.

بعد دراسته على يد والده في مقدمات العلوم، تهيأ للسيد مهدي ظرف مزدهر في عمر الحوزة العلمية، حيث كانت كربلاء وهي الحوزة الرئيسة للعلم آنذاك تشهد تموجا فكريا مهما نتج عن احتدام النقاش الفكري بين المدرستين البارزتين في مجال الاستنباط يومها: الأصولية والأخبارية. وكان علما هاتين المدرستين، وكبيرا هذين المنهجين متعاصرين زمانا ومتجاورين مكانا: الوحيد البهبهاني، والمحدث البحراني.

وكان النقاش على أشده في حلقات الدروس، بل حتى خارجها،

(١) السيد ميرزا مهدي بن هداية الله الأصفهاني الخراساني الشهيد سنة ١٢١٦ أستاذ بحر العلوم في الفلسفة، و هو الذي لقبه (بحر العلوم). كما عن السيد عبد العزيز الطباطبائي في مقدمة الحدائق ص ١٧.

(٢) نلاحظ أن عددا من مراجع الدين، ينتهي نسبهم إلى عنوان (الطباطبائي) فماذا يعني هذا اللقب؟ لا ريب أنهم بهذا ينتسبون إلى السيد ابراهيم الملقب بـ (طباطبا) بن السيد اسماعيل الديباج بن السيد ابراهيم الغمر بن الحسن المثنى بن الحسن السبط عليه السلام، فهم حسنيو الانتماء وسر تلقيب السيد ابراهيم بطباطبا، إما نظرا لأن معناه بلغة النبط كما قالوا يعني: سيد السادات. أو لأنه قال وقد خيره أبوه في صغره بين أن يفصل له عند الخياط ثوبا أو قباءا، فقال: طبا طبا، يعني أنه يريد قباءا!عن مقدمة الفوائد الرجالية – السيد بحر العلوم ١٦/١.

حيث نقل أن المباحثات بين البهباني والبحراني ربما امتدت حتى شغلت الليل كله!

وقد درس السيد مهدي الطباطبائي البروجردي على العالمين العلمين، وأخذ منهما فكأنه جمع خلاصة المدرستين في نفسه، وهيمن على المنهجين بقدرته الفائقة.

وإذا كان قد أتيح له أن يدرس الفقه والأصول على أعظم أساتذتهما، فقد درس الفلسفة على يد أحد أكبر مدرسيها في ذلك الزمان وهو الميرزا مهدي بن هداية الله الخراساني، عندما اتجه لزيارة الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام، حيث مكث في جواره مدة سبع سنين، وأخذ الفلسفة عن المدرس المذكور الذي لاحظ نبوغ السيد مهدي الاستثنائي بحيث كان يستوعب أدق المسائل التي ربما احتاجت إلى أيام لشرحها، بسرعة مذهلة، وقد تكرر منه هذا مع أستاذه الذي لقبه على أثر ذلك بـ (بحر العلوم)!

أسفاره:

يلاحظ في حياة السيد مهدي بحر العلوم كثرة أسفاره، وطول بعضها، وتعدد أغراضها، والعجيب أنه مع هذه الأسفار التي يفترض فيها الانقطاع عن الدرس والبحث، استطاع تخريج عدد كبير من العلماء والفقهاء، عدهم الكتاب في تاريخ الحوزة العلمية من اركان هذه الحوزة، والعلامات المضيئة في تاريخها! فقد سافر إلى مشهد المقدسة سنة ١١٨٦هـ، ولما عاد إلى النجف لم يلبث أن سافر إلى مكة المكرمة حاجا ويبقى فيها مدة من الزمان قام فيها بالتدريس في المسجد الحرام على المذاهب الإسلامية المختلفة، وكان لعظمة أحاطته بآراء فقهاء المذاهب الأربعة يتصور أتباع كل مذهب أنه عالم منهم، فالمتبع للمذهب الشافعي يتصور أن هذا المدرس على المذهب الشافعي نظرا لتتبعه وتضلعه فيه، وحنفي المذهب يشعر كذلك، وهكذا شيعة أهل البيت!

وبالاضافة إلى تدريسه في المسجد الحرام كان السيد بحر العلوم يقوم بمهمة أخرى كبيرة وهي تحديد مواقع المناسك، والاطلاع عليها من قرب، وتطبيق ما هو في الروايات على ما هو في الواقع الخارجي. وهي عملية مهمة جدا، فبالرغم من أن الشائع المعروف لدى الفقهاء أن تعيين المصاديق، هو من مسؤولية المكلف ومسؤولية الفقيه هي في الإفتاء وبيان الأحكام، وليس من شأنه تتبع المواضيع. إلا أن هذا الأمر سبب ويسبب مشاكل كثيرة للمكلفين، كما نلاحظ إلى يومنا هذا، فالاستفتاءات والأسئلة لا تتوقف عن الميقات، وهل أن ميقات السيل الكبير هو ميقات من يأتي من جهة الطائف أو أن

الميقات الشرعي هو ما يكون على الطريق القديم والمعروف بقرن المنازل؟ والتوسعة الجديدة الحاصلة في المسعى هل يجوز السعي فيها ذهابا وعودة أو لا يجوز؟ وهل أن العمارات المبنية في منى في سفح الجبل تعد من منى حتى يجوز المبيت فيها ليالي التشريق او ليست منها؟ وعشرات الأسئلة من هذا القبيل.

وكما قلنا فإن الإجابة المعروفة للفقهاء هي إحالة الأمر على المكلف وأن عليه أن يسأل أهل المناطق تلك، ويعمل على طبق إجاباتهم، أو من يعرفون هذه المواقع.

السيد بحر العلوم ﵀ سلك طريقا آخر فسافر إلى مكة مرتين، ومكث في المرتين حوالي سنة، وربما أكثر كما يرى بعض مترجميه، وكان خلال هذه المدة حريصا على معرفة مواقع المناسك على الطبيعة والبحث فيها وقد انتهى إلى نتائج مهمة اعتمد عليها من تأخر عنه.

ومما يثير التساؤل: أنه كيف كان يسافر السيد الطباطبائي هذه الأسفار وقد كانت المرجعية العظمى قد ألقت إليه بجرانها، وأناخت ببابه رحلها؟ خصوصا أن هذا لم يكن معهودا قبله؟ فإن المعتاد أن يبقى المرجع في النجف يدرس فيها ويباحث طلابه، وتأتي إليه الاستفتاءات، ويقود أتباعه من خلال وكلائه ومعتمديه في الأماكن المختلفة.

والجواب على ذلك هو ما ابتكره السيد الطباطبائي من تقسيم مهمات المرجعية، بحيث يتم إدارة كل قسم بكفاءة من دون الحاجة الملحة إلى وجود المرجع الأعلى.

ولهذا السبب فقد رأى أن المهمات الأساسية التي يقوم بها المرجع في زمانه، والتي ترتبط ببقائه ووجوده في النجف هي التالية:

١. مهمة التدريس، وتربية المجتهدين والعلماء، للحفاظ على الخط العلمي المستمر وبه بقاء الحوزة العلمية.

٢. إدارة الشؤون الدينية، بما يشمل التصدي لصلاة الجماعة، والحقوق الشرعية، وإحياء المساجد بهذه الطريقة.

٣. الفصل في الخصومات بين المتنازعين، وإقامة القضاء العادل لحل المشاكل، حتى لا يحتاج المجتمع إلى قضاء غير شرعي.

وبناء على ذلك فقد انتخب أفضل تلامذته المناسبين لكل مهمة من المهمات السابقة، فرأى أن الشيخ جعفر كاشف الغطاء، والذي ينقل عنه قوله، أنه لو تلفت كتب الفقه

والروايات لأمكن له أن يكتب دورة فقهية كاملة بأدلتها ورواياتها من حفظه!! والذي كان يعبر عنه الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري: بعض الأساطين. رأى أنه الأنسب للتدريس والبحث الفقهي والأصولي، فكلفه بذلك في فترة غيابه.

ورأى أن من أفضل تلامذته تورعا وتقدسا وزهدا، هو الشيخ حسين آل نجف، فأنابه عنه في الصلاة وإمامة الجماعة.

وحيث أن القضاء يحتاج بالاضافة إلى المعرفة العالية بالأحكام إلى ذكاء وفطنة ومعرفة اجتماعية بأحوال الناس، فقد كلف الشيخ شريف محيي الدين بهذه المهمة، فصار يفصل بين الخصوم، ويعالج المشاكل بكفاءة.

وكما ذكرنا آنفا، فإن من الأمور العجيبة أنه مع قصر مدة عمره الشريف من جهة، وأسفاره المتعددة من جهة أخرى، فقد تخرج على يده عدد كبير من أعاظم الفقهاء والعلماء، منهم شيخ جعفر كاشف الغطاء الكبير، والسيد جواد العاملى صاحب مفتاح الكرامة والشيخ محمد تقي الإصفهاني صاحب حاشية هداية المسترشدين على معالم الدين، والسيد على الطباطبائى صاحب رياض المسائل والشيخ احمد النراقي صاحب مستند الشيعة، والشيخ أبو علي الحائري مؤلف كتاب منتهى المقال في علم الرجال والشيخ أسد الله التستري مؤلف كتاب المقابيس والشيخ مهدي النراقي صاحب جامع السعادات والسيد محمد باقر الرشتي المعروف بحجة الإسلام والشيخ حسين نجف والسيد محمد المجاهد صاحب المناهل.

المهدي يلتقي الإمام المهدي:

اشتهر السيد بحر العلوم بتعدد لقاءاته مع الإمام المهدي عجل الله فرجه، بما لم يذكر في حق أي واحد من العلماء الآخرين، سواء من سبقه أو من لحقه، ومن ذلك ما نقله المحدث النوري في كتابه جنة المأوى المطبوع مع الجزء الثالث والخمسين لبحار الأنوار، عن ناظر أمور السيد بحر العلوم، أيام مجاورته بمكة القصة التالية: أن السيد كان رحمه الله مع كونه في بلد الغربة منقطعا عن الأهل والاخوة، قوي القلب في البذل والعطاء، غير مكترث بكثرة المصارف، فاتفق في بعض الأيام أن لم نجد إلى درهم سبيلا فعرفته الحال، وكثرة المؤنة، وانعدام المال، فلم يقل شيئا وكان دأبه أن يطوف بالبيت بعد الصبح ويأتي إلى الدار، فيجلس في القبة المختصة به، ونأتي إليه بقليان

–نوع من التبغ– فيشربه، ثم يخرج إلى قبة أخرى تجتمع فيها تلامذته، من كل المذاهب فيدرس لكل على مذهبه. فلما رجع من الطواف في اليوم الذي شكوته في أمسه نفاذ النفقة، وأحضرت القليان على العادة، فإذا بالباب يدقه أحد فاضطرب أشد الاضطراب، وقال لي: خذ القليان وأخرجه من هذا المكان، وقام مسرعا خارجا عن الوقار والسكينة والآداب، ففتح الباب ودخل شخص جليل في هيئة الأعراب، وجلس في تلك القبة وقعد السيد عند بابها، في نهاية الذلة والمسكنة، وأشار إلي أن لا أقرب إليه القليان. فقعدا ساعة يتحدثان، ثم قام فقام السيد مسرعا وفتح الباب، وقبل يده وأركبه على جمله الذي أناخه عنده، ومضى لشأنه، ورجع السيد متغير اللون وناولني براة، وقال: هذه حوالة على رجل صراف، قاعد في جبل الصفا واذهب إليه وخذ منه ما أحيل عليه. قال: فأخذتها وأتيت بها إلى الرجل الموصوف، فلما نظر إليها قبلها وقال: علي بالحماميل فذهبت وأتيت بأربعة حماميل فجاء بالدراهم من الصنف الذي يقال له: ريال فرانسه[1]، يزيد كل واحد على خمسة قرانات العجم وما كانوا يقدرون على حمله، فحملوها على أكتافهم، وأتينا بها إلى الدار. ولما كان في بعض الأيام، ذهبت إلى الصراف لأسأل منه حاله، وممن كانت تلك الحوالة فلم أر صرافا ولا دكانا فسألت عن بعض من حضر في ذلك المكان عن الصراف، فقال: ما عهدنا في هذا المكان صرافا أبدا وإنما يقعد فيه فلان فعرفت أنه من أسرار الملك المنان، وألطاف ولي الرحمان»[2].

قصص من عالم التربية:

التزكية إلى جانب التعلم:

بالاضافة إلى ما كان السيد بحر العلوم مشتغلا به من تعليم الطلاب وتكوين الفقهاء من الناحية العلمية، لم يغفل رضوان الله عليه عن جانب التزكية، والتربية الروحية، إذ لا فائدة كبيرة في تعلم بلا تزكية، ولذا فإن هذا الجانب كان محط نظره، ومحور اهتمامه.

فإنهم ينقلون عنه أنه، ذات يوم لم يخرج إلى الدرس مع كثرة اهتمامه بألا يكون هناك تعطيل للدروس! فاحتمل تلامذته أن يكون السيد متعبا في ذلك اليوم، وعاقه هذا عن

(١) عملة فضية كان يتم التعامل بها، كانت تسك في النمسا ما بين سنة ١٧٤١. ١٨٥٨ م، ويتعامل بها فيها وخارجها، وكانت تعرف في الحجاز بريال فرانسه.

(٢) بحار الأنوار ٥٣. ٢٣٧.

الخروج، إلا أنه لم يخرج في اليوم الثاني أيضا، فتوافد أعيان طلابه لمنزله ليروا ما الأمر، ولماذا لم يخرج لمجلس الدرس؟

ولما سألوه عن ذلك، قال لهم: إني خرجت الليلة ما قبل الماضية لشغل كان لدي، فمررت في الطريق ببعض مدارس الطلبة فلم أسمع فيها أصوات المناجاة لله، ولم أر حالة تنبئ عن قيام الليل بالعبادة من قبلهم! فرأيت أن هذا منهج غير صحيح، فما نفع العلم إذا لم يكن إلى جانبه تزكية وتقرب إلى الله وتوجه إليه؟ فرأيت أن الامتناع عن الدرس أجدى حتى يتوجه الطلاب وأهل العلم إلى هذا الجانب. وبالفعل كان درسا مفيدا وعظة عملية.

وتفقد المحتاجين ضرورة:

وكان السيد بحر العلوم يهتم بأمر الفقراء اهتماما بالغا، وكان يعكس هذا الاهتمام على طلابه، ويربيهم عليه، فقد نقل مترجمو حياته هذا المعنى في صور متعددة، منها ما سيأتي عند الحديث عن أحد تلامذته وهو الشيخ جعفر كاشف الغطاء، ومنها ما نقل من موقفه مع السيد العاملي، وتفصيل ذلك: ان الحجة السيد محمد جواد العاملي صاحب (مفتاح الكرامة) ﺗﺘﺸ وكان من أعاظم تلاميذه - كان يتعشى - ذات ليلة - إذ بعث إليه السيد بحر العلوم ﺗﺘﺸ يدعوه للحضور بسرعة، فترك عشاءه وحضر بين يدي أستاذه. فلما رآه السيد ﴿رحمه الله﴾ أخذ يؤنبه بكلمات شديدة. وذكر له: أن أحدا من إخوانه وجيرانه من اهل العلم - وسماه له - كان يأخذ كل ليلة من البقال قسبا (وهو التمر اليابس) لقوت عياله ولهم قرابة الأسبوع لم يذوقوا الحنطة والأرز. وفي هذا اليوم ذهب إلى البقال ليأخذ القسب، فامتنع البقال من اعطائه لثقل دينه، فظل - هذه الليلة - هو وعياله وأطفاله بلا عشاء، فأخذ السيد محمد جواد يعتذر إلى السيد - ﺗﺘﺸ - بعدم علمه بالموضوع، فقال له السيد ﴿رحمه الله﴾: (لو علمت بحاله - وتعشيت ولم تلتفت إليه - كنت يهوديا - أو قال -: كافرا. وانما أغضبني عليك عدم تجسسك عن إخوانك وعدم علمك بحالهم). فأمر له السيد ﴿رحمه الله﴾ (بصينية) كبيرة فيها أنواع الأكل (وصرة) من المال على أن يوصلها إلى ذلك الرجل، ويتعشى معه ويستقر، ويأتيه بالخبر حتى يتعشى السيد، وبقي عشاؤه أمامه لم يتناول منه شيئا، حتى رجع (السيد العاملي) من ذلك الرجل، وأخبره باستقراره وفرحه بالطعام والمال، لأنه كان مدينا بقدر المال - تقريبا - فعندئذ تناول السيد عشاءه وجرت

القصة إلى بعد منتصف الليل [١].

الذوق الأدبي والشاعرية الرائعة:

تؤثر المعرفة بأساليب العرب في التشبيه والمحاورات الكلامية بشكل كبير في الفهم العرفي الجيد لكلام المعصومين ﴿عليهم السلام﴾، نظرا لكونهم يتحدثون في رواياتهم بمقتضى تلك الأساليب ولهذا يتميز الفقيه العارف بهذه الأساليب، عن غيره ممن (يعرف) المعاني، وربما احتاج في كثير من الألفاظ إلى مراجعة قواميس اللغة.

وقد كان السيد بحر العلوم بالاضافة إلى نشأته وأبيه في البيئة العربية في العراق، صاحب قدرة أدبية فائقة، وسليقة عربية أصيلة، وشاعرية فذة بزّ فيها من لم يكن له شغل وتخصص غير الشعر والأدب. وكان يشجع على تنمية الحالة الأدبية والقدرات الشعرية في محيط الحوزة العلمية، نظرا لما لهذا الجانب من تأثير في فهم النصوص الشرعية، وسعيا لتطوير هذه القدرات في ذلك المحيط.

ولعله لهذا السبب وجدنا ان سوق الأدب في عهد السيد بحر العلوم قد ازدهرت، ونفق فيها الشعر المتميز، إلى الدرجة التي عرف فيها بعض البيوت والعوائل بإنجابها للشعراء الأفذاذ والأدباء الكبار، كآل الأعسم، والأزري، والنحوي، وغيرهم.

وكانت تعقد مجالس الشعر، للمحاكمة بين القصائد، ومجاراة الشعراء بعضهم لبعض، وكان السيد بحر العلوم مشاركا أساسيا في بعض الحالات، وحكما نهائيا في حالات أخر. واستمر هذا الأمر طيلة بقاء ومكث السيد في النجف وقد نقل مؤرخو تلك الحقبة الأدبية الكثير من تفاصيل (وقائع)[٢] الشعر و(معارك) الشعراء، ومنها ما عرف بوقعة الخميس حيث اشترك فيها السيد بحر العلوم وأربعة عشر من أعيان الشعراء من تلامذته وغيرهم.

كتب السيد ومؤلفاته:

لم يكن غريبا أن تكون كتب السيد بحر العلوم قليلة، أو أن يكون القليل الموجود منها غير كامل، بل المستغرب هو أن يكون له مع كل ما مضى كتب!

---

(١) بحر العلوم، السيد مهدي:الفوائد الرجالية ١. ٧٣.

(٢) للتفصيل يراجع كتاب شعراء الغري للخاقاني، ومقدمة الفوائد الرجالية الذي سبق ذكره.

ولكن قد بارك الله في ذلك الوجود الشريف، فكان له من الكتب كما ذكر في مقدمة الفوائد الرجالية:

١. كتاب المصابيح، في العبادات والمعاملات من الفقه.
٢. الدرة النجفية، منظومة في بابي الطهارة والصلاة من الفقه وصل فيها إلى صلاة الجمعة.
٣. مشكاة الهداية، هي منثور (الدرة) لم يبرز منها إلا كتاب الطهارة.
٤. تحفة الكرام في تاريخ مكة والبيت الحرام.
٥. رسالة في تحريم العصير الزبيبي.
٦. شرح باب الحقيقة والمجاز من كتاب الوافية للفاضل التوني.
٧. شرح جملة من أحاديث (تهذيب الشيخ الطوسي).
٨. الفوائد الأصولية.
٩. الفوائد الرجالية.
١٠. رسالة في حكم قاصد الأربعة في السفر.
١١. حاشية وشرح على طهارة «شرائع المحقق الحلي».
١٢. رسالة في قواعد أحكام الشكوك.
١٣. حاشية على ذخيرة الحجة السبزواري.
١٤. رسالة في تحقيق معنى (أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم)
١٥. رسالة في انفعال ماء القليل.
١٦. رسالة في الفرق والملل.
١٧. رسالة في الأطعمة والأشربة.
١٨. رسالة في تحريم الفرار من الطاعون.
١٩. الدرة البهية في نظم بعض المسائل الأصولية.
٢٠. رسالة في مناظرته لليهود.

٢١. ديوان شعر كبير أغلبه في مدح ورثاء أهل البيت عليهم السلام.

٢٢. رسالة في مناسك الحج والعمرة.

كاشف الغطاء: الزعيم العالم

الشيخ جعفر بن الشيخ يحيى الجناجي

١١٥٦ - ١٢٢٨هـ

ندر أن تنسب عائلة إلى كتاب!

ومن النادر ذاك كانت عائلة الجناجي، التي صارت عائلة (كاشف الغطاء) بعد تأليف كتاب (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء) من قبل عالمها الشيخ جعفر.

قد يكون ذلك راجعا إلى عظمة الكتاب وأهميته تلك التي ينقل عن الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري أن من فهم دقائق كشف الغطاء وقدر على تدريسه فهو مجتهد مطلق!

وقد يكون راجعا إلى شخصية مؤلفه وكاتبه التي جمعت ما لم يجتمع لدى غيره، وكان الكتاب المذكور المعرف الأكبر لها.

بالفعل فقد توفر الشيخ جعفر بن الشيخ خضربن يحيى المالكي الجناجي[١]، على جملة من الميزات قل اجتماعها في غيره. فقد اجتمع فيه العلم في أعلى درجاته، والتهذيب النفسي، والأخلاق الاجتماعية، والوعي السياسي، بل الممارسة القيادية.

هلمَّ! نتعرف على بعض تلك الخصائص بادئين بدراسته على يد والده الشيخ جعفر الذي كان معروفا بالقداسة والزهد، وكان إمام جماعة يتسابق على الائتمام به كبار علماء النجف في حينها، حتى إذا أنهى مرحلة المقدمات والسطوح، انتسب إلى البحوث العالية (الخارج) في الفقه والأصول، فدرس على يد الشيخ محمد باقر الوحيد البهبهاني الذي يعد رائد المدرسة الأصولية الحديثة لدى الإمامية. كما درس على يد الشيخ محمد مهدي الفتوني العاملي وهو من أبرز تلامذة المحدث الفقيه الشيخ يوسف البحراني، وقد أثر هذا العلمان الكبيران تأثيرا بالغا في بناء الشيخ كاشف الغطاء

(١) المالكي نسبة إلى بني مالك، قبيلة عربية ينتهي نسبها إلى مالك الأشتر النخعي، والجناجي نسبة إلى منطقة جناجة أو جناجية من توابع الحلة.

العلمي حيث أنهما يمثلان خلاصة المدرستين الأساسيتين في الاستنباط الفقهي، مدرسة الأصوليين، ومدرسة المحدثين الأخباريين(١).

وقد أثرت تلك الدراسة بالاضافة إلى ما كان عليه الشيخ جعفر من الاستعداد الذاتي والذكاء العلمي في أن يبرز في الوسط الحوزوي، ولهذا فبمجرد أن مضى الجيل الأول من أساتذته، انتهت إليه الزعامة العلمية وأقر له أقرانه بالتقدم، وشهدت حلقات درسه إقبالاً شديداً من قبل طلاب العلم،الأمر الذي يلاحظه المتأمل في نتاج تلك المدرسة من أعاظم المجتهدين، كالسيد جواد العاملي صاحب كتاب مفتاح الكرامة والذي ألفه بأمر شيخه ليجمع آراء فقهاء الإمامية في مسائل الفقه، وقد التزم العاملي بهذا وألف الكتاب الذي يعتمد عليه كبار المحققين، كتلميذ المؤلف صاحب الجواهر في جواهر الكلام، وغيره من العلماء وهو دورة في الفقه يقع في عشرة مجلدات بالطبع القديم، وثلاثة وعشرين بالطبع الحديث.

والشيخ محمد حسن الجواهري (صاحب جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) الذي كان من تلامذة الشيخ جعفر وتلميذه السيد جواد، ومثل الشيخ محمد تقي الأصفهاني، صاحب كتاب هداية المسترشدين في شرح كتاب معالم الدين المعروف بصاحب الحاشية ،الأصولي المتميز في دقة فهمه ومبانيه، ومنهم أولاده الأربعة، لا سيما أعلمهم الشيخ موسى الذي كان يفتخر به والده كثيرا، حتى لقد قيل إنه كان يراه أعلم فقهاء الإمامية ما خلى المحقق الأول والشهيد(٢). وكالسيد محسن الأعرجي صاحب كتاب المحصول في علم الأصول الذي يعد من قامات ذلك العصر الشامخة.

وبالإضافة إلى التميز العلمي الذي نلاحظه في إنتاجاته، فقد كان جانب التهذيب التربوي، وجهاد النفس لديه مشهورا ومذكورا، فقد نقل عنه أنه طالما كان يناجي نفسه ويعاتبها معددا نعَم الله عليه بعدما وصل إلى المرجعية العظمى، وأصبح شيخ الإسلام قائلا: كنت جعيفر فأصبحت جعفر ثم أصبحت شيخ جعفر ثم شيخ العراقين ثم شيخ الإسلام. أما آن أن تستحي من ربك؟ وتتوب من ذنبك؟

وهكذا يظل يبكي إلى ربه عز وجل مذكرا بسيرة أئمته الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام

(١) يراجع سيرة حياة المحدث البحراني، لمعرفة خصائص كل من المدرستين.

(٢) روضات الجنات ٢/٢٠٠ ويظهر مدى اعتزازه به من مواضع كثيرة منها ما جاء في مقدمة كشف الغطاء (ط.ق) في قوله:. سألني ولدي الطاهر المطهر قرة عيني ومهجة فؤادي موسى بن جعفر أطال الله تع الى بقاءه وجعلني ليكون خلفا لي فداءه أن أكتب كتابا حاويا لفروع المسائل معلما كيفية الاستنباط من الشواهد والدلائل لينتفع به المبتدئ والواسطة والواصل ويكون مرجعا لفحول العلماء وميدانا لسباق المحصلين والفضلاء.

في مناجاتهم وتهجدهم.

ومن تهذيبه لنفسه قربه من الفقراء وتعطفه عليهم واستفادته من كل مناسبة لإعانتهم، فقد نقل الميرزا النوري بواسطة واحدة قضية كان قد شهدها ذلك الواسطة، تعرب عن هذه الجهة ويحصل بالتأمل فيها دورس كثيرة، قال:

حدثني الثقة العدل الصفي السيد مرتضى النجفي - وكان ممن أدركه في أوائل عمره- قال: أبطأ الشيخ (جعفر) في بعض الأيام عن صلاة الظهر، وكان الناس مجتمعين في المسجد ينتظرونه، فلما استيأسوا منه قاموا إلى صلاتهم فرادى وإذا بالشيخ قد دخل المسجد فرآهم يصلون فرادى، فجعل يوبخهم وينكر عليهم ذلك ويقول: أما فيكم من تثقون به وتصلون خلفه؟!

ووقع نظره من بينهم إلى رجل تاجر صالح معروف عنده بالوثاقة والديانة يصلي في جنب سارية من سواري المسجد، فقام الشيخ خلفه واقتدى به. ولما رأى الناس ذلك اصطفوا خلفه وانعقدت الصفوف وراءه فلما أحس التاجر بذلك اضطرب واستحى ولا يقدر على قطع الصلاة ولا يتمكن من إتمامها، كيف وقد قامت صفوف خلفه تغتبط منها الفحول من العلماء فضلا عن العوام، ولم يكن له عهد بالإمامة سيما التقدم عل مثل هؤلاء المأمومين، ولما لم يكن له بد من الإتمام، أتمها والعرق يسيل من جوانبه حياء، ولما سلم قام فأخذ الشيخ بعضده وأجلسه قال: يا شيخ قتلتني بهذا الاقتداء! ما لي ولمقام الإمامة؟!

فقال الشيخ: لابد لك من أن تصلي بنا العصر، فجعل يتضرع ويقول: تريد تقتلني لا قوة لي على ذلك. وأمثال ذلك من الكلام، فقال الشيخ: إما أن تصلي أو تعطيني مائتي شامي - أو أزيد، والترديد مني - فقال: بل أعطيك ولا أصلي، فقال الشيخ: لا بد من إحضارها قبل الصلاة، فبعث من أحضرها ففرقها على الفقراء، ثم قام إلى المحراب وصلى بهم العصر [(١)].

بل نقلوا عنه أنه إذا رأى فقيرا يطلب من الناس مساعدة، قام بنفسه ونزع طاقية عمامته، وبدأ يدور على صفوف المأمومين لكي يضعوا فيها ما تجود أنفسهم للفقير المذكور، وإذ يعترض المأمومون على ذلك وأنه لا يناسب مقامه الشامخ، يقول لهم فاجمعوا له حتى لا أقوم!

(١) النوري؛ خاتمة المستدرك ٢. ١١

بعض أعماله السياسية:

يلحظ المتابع لحياة الشيخ الكبير كاشف الغطاء، أنه بالاضافة إلى كونه مرجعا دينيا تصدى للفتوى والتدريس كما تقدم في الحديث عن بعض تلامذته ويأتي في الحديث عن كتبه كان له حركة سياسية في أكثر من صعيد، على مستوى الوضع في إيران وسعيه لتحريض الناس على مقاومة الاحتلال الروسي، وأيضا كان له دور مهم في الإصلاح بين الدولتين العثمانية والقاجارية والتوسط بين سلطانيهما لحل المشكلات القائمة، وعلى مستوى الدفاع عن النجف ومرقد أمير المؤمنين والحوزة العلمية فيها.

ففي الصعيد الأول: بعد أن انتهت الدولة الصفوية، وحل محلها الحكم القاجاري نشبت المنازعات بين ملوك القاجار، فقتل محمد خان القاجاري سنة ١٢١٢هـ، وجاء فتح علي شاه القاجاري مكانه، في ظل حروب داخلية أضعفت إيران وأوصلتها إلى أسوء حالاتها، الأمر الذي جعل الدولة الروسية تستغل الفرصة وتقوم باحتلال منطقة القفقاز من إيران (آذربايجان، وأرمنستان، وجورجيا) بل وصلت إلى تبريز.

وكان من المهم أن يتم التحشيد لمقاومة القوات الروسية، وهنا يُنقل أن الشيخ جعفر كاشف الغطاء قد أمضى رئاسة وحكومة فتح علي شاه، الذي طلب منه التأييد، ففعل الشيخ لجهة مقاومة الاحتلال الروسي واقتطاعه ولايات إيرانية!

وقد ذكر بعض الباحثين[١] أن كاشف الغطاء ألف كتاب كشف الغطاء نزولا عند رغبة السلطان. إلا أن هذا يخالف ظاهرا ما ذكره كاشف الغطاء في مقدمة كتابه من أن ولده سأله أن يؤلف كتابا من هذا القبيل! وقد أشرنا إلى هذا آنفا.

المهم أنه قد نقل أن كاشف الغطاء قد سافر إلى تبريز وكان يحرض الناس على المقاومة [٢]والدفاع عن البلاد الايرانية، مستعينا بعلمائها في هذا الشأن. غير أن الشاه فتح علي لم يكن بحسب ملكاته الشخصية وأوضاعه العامة قادرا على المقاومة فانتهى إلى توقيع اتفاقية مذلة وخاسرة.

وعلى المستوى الثاني أيضا كان له دور في الإصلاح بين الدولتين، وذلك أن سلاطين الأتراك والقاجار في تلك الفترة، كان مهما عندهم التغالب وتوسعة النفوذ، فما أن يرى

(١) الناطقي؛ علي أوسط: مقدمة تحقيق كتاب عوائد الأيام - المحقق النراقي ٥١.

(٢) القاضي؛ السيد علي: بهامش كتاب الفردوس الأعلى للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ص ١٥٤.

أحد الطرفين ضعفا في الطرف الآخر، حتى يقوم باستغلال الفرصة لتوسعة دائرة نفوذه واحتلال أراضي منافسه، وهكذا كانت الحرب لا تهدأ في فترة إلا لأجل الاستعداد لحرب في فترة لاحقة. وبهذا كانت النفوس تزهق، والأموال تصرف، في سبيل شهوات الحاكمين ورئاستهم!!

فقد نشبت الحرب سنة ١٢٢١هـ بين العثمانيين عن طريق واليهم على بغداد، الذي تقدمت قواته متوغلة في الأراضي الإيرانية، وبين القاجاريين في زمان فتح علي شاه، الذي استطاع ولده محمد علي ميرزا أن يهزم القوات المهاجمة وأن يأسر منهم عددا كبيرا، من بينهم قائد الجيش التركي سليمان باشا الكهيا، وتوقفت الحرب.

قال العلامة الطهراني[١] فالتجأ علي باشا والي بغداد إلى شيخ الجعفريّة الشيخ جعفر النجفي، فقبل الشيخ التماسه، و ذهب إلى محمد علي ميرزا،شفيعاً للأسراء فقبل شفاعته ما عدا كهيا،فأطلقهم جميعاً، و بعث كهيا مقيّداً إلى السلطان فتح عليّ شاه، فأمر بحفظه و فكّ قيده، إلى أن تهيّأ الشيخ للسفر إلى طهران، فوصل إلى السلطان مكرّماً مقبول الشفاعة فأخذه معه و رجع إلى بغداد.

و كان تشفّع في كهيا يوسف باشا والي أرزنة الروم، و بعث معتمده الفيضي محمود أفندي مع عريضة إلى عبّاس ميرزا، فلم يقبل شفاعته، و إنّما قبل شفاعة الشيخ تكريماً له.

لا ريب أن قيام الشيخ كاشف الغطاء ﷺ بمثل هذا المسعى كان يهدف إلى تخفيف التشنج في واقع الأمة الإسلامية، ذلك التشنج الذي يوقده بعض الحاكمين المغامرين بهوسهم في الرئاسة والسلطة، وتظهر آثاره السيئة في مختلف جوانب حياة المسلمين، ففضلا عن الحروب وما تخلف من آثار في سفك الدماء، وخراب الاقتصاد، فإنها تخلف عداوات في النفوس بين الطوائف الإسلامية، قد تبقى ولا يمحيها الزمان.

وأما على مستوى الدفاع عن مدينة النجف، حاضرة الحوزة العلمية في زمانه، وموضع مشهد أمير المؤمنين عليه السلام، فقد استطاع بتدبيره وإدارته حمايتها من هجمات المهاجمين، وصيانة حياة أهلها، والمحافظة على مشهدها وحوزتها. وذلك أن الحركة الوهابية قد تحولت في ذلك الزمان إلى الهجوم على من يخالفها، بزعم أنها تنشر التوحيد وتحارب البدع. فكان أن هاجموا كربلاء في ١٢١٦هـ.

(١) موقع تبيان http://www.tebyan.net

ويرى بعض الباحثين أن العلاقة بين المرجعية الشيعية المتمثلة في كاشف الغطاء، وبين الحركة الوهابية قد مرت بمرحلتين، مرحلة الهدوء، ويرجعها إلى وجود شيء من العلاقة (أو المعرفة) بين الشيخ كاشف الغطاء ومحمد بن عبد الوهاب لدراستهما في بغداد، والمرحلة الأخرى هي مرحلة المواجهة التي وصلت إلى محاولة الغزو من قبل الوهابيين للنجف التي كان يسكنها كاشف الغطاء ويعتبر زعيمها الروحي.

ويفصل هاتين المرحلتين بالنحو التالي[1]:

«الأولى: في حياة شيخ الوهابية محمد بن عبد الوهاب حتى وفاته عام ١٢٠٦هـ. ١٧٩٢م.

الثانية: ما بعد رحيل الإمام محمد بن عبد الوهاب، أي (خلال مرحلة حكم الأمير عبد العزيز بن سعود (١٢٠٦هـ - ١٢١٨هـ).

ففي المرحلة الأولى لم تشهد المدن المقدسة الشيعية أي هجوم وهابي. والسبب يعود - كما ذكر صاحب العبقات - إلى علاقة الشيخ جعفر الطيبة مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وبالرغم ان المصادر التاريخية لم تشر إلى علاقة كهذه سوى ما ذكر في (العبقات)، فأن سياق الأحداث التاريخية يؤكد وجود علاقة بين الطرفين، ربما امتدت منذ إقامة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أيام دراسته في بغداد، وبقيت حتى تولي الشيخ كاشف الغطاء زعامة الطائفة الإمامية.

أما المرحلة الثانية - والتي تبدأ بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -، فإنها اتسمت بالحوار الدبلوماسي في سنيها الأولى، لكنها لم تستمر على هذه الوتيرة بعد الغزو الوهابي لمدينة كربلاء عام ١٢١٦ هـ، وإحلال الدمار والقتل فيها. وتتجلى أهمية هذا الحوار في المراسلات التي دارت بين الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ كاشف الغطاء، حيث كتب الأمير عبد العزيز رسالة (نقل قسما من مضامينها كاشف الغطاء)، ورد عليها برسالة أشبه ما تكون بالمناقشة الشاملة لما ورد من الشبهات التي أثيرت حول الفكر الإمامي، ومما لم يرد منها أيضا».

وقد عمل كاشف الغطاء في البداية على محاولة إبقاء حدود الاختلاف في الجهة العلمية والنظرية القائمة على احترام الطرف الآخر، وتفهم منطلقاته، وقد ألّف كتاب منهج الرشاد لمن أراد السداد في هذا الإتجاه كما يظهر من لغة الكتاب وطريقة تعرضه

(١) القزويني؛ د جودت: مقدمة منهج الرشاد لمن أراد السداد للشيخ جعفر كاشف الغطاء - ص ٥٠٨ - ٥٠٩.

إلى الشبهات والأسئلة المثارة حيث خلا من التشنج اللفظي، وعبىء بكلمات الأخوة وإن كان قوي الحجة من الناحية العلمية.

غير أن أمر الهدوء لم يطُل كثيرا، فبدءا من نهايات (١٢١٦هـ) بدأت موجات الهجوم على العراق بادئة بكربلاء، ثم محاولة احتلال النجف.

هنا نهض كاشف الغطاء بعبء المواجهة، فأمر أحد كبار تلامذته وهو السيد محمد جواد العاملي أن يؤلف رسالة في وجوب الذب والدفاع عن النجف، لتكون أرضية فقهية يبنى عليها. وبث في طلاب العلم أمر ممارسة الرياضة ثم التدرب على السلاح وتعلم الرماية، حتى قيل إنه قد جعل في منزله (زورخانه) وهي أشبه بصالات بناء الأجسام والرياضة في هذا الزمان، وأمر بتوفير السلاح، والتعلم عليه. حتى أن طلاب العلم وعامة الناس كانوا يخرجون إلى (بر النجف) للرماية والتدريب. وقد أصيب في هذه الأثناء الأخ الأكبر لصاحب الجواهر الشيخ محمد حسين [١]، وكان معروفا بالذكاء والفهم، على أثر إطلاق خاطئ من قبل بعض المتدربين.

وأضاف إلى ذلك السعي في تحصين النجف ببناء سور يحيط بها، لكي يتحصن فيه أهلها من هجوم الأعداء عليهم. كما أمر ببناء خنادق في داخل ذلك السور، وسراديب في البيوت، وكان من الإحكام بحيث أنها بقيت إلى زماننا هذا، وأنها كانت بنحوٍ يضيع فيها من لا يعرف خريطتها وليس من أهلها.

وقد أثمرت تلك الاجراءت، ونفعت أهل النجف عندما هاجمهم الوهابيون في ١٢٢١هـ فقد كانت المبادرة بيد أهل النجف واستطاعوا هزيمة المهاجمين.

كتب مهمة:

١. كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغرّاء.

وهو أهم كتبه، والذي عرفت أسرته به، وقد أثنى العلماء المعتبرون عليه، حتى لقد نقل عن الشيخ الأنصاري قوله: من فهم كتاب كشف الغطاء وفهم دقائقه وتحقيقاته فهو عندي مجتهد مطلق أو ما يقرب من هذا القول. وبملاحظة عناوين هذا الكتاب نلاحظ أنه يحتوي على:

(١) يراجع مقدمة الشيخ المظفر لكتاب جواهر الكلام.

المقدمات العقائدية، المقدمات الأصولية،فقه الطهارة، فقه الصلاة، فقة الصوم والاعتكاف، فقه العبادات المالية الزكاة والخمس والأنفال والوقوف، فقه الجهاد والأمر بالمعروف، فقه الحج. والكتاب مطبوع في أربعة مجلدات ضخام بالطبع الحديث.

٢. منهج الرشاد لمن أراد السداد في ردّ الوهّابيّة.

ويعتبر هذا الكتاب من الناحية التاريخية أول رد علمي مفصل في الجواب عن الشبهات التي أثارتها رسالة زعيم الوهابيين في زمانه عبد العزيز آل سعود، وقد تم تأليفه في سنة ١٢١٨هـ. ومن ألف في جواب هذه الشبهات كان عيالا على هذا الكتاب وآخذا منه. وقد سبق الكلام قليلا عن الظروف التي أملت على كاشف الغطاء أن يكتب هذا الكتاب المختصر.

٣. الحقّ المبين في تصويب المجتهدين و تخطئة جهّال الأخباريّين.

قيل إنه ألفه بطلب ولده الشيخ علي بن جعفر. بيّن فيه نقاط الاشتراك بين المدرستين عقائديا وفقهيا، وأن المعتدلين في كلا المدرستين متفقون فيهما، بينما غلاة المدرسة الأخرى خاطئون، وهذا الكتاب يتحدث عن مشكلة أثيرت في تلك الفترة على يد الميرزا محمد النيسابوري الأخباري، والذي خصه كاشف الغطاء بالهجوم عليه في كتاب أسماه:

٤. كشف الغطاء عن معايب ميرزا محمّد عدوّ العلماء.

وقد ذكر مترجمو كاشف الغطاء باقي أسماء كتبه على النحو التالي ، ونحن ننقل عنهم :

٥. القواعد الجعفريّة في شرح بعض أبواب المكاسب.

٦. مشكاة المصابيح في شرح منثور الدرّة، الموسوم بـ «مشكاة الهداية».

٧. غاية المأمول في علم الأصول.

٨. غاية المراد في أحكام الجهاد.

٩. الرسالة الصوميّة.

١٠. بغية الطالب في معرفة المفروض و الواجب، رسالة عمليّة

١١. رسالة مناسك الحجّ.

١٢.العقائد الجعفريّة في أُصول الدين.

١٣.إثبات الفرقة الناجية.

١٤.أحكام الأموات.

١٥.رسالة في الدماء الثلاثة.

١٦.كتاب الطهارة.

صاحب الجواهر

الشيخ محمد حسن النجفي

ت ١٢٦٦هـ



يقرر القرآن الكريم حقيقة خارجية واضحة للناس وهي أنه ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [١] ﴿وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ﴾[٢] وهو أمر خارجي واضح، إلى أمر معنوي ربما لا يكون بنفس الوضوح، فيستنكر على الذين يسوون بين العلماء والجهلة والعارفين وغير العارفين، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾!

فيضع بذلك مقياساً أساسيا للتفاضل بين الناس ، وهو العلم وعدم العلم، فمن كان عالما فهو خير من الجاهل ومتقدم عليه، مهما كان حال الثاني، وملكه للمال أو الشخصية الاجتماعية أو النسب العائلي!

وتعظيم الله للعلماء وتكريمه لهم، لا ريب أنه ينتهي إلى أن يتأسس المجتمع المؤمن على قواعد راسخة من المعرفة. وينطلق من خلالها إلى رحاب الحضارة.

وتتفاوت العلوم بحسب مواضيعها، شرفا وغاية، ولا ريب أن العلوم التي تقرر مصير الإنسان في الآخرة سعادة أو شقاء هي أسمى العلوم. فإن سواها وإن جلت نفعاً إلا أنها ينحصر أثرها في انتفاع الإنسان بها حال الدنيا ، فإن الطب مثلا ينفع المريض حال حياته الدنيوية، ولا يؤثر كثيرا في مصيره الأخروي.

ولذلك فقد ذكروا أن أشرف العلوم هو ما تعلق بالله عز وجل و يسّر الوصول إلى رضوانه ، وهذا لا يعني أن بقية العلوم لا نفع فيها وإنما الكلام على الأثر المباشر والمستمر.

---

(١) سورة فاطر: ١٩.

(٢) سورة فاطر: ٢٠.

هذه الفضيلة امتلاك العلم بغض النظر عن سائر (الميزات) هي التي جعلت علماءنا الأبرار، من فقهاء الطائفة يتقدمون سواهم، بغض النظر عن كون هذا المتقدم، مقربا من السلطان أو بعيدا عنه، وعن كونه هاشمي النسب عريقا، أو عامي النسب مغمورا، وعربيا أو أعجميا!

وربما يتحدث البعض عن أن هذا تقدم لأنه أعجمي مثلا، وذاك تأخر لأنه عربي أو بالعكس إلا أن هذا الكلام يجانبه الصواب! فقد رأينا من العرب كالشريف الرضي والشهيدين الأول والثاني والفاضلين الحليين، كما رأينا من العجم كالطوسي والطبرسي والمجلسي وهكذا.

وصاحب الجواهر الشيخ محمد حسن بن الشيخ باقر النجفي هو من أولئكم الأفذاذ الذين سموا بالعلم وسمى بهم، فصنعوا لهم منهم نسبا، وفضيلة وشخصية! ولولا تحليه بالعلم لما كان له ولا لأسرته أي شيء من ذلك!

كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو.

حين بدأ الشيخ محمد حسن في دراسته لم تكن والدته مقتنعة بأنه سيكون له مستقبل مهم على عكس قناعتها بأخيه الأكبر الشيخ محمد حسين، الذي كانت تأمل أن يكون عالما ملء السمع والبصر، غير أن الشيخ محمد حسين وهو ذاهب إلى مسجد السهلة في الكوفة، وفي أثناء التدريب العسكري الذي قرر لزومه استاذه وزعيم النجف الديني حينها الشيخ جعفر كاشف الغطاء، انطلقت رصاصة خاطئة فاستقرت في صدره، ومعها انتهت أماني الأم في أن ترى ولدها يتصدر الواجهة العلمية.

وقد أمهل الزمان هذه الأم لترى أن ما كانت تصبو إلى بعضه في ولدها الأكبر محمد حسين قد تحقق بكماله وتمامه في ولدها الأصغر محمد حسن، والذي لم تكن تتوقع منه شيئا، فإذا به يصنع لعائلته مجدا بحيث أنها نسبت إلى نتيجة عمله وجهده وكتابه (جواهر الكلام) لتصبح عائلة الجواهري! ذلك العمل الذي وصفه بعض العلماء: بأنه لو أراد مؤرخ زمانه أن يثبت الحوادث العجيبة في أيامه ما يجد حادثة بأعجب من تصنيف هذا الكتاب في عصره [1]! وإذا به يصبح المرجعية العليا الدينية للعرب والعجم على السواء.

(١) النوري الميرزا حسين. مستدرك الوسائل ٢. ٣٩٧.

وعلى عكس والدته كان توسم استاذه السيد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة فيه، فإن استاذه الآخر الشيخ جعفر كاشف الغطاء، كان قد عزم على أن يرسله إلى اصفهان ليستقر فيها مرشدا ومعلما، يقوم بإمامة الجماعة ويقضي حاجاتهم الدينية، غير أن السيد جواد أقنع كاشف الغطاء أن مستقبلا زاهرا ينتظر هذا العالم، وأنه سوف يكون صاحب كرسي التدريس الأول في الحوزة العلمية في النجف، فلا ينبغي أن تضيع هذه الفرصة منه!

وبالفعل، فهذا الذي حصل.

فبعد أن تتلمذ على يد علماء النجف وفقهائها، كالشيخ قاسم محيي الدين والسيد جواد العاملي والشيخ جعفر الكبير كاشف الغطاء، وابنه الشيخ موسى والسيد علي الطباطبــائي صاحب (رياض المسائل)، برز بين أقرانه فقيها لا يجارى.

وكما أشرنا من قبل إلى أن الوضع في الحوزات العلمية الشيعية لا يعتمد على تعيين سلطان أو حاكم لعالم في منصب أو مقام، وإنما الذي يعينه هو كفاءته وقدرته، واعتراف الوسط العلمي بأعلميته وفقاهته، فحتى لو تم تعيينه فرضا من قبل جهة، ولم يكن ذا قدرة علمية متميزة فإنه لا يستطيع الاستمرار.

ومرد ذلك راجع إلى استقلال الحوزات العلمية الشيعية عن السلطات الرسمية، وعدم قبولها بتدخل تلك السلطات في أمورها تعيينا أو عزلا. وأيضا راجع إلى تقاليد الحرية التي سادت في هذه الحوزات من حيث إقبال طلاب العلم على الدرس الذي يعجبهم، والعالم الذي يرتاحون إليه من دون أن يكون هناك (برنامج) يقسرهم على أن يذهبوا لهذا المدرس أو يلتصقوا بذلك العالم.

وقد أعان صاحبَ الجواهر بيان رائق وقدرة استثنائية على تفريع المسائل شهد له بهما من عاصره وعرف إنتاجه.

ومنذ أن أكمل الشيخ النجفي كتابه الجواهر وإلى يومنا هذا فهو يتربع على قمة الكتب الفقهية الاستدلالية في الحوزات العلمية بحيث لا يستغني باحث في الفقه عنه، بل لقد نقل عنه نفسه بأنه: من كان عنده جامع المقاصد والوسائل والجواهر فلا يحتاج إلى كتاب للخروج عن عهدة الفحص الواجب على الفقيه في آحاد المسائل الفرعية [١].

(١) المظفر، الشيخ محمد رضا. مقدمة جواهر الكلام طباعة دار الكتب الإسلامية طهران.

ميزات الكتاب ولماذا احتل هذه المكانة؟

بالرغم من كثرة الكتب الاستدلالية الفقهية التي ألفها علماؤنا في أوقات مختلفة منذ زمان شيخ الطائفة الطوسي وإلى أيامنا هذه إلا أن الجواهر يبقى متميزا بينها، ولا بد أن يكون لهذا أسباب مقنعة، فمما ذكر من مميزات الكتاب:

١. الموسوعية والشمول لكل أبواب الفقه، فإن قسما من كتب علمائنا على جودتها وقوتها إلا أنها لا تشمل إلا بعض أبواب الفقه، ولا تحيط بتمام مواضيعه، وهذا يجعل الباحث غير مكتف بها عن غيرها، بينما جواهر الكلام تميز بأنه فيه تمام أبواب الفقه، ويضاف إلى ذلك أنه محيط ومستوعب لكلمات الأعلام السابقين عليه في المسائل، وهذا ما أشار إليه الشيخ المظفر ﵀ في مقدمة الجواهر، حيث قال (كتاب لم يؤلف مثله في سعته وأحاطته بأقوال العلماء وأدلتهم ومناقشتها، مع بعد نظر وتحقيق. مضافا إلى أنه كتاب كامل في أبواب الفقه كلها جامع لجميع كتبه) وهذا ما سبقت الاشارة إليه من أن المجتهد يستطيع بالجواهر وجامع المقاصد والوسائل أن يخرج عن عهدة الفحص الواجب[١] عليه قبل الفتوى.

ولو أردنا أن نتكلم بلغة الأرقام، نقول إن الكتاب جاء في ٤٣ مجلدا بالطبع الحديث، ومعدل كل مجلد ٤٠٠ صفحة، وهذا يعني أكثر من ١٧٠٠٠ صفحة علمية، أحيانا يحتاج السطر الواحد منها لمعرفة كامل معانيه إلى فترة غير قليلة من الزمان.

٢. الميزة الأخرى هي أنه جاء (على نسق واحد وأسلوب واحد وبنفس السعة التي ابتدأ بها انتهى إليها)[٢]. ولا ريب أن وحدة الأسلوب يسهل على الباحث والعالم كيفية الاستفادة منه بعدما يعرف طريقة المؤلف وإشاراته.

هذا بالرغم من أن مؤلفه استغرق في تأليفه مدة ثلاثين سنة كما ذكروا في ترجمته.

٣. سلامة النية في التأليف: إن مما لا شك فيه أن للنية الخالصة أثرا مهما في

---

(١) لا يستطيع الفقيه الامامي أن يفتي إلا بناء على آية قرآنية كريمة صريحة، أو رواية صحيحة السند واضحة الدلالة عنده، فهذا أحد مقدمات الإفتاء، بل لا بد أن يفحص وأن يجتهد في ذلك ليرى هل هناك مخصصات لتلك الآية المباركة؟ أو روايات معارضة لتلك الرواية الصحيحة، أو قرائن تخصصها أو تشرحها، وربما كانت هناك روايات في باب الديات والحدود في آخر الكتب الروائية، ولها نحو تعلق بروايات باب الطهارة كما أفاد بعض العلماء، وبالتالي فيلزم على الفقيه قبل الافتاء بحكم أن يفحص عن المواضع التي يحتمل فيها وجود تلك المخصصات أو المعارضات أو القرائن، حتى يعالجها لو كانت موجودة. أو يطمئن بعدم وجودها.

(٢) المظفر؛ الشيخ محمد رضا، مقدمة جواهر الكلام ١٤.

توفيق العمل، ويحتمل البعض أن نية المؤلف الخالصة، وتواضعه كما سيأتي في عنوان صفاته الأخلاقية كان لها، بالاضافة إلى ما سبق، أثر كبير في انتشار هذا الكتاب ورواجه وبقائه، فالمؤلف لم يكن يقصد بتأليفه هذا الكتاب تحدي سابقيه أو نظرائه من العلماء نقضا وإبراما واحتجاجا.

فقد نقل في كتاب التكملة عنه أنه قال في جملة كلام له مع تلميذه فقيه عصره الشيخ محمد حسن آل يس عن كتابه الجواهر في قصة طويلة: «والله يا ولدي أنا ما كتبته على أن يكون كتابا يرجع إليه الناس، وإنما كتبته لنفسي حين كنت أخرج إلى (العذارات)[1] وهناك أسأل عن المسائل وليس عندي كتب أحملها لأني فقير، فعزمت على أن أكتب كتابا يكون لي مرجعا عند الحاجة. ولو أردت أن أكتب كتابا مصنفا في الفقه لكنت أحب أن يكون على نحو رياض المير السيد علي فيه عنوان الكتابية في التصنيف». وقد علق صاحب التكملة على هذا الخبر بما بمعناه: إن حسن نية الشيخ هذه وخلوصها من طلب الجاه والسمعة هي السبب في توفيق مؤلفه إلى إكماله والسبب في رواجه عند الناس[2].

مرجعية الشيخ العامة:

قبيل وأثناء زمان الشيخ صاحب الجواهر، كانت النجف الأشرف تشهد نموا علميا استثنائيا لوجود عدد من عمالقة الفكر الحوزوي فيها، بدءا من أساتذته ومروا بأقرانه وانتهاء بتلامذته، فقد شهدت تلك الفترة وجود أساتذته كالشيخ جعفر الكبير كاشف الغطاء، وكتبه المتنوعة لا سيما كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، والسيد جواد العاملي صاحب كتاب مفتاح الكرامة الذي تتبع فيه أقوال علماء الإمامية في المسائل المختلفة بنحو تحقيقي دقيق بحيث أنه لا يزال إلى اليوم مرجع الباحثين، والسيد جواد العاملي صاحب كتاب رياض المسائل الذي كان صاحب الجواهر يحب أن لو كان تصنيفه في الفقه على منهجيته وأسلوبه!

وفي طبقة أقرانه كان مثل الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء الذي يفتخر به والده ويعده من أعلم فقهاء الإمامية، والشيخ محمد تقي الاصفهاني صاحب حاشية هداية

---

(١) قرى الفرات حول الحلة وغيرها.

(٢) المصدر السابق. ١٧.

المسترشدين على كتاب معالم الدين (في الأصول)، والمتأخرين عنه قليلا كالشيخ الأعظم المرتضى الأنصاري صاحب المكاسب والرسائل، ورأس المدرسة الأصولية الحديثة.

ومنذ أن مضى جيل أساتذته، وبعض أقرانه كالشيخ موسى كاشف الغطاء، فوضت الحوزة العلمية أمر التدريس والزعامة فيها إلى الشيخ صاحب الجواهر، حتى أصبح الزعيم الذي لا ينازع، سواء في الوسط العربي أو الأعجمي، واستمر على هذا الحال مدة طويلة من الزمان.

ولتطوير الوضع الاجتماعي في النجف الأشرف رأى صاحب الجواهر أن من معيقات النمو العمراني والزراعي في هذا البلد، هو نقص المياه بل شحها، حيث تقع النجف على طرف الصحراء، بعيدة عن المياه والري، تماما مثلما أشار إلى ذلك الشاعر أحمد الصافي النجفي بقوله:

صدق الذي سماك في (وادي طوى) يا دار بل وادي طوى وعراء
جلست على الأنهار بلدان الورى فعلام أنت جلست في الصحراء؟

ولهذا عزم على أن يسحب إليها الماء، وكان أقرب نهر إلى النجف هو نهر الهندية المتفرع من نهر الفرات، وهو على مسافة كيلومترات من النجف، فقرر حفر الصحراء وصولا إليه، وبالرغم من معارضة الكثيرين لهذه الخطوة بزعم أنها غير ممكنة وأنها تكلف الأموال الطائلة، كان همة الشيخ الجواهري أعظم منها حتى لقد قال لمن عارضه بأنها تستهلك أموالا كثيرة، أنه لو كان يكلف رفع قبضة التراب، قبضة ذهب فإنه ماض في مشروعه!

وبالفعل فقد تم حفر القناة تلك، وكانت عميقة بقدر قامة إنسان كما ذكروا! واكتملت وتم إيصال ماء النهر إليها بعد وفاة الشيخ الجواهري بسنتين، واستفاد الناس منها مدة من الزمان ولكن على أثر عدم الرعاية لها والعناية بها، حيث كانت تتعرض إلى زحف الرمال، ولم تكن الجهات الرسمية الحكومية ترى نفسها معنية بهذا الشأن، وكذلك الجهات الأهلية، فتقلصت إلى حد أنها أوشكت على التلاشي، وعندما جاء السيد حجة الإسلام الشفتي من اصفهان ونظر إلى حالة تلك القناة، حاول إعادة الحياة لها وسعى في ذلك، غير أن محاولاته لم تفلح فانتهى للأسف ذلك المشروع الذي لو قدر له يد راعية بعد صاحب الجواهر لغيّر من حالة النجف إلى يومنا هذا ولكن لم يحصل.

شيء من صفاته الأخلاقية:

١. تواضع الشيخ الجواهري:

بالرغم من أن الشيخ الجواهري كان شديد التأنق في الملابس، مما دعى بعضهم إلى المقارنة بينه وبين الشيخ مرتضى الأنصاري الذي كان (سلمان زمانه) زهدا، بل والشكوى للشيخ الأنصاري عن ذلك، قائلا له: إنه يرى أن ملابس الأنصاري المتواضعة هي الأليق بالعلماء حيث يجسدون سيرة الامام علي عليه السلام، دون ملابس الشيخ الجواهري التي تشبه لباس أهل الدنيا والملوك، فأجابه: بأن الشيخ صاحب الجواهر يمثل عظمة الإسلام وأنا أمثل زهد الإسلام!

بالرغم من ذلك الظاهر (الفخم)، إلا أن لصاحب الجواهر باطنا متواضعا، يذكرنا بالدعاء (وفي أعين الناس فعظمني وفي نفسي فذللني). فنحن نجد من عدة قصص ما يشير إلى تواضع هذا العالم الكبير وذلة نفسه في نفسه، فإنه يذكر لتلميذه الشيخ محمد حسن آل ياسين، بأنه لو في الأصل لم يؤلف الجواهر للطباعة والنشر وإنما لنفسه كتذكرة، وإلا لو أراد أن يؤلف في الفقه لكان يكتب شيئا مثل (رياض المسائل) للسيد علي الطباطبائي العاملي! بهذا النحو ينظر إلى كتاب أستاذه، مع أن كتاب الرياض من حيث الحجم لا يصل إلى ثلث حجم الجواهر، والكثير من العلماء هم يقدمون الجواهر على الرياض بلا ارتياب. ولكنه تواضع الشيخ.

وأكثر منه ما نقل عنه من أنه يتمنى لو كان يقايض ثواب الجواهر بثواب القصيدة الأزرية للشيخ كاظم الأزري[1]، فإن هذا غاية التواضع وإنكار الذات، وإلا فأين الجواهر ونتائجه وآثاره المستمرة في تخريج الآلاف من الفقهاء والمئات من المراجع الدينيين، وفي استنباط الأحكام الالهية الشرعية التي يترتب عليها المصير الأخروي. وأين القصيدة الأزرية التي مهما علت قيمة أدبية ومضمونية فهي مقتصرة في آثارها على فئة قليلة من الناس يستحسنون مضامينها وأدبها العالي. ولكن كما قلت هو التواضع الذي لا نجد له نظيرا!

(١) الملا كاظم بن محمد مهدي الأزري البغدادي ولد سنة ١١٣٤هـ وتوفي ١٢١١هـ درس العربية ومقدارا غير قليل من الفقه والأصول على فضلاء عصره لكنه ولع بالأدب وانقطع عن متابعة الدرس وبدأ بنظم الشعر ولما يبلغ العشرين،وقد برع فيه حتى أن السيد مهدي بحر العلوم كان يقدمه على كثير من العلماء، وهو صاحب الهائية التي يسميها البعض بالملحمة الكبرى وقد كانت تزيد على ألف بيت فأكلت الأرضة جملة منها وتم طباعة الباقي. للتفصيل يراجع أدب الطف للسيد جواد شبر ٦/٣٠. والكلمة المتداولة منقولة في هامش أدب الطف عن الشيخ محمد حرز الدين في معارف الرجال، ناقلا إياها عن كتاب هدية الأحباب.

وهنا أشير إلى نقطة وهي أنه لا ينبغي أن يتعامل مع هذا الكلام في التفضيل على أنه حقيقة جدية! وربما يرتب عليه آثار من أن أبيات الشعر الولائية هي أعظم قيمة من التحقيقات العلمية للحكم الشرعي! نعم هو في الإطار الأخلاقي نافع لمن أراد الاستشهاد به على مدى إنكار الانسان لذاته، وتقليله من عمله العظيم إلى هذه الدرجة!

٢. إنكاره لذاته ولعواطفه في الأحكام:

يصعب على الكثير من الناس أن يتخلصوا من عواطفهم النسبية أو ارتباطاتهم الاجتماعية حين تقديم وتأخير الأفراد. فترى قسما من هؤلاء يعينون أبناءهم أو أصهارهم أو تلاميذهم الخاصين في مختلف الوظائف والمهمات، ولا يلتفتون إلى غيرهم، ممن يكون ربما أكثر كفاءة!

وقد يذكرون في ذلك تبريرات مختلفة مثل أنهم يعرفون هؤلاء (الأقارب والأصهار والأصحاب) معرفة أفضل أو أنهم يريدون أن يستمر الخط الكذائي في الأمة بواسطتهم، وما شابه!

في حياة الشيخ الجواهري وجدنا خلاف ذلك تماما، فإنهم ينقلون أن الشيخ الجواهري لما حضرته الوفاة وكانوا ينتظرون أن يشير إلى من يرشحه للتدريس والزعامة الدينية ممن يرى فيه الكفاءة والقدرة، وكانوا يتوقعون أن يعين من تلامذته المقربين أو من أسرته! بل كانوا يتوقعون كل أحد إلا الشيخ مرتضى الأنصاري! نظرا لأن الشيخ محسوب على تلامذة منافسه الأكبر الشيخ موسى كاشف الغطاء، ولم يكن الأنصاري يحضر مجلس درس الشيخ صاحب الجواهر إلا قليلا وفي الفترات الأخيرة على سبيل التيمن والتبرك. ولم يكن محسوبا من (جماعته) أبدا.

الأمر الذي فاجأ الحاضرين عندما سأل صاحب الجواهر عنه، وطلب منهم أن يبحثوا عن (ملا مرتضى) حتى عثروا عليه وهو في حرم أمير المؤمنين علي عليه السلام يدعو الله لشفاء الشيخ الجواهري!

وعندما حضر إلى بيت الشيخ الجواهري، نصحه بأن يخفف من احتياطاته على الناس وأن يتصدى للإفتاء والمرجعية ولكرسي التدريس!

الأستاذ الأعظم وسلمان زمانه

الشيخ مرتضى بن محمد أمين الأنصاري

١٢١٤ - ١٢٨١هـ



بالرغم من أن تأثير الوراثة ليس حتميا في الملكات الأخلاقية والصفات النفسية، إلا أن لها بلا ريب نصيبا مهما اختلفنا في مقداره في نفس الولد والحفيد. وربما لهذا السبب كان تأكيد التوجيهات الإسلامية على الاقتران بذوي البيوتات الصالحة [١]، وإذا كان تأثير الوراثة في البناء الجسمي والشكل الخارجي واضحا لا ينكر، فإن مقدارا من التأثير في الجهات النفسية لا ينبغي أن يكون مستبعدا حتى وإن تقادمت الفترة الزمنية.

من هذا المنطلق يركز مترجمو الشيخ مرتضى الأنصاري على انتسابه إلى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري[٢].

وإذا كان هذا التأثير في نظر البعض بعيدا، فإنه لا ينبغي أن يتم استبعاد تأثير حالات الوالدة أثناء الحمل والرضاعة والحضانة في نفس الطفل. وهنا ينقل عن والدة الشيخ الأنصاري قولها أنها

(١) في عهد أمير المؤنين لمالك الأشتر كما في نهج البلاغة ٣. ٩١ (ثم ألصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة. ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم، وشعب من العرف).

(٢) نص على انتسابه إليه المحدث النوري في خاتمة المستدرك ٢. ٤٣ فقال: الشيخ مرتضى بن المرحوم السعيد المولى محمد أمين الأنصاري لانتهاء نسبه الشريف إلى جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري، من خواص أصحاب رسول الله وأمير المؤمنين والحسن والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي الباقر، صلوات الله عليهم. ومن آثار إخلاص إيمانه وعلائم صدق ولائه، أن تفضل الله تعالى عليه وأخرج من صلبه من نصر الملة والدين بالعلم والتحقيق والدقة، والزهد والورع والعبادة والكياسة، بما لم يبلغه من تقدم عليه، ولا يحوم حوله من تأخر عنه..الى آخر كلامه.

وأما جابر بن عبد الله الأنصاري (توفي بعد سنة ٧٣ هـ): فقد ذكر في كتب الرجال بأعلى درجات التوثيق والثناء، ووصف بأفضل أوصاف الولاء لأهل البيت عليهم السلام حتى لقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال له: أنت منا. وفي مستدركات علم رجال الحديث ٩٩/٢، قال الشيخ علي النمازي الشاهرودي:

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام أو حزام أو خزام الأنصاري الخزرجي: من أصحاب رسول الله وأمير المؤمنين والحسن والحسين والسجاد والباقر صلوات الله عليهم، ومن شرطة خميس أمير المؤمنين عليه السلام. شهد بدرا وثمانية عشر غزوة مع رسول الله، وكان مع مولانا أمير المؤمنين في قتال البصرة وحرب صفين. وهو من النقباء الاثني عشر.

لم ترضعه خلال فترة رضاعته إلا وهي على طهارة[١].

إن الطفل الذي يسمع وهو يسمع ويلتقط من بداية تكونه الانساني في بطن أمه قراءة القرآن والدعاء والمناجاة، ويتخلق منسجما مع هذه الأجواء لا ريب أنه سيأتي على مراحل من الكمال لم تتهيأ لغيره. ونحن نعلم أن الكون على طهارة يكسب القلب إشراقا والنفس سكينة، على الأقل لشعور هذا الإنسان أنه في عبادة وطاعة. ولا شك أن إرضاع الطفل والأم على هذه الحالة سيكون مؤثرا للغاية في نفسه.

هذا على العكس من ذلك الطفل الذي لا يسمع وهو في بطن أمه أو في حضنها غير الصراخ والسباب والشتائم أو الموسيقى الصاخبة والأغاني المزعجة.

فأثر الوراثة، ثم التربية التي يتعرض لها الطفل، والبيئة التي يعيش فيها أثر غير منكور[٢].

ولا نريد أن نقول أن ذلك قانون رياضي لا يتخلف، طردا وعكسا، وإنما نتحدث عن قانون اجتماعي غالبي، وهذا مثل قاعدة ﴿الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِداً﴾[٣]، لكن ذلك لا يمنع أنه أحيانا ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [٤].

المهم أن (مرتضى) الصغير قد تربى في هذه البيئة الطيبة، وسلك طريقه في التعلم والدرس في منطقة شوشتر[٥].

وقد نقلوا أنه تعلم على يد أبيه الشيخ محمد أمين، وعمه الشيخ حسين وعلى يد معلمين آخرين في المقدمات التي تدرس في الحوزات العلمية عادة، وكان ذكيا بما لا يخفى على محاوريه، وفي نفس الوقت كان متتبعا، وقد ظهر هذا للسيد محمد المجاهد رحمه الله عندما حضر الشيخ مرتضى مع والده في زيارة لهما إلى كربلاء المقدسة،

(١) خصوصا في الحالات التي لا يجتمع فيها الحيض مع الحمل كما هو الأكثر الذي يكاد يكون هو القاعدة عند النساء. ويمكن تصور مقدار صعوبة هذا الأمر على الأم خصوصا في ليالي الشتاء الباردة وفي تلك الظروف الخاصة التي لم تكن تتوفر فيها وسائل التدفئة والتسخين بالنحو الموجود في هذا الزمان.

(٢) للتفصيل في هذا المبحث يراجع كتاب الطفل بين الوراثة والتربية لآية الله الشيخ الفلسفي ج ١. ١٩٧.

(٣) سورة الأعراف: من الآية ٥٨.

(٤) سورة الأنعام: من الآية ٩٥.

(٥) شوشتر ومعربها: تستر، في جنوب إيران. وقد ينسب أيضا إلى دزفول.

وجلسا في درس السيد المجاهد[١] وكان في الفقه، والمسألة في بحث صلاة الجمعة وهل أنها واجبة في زمن غيبة الامام المعصوم أو ليست كذلك[٢].

وقد ناقش الشيخ مرتضى في هذه المسألة السيدَ المجاهد بنحوٍ أقنع السيد المجاهد بقدراته العلمية من حيث العمق واسلوب العرض. الأمر الذي جعله يقترح على والد الشيخ مرتضى أن يبقيه في كربلاء التي كانت حينئذ تحظى بحركة علمية جيدة بفضل وجود السيد المجاهد والشيخ شريف العلماء المازندراني[٣]. وبالفعل بقي في كربلاء أربع سنوات استفاد فيها من دروس الأستاذين المذكورين، إلى حصل الهجوم على كربلاء من قبل الاتراك أيام داود باشا، فترك كربلاء راحلا إلى الكاظمية ومنها إلى وطنه في دزفول ليبقى سنتين هناك، ويعود من جديد إلى النجف.

النجف في هذه الفترة كانت تزخر بعدد جم من الفقهاء الكبار، منهم الشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء، الذي حضر لديه الشيخ مرتضى الأنصاري خمس سنوات فيما قيل[٤]، ومنهم الشيخ محمد حسن النجفي صاحب جواهر الكلام، وبعدها غادر النجف لزيارة الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام في خراسان، فمر في طريقه على كاشان والتقى بالمحقق النراقي[٥] (صاحب مناهج الأصول)، وقد وجد فيه عالما زاخرا بالمعرفة

(١) السيد محمد المجاهد ابن السيد علي الطباطبائي العاملي ولد في كربلاء ١١٨٠هـ ودرس على يد أبيه صاحب الرياض وعلى والد زوجته السيد مهدي بحر العلوم، صارت له الزعامة الدينية في كربلاء بعد وفاة أبيه، ولقب بالمجاهد لأنه أصر على الشاه القاجاري فتح علي أن يعلن الجهاد ردا على اقتطاع الدولة الروسية لأطراف إيران، وقام هو بنفسه من كربلاء ذاهبا مع طلابه للقتال، ولم يفلح هذا النهوض مع فساد البلاط القاجاري وضعف الجيش الإيراني تسليحا وتدريبا في استرداد ما أخذ من الدولة الايرانية. وعاد السيد المجاهد من ذلك المشوار ليموت كمدا وغيظا في الطريق، وينقل جثمانه إلى كربلاء.له الكثير من الكتب منها مناهل الأحكام في الفقه. عن أعيان الشيعة ٩/٤٤٣.

(٢) صلاة الجمعة وهي ركعتان ظهر يوم الجمعة قبلها خطبتان، كانت محل نقاش بين علماء الإمامية على ثلاثة أقوال أساسية: فهناك قول بعدم مشروعيتها في هذا الزمان زمان غيبة الامام المعصوم نظرا لأن أحد شروطها في رأي هؤلاء وجود الامام، وإقامته إياها أو من ينصب من قبله.واستدل هؤلاء على رأيهم بما جاء عن الأئمة عليهم السلام، ومنه ما في الصحيفة السجادية، اللهم إن هذا المقام مقام خلفائك وأصفيائك. إلى آخر ما جاء في الصحيفة.

والقول الآخر: بوجوبها عينا على كل مؤمن، فلا يجب على المؤمن يوم الجمعة إلا صلاة الجمعة فلا يصح أن يصلي الظهر، وقد استدل هؤلاء تارة بآية (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، وبما جاء من الروايات عن الأئمة عليهم السلام في تعداد الصلوات حيث عدوا صلاة الجمعة فريضة في يوم الجمع.

والقول الثالث: وهو مشهور المعاصرين بالوجوب التخييري بين صلاة الجمعة وصلاة الظهر في يوم الجمعة، مع أفضلية الجمعة إذا أقيمت. بعد استبعاد الوجوب التعييني فإنه لو كان لبان وظهر، وعدم نهوض أدلة اشتراط وجود المعصوم لأقامتها.

(٣) محمد شريف بن محمد حسن المازندراني المعروف بشريف العلماء، من أعاظم العلماء في عصره. توفى سنة ١٢٤٦، ودفن في كربلاء، وكان المدرس الأول فيها وقد كتب قسم من طلابه تقريرات درسه كما يلاحظ في الذريعة.

(٤) كلانتر؛ السيد محمد. مقدمة كتاب المكاسب (المحُشى)، دار الكتاب قم.

(٥) أحمد بن مهدي بن أبي ذر النراقي ت ١٢٤٤هـ من تلامذة الوحيد البهبهاني والشيخ يوسف البحراني والشيخ مهدي الفتوني، وقبلهم درس على يد أبيه الملا مهدي، كان جامعا لفنون العلم من الفقه والأصول والفلسفة والفلك والهندسة والحساب، وبعد أن أنهى دراسته في النجف وكربلاء استقر في كاشان، وله من الكتب: معراج السعادة في الأخلاق، وعوائد الأيام في قواعد الفقه، والمستند

والتدقيق، فأقام في كاشان ثلاث سنين، يمارس فيها التأليف والتدريس، والمباحثة مع المحقق النراقي، الذي وجد بدوره شخصا بمستوى الشيخ مرتضى ينضج مباحثه، ويثير الملاحظات ليستخرج خبايا الأفكار.

حتى لقد نقل عن المحقق النراقي قوله: أني لقيت خمسين مجتهدا فلم أر بينهم مثل الشيخ مرتضى!

وواصل مشواره إلى مشهد الرضا عليه السلام ليعود بعدها إلى وطنه دزفول سنة ١٢٤٤هـ، بعد حوالي عشر سنوات من التطواف والبحث عن العلم والمعرفة، ويبقى فيها خمس سنوات، وعندما أراد الخروج من جديد إلى النجف الأشرف رغبت إليه والدته أن يبقى في دزفول يرشد الناس ويبلغ الأحكام، ومن الطبيعي أن كل والدة تحب أن ترى نتاج غرسها وثمر زرعها بين يديها تتفيأ ظلاله وتنعم بخيره، إلا أن الشيخ مرتضى كانت غايته أسمى وهمته أعلى، وكان ينتظره حظ من المجد العلمي، وجيل من التأسيس الفقهي لما يصل إليه بعد، وكان الموعد في النجف الأشرف، فلم يقبل بالبقاء وحينئذ كانت الاستخارة[(١)] حلاً، قالوا: إنه استخار على الذهاب فجاءت الآية ناطقة: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [(٢)].

وعاد الشيخ مرتضى إلى النجف الأشرف مرقد باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ليستقل بالتدريس فيها، ويبدأ منهجيته في الأصول التي شكلت مرحلة متقدمة من البحث العلمي التخصصي في هذا الجانب، ومن خلالها صنع أفقا جديدا للعلماء والأصوليين الذين درسوا على يده والذين جاؤوا من بعده بحيث يعد البعض هذه المرحلة هي آخر مراحل تطور الفكر الأصولي في المدرسة الإمامية، (أو المرحلة ما قبل الأخيرة).

ومع وفاة الأستاذين الشهيرين في النجف الشيخ موسى كاشف الغطاء، والشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، اجتمعت الحوزة العلمية وطلابها على درس الشيخ مرتضى

في الفقه الاستدلالي. وغيرها.

(١) الاستخارة: عمل يقوم به الانسان بعد استنفاذ رأيه ومشورة أهل الرأي وعدم وصوله إلى نتيجة مطمئنة، فلكي لا يبقى متحيرا شرعت له الاستخارة بطرقها المختلفة، ومنها بالقرآن، حيث يتوضأ ويقرأ أذكارا ويفتح القرآن الكريم ويرى الصفحة التي فتحها على الجانب الأيمن في أول سطر وينظر ما هو توجهها فإن كان فيه عذاب أو ذم أو لوم أو نهي ترك العمل بما استخار عليه وإن كان بخلاف ذلك من نعيم أو صفات الله الحسنى أو امر عمل به. وقد جرت سيرة العلماء والمؤمنين على الاستخارة في أمورهم مع تحيرهم فيها وعدم وصولهم إلى نتيجة.

وهي تختلف عن التفأل، وهو أن يفتح القرآن لكي يرى أنه هل العمل الفلاني سيسير على ما يحب أو لا؟ أو هل سيفلح في المشروع الكذائي؟ والتفأل بهذا المعنى منهي عنه في روايات أهل البيت، بخلاف الاستخارة التي هي مطلوبة.

(٢) سورة القصص: من الآية ٧ وبعض مترجمي الشيخ الأنصاري ذكر أن الاستخارة كانت في الرحلة الأولى.

الأنصاري، باعتباره الأعلم بالاضافة إلى سائر صفاته العملية كزهده وتعففه.

ويظهر من بعض القصص أنه كان يراعي حال متوسط الطلاب والمحصلين في الدرس العام فلا يلقي ما يعسر فهمه أو يستعصي على الأكثر، ويخص بعض النابهين والمتقدمين بمزيد من الاهتمام، والرعاية الاستثنائية، كما نقلوا في تعامله مع الميرزا محمد حسن الشيرازي (الكبير) صاحب ثورة التنباك.

فقد ذكروا أن الميرزا الشيرازي لما ورد إلى النجف وكان مجتهدا محققا حينها، ورأى مستوى الدروس فيها عزم على عدم الاستقرار، فزاره الشيخ مرتضى في محل إقامته وتطارحا مسألة فاختار فيها الميرزا رأيا واستدل عليه فأورد الشيخ مرتضى عليه إشكالات جعلت هذا الرأي يبدو سقيما، فنزل إليه الميرزا، وبعد برهة عاد الشيخ مرتضى فقوى ذلك الرأي بأدلة أخرى، ثم نقضه وهكذا. فتعجب الميرزا الشيرازي من ذلك، وسأله عن أنه لماذا لا يبحث في الدرس بهذا النحو، فأشار إليه بأنه يلاحظ حال المتوسط من حضار الدرس[1].

وقد كان يعتني الشيخ الأنصاري بآراء وإشكالات الميرزا الشيرازي، فكما قال بعضهم أن الشيخ كان إذا سأل أو اعترض الميرزا وكان هادئ الصوت ينادي في الطلاب: انتبهوا فإن جناب الميرزا يتكلم.

بقي الشيخ الأنصاري يدرس ويعلم في النجف مدة من الزمان تصل إلى ما يقارب ثلاثة عقود ربّى خلالها المئات من أعاظم مجتهدي الإمامية، كان منهم الميرزا محمد حسن الشيرازي والميرزا حبيب الله الرشتي، والميرزا محمد حسين النوري والميرزا محمد تقي الشيرازي والآغا رضا الهمداني والآخوند الملا كاظم الخراساني، وغيرهم.

وكان من نتائج هذه الفترة عدد من الكتب العلمية العالية، في الفقه والأصول، سنعرض إليها فيما ياتي.

سلمان زمانه في النجف:

لم يكن الشيخ الأنصاري بحر علم زاخرا فحسب، وإن كان هذا عزيز المنال، وصعب التناول وإنما كان آية في الزهد والتعفف، يذكّر بصفات الماضين من الأولياء الصالحين،

(١) نقل ذلك في مجلس الدرس آية الله العظمى الوحيد الخراساني.

فقد كانت الدنيا تُعرَض عليه صباحا وعشية، وهو يُعرض عنها، وما نقل من قصصه وأموره يكاد يلامس عتبة العجب المعجز!

فقد ذكر مترجموه رضوان الله عليه، أنه بقي على حاله وفي منزله الذي سكن فيه، حتى بعد أن جاءت إليه المرجعية وأجمع العام والخاص على تقليده وتفويض الزعامة إليه، فجاء إليه أحد التجار الايرانيين من مقلديه، وقال له: إن لدي مالا شخصيا اكتسبته من الحلال وليس متعلقا للحقوق الشرعية، وقد أحببت أن أهديه لك حتى تهيئ لك منزلا لائقا ومريحا، فأجابه الشيخ بأن منزله يكفيه، وأنه لا يحتاج إلى غيره، فأعاد التاجر عليه القول بأن شخصية الشيخ هي من شخصية المذهب وينبغي أن يكون في مكان لائق، وهذا المنزل الذي يسكنه لا يؤدي هذا الغرض، وما زال مصرا عليه وملحّاً حتى قبل الشيخ ذلك المال.

وبعد مرور سنة أو أكثر جاء هذا التاجر لزيارة مشهد أمير المؤمنين عليه السلام في النجف مرة أخرى وبعد انتهاء الزيارة كان لا بد أن يزور مرجع تقليده الشيخ الأنصاري، وفي ذهنه أنه لا بد أن الشيخ قد تحول إلى مكان آخر وبيت أفضل وأكثر رفاهية، فسأل عن منزل الشيخ فأرشدوه إلى البيت القديم السابق ، ورأى الشيخ هناك.

وعندما سأل الشيخ عن البيت الجديد، قال له نعم لدينا بيت جديد، أفضل من هذا، ومع سؤاله أمر بعض المقربين منه أن يوصله إلى آخر منطقة (الحويش) في النجف حيث بني هناك مسجد جميل ومرتب (يعرف بمسجد التُرك أو مسجد الشيخ الأنصاري)[1]، فلما عاد سأل الشيخ عن ذلك، فأجابه الشيخ بسؤال:

- أن تبني بيت الشيخ أفضل أو أن تبني بيت الله؟

لا ريب أن بيت الله أفضل، فبيت الشيخ غداً يذهب إلى الورثة ويتنعمون به، بينما يبقى بيت الله عزوجل!!

وفي حادثة أخرى تنقل عنه تذكر بموقف أمير المؤمنين عليه السلام من أخيه عقيل! فإنهم يذكرون أن الشيخ الأنصاري بعد أن استقر به المقام في النجف، وصارت إليه المرجعية العامة، استقدم والدته من دزفول إلى النجف لا سيما وقد توفي أبوه، وكان يأتي إليها بعد الدرس عادة يطايبها ويذكر لها بعض القصص والقضايا، ويجلس معها قليلا، برّا بها ثم يذهب لشأنه، وذات مرة قال لها: في صغري عندما كنت أدرس وكنتِ

(١) نقل بالمضمون والمعنى العام من كتاب سيماي فرزانكان باللغة الفارسية.

تطلبين مني أن أذهب لجلب أشياء البيت (من خضروات وما شابه) كنت أقول لك: اطلبي مني أي شيء بعد درسي، أما وقت الدرس فلا تطلبي مني شيئا، وكنتِ تقولين: بأنك لم تخلفي ولدا!! الآن بعد أن وصلتُ إلى ما وصلت إليه هل لا يزال رأيكِ بأنك لم تتجبي ولدا؟

فتبسمت وقالت نعم: ولكن لم يتغير عليّ شيء! (أي لم يظهر علي أثر التنعم من المرجعية هذه) فهذا أخوك (شيخ منصور) محتاج والأموال بين يديك فلا تساعده! وتقول أنا اعطيه سهمي من هذا المال، وما قدر ما يصنع سهمك في حاجته؟

فأجابها الشيخ بحنان: هذه مفاتيح المال الموجود لدي قومي وخذي منه ما تشائين ولكن اعلمي أن كل درهم فيه حساب وعتاب يوم القيامة! وأن عليك أن تقدمي حسابه بين يدي الله عزوجل!

ولو أردنا أن نتتبع ما نقل عنه في هذا المجال لضاق بنا الأمر، لكنه مشهور عنه ومعروف من سيرته. وهذا بالاضافة إلى غزارة علمه كان من الأمور التي دعت صاحب الجواهر أن يفوض إليه أمر الزعامة الدينية والعلمية في النجف عندما حضرته الوفاة ١٢٦٦هـ. فكما نقلوا أن صاحب الجواهر بعدما مرض وأوشك على مغادرة الدنيا، كان الكثير يتوقع أن يشير بالزعامة العلمية والمرجعية الدينية إلى بعض تلامذته المقربين، ولم يكن الشيخ الأنصاري منهم فإنه قد استقل بالتدريس منذ وقت بعيد، وليس معدودا من تلامذة صاحب الجواهر الملاصقين له والمرتبطين به.

فبينما كان أعيان تلامذة صاحب الجواهر في عيادته، والسؤال يعترض الكثيرين عمن سيكون خليفة الشيخ الجواهري في منبره وزعامته، سأل صاحب الجواهر عن الشيخ مرتضى؟ وحيث أنه لم يكن يتردد كثيرا في هذه الأجواء سألوا من: شيخ مرتضى؟ فعرفه لهم، وطلب منهم إخباره بأن يحضر.

ذهبوا وفتشوا عنه فوجدوه في حرم أمير المؤمنين عليه السلام يصلي صلاة الحاجة لشفاء الشيخ صاحب الجواهر! وطلبوا منه الحضور إلى بيت الشيخ، فأجاب ولما حضر قال له الشيخ: خفف احتياطاتك يا شيخ وأفت الناس!

وكان هذا بمثابة الإشارة إلى تقديم صاحب الجواهر له على من عداه، (والفضل يعرفه أهله).

وبالفعل فإن مقام المرجعية والافتاء يختلف عن مقام العمل الشخصي، فقد يميل شخص لأسباب مختلفة إلى الاحتياط، وهذا أمر لا بأس به في حدوده الشخصية لكن إذا تصدى لإدارة حياة الناس من الناحية الدينية فإن إلزامهم بالاحتياط يؤدي إلى تعسر حياتهم.

شيء عن كتبه وآرائه:

من الصعب جدا الاحاطة بخصائص كتبه وبمميزات آرائه، وينبغي إيكال الأمر إلى المؤتمرات والندوات التخصصية [١] لكن كما يقال: ما لا يُدرَك كله لا يُترك كله، ولهذا سنتعرض بمقدار يسير إلى تعريف بعض الكتب الأساسية:

١. كتاب المتاجر

وهو المشهور بالمكاسب: يحتوي على ثلاثة أبواب رئيسة: المكاسب المحرمة ويتعرض فيه إلى: ما يحرم الاكتساب به لجهة من الجهات، إما لجهة أنه من الأعيان النجسة كالدم والمني والبول والعذرة من غير مأكول اللحم والخمر. أو لجهة تحريم ما يقصد منه مثل هياكل العبادة المبتدعة وآلات اللهو والقمار والعملات المزورة وبيع الجارية المغنية. أو لجهة عدم وجود منفعة محللة معتد بها عند العقلاء مثل بيع السباع والحشرات وما أشبه. أو لجهة كونه عملا محرما في نفسه كالرشوة والسب والكذب والسحر والقمار. وما أشبه.

والباب الثاني: في البيع وقد تعرض فيه إلى تعاريف البيع وما يرد عليها، وناقش بيع المعاطاة، ثم تحدث عن شروط عقد البيع كالعربية والماضوية وتقدم الايجاب على القبول والتنجيز.وعن شروط المتعاقدين؛ كالبلوغ وقصد مدلول العقد، والاختيار، واستطرد إلى الحديث عن عقد الفضولي وولاية الأب والجد وأخيرا ولاية الفقيه.

وانتهى في هذا الباب إلى الحديث عن شروط العوضين، كالمالية وكون العوض طلقا، ومقدورا على تسليمه، واستطرد إلى بحث الغرر.

وفي الباب الثالث: الذي يسمى بالخيارات، والخيار: هو ملك فسخ العقد بأحد

(١) بحمد الله أنه قد عقد مؤتمر في مدينة قم المقدسة في إيران عن أعمال الشيخ الأعظم الأنصاري الفقهية والأصولية، ودوره في تطوير مدرسة الاستنباط والاجتهاد، في سنة ١٤١٤هـ بمناسبة مرور ٢٠٠ سنة على ميلاده المبارك. وقد طبع لأجل هذه المناسبة كتبه ورسائله مع تحقيق أكثرها وهو جهد مشكور، بالاضافة إلى طباعة ما ألقي من دراسات وبحوث عن شخصيته فيما بعد.

موجباته، تعرض فيه إلى أن الأصل في البيع اللزوم إلا أن يتزلزل بوجود الخيار للمتبايعين أو احدهما، وشرح الخيارات: كخيار المجلس والحيوان والشرط والغبن والعيب والرؤية.

وانتهى إلى الحديث عن الشروط التي يمكن أن يقع عليها العقد، وعدد صفاتها في أنه لا بد أن تكون مقدورة، وسائغة في نفسها، وذات غرض معتد به عقلاء، وأن لا تكون مخالفة للكتاب والسنة ولا منافية لمقتضى العقد، وأن لا تكون مجهولة بحيث تؤدي للغرر، وأن لا تستلزم المحال، وأن يلتزم بها في متن العقد.

جاء كتاب المكاسب لكي يحل محل ما سبقه من الكتب الفقهية في المدارس والحوزات العلمية وأصبح محور التدريس منذ أيام الشيخ الأنصاري وإلى يومنا هذا، ولعل الناظر المتأمل فيه وفي الكتب التي سبقته بل حتى التي عاصرته يجد الفارق كبيرا لصالح المكاسب في تفوقه عليها سواء في إحاطته بالأدلة أو في عبارته المشرقة أو أسلوبه في عرض كل مسألة مما أشار إليه النقاد والباحثون. ولعلك ترى الفرق الفارق بين كتاب المتاجر في الجواهر وهو يعتبر سيد الفقه الاستدلالي عند بعضهم وبين كتاب مكاسب الشيخ الأنصاري لترى التميز والتفوق واضحا للمكاسب.

وقد حظي هذا الكتاب الذي يقع في مجلد واحد بحسب متنه بالطبع القديم بالكثير من الاهتمام بالشرح والتعليق والمناقشة، وأصبحت بحوث الخارج في المعاملات لا تتعداه، فقد حشّى عليه معظم تلامذة الشيخ الأنصاري، وتلامذة تلامذتهم، وشرحه متأخرون عنهم، وأصبح متنا تناقش نظرياته في بحوث الخارج قسم المعاملات.

٢. فرائد الأصول

وقد اشتهر باسم كتاب الرسائل، وذلك لأنه عبارة عن خمس رسائل جمعت في عهد الشيخ في المواضيع المتعددة في الأصول، وقد أسس لها بتقسيمه المكلف إلى ثلاثة أقسام، وأنه إما أن يحصل له بعد الالتفات إلى حكم شرعي، القطع به أو الظن أو الشك. وعلى هذا الأساس تحدث عن حجية القطع وأقسامه في رسالة بهذا الاسم، وبعدها تحدث عن الظنون الخاصة التي ثبت بالدليل جواز التعبد بها بعدما كان الأصل عدم جواز العمل بالظن وفيها بحث عن حجية ظواهر الكتاب، وخبر الثقة، وقول اللغوي، والاجماع المنقول والشهرة الفتوائية، وغيرها. لينتهي إلى الحديث عن حجية مطلق الظن، وما يسمى بدليل الانسداد.

وفي الرسالة الثالثة تحدث عن الأصول العملية التي هي مرجع الشاك في التكليف أو المكلف به، وقد تحدث هنا عن البراءة والاحتياط والتخيير وأخيرا الاستصحاب الذي أفرد له رسالة خاصة مفصلة، وفي رسالته الخامسة الأخيرة ناقش موضوع التعادل والترجيح، وذلك فيما إذا تعارضت النصوص الشرعية، فماذا يعمل الفقيه.

ويعد هذا التقسيم الثلاثي للمكلف في موقفه مع التفاته للحكم الشرعي من ابتكارات الشيخ الأعظم في الأصول حيث لم يكن معهودا قبله.

كما أنه أضاف إلى علم الأصول بحوثا لم تكن قبله موجودة فيه، أو لم تكن مبحوثة بشكل مفصل ومستقل كما هو الحال في مبحث الحكومة والورود في الأدلة، والتي لها أثر مهم على مسار البحث الأصولي ثم الفقهي.

وهكذا حديثه عن علاقة الأصول ببعضها، وأيها حاكم على الآخر كما في حكومة الأصل السببي على المسببي، وحكومة الاستصحاب على البراءة.

وأيضا كان من ميزاته في هذا الكتاب: «التعرض لمباحث البراءة العقلية والشرعية بصورة مفصلة وشاملة وتقسيم الشبهة الى حكمية وموضوعية ووجوبية وتحريمية وذكر سبب الشبهة من عدم النص أو إجمال النص أو تعارض النصين، والاستدلال على البراءة بالآيات والروايات والإجماع والعقل ورد شبهات الإخباريين في وجوب الاحتياط في الشبهات التحريمية مع ذكر أدلتهم من الكتاب والروايات والرد عليهم بأحسن ما يكون، بحيث لم يرد مثل ذلك في الكتب التي سبقت الشيخ (قده)»[1].

والحقيقة أن الشيخ الأعظم قد وضع في هذا الكتاب منهجية جديدة صارت المعتمدة من كل من جاء بعده وكانت على قدر من الإحكام» وأمارة هذا الاستحكام والقوة والمتانة في المنهج والتصور والمحتوى ان الفقهاء الذين جاؤوا من بعد الشيخ- وهم كثيرون - لم يغيّروا لحدّ اليوم الخطوط الأساسية لهذا المنهج، رغم ان هذه الفترة كانت حافلة بعقول فقهية وأصولية كبيرة من أمثال المولى محمد كاظم الخراساني المعروف بـ (الآخوند) والسيد محمد حسن الشيرازي والشيخ حبيب الله الرشتي وشيخ الشريعة والأعلام الثلاثة من تلاميذ الخراساني: النائيني والعراقي والأصفهاني وغيرهم من

(١) مقال لم يشر إلى مؤلفه نشر على http://www.al-shia.org.

الأعلام المعاصرين والمحققين الكبار في هذا العلم »[1].

٣. باقي كتبه

لم تقتصر جهود الشيخ الأنصاري التأليفية على الكتابين المذكورين وإن كانا الأشهر والأكثر حضورا في البحوث العلمية، فإن له الكثير من الكتب والرسائل الفقهية والأصولية، قد عدها محقق رسالة التقية[2] بالنحو التالي:

(١) رسالة في إجازة الشيخ الأنصاري. وهي إجازة مبسوطة من الشيخ الأنصاري لتلميذه الميرزا أحمد بن الميرزا محسن الفيض الكاشاني. (٢) الاجتهاد والتقليد. (٣) إثبات التسامح في أدلة السنن. (٤) الإرث. (٥) أصول الفقه. (٦) رسالة في التحريم من جهة المصاهرة. (٧) تقليد الميت والأعلم. (٨) التقية (٩) التيمم. (١٠) الحاشية على الحاشية على بغية الطالب وبغية الطالب للشيخ جعفر كاشف الغطاء، والحاشية على بغية الطالب لولده الشيخ موسى. (١١) الحاشية على عوائد النراقي. (١٢) الحاشية على قوانين الأصول. (١٣) الحاشية على نجاة العباد. (١٤) رسالة في الخلل. (١٥) الخمس. (١٦) رجال الشيخ. (١٧) رسالة في رد القائلين بأن الأخبار قطعية الصدور. (١٨) النكاح. (١٩) الرضاعية. (٢٠) الزكاة. (٢١) الصلاة. (٢٢) صلاة الجماعة. (٢٣) الصوم. (٢٤) الطهارة. (٢٥) العدالة. (٢٦) الغصب. (٢٧) الفوائد الأصولية. (٢٨) رسالة في القرعة. (٢٩) القضاء عن الميت. (٣٠) القضاء والشهادات.(٣١) قاعدة لا ضرر. (٣٢) المتعة. (٣٣) رسالة في المشتق. (٣٤) الوصية وأحكامها. (٣٥) مناسك الحج. (٣٦) منجزات المريض. (٣٧) قاعدة من ملك شيئا ملك الاقرار به. (٣٨) المواسعة والمضايقة.

(١) الآصفي؛ الشيخ محمد مهدي. مقال بعنوان التجديد في مدرسة الشيخ الأنصاري الأصولية، منشور في موقعه الالكتروني http: //alasefi.net/

(٢) الحسون، الشيخ فارس. في مقدمة رسالة التقية للشيخ الأنصاري. نشر قائم آل محمد، قم إيران

مير حامد حسين النقوي
معجزة الهند

١٢٤٦ـ١٣٠٦هـ

تتفاوت التقديرات بشأن عدد الشيعة في القارة الهندية بما يشمل باكستان وبنغلاديش.، فمن مُكثر يوصل العدد إلى ٨٥ مليون نسمة، وبناء على ذلك يعتبره أكبر تجمع سكاني شيعي، وبين من يقلل ينهيه إلى نصف ذلك التقدير. ويساعد على هذا الاختلاف عدم وجود إحصاء علمي فيترك المجال واسعا للتقديرات الشخصية التي تتأثر بالموقف المذهبي، وأحيانا بالتصور بأن الحق يرادف كثرة العدد، أو ما شابه من العوامل التي تعرضنا لها في موضع آخر [١].

وسواء أخذ بالتقدير الأكثر أو الأقل، فإن وجود هذه الأعداد الكبيرة في القارة الهندية تشير إلى حقائق لا تكاد تخطئها العين البصيرة، منها:

أن التشيع لم يكن وليد برهة تاريخية حصلت على أثر اقتران بعض الأئمة عليهم السلام بزوجة هي بنت ملك الفرس فتعصب الفرس لهذا النسب وقبلوا هذا المذهب ودافعوا عنه، فإذا قبلنا ذلك جدلا وإلا فهو غير مقبول فما دخل الهنود في هذا الدافع؟

ويشير أيضا إلى وجود التنوع البشري في هذا المذهب وأن أفكاره تستهوي المجاميع المختلفة من الناس، فليس مذهبا يمجد قومية، حتى تجتنبه سائر القوميات، ولا عرقا معينا حتى لا تقبله سائر الأعراق.

ويشير ثالثا إلى أن فكرة محاصرة المذهب من قبل البعض، فضلا عن القضاء عليه، تعبر عن مراهقة عقلية لا عن قراءة واقعية لحركة المذاهب والأفكار في المجتمعات. لا سيما إذا كان هذا المنهج يعتمد الدليل والبرهان في تشييد آرائه، وبناء مفاهيمه.

(١) آل سيف، فوزي: صفحات من التاريخ السياسي للشيعة. ٣٨.

ولهذا فإننا وجدنا أنه بالرغم من الجهد الكبير الذي بذله بعض الحاكمين لنفي هذا المذهب واقتلاعه من مناطقه لم يستطيعوا ولن يستطيع ذلك غيرهم، فإن عالم المذاهب والأفكار لا ينفع فيه القمع السياسي أو استعمال القوة العسكرية.

إن الجهد الرائع وعديم النظير الذي قدمه العالم الكبير مير حامد حسين في كتابه (عبِقات الأنوار) [(١)] يشير الى حقيقة أن انتصار المبادئ ليس بالقوة بل بالبرهان والفكرة وقد نزل المير حامد حسين إلى هذا الميدان بكفاءة عالية وقدرة متميزة، وألف كتبا عديمة النظير بل وصفها أئمة العلم بأنه لم يؤلف مثلها منذ صدر الإسلام.

وربما يقول البعض أنه إلى متى نبقى في هذا النقاشات العقائدية؟ أما آن لنا أن نغلق هذا الملف ونتفرغ لهموم الحاضر، لا سيما وأن هذه النقاشات لا تزيد المسلمين غير الفرقة والتشرذم؟ وبالتالي تتوج الجهود إلى ما هو أجدى وأنفع؟

والجواب على ذلك: أن الاختلاف في العقائد والمتبنيات الفكرية عند الناس حقيقة لا جدال فيها لوضوحها، ذلك أنه تختلف اعتقادات الناس واديانهم ومذاهبم ، فما يعتبره هذا الانسان حقا يراه ذلك الآخر الباطل بعينه. هذا الاختلاف في الاعتقادات يجر الى النقاش و الحوار بين هذه الفئات الاجتماعية اما بدافع التبشير والدعوة واما بدافع تقوية ماهو عند الذات ، فالمسلم مثلا لكي يقوي عقيدته الإسلامية أمام المسيحية يبرهن على عقائده ويبين أدلتها حتى يؤكد لنفسه والمسلمين بان عقائده مبرهنة وقائمة على أصول قوية ، بالاضافة إلى دعوة الطرف الى معتقده ومايتبناه.

وهكذا الحال على مستوى المذاهب في داخل الدين الواحد، فيستدل البروتستانتيون والأرثوذكس والكاثوليك في داخل الديانة المسيحية، كلٌّ على مذهبه وطريقته. ويستدل السنة والشيعة والخوارج وغيرهم من الفرق والمذاهب في داخل الدين الإسلامي على أفكارهم وآرائهم.

وهذا هو الذي ينشئ الحوار بل الجدال الديني والمذهبي.و هذا أمر لا يمكن الغاؤه ، وهذا يعني أن المطالبة بإلغاء الحوارات والنقاشات العقدية الدينية أو المذهبية، شعار لا واقعية له.

نعم الحق ان يقال بأنه ينبغي أن يخضع لضوابط ، وأداب ، وقوانين تنظمه:

(١) قال في لسان العرب النَّوْرُ و النَّوْرَةُ، جميعاً: الزَّهْر، و قيل: النَّوْرُ الأَبيض و الزهر الأَصفر و ذلك أَنه يبيضُّ ثم يصفر، و جمع النَّوْر أَنوارٌ. و عَبِقَت الرائحةُ في الشيءِ عَبَقاً و عَباقِيةً: بَقيت و عَبِق الشيُ بقلبي: كذلك على المثل. و ريحٌ عَبِقٌ: لاصق.

في غرض الحوار أن لا يكون هادفا لاشعال الفتنة الاجتماعية بين الفئات المنتمية إلى أطراف الحوار والنقاش وهذا يفرض نمطا خاصا من الحوار يجتنب التهييج والتهجم. بل يفرض أن يكون المتحاورون من مستوى علمي خاص، وليس صحيحا أن هذه النقاشات تنتهي إلى الاحتراب الاجتماعي، النقاش أمر علمي ونظري، بينما التشنج الطائفي أو الديني أمر نفسي وقلبي، وهما مختلفان في مناشئهما.

في أسلوب الحوار: ينبغي أن يكون قائما على آداب المناظرة، وأخلاق المحاورة، والتي وردت الاشارة إليها في القرآن الكريم، والروايات، بل والعلوم الحديثة. فلا ينبغي التنقص من الخصم فضلا عن سبه، فإننا حتى لو أردنا دعوته إلى ما نعتقده من آراء، فلا بد أن يكون ذلك ﴿بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ومن ذلك أن يتم الاحتجاج على الخصم في الحوار بما هو مسلم عنده، حتى يكون أبلغ في القبول. ونحن وإن كنا لسنا في صدد الحديث عن آداب الحوار وقوانينه، لكن كان ذلك لاقتضاء الحديث عن علامة الهند مير حامد حسين في جهده للبرهنة على معتقداته في إمامة أهل البيت عليهم السلام.

كما ينبغي الإشارة أيضا إلى بعض آثار العصبية المقيتة التي لا تزال موجودة في بعض مجتمعاتنا المسلمة والتي تصم غير العربي في المناطق العربية وغير الفارسي في إيران مثلا، بالغباء وقلة الفهم، بل ربما راجب سوق النكات والسخرية من عرق بالنسبة إلى عرق آخر، ومن قومية بالنسبة إلى قومية ثانية، بحيث تؤلف الطرائف ومواضع التندر، فالهندي مثلا غبي، والكردي مغفل، والعربي كذا ،وكل عرق أو جنس يعتبر نفسه الأسمى والأعلى بينما غيره يكون في الدرجة الثانية.

إن على المؤمنين أن يتنزهوا عن هذا الخلق السيء، وأن يعتقدوا أنه (لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لاحمر على أسود ولا أسود على أحمر الا بالتقوى)[١].

معجزة الهند:

للنظر في الظروف التي عاش فيها العالم الكبير والمتكلم البارع مير حامد حسين، لا بد أن نشير إلى أن حركة ثقافية وأدبية قد تبناها ملوك الشيعة في جنوب الهند حيث

(١) حنبل، احمد بن: مسند احمد - ٥. ٤١١.

«قامت في الهند ثلاث دول شيعية، هي: العادل شاهية[١] والنظام شاهية[٢] والقطب شاهية[٣]، وهذه كانت في الدكن جنوب الهند. ثم قامت بعد ذلك دولة رابعة هي دولة (أود) في شرق الهند، ولم تكتف هذه الدولة بتبني التشيع ونشر لوائه، بل كانت باعثا قويا على بث المعارف والثقافة الإسلامية وإرقاء الأدب الأردوي»[٤].

هذا النشاط الثقافي أثار خشية بعض علماء المذاهب الأخرى من أن يمتد تأثير التشيع إلى سائر الولايات والممالك الهندية ولا سيما عندما استقدم سلطان أوده (آصف الدولة بن شجاع) العالم الكبير السيد دلدار علي النقوي (توفي سنة ١٢٣٥هـ) لإقامة الجمعة والجماعة، وقد أسس حوزة علمية مباركة وجدنا آثارها في أبنائه وأحفاده والذين درس على يدهم مير حامد حسين.

في مقابل هذا تحرك بعض علماء المذاهب الأخرى كالشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي وهو حنفي المذهب (توفي سنة ١٢٣٩هـ)، للوقوف أمام انتشار الفكر الشيعي، فقام بكتابة (التحفة الاثنا عشرية في الرد على الإمامية الاثني عشرية) لنقض أدلة الإمامية في قولهم بإمامة علي بن أبي طالب وخلافته بعد النبي ﷺ.

ضمن هذا الجو ولد المتكلم المحقق مير حامد حسين، في بيئة علمية حيث كان أبوه السيد محمد قلي من تلامذة الفقيه السيد دلدار علي، وكان الوالد الأستاذ الأول لابنه.

ولم يعرف عن مير حامد أنه خرج للدراسة خارج الهند، وهذا يشير إلى أن طالب العلم متى كان جادا في دراسته وذكيا في تعقله، ومثابرا فإنه يصل إلى أعلى الدرجات، حتى لو لم يكن حاضرا في حوزة مركزية معروفة كالعراق أو إيران.

ولما انتشر كتاب (التحفة الإثنا عشرية) رد عليه الكثير من العلماء ومنهم السيد دلدار نفسه، إلا أن العمل الكلامي الضخم المنقطع النظير كان من نصيب مير حامد حسين.

ولمعرفة ما قام به هذا العالم العيلم ننقل ما ذكره المحقق السيد علي الميلاني في دراسته عن صاحب العبقات، فإنه قد أشار إلى أن الدهلوي في التحفة قد ذكر أن عمدة

(١) حكمت لمدة ٢٠٢هـ من سنة ٨٩٥هـ إلى سنة ١٠٩٧هـ.

(٢) استمرت لمدة ١١٣ سنة أي من ٨٩٦هـ إلى سنة ١٠٠٩هـ.

(٣) حكمت مدة ١٧٨ سنة أي من تاريخ ٩١٨هـ إلى ١٠٩٦هـ.

(٤) الأمين، حسن: مستدركات أعيان الشيعة ١. ٥.

استدلال الإمامية على إمامة علي بن أبي طالب لا تتجاوز ست آيات من القرآن، وإثني عشر حديثا عن النبي ﷺ:

فأما الآيات فهي:

١. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (سورة المائدة: ٥٥).

٢. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (سورة الأحزاب: من الآية ٣٣) ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (سورة الأحزاب: ٣٣).

٣. ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (سورة الشورى: من الآية ٢٣).

٤. ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٦١).

٥. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (سورة الرعد: من الآية ٧).

٦. ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (سورة الواقعة: ١٠،١١).

وأما الأحاديث، فهي:

١. حديث الغدير: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم.. «.

٢. حديث المنزلة: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى «.

٣. حديث الولاية: «ان عليا مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن من بعدي.. «.

٤. حديث الطير: «اللهم ائتني بأحب الناس اليك والي يأكل معي هذا الطير.. «.

٥. حديث مدينة العلم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد.. «.

٦. حديث الاشباه أو التشبيه: «من أراد أن ينظر الى آدم في علمه والى نوح.. «.

٧. حديث المناصبة: «من ناصب عليا الخلافة فهو كافر «.

٨. حديث النور: «كنت أنا وعلي نورا بين يدي الله قبل أن يخلق آدم.. «.

٩. حديث يوم خيبر: «لاعطين الراية غدا رجلا.. «.

١٠. حديث الحق: «رحم الله عليا، اللهم أدر الحق معه حيث دار.. «.

١١. حديث المقاتلة: «انك تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله «.

١٢. حديث الثقلين: «اني تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا.. «، وقد بحث في ذيله حديث السفينة: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح.. «.

ثم زعم أن الآيات غير واضحة الدلالة على ما يريده الإمامية، وأما الأحاديث ففيها ما هو غير تام السند للنبي ﷺ، وما هو تام غير واف بمقصدهم! [1].

وحين انبرى مير حامد حسين للرد، تتبع في البداية النص الذي أتى به عبد العزيز الدهلوي، فرأى أنه ليس نصه هو، وإنما هو مسروق بالكامل من كتاب آخر تم تأليفه في أفغانستان لمؤلف اسمه نصر الله الكابلي، واسم الكتاب الذي (نسخ) بالكامل هو (الصواقع) وقد جاء الدهلوي بهذا النص من غير تغيير فيه ولا إشارة إلى مصدره، فكان من السطو والسرقة التي كشفها مير حامد حسين. وينبغي أن نتأمل في مدى الجهد الذي صرفه هذا العالم في اكتشاف هذا الأمر مع أن الكتاب قد ألف (أو نسخ) قبل ولادة المير حامد حسين وكان بمرأى من العلماء السابقين عليه، ولم يكن الأمر في انتشار الكتب في ذلك الزمان كما هو الحال عليه الآن بحيث يستطيع الباحث بسهولة أن يتعرف على تأليف هذا الكتاب هنا أو هناك.

فكان هذا أول الوهن في ذلك الكتاب المنسوخ والنص المسروق!! فكيف سمح الدهلوي لنفسه وهو في صدد مواجهة الفكرة الشيعية أن يسرق كتاب غيره ثم لا يشير إليه بأدنى إشارة؟ والذي لم يوفر حق شريكه في المذهب الواحد كيف له أن يوفر حق مخالفه فيه؟

وبعد هذا شرع في الرد على ما قاله الدهلوي، بتتبع يندر أو يعدم نظيره، فكتب كتابه على نفس الطريقة التي سلكها الدهلوي بأن قسم كتابه إلى منهجين، الأول في مناقشة دلالة الآيات التي أوردها الدهلوي في كتابه وزعم بأنها غير دالة على مطلوب الإمامية. ويقال إن هذا القسم من الكتاب لم يطبع، وبقي محفوظا في خزانة المكتبة الخاصة بأسرة المؤلف.

(١) الميلاني؛ علي: مقال بعنوان صاحب العبقات في الذكرى المئوية في مجلة تراثنا عدد ٤ السنة الأولى ١٤٠٦هـ.

والمنهج الثاني، ويحتوي على ١٢ مجلدا بالطبع القديم (وكل مجلد يعادل تقريبا خمسة مجلدات من الطباعة الحديثة) على أساس أن لكل حديث مجلدا تاما، يتعرض فيه لسند الحديث، ويوثق ذلك من معتبرات كتب الحديث لدى الفريقين، ولا سيما مدرسة الخلفاء. ثم يتعرض لدلالة الحديث وتحقيق معناه وذب الاشكالات التي أوردها الدهلوي أو يمكن أن يوردها غيره.

ميزات العبقات:

وقد وفّى المحقق السيد الميلاني القول في خصائص وميزات عبقات الأنوار، ومنهج مؤلفه القدير وحياته في دراسة مستوعبة في (١٧٥) صفحة، جعلها مقدمة لتعريبه واختصاره للمنهج الثاني من العبقات الذي طبع فيما بعد في ٩ مجلدات. ومن أراد التفصيل في خصائص الكتاب ومنهج المؤلف فليراجعه فـ (كل الصيد في جوف الفرا)، ونختصر هنا بعض النقاط من ذلك البحث القيم:

١. فقد التزم صاحب العبقات بنقل دليل الخصم بدقة من كلامه وشرحه لو احتاج إلى الشرح بأحسن ما يمكن ثم الشروع في الرد عليه وإبطاله. بخلاف خصمه الذي كان يورد دليل الإمامية من غير بيان وجه استدلالهم، فقد كان يأتي مثلا بحديث الثقلين، ويقول إنه لا دلالة في هذا الحديث على ما يدعيه الإمامية من غير تقرير استدلالهم به.

٢. والتزم أيضا بالاحتجاج على خصمه بكتب أهل السنة وأقوال كبار علمائهم وحفاظهم ومحدثيهم. وكان حريا بالدهلوي وغيره ممن أرادوا الاحتجاج على الإمامية أن يحتجوا عليهم من كتبهم لا من كتب غيرهم.

٣. ونظرا لأن الاستدلال بالأحاديث يتوقف على البحث في أسانيدها، بل لا بد في العقائد من أن يكون معلوم الصدور عن النبي ﷺ ليفيد بذلك العلم الذي لا بد منه في البحث العقائدي، ولهذا فقد كان مير حامد حسين يتتبع الحديث بكل أسانيده، وفي كل الطبقات ليصل إلى إثبات التواتر، أو أن يكون مرويا في الصحيحين فيكون مما قطع بصدوره عند أتباع مدرسة الخلفاء كما نقله عن عدد من علمائهم. ولا ينسى أن يتعرض إلى البحث الرجالي في حال كل راوٍ وأقوال الرجاليين في حقه.

٤. وقد قرن كل ذلك بتتبع عظيم ففي معاني الأحاديث كان يستشهد في إثبات ما يريد أولا بفهم صحابة النبي ﷺ لأنهم عدول في مدرسة الخلفاء، ولمعاصرتهم للنبي، ولأنهم أهل اللغة، وثانيا بفهم التابعين وقد أبدى في ذلك قدرة عجيبة، فهو في حديث (ائتني بأحب خلقك) عندما اعترض عليهم بعضهم بأن الأحب هنا بمعنى (الأحب في الأكل) أجاب عليه بسبعين وجها. وتتبعه ليس له مجال دون آخر فهو عندما يريد النقض على كلام أحمد ويحيى في حق عبد الله بن داهر وأنه لا يكتب منه انسان فيه خير! رد عليه نقضا بمائة وستة وخمسين وجها! وعندما نقل عن ابن تيمية قوله في أن حديث (مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح) حديث لا يعرف له سند أصلا لا صحيح ولا ضعيف ولا ذكر في كتب الحديث، ذكر في مقابل ذلك اسماء اثنين وتسعين رجلا ممن خرّج الحديث! بدءا من الشافعي فأحمد بن حنبل ومسلم.

٥. واستفاد باقتدار من القواعد الأصولية المتسالم عليها عند القوم في إثبات مطالبه، فحين قال الفخر الرازي إن مسلما والبخاري لم يخرجا حديث الغدير، استشكل عليهم مير حامد بقاعدة تقدم المثبت (وقد ذكر كثير من أعلام السنة الحديث) على النافي فضلا عن الساكت وهو الصحيحان هنا. وقاعدة الحديث يفسر بعضه بعضا. وقاعدة لزوم حمل اللفظ المشترك عند فقد المخصص على جميع معانيه. وغيرها من القواعد[١].

تثمين وتقدير العمل النوعي لحامد حسين:

هذا العمل المنقطع النظير، الذي قال فيه المحقق الطهراني آقا بزرك وهو العارف بالكتب والمصنفات معرفته بأصابع يديه، بأنه أجلُّ ما كتب في هذا الباب منذ صدر الإسلام حتى الآن، جعل مرجع عصره الميرزا السيد محمد حسن الشيرازي[٢] أعلى الله مقامه، يرسل له رسالة كلها تقدير وإشادة بعمله في الكتاب ذاك، ذكرها كل من كتب عن حياة المير حامد حسين وكتاب العبقات، جاء فيها: فلمّا وقفت بتأييد اللّه تعالى و حسن توفيقه على تصانيف ذي الفضل الغزير، و القدر الخطير، العالم الخبير و الفاضل

(١) لتفصيل هذه الخصائص يراجع مقدمة السيد الميلاني على خلاصة عبقات الأنوار .

(٢) تأتي ترجمته.

النحرير، الفائق التحرير، الرائق التعبير، العديم النظير، المولوي[1] السيد حامد حسين، أيّده اللّه فى الدارين، و طيّب بنشر الفضائل أنفاسه، و أذكى في ظلمات الجهل نور العلم بنبراسه، رأيت فيها مطالب عالية، تفوق روائح تحقيقها على الغالية، عباراتها الوافية دليل الخبرة، و إشاراته الشافية محل العبرة، وكيف لا وهي من عيون الأفكار الصافية مخرجة، ومن خلاصة الإخلاص منتجة، هكذا هكذا وإلاّ فلا، العلم نور يقذفه اللّه في قلب من يشاء من الأخيار.

وفي الحقيقة أفتخر كل الافتخار، و من دوام العزم و كمال الحزم و ثبات القدم و صرف الهمم في إثبات حقيّة أهل بيت الرسالة بأوضح مقالة؛ فإنّه نعمة عظمى و موهبة كبرى: ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشآء.أسئل اللّه أن يديمك لإحياء الدين و يقيمك لحفظ شريعة خاتم النبيين، صلوات اللّه عليه وآله أجمعين.

وأمر الميرزا الشيرازي كل من يستطيع، بطبع الكتاب واحتساب ذلك من حقوقه الشرعية، كما أوصى بشكل أكيد على لزوم مطالعة الكتاب، ومراجعته من قبل مؤمني الطائفة لتحصيل المعارف العقدية اللازمة.

وقد قرضه وأثنى عليه عدد من أعلام الطائفة ومراجعها الدينيين.

شيء من إنجازاته الأخرى:

عمل العالم الكبير المير حامد حسين، في العبقات، وإن كان جليلا عظيما إلا أنه لم يكن العمل الوحيد لديه، فإن ميادين العلم تشهد له بصولات فيها، وتأليفات جمة، لكن كتاب العبقات بما احتواه من علم وما توفر عليه من ميزات كان الأبرز والأشهر.

فقد ذكروا أن لديه عددا من الكتب نوجزها في التالي:

١. استقصاء الإفحام باللغة الفارسية، ويقع في عشرة مجلدات. وهو رد على كتاب منتهى الكلام، للشيخ الحنفي حيدر علي فيض آبادي. الذي كتب مجموعة من الشبهات الواردة في رأيه على مذهب الإمامية.

٢. شوارق النصوص، وهو في خمسة مجلدات في علم الكلام.

٣. الذّرايع في شرح الشرايع للمحقق الحلي.

---

(١) مولوي في الهند تشير إلى معنى العالم الجليل

٤. الشريعة الغراء، فقه كامل.

٥. صفحة الالماس في حكم الارتماس.

٦. العشرة الكاملة، حل فيه عشر مسائل مشكلة.

٧. اسفار الأنوار، وهو عبارة عن مشاهدات في سفره لبيت الله الحرام وللعتبات المقدسة للأئمة.

٨. النجم الثاقب في مسألة الحاجب، بحث في الفقه موضوع الإرث الدرر السنيّة في المكاتيب والمنشئات العربية.

٩. زين الوسائل الي تحقيق المسائل، مسائل فقهية متنوعة.

١٠. شمع ودمع، شعر فارسي في رثاء الامام الحسين عليه السلام.

١١. الشعلة الجوالة، في احراق المصاحف على عهد عثمان.

١٢. درة التحقيق.

١٣. الطارف مجموعة ألغاز ومعميات.

١٤. الظل الممدود والطلح المنضود.

١٥. الدرر السنية في المكاتب والمنشات العربية.

١٦. شوارق النصوص في مطاعن اللصوص.

١٧. العضب البتار في مبحث آية الغار.

بعض ما نقل عن جهده في التتبع:

نتيجة العمل تعرّف مقدار الجهد المبذول فيه، وإن كتابا بهذا المستوى الذي يُتحدث عنه بأنه لم يكتب في علم الكلام والخلاف العقدي منذ صدر الإسلام حتى تاريخ تأليفه، أي مع مرور ثلاثة عشر قرنا من الزمان، مثله ليشير إلى الجهد الذي بذله مؤلفه ومن ساعده فإن مؤرخي حياته يذكرون أن أخاه سيد اعجاز، وولده السيد ناصر[1] ساعدا في

(١) كان صورة عن أبيه ناطقة، علما وتتبعا وتحقيقا، ولذا فقد أخذ على عاتقه تكملة ما بدأه أبوه، وكان كما قال السيد الأمين في الأعيان ١٠. ٢٠٠: «امام في الرجال والحديث، واسع التتبع، كثير الاطلاع، قوي الحافظة، لا يكاد يسأله أحد عن مطلب الا ويحيله الى مظانه من الكتب، مع الاشارة الى عدد الصفحات، وكان أحد الاساطين والمراجع في الهند، وله وقار وهيبة في قلوب العامة».

بعض أقسام الكتاب.

فمما يذكر في تتبعه للمصادر ومطالعته للكتب وكتابته، أنه كان يكتب جالسا فإذا تعب اتكأ وكتب، وإذا تعب من ذلك اضطجع وكتب، وهكذا حتى إذا أُجهد من الكتابة شخصيا أملى على من يكتب، بل لقد رئي أثر خط أفقي على صدره عند تغسيله، فلما سئل أبناؤه عن ذلك أشاروا إلى أنه كان من كثرة وضع الكتب على صدره حين المطالعة مضطجعا على ظهره! وفي هذا درس قيم لأهل العلم والطلاب في كثرة الجهد العلمي، والمثابرة على التحقيق والمطالعة. وأنه لما توفي أحد أولاده لم يترك التأليف والتحقيق، وكلف غيره بأمور التجهيز والدفن والعزاء حتى يوفر من وقته لتأليفه ولو ساعات إضافية.

ولما كانت الكتب في ذلك الزمان ليست في متناول يد المحققين والمؤلفين بالسهولة التي نراها في هذه الأيام فقد كان يتقصد تلك المصادر بالشراء أو النسخ، فإنك ترى في كتابه العبقات إشارات إلى أن هذا الكتاب قد اشتراه من الحديدة وهي مدينة في اليمن، أثناء سفرة الحج، وبعضها الآخر يشير إلى أنه نسخه واعتمد عليه من خلال مكتبة المسجد الحرام أو المسجد النبوي أثناء نفس تلك السفرة.

بل لقد نقل الكاتب ابراهيم اسلامي [1] أنه ربما آجر نفسه كخادم في مكة لبعض علمائها رغبة في الاطلاع على كتاب من كتب مكتبته ووفق في ذلك، وينقل أنه سافر إلى مصر لتحصيل كتاب ووجد ذلك الكتاب وفي أثناء رجوعه في السفينة وكان يطالع في ذلك الكتاب، هبت ريح فالقت بالكتاب إلى وسط البحر، فما كان منه إلا أن ألقى بنفسه وراءه حتى وجده وعاد إلى السفينة، فخاطر بنفسه لأجل ذلك الكتاب، وهذا الكتاب موجود في المكتبة الناصرية.

كما تم تجميع الكتب التي اعتمد عليها هذا العالم الكبير، فكانت نواة تأسست منها مكتبة من أعظم مكتبات الهند جمعت أكثر من ثلاثين ألف كتاب بين مخطوط ومطبوع، سميت بالمكتبة الناصرية.

رحيله السريع:

لله الأمر من قبل ومن بعد، وله الحكمة النافذة، وهو المدبر العليم لكن كان رحيل معجزة الهند سريعا، ولما يبلغ كل ما أراد من الدنيا في التحقيق والتتبع! بينما بقي ومُدّ

(١) اسلامي، ابراهيم؛ مقال بعنوان باسدار ولايت، الكتروني في موقع tebyan.net عن شهرية كوثر بالفارسية عدد ٢٠ سنة ١٣٧٧هـ ش.

في عمر الأشرار والعاطلين عن العلم والعمل! ولكن متى كان يقاس عمر الانسان بكثرة سني بقائه؟ إنما عمر المرء عمله، وإنجازه، وذكره.

نعم ما انقضت سنة ١٣٠٦هـ، إلا وطوت معها جسدا نحيفا، وروحا عالية، ونفسا مطمئنة، هي نفس علامة الهند وبطل ميدان التحقيق والتتبع، آية الله المير حامد حسين النقوي اللكنهوي.

رحمه الله ورفع في الجنة درجات رقيه.

قائد نهضة التنباك واستقلال إيران

الميرزا محمد حسن الشيرازي

١٢٣٠- ١٣١٢هـ



بالآية المباركة ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[١] من سورة النساء، حرم الله على المؤمنين الخنوع والتبعية للكافر به. وبالرغم من أن ظاهر الآية هو أنه لن يحصل في الخارج تسلط وسيطرة من قبل الكافرين على المؤمنين، إلا أن من الواضح أن هذا ممكن الحدوث، بل هو واقع كما رأيناه عيانا وقرأناه تاريخا! ولهذا يتعين كما يرى العلماء صرف هذا الظاهر إلى القضية التشريعية وليس الخارجية. لا سيما وأن هذا هو المناسب مع كون الله عزوجل هو في مقام تشريع الأحكام للمؤمنين من خلال القرآن الكريم.

وبناء عليه فإن لا يجوز أن تكون للكافر ولاية على المؤمن، وهذا الحكم يذكرونه في مسألة عدم جواز بيع العبد المسلم للكافر، لأنه بشرائه يكون تحت ولايته، ويذكرونه أيضا في عدم جواز زواج المسلمة بالكافر لأن الزواج نحو ولاية، وفي مواضع مختلفة. هذا على الصعيد الفردي.

وكذا الحال في الموضوع الاجتماعي فإنه لا يجوز أن يخضع المجتمع المؤمن والدولة المسلمة للكافرين، بحيث تكون مواردها وثرواتها وقرارها السياسي بيد أولئك الكافرين، بل لا بد أن يكون المجتمعات المسلمة سيدة نفسها، تطبق ما يناسبها من السياسات وتجري ما ينفعها من الأنظمة.

ومع فرض حصول السيطرة من قبل الكافرين على المؤمنين لضعف هؤلاء وقوة أولئك فإنه يجب عليهم السعي في إزالة تلك السيطرة والهيمنة بقدر الوسع والطاقة، وأن يسلكوا سبيل المقاومة للاستقلال. وحتى لو لم يستطيعوا فلا بد أن يرفضوهم قلبيا ونفسيا وأن لا يقبلوا بهذا الواقع السيء.

---

(١) سورة النساء: من الآية ١٤١.

وقد كان علماء الطائفة في هذا الاتجاه، فهم إن استطاعوا أن يقودوا حركة الجهاد والمقاومة للكافرين لإزالة هيمنتهم فعلوا ذلك، وإن لم يستطيعوا أفتوا للناس بعدم القبول بتلك الهيمنة!

ومن طليعة أولئك العلماء الذين سعوا في استقلال الأمة الإسلامية وتخليصها كان المرجع الديني الأعلى في زمانه (الميرزا السيد محمد حسن الشيرازي) المعروف بصاحب ثورة التنباك حيث استطاع إبطال محاولات البريطانيين السيطرة على اقتصاد إيران تمهيدا للسيطرة على قرارها السياسي ولم يكن لديه إلا سلاح الحكم الشرعي وطاعة المؤمنين له.

بالرغم من أننا لا نريد أن نربط الأدوار الكبيرة دائما بالشخصيات النادرة التي تتميز بنبوغ استثنائي، لأن هذا مع أنه غير صحيح في كل الحالات هو غير نافع في التوجيه التربوي لأن بإمكان الأكثر أن يتخلصوا من مسؤوليتهم بإقناع أنفسهم أنهم ليسوا نوابغ! وأن القضية تحتاج إلى شخصية إستثنائية.

ولكننا هنا لا بد أن نشير إلى هذه النقطة، حيث ذكروا في حياته أنه كان يتميز بذكاء خارق وحافظة غير اعتيادية حتى أنه وهو حفظ الحروف وبعض الخطوط وعمره أربع سنوات ونصف وفي سن السادسة بدأ بالتعلم، وكان المدرس له يعلمهم بعض الكلمات أو سطرا واحدا ،فيأتي في اليوم الثاني وهو يحفظ صفحتين أوثلاث صفحات بينما كان ينبغي أن يدرسوا هذا المقدار في الحالة الطبيعية في اسبوع.

وقد نبه هذا الأمر والده إلى أن الولد لديه نبوغ استثنائي وحافظة قوية. فوجهه إلى طلب العلم وبدأ بالدروس الدينية، وبدأ وعمره خمسة عشر عاما بدراسة شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الثاني، ومن المعلوم أن هذا الكتاب الاستدلالي يحتاج إلى مقدمات يكون الطالب قد درسها، وفيه مقدار من الاستدلال يحتاج إلى مستوى علمي متقدم، والغالب في الحوزات أن الطالب ضمن مسيرته الاعتيادية يدرسه بعد العشرين من العمر إذا بدأ مبكرا بالدراسة!!

بل كانت دراسته بنحو خاص أيضا فهو قبل أن يأتي إلى الدرس كان يراجعه ويكتب تعليقاته عليه من اسئلة أو أجوبة واستدلالات، ثم يأتي إلى المدرس ويستمع إليه، وبعد توجه المدرس إلى تعليقاته وحواشيه التي كتبها في دفتر عنده واطلاعه عليها، قال له: إن مكانك ليس هاهنا ولكن اذهب إلى اصفهان! (وكانت اصفهان في ذلك الوقت حاضرة

علمية متميزة، بالاضافة إلى كونها عاصمة إيران آنئذ).

وهكذا جاء إلى اصفهان ليبقى فهيا مدة،درس خلالها على يد فقهاء أعاظم مثل السيد حسن المدرس الكبير أعلى الله مقامه، والشيخ محمد تقي الأصفهاني صاحب حاشية المسترشدين على معالم الدين والسيد محمد باقر الرشتي المعروف بحجة الإسلام، والسيد صدر الدين العاملي.

ولم تكن اصفهان منتهى أمله، بل كان يرقب النجف الأشرف التي كانت في نهاية القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر الهجري بمثابة الكوكب المضيء في سماء الحوزات العلمية، بحضور أعاظم مثل صاحب الجواهر وأساتذته وتلامذته.

وزادها رفعة تصدي الشيخ الأعظم المرتضى الأنصاري لكرسي التدريس الأول، وزعامته الدينية والعلمية. وهذا ما دعى الميرزا الشيرازي للسفر إلى النجف الأشرف، وقد أصبح مجتهدا بالفعل!

وقد وصل النجف الأشرف عام ١٢٥٩هـ أيام زعامة صاحب الجواهر، وقد درس على يده إلى حين وفاة الجواهري سنة ١٢٦٦هـ، ليحضر درس الشيخ الأنصاري ويختص به، حيث تنقل عنه معه قصة، حيث أنه بعد هذه المدة التي قضاها في العلم والدرس على يد أولئك الأعاظم اشترك في درس الشيخ الأنصاري فلم يجد فيه أول الأمر ما يتمناه، ولذا عزم على ترك الحضور، فزاره الشيخ الأنصاري وتباحثا في مسألة وذكر الأنصاري وجها لها، فوافقه الشيرازي، ثم إن الشيخ الأنصاري تراجع إلى وجه آخر واستدل عليه فرأى الشيرازي أنه وجه قوي، فرد عليه الشيخ وأعاد تقوية الأول وهكذا. استمر معه بهذه الطريقة يقوي رأيا وبعد قبول الشيرازي له ينقضه وينتقل إلى رأي آخر، ثم قال له: إنه يدرس في الدرس العام على حسب متوسط فهم الطلبة لا على مستوى المجتهدين.

وعاد الميرزا الشيرازي ليختص بالشيخ الأنصاري الذي كان يهتم به اهتماما بالغا، وينقل أن الميرزا كان قليل الكلام في الدرس، ما هو عليه من الفضل، وكان خفيض الصوت، فإذا استشكل أو اعترض الشيخ الأنصاري بدليل، انحنى الشيخ الانصاري إليه، مشيرا إلى باقي الطلبة: إن جناب الميرزا يتكلم! ثم يشرع في تقرير إشكاله أو دليله ويجيب عليه!.

وظل هكذا يصعد في سماء العلم، حتى إذا توفي الشيخ الأنصاري سنة ١٢٨١هـ، اجتمع أركان درسه وثقاته ليقرروا أن المتعين للتدريس والمرجعية بعد الأستاذ هو

الميرزا محمد حسن الشيرازي! والذي ردهم بأنه لم يتهيأ لهذا الموقع حتى أنه لم يكتب تعليقة أو حاشية على رسالة عملية!

وقد أصر عليه هؤلاء بأن المرجعية لا تحتاج إلى مجرد حاشية على رسالة عملية، وإنما هي قبل كل ذلك قيادة للأمة وإدارة للطائفة تحتاج إلى حكمة، وعلم وهما متوفران بأحسن الدرجات في الميرزا.

الهجرة إلى سامراء:

بعد عشر سنوات من تسنمه سدة المرجعية العامة، وكرسي التدريس الأول في النجف الأشرف، قرر الميرزا الشيرازي أن يهاجر إلى سامراء وأن يستقر فيها لبرهة من الزمن، وقد أخفى قراره هذا الذي كان خارج دائرة التوقعات، فإن من كان خارج النجف الأشرف في سائر مناطق الحوزات العلمية يبذل الغالي والنفيس للوصول إلى النجف والاستقرار فيها لما لها من الصيت والسمعة في جوها العلمي والأدبي.فكيف يغادر رأس الحوزة النجف؟ ولا ريب أن قرارا من هذا القبيل سوف يثير الكثير من التساؤلات بعده بل المعارضة قبل حدوثه فعلا، لذلك بقي طي الكتمان إلى أن سافر الميرزا بالفعل إلى كربلاء لزيارة النصف من شعبان سنة ١٢٩١هـ، ثم عطف على سامراء لزيارة الإمامين العسكريين ظاهرا، وللبقاء فيها واقعا، وهناك أخبر المقربين من تلامذته عن عزمه وقراره!!

وقد ذكر مترجم[1] الميرزا في مقدمة التقريرات، ضمن ترجمته القيمة لشخصية الشيرازي عدة احتمالات، ونحن ننقلها من تلك الصفحات:

١. يرى البعض أن السبب رغبته في الاعراض عن الرئاسة، وتخلصا من قيودها، وطلبا للانزواء والعزلة عن الخلق.

٢. وقيل أن سبب ذلك أنه لما صار الغلاء في النجف سنة ١٢٨٨ هـ - وصار يدر العطاء على أهلها، ثم جاء الرخاء عن قريب جعل الناس يكثرون الطلب عليه، وجعل بعض أعيان النجف يفتل في الذروة والغارب لينفر الناس منه، فتضايق من ذلك، وخرج إلى كربلاء في رجب سنة ١٢٩١ هـ، ثم توجه إلى الكاظمية فسامراء، ودخلها في شعبان من تلك السنة، وأقام فيها أياما، ثم عزم على الإقامة فيها، وأرسل على كتبه، وأثاثه، وتبعه أصحابه.

(١) بحر العلوم؛ السيد محمد علي، مقدمة تقريرات آية الله المجدد الشيرازي: للمولى علي الروزدري ١. ٢٩.

٣. وقيل أنه تضايق من وجود بعض الفرق الجاهلة فيها. ولعله يقصد بعض العشائر النجفية، التي كانت المعارك بينها مستمرة، ونتيجة لذلك يتعرض الكثير من المقيمين، وخاصة أهل العلم الأجانب - لأنهم ضعفاء أمام أهل البلد - إلى الإيذاء والسلب.

٤. وقيل تعود الناس على طلب المال منه، وصاروا يتوقعون منه كل شيء حتى فكاك أولادهم من العسكرية ببذل البدل النقدي عنه، وكان بدل الواحد يومئذ مائة ليرة فضاق به الأمر، وعرف أن لهذه التوقعات محركا من بعض أعيان النجف، وهذا لا علاج له إلا بالفرار.

٥. ويقول البعض: (والذي يغلب على الظن أن السبب الوحيد الباعث له على الهجرة أمر وراء ذلك، هو أدق وأسمى وأبعد غورا مما يظن. وهو إرادة الانفراد، لانحياز سامراء وبعدها عن مجتمع العلماء، ومن يدعي العلم، فيتم له فيها ما لا يتم له في غيرها. والقرب من الخاصة فيه العناء والتعب، وفي البعد عنهم الراحة، واجتماع الأمر، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في عهده للأشتر: إنه ليس أشد مئونة على الوالي من الخاص».

وبعد أن رفض السيد بحر العلوم تلك الأسباب، استنتج أن «مقصده من هجرته وحدة المسلمين، وبث روح التآلف بين السنة والشيعة، وإماتة العصبيات والنعرات الطائفية والتي كانت مشتعلة - حينها - في العراق بسبب الحكم العثماني والذي كان يترنح هنا وهناك بسبب غزو الإنكليز على المنطقة، ومحاولة إخراج النفوذ العثماني المنهار منها. وحيث أن غالبية سكان مدينة سامراء من عشائر السنة، فكانت الأقلية الشيعية فيها تعاني من البعض التعدي والإيذاء وخاصة من جهلة الناس، وأوباش المواطنين، وكذلك الزوار الشيعة الذين كانوا يقصدون سامراء لزيارة مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام فكانوا يقابلون من بعض الأفراد بما لا يليق بروح الأخوة الإسلامية، والتعاطف الوطني، مما سبب انكفاء من الزوار لحرم الإمامين، حفاظا على أرواحهم وأعراضهم. وكان تخطيط مركز من السيد الشيرازي حين شد الرجال، وحط موكبه في سامراء، والتف الشيعة من حوله، وكثر التردد من المسافرين عليها من شتى الأقطار الإسلامية، وخفت تلك الوحشة التي كانت تلف المدينة من قبل»[١].

(١) المصدر ص ٣١.

والذي اختاره السيد بحر العلوم هو الذي يتناسب مع علو همة الميرزا وطبيعة شخصيته ودوره الذي قام به فيما بعد، وأما سائر الاحتمالات فإنها بعيدة عن شخصيته القوية وطبيعة إدارته للمرجعية، وتليق بشخص مغلوب على أمره لا يملك في حل مشاكله سوى الهروب منها زمانا أو مكانا وهذا لا يتوافق بأي نحو مع شخصية الميرزا الشيرازي، الذي سيأتي أنه تصدى للبريطانيين في إيران، وقاوم نفوذهم في العراق، وكانت شخصيته من القوة بحيث يتسابق السفير البريطاني والروسي لخطب وده مستغلين سوء التصرف الذي قام به بعض أتباع الادارة العثمانية في سامراء.

وهكذا يبعد من الاحتمالات ما ذكره الدكتور الوردي في كتابه لمحات اجتماعية من أن (من الأسباب التي دفعت الشيرازي إلى الهجرة إلى سامراء هو أنه كان يريد تحويلها إلى بلدة شيعية لكي ينقذ الزوار من المضايقات التي يلقونها فيها)[١].

ويشهد لبعد هذا الاحتمال أننا نجد أن الميرزا الشيرازي لم يقم بحركة دعوية تبشيرية في سامراء بمقدار ما قام بإعمار البلد، فقد نصب جسرا من القوارب على دجلة بلغت تكاليفة ألف ليرة عثمانية، وبنى حماما للرجال وآخر للنساء وسوقا كبيرة ودورا كثيرة[٢]. ولأجل طلبة العلم الذين التحقوا به من النجف بنى مدرسة دينية، ولإقامة الزوار الشيعة مراسمهم بنى حسينية. ومن يريد تحويل بلدة إلى مذهب آخر لا ريب أنه سيبدأ حركة دعوية وتبشيرية بمذهبه، وهذا ما لم ينقل عن الميرزا، بالرغم من بقائه فيها إلى آخر أيام حياته.

إننا نعتقد أن الظروف التي كانت قائمة في تلك الفترة لم تكن في اتجاه التبشير المذهبي بمقدار ما كانت تخدم التقارب والتآلف بين المسلمين، خصوصا وأن السلطان العثماني عبد الحميد كان يبشر بفكرة وحدة المسلمين ولذلك لم يحب أن تتطور قضية سامراء ولذا فقد أرسل إلى والي بغداد يأمره بمعالجة القضية بهدوء، فإذا كان الشيرازي قد فتح مدرسة شيعية فليفتح الوالي إزاءها مدرسة سنية ولا يزيد على ذلك شيئا[٣]!.

نعم استفاد البعض ولا سيما الشيخ محمد سعيد النقشبندي من هذا الأمر بعنوان التهويل والتهويش فزار والي بغداد مناديا بالويل والثبور على سامراء التي ستذهب إلى الرافضة، وأن عليهم أن يتحركوا لحفظ أهل السنة من أهل البدع!!(تماما كما نجد في

(١) الوردي؛ د عبد العزيز: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ٣/١٠٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق. ١٠٢.

هذه الأيام من المستفيدين والمتاجرين) وكان نتيجة ذلك أن زود النقشبندي بالأموال لفتح مدرسة في سامراء!! وميزانية لانفاقها! وغالبا ما يكون هذا هو الغرض والهدف.

بل إن هذا الخط المتشنج لم يكتف بهذا المقدار، وإنما حاول اصطناع فتنة طائفية عندما دفع بعض الجهلة إلى الاعتداء على ابن الميرزا الشيرازي الأكبر، السيد محمد فضربه على رأسه الأمر الذي جر إلى وفاته، وقيل إن الاعتداء كان على الميرزا نفسه بأن قذف بالحجارة!.طمعا من أولئك بأن يكون هناك رد من أتباع الميرزا وتحدث الفتنة الطائفية!

إلا أن الميرزا الشيرازي لم يحرك ساكنا، ومنع من أي انتقام أو رد فعل! فأخمد الفتنة بعدما أطلعت قرنها.

بل إن البريطانيين حاولوا الاستفادة من هذا الحادث، وتصوير أنهم حماة للشيعة إذا كان الأتراك حماة السنة، فجاء السفير البريطاني إلى سامراء وعرض على الميرزا حمايته، محتجين على التصرف السيء لمقام مرجعيته، فردهم الميرزا بقوة قائلا: أرجو أن تفهموا جيدا أنه لا دخل لكم ببلادنا مطلقا وما هذه القضية إلا حادث بسيط بين أخوين! ولما وصل خبر المقابلة إلى الباب العالي في اسطنبول، أكبر هذا الموقف وسر به، وأمر والي بغداد أن يذهب إلى سامراء ليقدم للسيد الشيرازي الشكر، ويعتذر له عن الحادث [١].

كان من نتيجة بقاء الميرزا في سامراء، أن عمر مشهد العسكريين بالزوار والقادمين، وأن تحولت سامراء من بلدة صغيرة بيوتها من طين إلى مدينة عامرة، وأصبح الطريق إليها آمنا سالكا بعد أن كان مخوفا يكثر فيه اللصوص وقطاع الطرق!

ومع مجيء تلامذة الميرزا وانتقالهم من النجف الأشرف إليها، تحولت بالتدريج إلى حوزة علمية مهمة، حتى صارت ذات مدرسة علمية لها خصائصها التي تميزها عن غيرها.

من سامراء قاد ثورة التنباك في إيران:

انشغل سلاطين القاجار في الدور الأخير لهم باللعب والبحث عن الأموال والانشغال

(١) المصدر ص ١١٠، ناقلا عن عبد الرحيم محمد علي في كتابه (آقا بزرك الطهراني).

بالشهوات[١]، والبعد عن الادارة الحقيقية للبلد وشؤونها، مما جعل إيران ليس فقط تفقد أجزاءها وأراضيها لصالح الدولة الروسية، بل أصبحت منطقة نفوذ يتنازع فيها اللاعبان الأساسيان: البريطانيون والروس، فكلما أخذ الروس جانبا من النفوذ والمصالح، تقدم البريطانيون ليأخذوا مثيله. فإذا كان للروس نفوذ في المنطقة الشمالية من إيران، فليأخذ البريطانيون المنطقة الجنوبية، وهكذا!

ولم يكن هؤلاء السلاطين يستشعرون أي خطر في ذلك ما دامت الاتفاقيات تؤمن لهم المال والثروة! وهكذا كانت خطوط سكة الحديد، ومؤسسة التلغراف، وأخيرا احتكار التبغ من مناطق النزاع والنفوذ.

تقدم البريطانيون في سنة ١٣٠٨هـ بمشروع اتفاقية مع ناصر الدين شاه القاجاري، يقضي بأن يكون محصول التبغ في إيران بكامله محتكرا في بيعه وشرائه للشركات البريطانية على أن تتولى تلك الشركة بيعه وتصديره لمدة خمسين سنة!. وكان التبغ آنئذ هو المحصول الزراعي الأساسي في اقتصاد البلد. وفي مقابل ذلك يضمن البريطانيون لناصر الدين شاه مبلغ (١٥) ألف ليرة ذهبية في السنة! وهذا يعني (١٢٥٠) ليرة في الشهر. الأمر الذي يستطيع بعض التجار إعطاءه كما ذكر له التجار ذلك!

وقد سعى الميرزا بالحسنى في أول الأمر إلى نصيحة ناصر الدين شاه لإلغاء الاتفاقية وعدم الاستمرار فيها، لما توجبه من ضرر عاجل على المنتجين والتجار المحليين، وتهديد مستقبلي خطير لاستقلال إيران، غير أن الشاه الذي كثرت زياراته لبريطانيا، ومصارفه الشخصية وكان يحتاج إلى سيولة نقدية بيده، لم يلتفت إلى تلك النصائح، ولا إلى مطالبات التجار الذين شكلوا وفدا قابله طالبا منه إلغاءها لأضرارها الكبيرة عليهم، فاضطر الميرزا عندئذ إلى التحرك من خلال الفتوى الدينية، وأصدر فتواه المعروفة بتحريم استعمال التبغ، وأنه على حد إعلان الحرب مع صاحب الزمان عجل الله فرجه وكان نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم: استعمال التنباك والتتن حرام[٢] بأي نحو كان، ومن استعمله كمن حارب الامام عجل الله فرجه. محمد حسن الحسيني الشيرازي.

---

(١) ذكر بعضهم أن ناصر الدين شاه قد تزوج أكثر من ٨٠ زوجة (دواما وانقطاعا)!.

(٢) للفقيه الجامع للشرائط مقامات متعددة، منها الإفتاء وبيان الحكم في المواضيع العامة، وهو مقام المفتي، وله أيضا مقام الولاية، فقد يقوم بتحريم شيء من الأشياء لفترة زمنية أو في مكان محدد أو على أشخاص معينين والفتوى المذكورة هي من النوع الثاني، ولذلك فإنه ما أن انتهت ظروفها الموضوعية، حتى انتهى حكم التحريم.

أعقب هذا التحريم الذي وصلت نسخه إلى إيران، وقام المؤمنون بتكثير نسخه وإيصالها إلى كل المناطق، التزام تام بالامتناع عن أي نحو من أنحاء الاستعمال للتنباك والتتن، حتى لقد وصل التحريم والمنع إلى قصر ناصر الدين شاه نفسه، فرفضت زوجاته وخدمه إعداد (الأرجيلة) له، نظرا لأن (الميرزا) قد حرمه!

وكان من الطبيعي مع هذه المقاطعة الشعبية الشاملة أن يضطر الشاه إلى فسخ الاتفاقية وأن ترحل الشركة البريطانية.

بحر علم وتربية:

وإذا كان الميرزا الشيرازي، بما قام به قد ضمن استقلال ايران، ووقف أمام محاولات ناصر الدين شاه في بيع البلد للبريطانيين، فإن دوره لم يقتصر على ذلك وإن جل وعظم! وإنما كان له دور علمي متميز، بحيث أننا نجد أن أكثر الأسماء اللامعة في سماء الحوزة العلمية وتاريخها الحديث هم من تلامذة درسه، وحضار بحوثه، ولكل منهم دور كبير، وإذا كان بعض كتاب سيرته قد ذكر أسماء أكثر من ٢٧٠ عالما وفقيها تخرجوا على يده، فإنه يكفي للنظر في دوره العلمي، تتبع أسماء عدد من تلامذته، مثل: الميرزا حبيب الله الرشتي صاحب كتاب بدائع الأفكار، والشيخ آقا رضا الهمداني صاحب مصباح الفقيه، والميرزا حسين النوري الذي يوصف بأنه خاتمة المحدثين، والشيخ محمد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين، والسيد حسن الصدر والشيخ الآخوند محمد كاظم الخراساني، صاحب كفاية الأصول، والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي صاحب العروة الوثقى، والشيخ الميرزا حسين النائيني استاذ الفقهاء، والشهيد الشيخ فضل الله النوري، والسيد حسين القمي. وغيرهم.

وقد ترك كتبا تخصصية مهمة في بابها منها:

١. اجتماع الأمر والنهي.
٢. تعليقة على معاملات الأقا البهبهاني.
٣. تلخيص إفادات أسئلة الشيخ الأنصاري في الأصول.
٤. حواشي على كتاب «سراج العباد «للشيخ الأنصاري.
٥. حاشية على كتاب «نجاة العباد.

٦. رسالة في المشتق.

٧. الرضاع.

٨. زبدة المسائل (سؤال وجواب باللغتين العربية والفارسية).

٩. كتاب الطهارة إلى الوضوء.

١٠. كتاب من أول المكاسب إلى آخر المعاملات.

وإذا كانت حياة الميرزا الشيرازي حافلة بالنشاط والحركة، وكانت عجيبة في كثير من تفاصيلها بدءا من نبوغه وتفوقه المبكر، وإلى مجيء المرجعية إليه من دون أن يسعى إليها، وإلى قراره بالهجرة إلى سامراء وانتقاله عن النجف الأشرف، وإلى خوضه معركة استقلال إيران وكسره لعظم التبعية الشاهنشاهي، فإن موقف الناس منه بعد وفاته ١٣١٢هـ، وتشييعهم لجنازته من سامراء إلى النجف (والمسافة تتجاوز ٣٠٠ كيلومتر) كان «من أعجب الحوادث في حينها إذ حملت على الأعناق في معظم الطريق بين البلدتين فكانت كلما قاربت بلدة خرج أهلها لاستقبالها مسافة ثم ودعوها مسافة.

روى السيد حسن الصدر قصة الجنازة بتفصيل إذ كان من الذين رافقوها طيلة الطريق، فقال ما خلاصته: إنهم حين قاربوا بلدة (بلد) خرج أهلها بالأعلام السود واللطم فحملوا النعش إلى البلدة وبات النعش فيها في تلك الليلة وعند الصباح خرجوا فاستقبلهم أهل الدجيل وحملوا النعش إلى بعد فرسخين أو ثلاثة من الكاظمية حيث كان الكاظميون في استقبالهم وجرى في الكاظمية تشييع عظيم حتى خيف أن ينكسر الصندوق من شدة الزحام، وبات النعش في الحرم الكاظمي، وفي الصباح خرجوا نحو بغداد فاستقبلهم البغداديون حتى الذميين منهم وأرسل المشير رجب باشا الجنود لاستقبال النعش وقد نكسوا بنادقهم بهيئة الحزن وحين وصل النعش إلى جسر الحر وضع على الأرض وأحاط الناس به لاطمين»[1].

(١) الدوري، د عبد العزيز: مصدر سابق ١٢٢/٣ نقلا عن (آقا بزرك الطهراني).

الآخوند: بطل الدستور

الشيخ محمد كاظم الهروي الخراساني

١٢٥٥ - ١٣٢٩هـ



شهدت بلادنا الإسلامية مؤخرا حركة باتجاه تكريس الدستور ففيما قطعت بعض هذه الدول شوطا كبيرا في إقرار دساتير تلاحظ حقوق الانسان وتؤكد على الحريات وتضبط تصرفات الحاكم، لا تزال بعض الدول الأخرى تتعلل، وتتعطل ولا سيما حين تبرر ذلك بعدم الحاجة إلى الدستور ما دام لدينا القرآن الكريم! وكأن هناك منافاة بين كتابة دستور مدون حديث يستوحي القيم القرآنية وبين وجود القرآن في الأمة!

وربما برر بعض هؤلاء المنع عن كتابة الدستور بأنه فكرة غربية وافدة! وهم في هذا يذكروننا بما نقل عن ناصر الدين شاه أنه كان يحب كل شيء من أوربا، إلا الأفكار السياسية! فهو يريد التحديث والصناعة والحريات الشخصية والاجتماعية، لكن حين تصل المسألة إلى التحديث السياسي بما فيه من انتخابات ودستور ومحاسبة للحاكم ومشاركة من قبل الشعب فإنه يكره ذلك ولا يحب أحدا من شعبه أن يطلع عليه.

وأعجب هؤلاء من يُنظّرون ويكتبون بأن شعوبنا لم تصل حتى الآن إلى درجة استحقاق الديمقراطية، وأن لنا بالتالي (خصوصية) تختلف عن غيرنا! ولا أعلم هل يرون أنفسهم جزءا من هذه الشعوب التي لم تصل إلى درجة الانسان المطالب بحقه، والمسؤول عن مصيره؟ أو أنهم يرون أنفسهم من طينة أخرى! ومن كوكب آخر! وهل يرون أن الحاكمين لهذه الشعوب هم من نفس المستوى أو أنهم (سوبر انسان)؟ فإذا كانوا من نفس المستوى وأنهم لا يستطيعون أن يديروا أنفسهم فكيف يديرون ملايين من الناس؟ وإذا لم يبلغوا الرشد السياسي حتى يستحقوا الديمقراطية والشورى كشعوبهم فلماذا يحكمونهم؟ وإذا كانوا من نسيج آخر فليخبروا شعوبهم بذلك!!

إنما هو الاستبداد الذي يتشكل كالحرباء في كل لون، فإذا أمكن السيطرة على الناس بواسطة الدين فليكن الدين! وإذا أمكن السيطرة عليهم بواسطة الفساد المالي فليكن! وإذا أمكن بأشكال أخر فلتكن. المهم أن يدوم العرش والسلطان لهم! وأما حقوق الناس ومشاركتهم فضلا عن محاسبتهم لحاكميهم، فلتكن آخر قضية يتحدث عنها!

قبل أكثر من قرن من الزمان تحرك فقهاء كبار وعلماء أعاظم في الطائفة الشيعية، لكي يجددوا حياة المجتمع السياسية في إيران عبر الدعوة إلى دستور يقيد حركة الحاكم ضمن إطار مصلحة البلد، ويعطي للمجتمع حق المساءلة للحكومة في قراراتها، بل يقرر نوابه ووكلاؤه ما الذي ينبغي أن تصنعه الحكومة وما الذي يجب أن ترفضه.

وكان على رأس المطالبين بذلك والداعين إليه، آية الله العظمى الآخوند[1] الخراساني، صاحب كفاية الأصول، والمرجع المتميز في زمانه. في ما سمي بقضية المشروطة.

وقد تكون الدعوة إلى الدستور اليوم، والحكم البرلماني، من الأمور العادية والشائعة، لكننا لو وضعنا القضية في إطارها الزمني، أي قبل مئة سنة من الزمان حيث لم يكن الوعي السياسي ووسائل الاتصال كما هي اليوم، لوجدنا أنها دعوة متقدمة وسابقة لزمانها كثيرا.

هلم عزيزي القارئ لنتعرف على هذا العالم العارف بزمانه والسابق لأوانه في وعيه، وكيف كانت بداياته والظروف التي عاش فيها.

بحسب التصنيف السياسي المعاصر فإن أصول الشيخ الآخوند أفغانية فأبوه من هراة وهي بلدة أفغانية، ولذا يقال له الهروي. وهذا يشير إلى معنى قد أكدنا عليه مرارا؛ أن الشيعة يقدسون العلم دون النظر إلى المنطقة التي يكون منها العالم، فالآخوند الذي أصوله أفغانية يكون مرجعا مع تميزه العلمي للإيراني والعراقي والباكستاني.

أما ولادته فكانت في طوس سنة ١٢٥٥هـ، ودرس فيها مقدمات العلوم الحوزوية، ثم جاء إلى طهران ابن ٢٢ سنة، وتركها بعد عشر سنوات متجها إلى النجف، قبل وفاة الشيخ الانصاري بأقل من ثلاث سنوات حضر فيها درسه، وبعده حضر عند تلميذ الانصاري الميرزا الشيرازي الكبير الذي كان يشير إليه بالفضيلة، ويحث متوسطي الطلاب على الأخذ منه، ومع هجرة الميرزا إلى سامراء، بقي الآخوند في النجف واستقل فيها بالتدريس، ونمى درسه خصوصا بعد وفاة الميرزا حبيب الله الرشتي

(١) الآخوند: كلمة فارسية معناه العالم الكبير.

١٣١٣هـ حتى بلغ عدد طلابه فيما قيل ألفا من الطلاب، وتخرج على يده من المجتهدين اكثر من مئة وعشرين مجتهدا، بعضهم تسنم سدة المرجعية والبعض الآخر كان له دور في غاية الأهمية في الحوزة العلمية، والتحقيق والبحث.

فمن هؤلاء كان السيد أبو الحسن الإصفهاني، والسيد حسين البروجردي، والشيخ محمد حسين النائيني، والشيخ محمد حسين الاصفهاني، والشيخ ضياء الدين العراقي، والسيد حسين القمي، والسيد محسن الحكيم، والسيد عبد الحسين شرف الدين، والسيد عبد الهادي الشيرازي، والسيد محسن الأمين العاملي، والشيخ آقا بزرك الطهراني والسيّد صدر الدين الصدر والسيّد هبة الدين الشهرستاني. وغيرهم.

والحديث عن الجانب العلمي في حياة الآخوند مفصل، ويكفي أن يكون قد تخرج على يده كما نقل مترجمو حياته قرابة مئة من المجتهدين، وترك بعده عددا من الكتب لو لم يكن فيها غير كفاية الأصول، لكفى بذلك شاهدا على عظمة الآخوند العلمية، وسيأتي ذكر بعض أسماء كتبه لاحقا.

إلا أن الجانب الاستثنائي الذي ينبغي توجيه النظر إليه هو:

دوره السياسي في الثورة الدستورية (المشروطة):

ولمعرفة هذا الدور نشير بشكل سريع إلى الوضع السياسي الذي عاشته إيران في زمانه، حتى نضع هذا الدور في سياقه الزمني، وسنستفيد مما ذكره الدكتور الوردي وغيره في هذا الصدد:

المشروطة هي حركة المطالبة بالدستور التي ظهرت في تركيا وإيران، وسميت بهذا لأن القائمين بها اعتبروا أن مواد الدستور، هي بمثابة الشروط التي يجب أن يتقيد بها الملك في حكم رعيته وهي فكرة مستمدة من نظرية العقد الاجتماعي التي شاعت في أوربا بعد الثورة الفرنسية.

وكان ناصر الدين شاه معجبا بالحضارة الغربية ومنجزاتها إلا أنه كان يخشى تأثير الأفكار الأوربية على رعاياه ويخشى أن تنتشر بينهم فكرة المشروطية.

قتل ناصر الدين شاه في ١٨٩٦، وجاء مكانه ابنه مظفر الدين شاه، وهو حاكم متهافت الشخصية، ومولع بالشهوات والسفر لأوربا لهذا الغرض، غير أن الخزينة الايرانية كانت

فارغة ولم تكن تلبي متطلباته تلك، فالتجأ إلى القروض الأجنبية، واقترض من روسيا مثلا (خلال عامي ١٩٠٠-١٩٠٢م مبلغ ٤٤٠٠٠٠٠) جنيه أمدته بها في مقابل امتيازات كمركية وتجارية، مما أدى إلى سيطرتهم على السوق وانزعاج التجار، فقاموا بإضراب عام زاد شلل الاقتصاد الذي كان مشلولا بفعل سياسات الحاكم.

عاقبت حكومة مظفر الدين شاه التجار بجلدهم بالسياط، الأمر الذي دعا هؤلاء وعامة الناس إلى الالتجاء لمرقد عبد العظيم والبقاء فيه، محتمين بدعم كبار علماء الدين في طهران. مطالبين فيه بإقالة عين الدولة (رئيس الوزراء) وتأسيس دار للعدالة، فتعهد مظفر الدين شاه بإجابة مطالبهم.

غير أنه ما لبث أن اصيب الشاه بالشلل وسيطر عين الدولة على الوضع، وأمر بالقبض على السيد الطباطبائي أحد زعماء المحتجين، وحصل اصطدام بين الجنود والأهالي سقط فيه عدد من الناس قتلى.

انتهى الأمر بأن عزل الشاه مظفر الدين رئيس الوزراء عين الدولة، ونصب مكانه (نصر الله خان) وهو من انصار المشروطة. وأصدر أمرا بإجراء انتخابات للمجلس النيابي (مجلس الشورى الوطني) الذي قام بوضع دستور ١٩٠٦، وهو دستور يقوم على المبادئ الديمقراطية وحقوق الانسان، وأن يكون موافقا للشريعة الإسلامية!!

وقد استقبل الآخوند والعلماء المناصرون للحركة الدستورية افتتاح البرلمان بترحيب كبير، وأرسل الآخوند بيانا في افتتاح البرلمان دعا فيه وكلاء البرلمان لأن يتعاونوا حتى يتحقق إعمار إيران وتقدمها وأن يؤكدوا على استقلالها عن الأجانب، وبالفعل فإن أول قانون أقره البرلمان هو رفض الاقتراض الخارجي.

توفي مظفر الدين شاه وخلفه ابنه محمد علي، وهذا كان سيء السيرة وضد المشروطة، وكان يشيع أن الدستور بدعة مخالفة للشريعة الإسلامية. وبعد سنتين من تأسيس المجلس أعلن الشاه الأحكام العرفية وزعم (أنّ افتتاح المجلس وتحقير الإسلام توأمان)، وقصف المجلس بالمدافع. وهرب الكثير من زعماء المشروطة أو اختفوا بينما اصدر الشاه أوامره في سائر مدن إيران بقمع أنصار المشروطة، وفي المقابل بدأت المقاومة الشعبية من تبريز التي سيطر عليها أنصار المشروطة ثم رشت، ثم قزوين وأخيرا طهران، حيث هرب الشاه محمد علي ملتجئا إلى السفارة الروسية، وحينها أعلن الثوار بقيادة العلماء عزله عن الحكم.

استفتى الناس العلماء في شأن المشروطة، فكان جواب العلماء الثلاثة: (إن قوانين المجلس على الشكل الذي ذكرتموه هي قوانين مقدسة ومحترمة وهي فرض على جميع المسلمين أن يقبلوا هذه القوانين وينفذوها، وعليه نكرر قولنا: إن الاقدام على مقاومة المجلس العالي بمنزلة الاقدام على مقاومة احكام الدين الحنيف فواجب على المسلمين أن يقفوا دون أي حركة ضد المجلس)[1].

تم عزل محمد علي شاه من الحكم، ولجأ إلى السفارة الروسية في طهران، وعين ابنه الصغير حاكما مع وصي عليه.

المواجهة على مستويي الاستبداد والانحراف:

كانت إيران قد وصلت إلى أدنى درجات ضعفها بمجيء الحكام القاجاريين بدءا من ناصر الدين شاه، الذي كان مهزوما في داخله بقدر ما كان متأثرا بمنجزات الحضارة الغربية، ولم يكن يحمل في داخله همّاً وطنيا، بل أصبحت إيران في عهده مسرح تنافس بين البريطانيين والروس بحيث كان كل فريق يضغط على الشاه لتحصيل إمكانات وصلاحيات إذا حصل الفريق الآخر عليها، وبلغ الحال إلى أنهم كانوا يتدخلون في الدولة بنحو كما يقول ناصر الدين شاه في مذكراته: عندما أريد أن أذهب إلى شمال ايران يعترض الروس، وإذا اردت الذهاب إلى الجنوب يعترض الانكليز.

وكان الوضع أيام ولده مظفر الدين أسوأ حيث أنغمس هذا في ملذاته، وأفرغ الخزينة بمصروفاته على شهواته والحاشية السيئة المحيطة به، ومن الطبيعي أن لا يقبل هؤلاء دستورا وبرلمانا شعبيا يحاسب الحاكم ويقرر في شؤون الميزانية.

وقد أصدر الآخوند بيانا شديد اللهجة يعارض فيه توجه مظفر الدين شاه للاقتراض من الدول الأجنبية لأن ذلك من شأنه أن يهدد استقلال إيران، ويجعلها رهينة لتلك الدول. ودعاه فيها إلى التراجع عن ذلك، وفي المقابل إلى إقرار الدستور والانتخابات النيابية. كما دعا عامة الشعب إلى الاصطفاف خلف دعاة الدستور (المشروطة). ولعل هذا بعد الحركة الشعبية من الأسباب المهمة التي جعلت مظفر الدين شاه يستجيب ويعلن الانتخابات النيابية، والتي نتج عنها مجلس الشورى الوطني، وهذا وضع الدستور المعروف بدستور ١٩٠٦ م.

(١) نقل بالمعنى وبتصرف من لمحات اجتماعية من تاريخ العراق ٣. ١١٨ د. علي الوردي.

بعد انقلاب محمد علي شاه على الدستور والمجلس النيابي وقصفه للمجلس وإعلانه الأحكام العرفية ومطاردته لزعماء المشروطة ومؤيديها، بعث الآخوند الخراساني للشاه محمد علي رسالة احتجاج قوية، قال فيها: أنه بمجيء القاجاريين جزئت إيران وفقدت ثلثيها التاريخيين والثلث الثالث هو تحت سلطة الأجانب!

ودعى في نهاية الرسالة التي وزعت على الجمهور إلى مقاومة هذا السفاك الجبار، والعصيان المدني عليه.

وكان مع الآخوند في رسائله وبياناته عدد مهم من الآيات العظام والفقهاء الكبار، يوقعون عليها ولكن المتصدر في ذلك هو الآخوند نفسه. وقد نظّر لهذه الحركة من الجهة الفقهية وأصّلها علميا أحد أهم أعوان الآخوند وهو الميرزا النائيني في كتابه المهم: تنبيه الملة وتنزيه الأمة، والذي أوضح فيه مساوئ الاستبداد من جهة، ومشروعية الانتخابات والمجلس والدستور.

وعلى أثر الرسالة التي وقعها عدد من العلماء والقاضي بعدم كفاءة محمد علي شاه، ووجوب عزله حصلت تحركات في مختلف محافظات إيران، فابتدأت في تبريز وامتدت إلى رشت حيث اصطدم أنصار الدستور بالقوات الحكومية وانتصروا عليها، وهكذا تصاعدت هذه الحركة في المناطق، انتهت إلى لجوء محمد علي شاه إلى السفارة الروسية.

نجح أنصار الحركة الدستورية،في السيطرة على الأوضاع وأصبحوا الحاكمين، وبدأت مشاكل ما بعد الانتصار، فالولايات التي بدأت الحركة وواجهت جنود الشاه كانت تريد الأولوية، وزعماء القبائل الذين سيطروا على الأوضاع في مناطقهم كانوا يريد الثمن، وأسوأ من هؤلاء كان العلمانيون الذين كانوا يريدون دولة من غير دين ولا علماء ويعلنون عن ذلك صراحة وقد اصبح لهم صولة وجولة لا سيما في المجلس النيابي، وهؤلاء بدؤوا بتطبيق الفهم الخاطئ للحرية غير المقيدة بقيد.

بل بلغ الأمر بمتطرفيهم أن بدؤا يتتبعون من كان مخالفا للحركة الدستورية، فبدؤوا بمضايقتهم وحتى اغتيالهم، بل حتى اغتيال من كان مؤيدا للحركة الدستورية المقيدة بالشريعة، كما حصل للسيد عبد الله البهبهاني.

بل إنهم كشفوا عن وجههم الأصلي بفترة قصيرة، في ارتباطهم بالأجانب، فبعد سيطرة المتغربين على المجلس أصدروا قانونا بتعيين مستشار مالي من أمريكا وهو (مورجان

شوستر) لمدة ٣ سنوات على أنه مدير البنك المركزي لإيران والمسؤول عن الخزانة.

ونظرا لنفوذ روسية في إيران نظرا لما قدمته من قروض لمحمد علي شاه وأبيه هددت روسية أنه إن لم يعزل شوستر ستحتل شمال إيران، وتتقدم باتجاه طهران، وفي المقابل هددت بريطانيا بأنه إن لم يعزل فستأخذ الجنوب وتديره كما تشاء.

وهكذا سرق المتغربون الحركة الدستورية من الشارع العلمائي الديني، وساروا بها باتجاه أهدافهم، وسجنوا الشيخ فضل الله النوري الذي كان يطالب بمشروعية المشروطة من خلال تعيين المجتهدين كجهة إشراف على الأحكام الصادرة من المجلس، وهنا تحرك الآخوند ورأى أن الحركة التي كانت في الاتجاه الصحيح قد سرقت، وذلك يؤذن بخطر كبير، وأن لهؤلاء نية سوء في حق الشيخ النوري فأرسل رسالة يحتج فيها على أعمالهم، ويطالبهم فيها بترك الاضطهاد لمن يختلف معهم، ولكن أخفاها هؤلاء إلى أن تم إعدام الشيخ النوري، وقد حزن الآخوند لأجله، وأقام الفاتحة على روحه.

كانت قيادة العلمانيين في الحركة الدستورية بيد تقي زاده، فأصدر الآخوند والمازندراني أمرا بإخراجه من المجلس، لكونه ضد مصالح إيران والإسلام، وبالفعل فلم يكن بُدٌّ أمام تقي زاده الذي كان يصرح باستمرار أنه لن تتقدم إيران إلا بترك الإسلام خلفها، وتتبع أوربا، لم يكن أمامه بد من أن يخرج من إيران ويستقر في أوربا.

وبطبيعة الحال فإن ظهور هؤلاء في واجهة الحركة الدستورية قد أصابها في المقتل، ذلك أن الكثير من العلماء، وطبقات الشعب رأت أن (نار الشاه خير من جنة الدستوريين) وذلك أن الشاه وإن كان ظالما دنيويا إلا أنه يحترم دين الناس، وهؤلاء لم يتمكنوا حتى الآن ومع ذلك أعلنوا الحرب على دين الشعب وعلمائه! وفي نفس الوقت لم يصنعوا شيئا لدنيا الناس فقد عينوا الأجانب مرة أخرى لإدارة الاقتصاد الوطني، فلا دينهم معهم بخير ولا دنياهم.

كتب وتأليفات:

ذكر مترجمو حياة الآخوند الخراساني له عددا من الكتب الفقهية والاصولية، ونحن ننقلها كما ذكروها[1]:

١. الاجتهاد والتقليد.

(١) مقال عن أعلام المرجعية الشيعية في موقع مؤسسة زين الدين للمعارف الإسلامية الالكتروني.

٢. الأصول في مباحث الألفاظ.

٣. تعليقه على كتاب الطهارة.

٤. تعليقه على أسفار ملا صدرا الشيرازي.

٥. تعليقه على منظومة السبزواري.

٦. التكملة للتبصرة، تلخيص كتاب التبصرة للعلامة الحلي.

٧. تعليقه (حاشية) على رسائل الشيخ الأنصاري في الأصول.

٨. حاشية على كتاب المكاسب للشيخ الأنصاري.

٩. درر الفوائد في شرح الفرائد، تحقيق مهدي شمس الدين.

١٠. رسالة في الدماء الثلاثة (الحيض، والاستحاضة، والنفاس).

١١. رسالة في الطلاق، لم تكمل.

١٢. رسالة في الإجازة، لم تكمل.

١٣. رسالة في العدالة.

١٤. رسالة في الوقف.

١٥. رسالة في الرضاع.

١٦. روح المعاني في تلخيص نجاة العباد.

١٧. روح الحياة في تلخيص نجاة العباد، وأضاف عليها فتاوى فقهية لمقلديه.

١٨. شرح التبصرة.

١٩. الشذرات والقطرات.

٢٠. شرح تكملة التبصرة.

٢١. شرح خطبة (أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به) الموجود في كتاب «نهج البلاغة»، بقلم تلميذه الشيخ عبد الرسول الأصفهاني.

٢٢. الفوائد الأصولية والفقهية، يحتوي على خمس عشرة فائدة.

٢٣. قطرات من يراع بحر العلوم، أو شذرات من عقدها المنظوم، وهو عدة رسائل جمعت بعد وفاته، وذلك عام ١٣٣١هـ.

٢٤. القضاء والشهادات، لم يتم.

٢٥. كفاية الأصول، يقع في جزئين، أحدهما في مباحث الألفاظ، والثاني في الأدلة العقلية.

٢٦. اللمعات النيرة في شرح تكملة التبصرة.

٢٧. منهج الرشاد.

ويظهر أن شهرته العلمية قد تجاوزت النجف الأشرف لتصبح على مستوى العالم الإسلامي فقد نقلوا أنه تلقى حاكم النجف العثماني يومذاك من آل الآلوسي في الأستانة كتابا جاء فيه: بلغنا أن عالما خراسانيا ظهر في النجف، وجدد معالم الأصول، وأنه في هذا العصر كالعضدي في زمانه، فأرسل ترجمته بقدر ما تستطيع [(١)].

بل قالوا أن شيخ الإسلام نفسه اشتاق لرؤية الآخوند، والارتشاف من نمير علمه، فزار العراق على أساس زيارة قبر أبي حنيفة في بغداد، ومن ثمّ عرَّج على مدينة النجف الأشرف ليشاهد الحوزة التي مضى عليها حوالي الألف عام، فدخل إلى مسجد الطوسي، حيث كان الآخوند يلقي درسه، فلمّا رآه وهو يدخل قام بنقل البحث إلى قول أبي حنيفة حول المطلب الذي كان يشرحه، وشرع ببيانه على أحسن ما يرام.

فاندهش شيخ الإسلام من قدرة الآخوند على مباني أبي حنيفة وغيره من أئمّة السنّة، ويقال: إن جُلَّ حديثه في سفره عند رجوعه إلى بلده كان يدور حول شخصية الآخوند، ومكانته العلمية.

وفاة الآخوند:

كما ذكرنا آنفا فإن هذا المرجع الكبير على أثر قيام الروس باحتلال قزوين، عطل درسه ودعا للجهاد لكي يخرج، وقبل خروجه بيوم واحد. توفي ويعتقد أنه مات مسموما!

(١) المصدر السابق.

عروة الفقه الوثقى

السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي

١٢٤٨ - ١٣٣٧هـ



من الذرية من يكون مصداق الدعاء (هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين)، فيحيي اسم أبيه وعائلته بل منطقته، ولولا هذه الحياة التي يعطيها هذا الولد لانطمس ذكر الوالد بل والعائلة في ملايين البشر الذين ينطفئ ذكرهم.

بلى! من بلدة يزد الراقدة في الصحراء في وسط إيران، انطلق ابن فلاح كلّ فنه ان يزرع الرمان، ليصبح هذا الولد مرجع العرب ومفتدى نفوسهم ومحل استمداد بركتهم، وفقيه الشيعة بحيث يصبح كتابه (متن) الفقه، وآراء سائر العلماء عليه (حواشي)! وليقود العمل السياسي ضد الاستعمار الايطالي بيانا وموقفا، والبريطاني عملا عسكريا، وضد الاحتلال الروسي استعدادا وتحشيدا!

نعم! كان ذلك هو السيد محمد كاظم الذي ولد في يزد في سنة ١٢٤٨هـ، وتوجه إلى الدراسة الدينية في منطقته في البداية ثم مشهد واصفهان حيث أخذ العلم عن ابن الشيخ محمد تقي الاصفهاني صاحب حاشية (هداية المسترشدين) وأخيرا قدم إلى النجف سنة ١٢٨١هـ، سنة وفاة الشيخ مرتضى الأنصاري ﵀، ولذلك لم يحظَ بشرف الحضور في درسه، وإنما درس على يد تلامذته، وكان أهمهم الميرزا الشيرازي الكبير السيد محمد حسن ودرس على يد آية الله الشيخ راضي النجفي والشيخ مهدي آل كاشف الغطاء.

على يد هؤلاء الأعاظم أصبح من أعاظم المجتهدين الفقهاء، وينبغي أن نلاحظ أن كلمة الاجتهاد لكثرة ما أطلقت على من لا يستحقها، قد أصبحت مبتذلة بما يكفي!

ولو نظرنا إلى مقاييس الاجتهاد التي تمثلها شخصية كشخصية السيد اليزدي ﵀ لرأينا مستوى رفيعا جدا من التخصص الفقهي

والأصولي والرجالي واللغوي يحتاج إلى عشرات السنين من الدرس والتحقيق والبحث. وهذا الأمر يلحظه العارفون ففي كل مسألة فقهية من مسائل العروة الوثقى كما سيأتي الحديث عنها تجد تجليا لتلك الملكة الاجتهادية والقدرة الاستنباطية، وفي كل تعبير يلحظ المتخصصون عناية خاصة، ناظرة إلى جهة من جهات الدليل، فليس غريبا بعد ذلك أن تكون العروة الوثقى مدار البحث والتحقيق في دروس (خارج الفقه) منذ أن كتبت وإلى يومنا هذا.

إن ما نشاهده من تمييع لمستوى الاجتهاد في مدرسة الخلافة، بحيث يصبح في كثير من الموارد مرادفا للتخرج بشهادة البكالوريوس في الشريعة الإسلامية!! كما يلاحظ في تعيين القضاة وأن القاضي مجتهد يفتي برأيه مع أنه لم يقض غير سنوات أربع في كلية الشريعة!

بل ما نشاهده من التسرع في إدعاء الاجتهاد في مدرسة الإمامية، من قبل بعض طلاب العلم الذين ربما أحسنوا الظن بأنفسهم، وكانت ثقتهم عالية بها، فتعجلوا في أمر كانت الخيرة في التريث فيه!

ما نشاهده، لا ينبغي أن يهون نظرتنا إلى مستوى الاجتهاد في تجلياته العالية، وأمثلته السامية كمثال السيد اليزدي رضوان الله تعالى عليه. وعلينا أن ننظر إلى النتائج فقد تجد حصيلة فكر اجتهادي يبقى مئة عام محور الدرس والبحث والنقد والرد من قبل مئات المدرسين والباحثين والعلماء، وبين رأي آخر لا يلتفت إليه سوى قائله!

فقيه من الطراز الأول وتلامذة مؤثرون:

بالرغم من أن السيد اليزدي لم يكن له تلامذة كثيرون في أول الأمر كما ذكر مترجمو سيرته إلا أنه وخصوصا بعد أن آلت إليه المرجعية بوفاه أستاذه الميرزا محمد حسن الشيرازي سنة ١٣١٢هـ تكثر طلابه وبرز منهم فقهاء مجتهدون على خطى أستاذهم في المنزلة الرفيعة. وقد لاحظ هؤلاء أن «حوزته الباهرة في هذه الأواخر أجمع و أوسع و أسدّ و أنفع من أكثر مدارس فقهاء عصره و فضلاء مصره».

ويذكر عنه أنه كان بالاضافة إلى ذكائه الحاد، وهيمنته على المباني الأصولية والرجالية والقواعد الفقهية، كان يمتلك حافظة قوية تسعفه حين الاستدلال بذكر الشواهد والأشباه

والنظائر[1] بل الروايات بأسانيدها، مما كان يفتقده غيره من معاصريه.

كما أنه كان يربي طلابه على النقاش والحوار، ويشجعهم على ذلك، فلا يمر بالمباحث العلمية سريعا، ولم يكن يهمل إشكالات وتساؤلات تلامذته، فإذا أشكل عليه أحد طلابه كما هو معتاد في بحوث الخارج استلم الاشكال منه، وربما قواه في بداية الأمر، وصنع له شكلا علميا، ثم بدأ في رده بعنوان أنه لو قيل بهذا فيكون جوابه بهذا النحو.

ذلك المحفل العلمي أنتج عددا من فحول العلماء الفقهاء، كان منهم:

١. الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: الذي برز في سماء النجف لا سيما بعد وفاة أستاذه اليزدي وقد التصق بالاستاذ كما اختصه وأخاه شيخ أحمد بالاهتمام، وقد نقل بعضهم أن تحرير العروة وصياغتها وهي متينة ترجع إلى أن الشيخين محمد حسين وأحمد كانا يحرران المسألة ويريان رأي السيد فيها ويعرضانها عليه. له عدد كبير من المؤلفات النافعة فقهية وعقدية وفكرية.

٢. الشيخ أحمد كاشف الغطاء، الأخ الأصغر للشيخ محمد حسين.

٣. السيد حسن المدرس: بعد أن حضر في درس السيد اليزدي قرابة سبع سنوات، عاد إلى إيران وقد انتخب واحدا من المجتهدين الناظرين على القوانين التي يسنها مجلس الشورى بحيث لا تكون مخالفة لأحكام الشريعة. وقد استمر في هذا الموقع لسان حق وجرأة خمس دورات برلمانية، إلى اغتاله أعوان البهلوي الأول سنة ١٣٥٧هـ.

٤. السيد حسين الطباطبائي البروجري، أحد مراجع التقليد الذين رجع الناس إليهم في إيران، وكان بمثابة زعيم الحوزة العلمية فيها.

٥. السيد حسين القمي، من أعاظم العلماء ومراجع التقليد أيضا.

٦. الشيخ محسن (آقا بزرك) الطهراني، يأتي الحديث عنه مستقلا.

(١) نقل أحد تلامذة الشيخ آقا ضياء الدين العراقي الفقيه والأصولي البارز في عصرنا الحاضر عنه القصة التالية قال: كنت أتمشى على ساحل شط الكوفة، وفي هذه الأثناء جاء السيد اليزدي وانشغل بخلع ملابسه لكي يسبح في الشط، فلما وصلت له سلمت عليه وحييته، فاجابني وسأل عن أحوالي، وقال: أي درس تحضر، فقلت له: درس الآخوند! فقال في أي مسألة يبحث الآن فأخبرته عن مسألة اليوم التي طرحها وقررتها له بشكل جيد، فقال لي، وهو مشغول بلبس إزار للسباحة، وماذا كان نظر الاستاذ في هذه المسألة؟ فأخبرته برأيه، فذكر عددا من موارد النقض من أبواب مختلفة على رأي أستاذي، التي أدهشتني لكثرتها، بينما كان يقول لي: فكر في هذه الموارد إلى أن أنتهي من السباحة! إلا أني رأيت أنني لا أستطيع أن أجيب على كل تلك الموارد، فانسحبت بسرعة قبل أن يخرج من الماء حتى لا أحرج معه! (معربة عن مقدمة كتاب سؤال و جواب) للسيد اليزدي؛ بتحقيق السيد مصطفى المحقق الداماد ص: ٢.

٧. الشيخ محمد حسن المظفر.

٨. السيد هبة الدين الشهرستاني، العالم المعروف والسياسي البارز.

وغيرهم ممن أوصل الباحث الجبوري[١] عددهم إلى قرابة ٣٥٠ عالما فاضلا ومجتهدا فقيها.

من أدواره السياسية:

تعرض السيد اليزدي أعلى الله مقامه، إلى تجنٍّ كبير على شخصيته من قبل بعض الكتاب حيث وصمه بعضهم بعدما لم يكلف نفسه بالبحث الدقيق بأنه من أنصار الاستبداد وأنه لم يكن على وعي سياسي كاف.

والناظر إلى أدواره السياسية المختلفة يجد فيه فقيها مجاهدا، وعالما واعيا، يتحرك في أكثر من صعيد لمحاربة الاستعمار والنفوذ الأجنبي في بلاد المسلمين، ولم يكن يرى نفسه وقفا على إيران أو على الشيعة حتى، بل كان يرى دائرة مسؤوليته تمتد لتشمل الدفاع عن بلاد المسلمين عموما.

ففي بيان له[٢] قال ما ترجمته بالعربية:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

في مثل هذا اليوم الذي حملت الدول الأوربية على الممالك الإسلامية كإيطاليا على طرابلس الغرب من جهة، والروس من جهة أُخرى أشغل شمال إيران بعساكره والإنكليز، أنزل عساكره في جنوب إيران وأحدث بالإسلام خطر اضمحلاله.

فلهذا يجب على عموم المسلمين من العرب والعجم، أن يستعدّوا لدفاع الكفار عن ممالك الإسلام، ولا يتقاعدوا بكل صورة عن بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل إخراج إيطاليا من طرابلس الغرب، وإخراج عساكر الروس والإنكليز من إيران، فإنّ ذلك أهم

---

(١) الجبوري كامل سلمان. السيد محمد كاظم اليزدي: سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه، نسخة الكترونية من http://www.alhassanain.com/

(٢) فقيه دور انديش، نقلا عن سليم الحسني. دور علماء الشيعة في مواجهة الاستعمار وأيضا المصدر السابق.

الفرايض الإسلامية؛ لكي يُحفظ بعون الله المملكتان الإسلاميتان العثمانية والإيرانية من مهاجمة الصليبيين.

حرّره الأحقر

محمد كاظم الطباطبائي

على صعيد مقاومة الاحتلال البريطاني للعراق فقد شارك السيد اليزدي مشاركة فعالة من خلال تحريك عشائر العراق الذين كانوا يرجعون في التقليد إليه، الأمر الذي أدهش البريطانيين حيث أنهم كانوا يتوقعون موقفا سلبيا على الأقل من الشيعة بالنسبة لاحتلالهم العراق إن لم يكن مؤيدا لهم، نظرا للظلم والاضطهاد الذي وقع عليهم أيام الأتراك العثمانيين. وبالمنطق السياسي المجرد فإنهم يتوقعون منهم أن يجدوا في هزيمة العثمانيين الأتراك أمام البريطانيين نصرا.

إلا أن المرجعية الشيعية في النجف الأشرف تحركت بحزم لمقاومة الاحتلال البريطاني، وشارك أبناء السيد اليزدي في العمل العسكري المباشر، حتى استشهد أحدهم في المعركة وهو السيد محمد.

ويقول بعض المؤرخين بأن البريطانيين بعدما استطاعوا هزيمة الأتراك، واحتلال العراق أرادوا أن يؤدبوا العشائر وأهل النجف، نظرا لمواقفهم القوية تجاه البريطانيين، فأرسلوا للسيد اليزدي رسولا يقول له بان النجف سيتم قصفها، وأنهم لا يريدون تعريضه للأذى فالأفضل أن يخرج من النجف. فسألهم: هل يخرج وحده أو مع عائلته؟ فقالوا بل مع العائلة! فأجابهم أن أهل النجف كلهم عائلته، وأن ما يصيبهم يصيبه، وهو جالس بينهم!

وأما موقفه في قضية المشروطة، فلا بد من الاقرار بوجود اختلاف بين العلماء الذين عاشوا تلك الفترة في تحديد أن مصلحة الدين والشعب في أين تكمن؟ وبناء على ذلك اختلفت أدوارهم حماسة أو تريثا لموضوع الحركة الدستورية.

ففيما كان الشيخ الآخوند الخراساني ومن تبعه من أنصار الحركة الدستورية يرون أن أهم قضية ينبغي الاهتمام بها هو تحديد صلاحيات الملوك والسلاطين القاجار، وإعطاء سلطة أكبر للشعب من خلال الانتخابات النيابية والمجلس البرلماني، كان

يتخوف المتريثون في أمر الحركة الدستورية من سيطرة المتغربين على الأوضاع حيث أن الكفاءات المطلوبة كانت في جانبهم أكثر من المتدينين، وكانوا يحصلون على الدعم الأجنبي بشكل كبير، وهؤلاء لم يكونوا يخفون أنه يريدون مجتمعا بلا حاكمية للدين فيه، وحرية بلا حدود، وتغريبا يلحق إيران بالغرب بشكل صريح وواضح وسريع أيضا. وعلى رأس هؤلاء كان المعروف تقي زاده.

فهؤلاء لم يكن عبثا إصرارهم على أن يكون اسم المجلس (مجلس شوراي ملي) أي مجلس الشورى الوطني بدل الإسلامي، ولم يكن غريبا تصريح أحد منظريهم وهو ميرزا ملكم خان الذي قال: كنت أرى أنه يمكن تغيير إيران إلى أوربا وأن نستفيد من المجتمع الديني في هذا الأمر، لكنني علمت فيما بعد أن هذا غير ممكن، ولذا دعوت خصوصا في المحافل الخاصة إلى (إسلام زدائي) أي إلى حذف الإسلام!

وهؤلاء كان لهم أيضا مواقف متشنجة من السيد اليزدي، فقد حاولوا اغتيال السيد في مجلسه بارسال شخص ممن يتعاطف معهم لقتله، وبدؤوا بالارجاف حول بيته لولا أن طوقت العشائر بيت السيد وحمته منهم!

إننا نعتقد أن السيد اليزدي كان يرى الخطر الناشئ من السلاطين القاجاريين وإن كان كبيرا إلا أنه أهون من الخطر المترقب من المتغربين، فإن السلاطين القاجاريين كانوا فسقة وشهوانيين وفاسدين في أنفسهم، ولكن لم يكن لهم برنامج تغريبي للمجتمع يصرون عليه، بعكس هؤلاء المتغربين الذين كانوا يقولون ذلك وينشرونه في الصحافة و(بالفم المليان) ويعملون على ذلك جهارا نهارا.

وربما لهذا السبب التقى في النتيجة أنصار الحركة الدستورية من أتباع الآخوند، مع رأي السيد اليزدي في أن المطلوب هو مشروطة مشروعة، أي حركة دستورية ضمن إطار الدين، ويكون البرلمان تحت نظارة المجتهدين لكيلا يسن القوانين المخالفة للشريعة.

إن الذي جعل السيد اليزدي يتخذ موقفا مخالفا لما كان يجري، هو أن الوضع على الارض كان يسير باتجاه سريع نحو الانفلات الاخلاقي أراده المتغربون كذلك من خلال الاستغلال السيء للحرية التي هي مطلب صحيح وخيّر.

«وممّا يؤيّد هذا الرأي[1] مسوّدة البرقيّة التي بعثها إلى الآخوند الآملي نصّها:

(١) الجبوري، ١٨٤ مصدر سابق نقلا عن سليم الحسنى في كتابه: دور علماء الشيعة في محاربة الاستعمار.

من النجف. رقم ٦٧٦

حضرة ثقة الإسلام الآملي دامت بركاته:

لقد تملّكنا القلق من تجرّؤ المبتدعين، وإشاعة كفر الملحدين، نتيجة الحرية الزائفة، وسوف لن يتمكّنوا من تنفيذ مآربهم بعون الله، وبالطبع فإنّ الوقوف بوجه الكفر، وصيانة العقيدة، وتطبيق القوانين القرآنية القويمة والشريعة المحمّدية الأبدية، يُعتبر من أهم فرائض العلماء الربّانيين، مع الأخذ بعين الاعتبار الأسباب الموجبة لصلاح وصون الدين ودماء المسلمين، لا بأس من بذل الجهود في هذا الصدد.

٢٣ جمادى الأُولى ١٣٢٥هـ

محمد كاظم اليزدي

وهذا هو السبب الذي جعل آية الله الشيخ فضل الله النوري يواجه تلك المجموعة، فحسب على أنه من أنصار الاستبداد، واعتقل من بيته بواسطة هؤلاء الذين يدعون إلى الحرية ويفترض أنهم قد ثاروا على الاستبداد فلم يتحملوا رأيا مخالفا لهم، واعتقل ثم أجريت له محاكمة صورية سريعة وعلق على حبل المشنقة!!

هذا الأمر الذي حدا ببعض المعاصرين لتلك الفترة، أن يقولوا (أردناه خلاّ فخرج خمراً). ونفس هؤلاء هم الذين قاموا باغتيال السيد عبد الله البهبهاني في منزله!

فقيه العروة الوثقى:

يدل الكتاب على فضل صاحبه ومنزلته، وبالذات في المواضيع الاجتهادية، التي يُقرأ من خلال نتائجها الطريقة التي أعمل صاحب الرأي أدواته حتى وصل إلى تلك النتيجة، وبالتالي يمكن للانسان المتخصص أن يلاحظ أن استخدامة لتلك الأدوات ووصوله لتلك النتيجة أخيرا هل كان بنحو صحيح أو لا؟

ويصدق هذا بشكل واضح في الفقه، فإن استنباط الأحكام واستنتاجها من مداركها وأدلتها، ليست أمرا كيفيا ولا مزاجيا، كما أنها ليست عملية غيبية طوباوية، وإنما هي عملية اجتهادية لها مسالكها ودروبها التي يعرفها أهل الاختصاص في هذا العلم، ولهذا يمكن المقايسة بين (فقاهة) هذا وذاك، وقدرتهما الاجتهادية.

وبناء على هذا فإن احتلال (العروة الوثقى) للسيد اليزدي للموقع الأول في التدريس الفقهي في الحوزات العلمية لم يكن جزافا، وإنما كان بسبب ما للكتاب المذكور من ميزات.

فقد كان كتاب شيخ الطائفة الطوسي أعلى الله مقامه (النهاية في مجرد الفتاوى) محور الدرس الفقهي في الحوزة العلمية منذ تأسيسها على يده في النجف الأشرف، واستمر الأمر هكذا قرابة قرنين من الزمان إلى أن جاء المحقق الحلي ﷺ، وكتب (شرائع الإسلام) ليكون محور الدرس الفقهي منذ تأليفه إلى ستة قرون تلت، وذلك لما كان عليه من حسن التبويب والعبارة الرشيقة والإشارة إلى الأدلة في دورة فقهية كاملة، وكل ذلك بنحو مختصر، هذا بالرغم من وجود كتب فقهية عالية القيمة ككتب العلامة، والشهيدين، وغيرهم.

وأما بعد أن كتب السيد اليزدي العروة الوثقى بتحرير اثنين من أفاضل تلامذته (الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، وأخيه الشيخ أحمد) وكانا على مستوى عال من الأدب والتمكن من فنون اللغة العربية، التي لم يكن السيد اليزدي أيضا قاصرا عنها. كما أشار إلى ذلك كاشف الغطاء في كتابه الفردوس الأعلى. صار هذا الكتاب الذي عده العلماء (من أجل كتب الإمامية بيانا و أحسنها تبيانا و أجمعها للفروع الفقهية و أبينها للمسائل الشرعية)[1].

وبالرغم من أن الكتاب لا يحتوي على كل الأبواب الفقهية وإنما اشتمل على أبواب العبادات (والحج فيه غير كامل) ومن المعاملات (الإجارة، والمضاربة، والمزارعة، والمساقاة، والضمان، والحوالة، وقسم من النكاح) إلا أنه صار محلا للتدريس في بحوث الخارج، ومتنا يحشي عليه كل من تصدى للمرجعية، من بعد السيد اليزدي، بدءا من الشيخ عبد الكريم الحائري والمحقق النائيني وآقا ضياء العراقي فضلا عن تلامذة السيد اليزدي كأبي الحسن الاصفهاني والسيد البروجردي وكاشف الغطاء، وسائر العلماء المعاصرين.

كما أنه تم شرحه شرحا استدلاليا من قبل عدد كبير من العلماء والفقهاء، فالمطبوع منها قرابة ١٥ شرحا استدلاليا بين شرح كامل العروة وشرح بعض أجزائها، وهذا بحسب التتبع الناقص، وإلا فالعدد لا ريب أنه اكبر من هذا.

---

(١) شبر، سيد على حسينى، العمل الأبقى في شرح العروة الوثقى ج١. ٤.

ولعل الذي جعل الكتاب يلقى هذا الرواج والانتشار بالاضافة إلى ما احتوى عليه من كثرة المسائل التي بلغت (٧١٧٧) مسألة وهي وإن كانت بالنظر إلى التشقيقات والفروع المذكورة في كل مسألة من الممكن أن تصل إلى ثلاثة أضعاف هذا العدد، بالإضافة إلى ذلك فإن العروة الوثقى في نتائجها تمثل منتهى ما وصل إليه الاستنباط الفقهي والاستدلال بتطبيق المباني الأصولية الأخيرة في المدرسة الإمامية على الموارد المختلفة، وهذا بالطبع لا يتوفر في نهاية الشيخ الطوسي ولا في شرائع المحقق الحلي ولا لمعة الشهيدين.

هذا بالرغم من أن العروة لم تكن كتابا تخصصيا (بالمعنى الدقيق للكلمة) أي لم تكن الاستفادة منها وقفا على تحقق مستوى علمي خاص في الفقه، بل كانت لعموم المقلدين، ومن يمتلك مقدارا من المعرفة الفقهية يستطيع الاستفادة منها، أي لم تكن مثل (كفاية الأصول) للآخوند مثلا حيث أنه لا يستطيع أحد أن يستفيد من مطالبها ما لم يكن متخصصا بمقدار معين في هذا العلم. وربما يكون هذا أيضا من أسباب اشتهار العروة ورواجها في الوسط العلمي الحوزوي.

باقي كتبه وتصانيفه:

إذا كانت (العروة الوثقى) واسطة العقد في كتب السيد اليزدي، فلم تكن (يتيمة الدهر) بل كان إلى جانبها لئالئ ودرر تملأ كف الغواص علما ومعرفة، وإن لم تلق نفس الاهتمام الذي وجه للعروة، بل بقيت على (بكارتها):

- فمن كتبه القيمة والمهمة، حاشيته على المكاسب للشيخ الأعظم الأنصاري ﵀ وهي تقع في جزئين.
- ومنها: رسالة في حكم الظنّ المتعلّق بأعداد الصلاة و أفعالها و كيفيّة صلاة الاحتياط.
- ورسالة في التعادل و التراجيح.
- ورسالة في منجّزات المريض.
- وكتاب السؤال و الجواب، في الفقه (استفتاءات المقلدين).
- ورسالة في اجتماع الأمر و النهي (في الأصول).

- وملحقات العروة الوثقى.
- والصحيفة الكاظميّة، مجموعة أدعية و مناجاة أنشأها بنفسه.
- وبستان راز و كلستان نياز (فارسي).

العلامة البلاغي وحوار الأديان والمذاهب

الشيخ محمد جواد البلاغي الربعي

١٢٨٢- ١٣٥٢هـ



يرى بعض الباحثين بأن الاستعمار الأوربي، كان يخطط للبقاء في بلاد المسلمين على مستويات متعددة، مستوى إعداد الكفاءات المرتبطة به، سواء في المجال الإقتصادي أو السياسي، ولقد رأينا كيف أن هذه الأمة بقيت مواردها الإقتصادية وسياساتها العامة تخدم المستعمرين أو على الأقل لا تتعارض معهم، بالرغم من زوال المستعمر ظاهرا من مدة طويلة.

وكذلك على مستوى إضعاف الحالة الدينية الإسلامية في المجتمعات، وقد سلكوا في هذا طرقا شتى، منها تغيير أنماط الحياة الاجتماعية المتأثرة بالدين، وإحلال نمط جديد غير متقيد بالقوانين الإسلامية، ومن ذلك ضرب الأسس الفكرية التي يعتمد عليها الدين والمجتمع [١].

ومن هنا فقد قاموا باستخدام الدعوة إلى المسيحية، طريقا إلى خلخلة الوضع الإسلامي، فبثوا شبهات وأوهاما حول النبي محمد ﷺ، وسيرته الشخصية، وأثاروا الغبار أمام القوانين الإسلامية المشرقة، لتشويهها في نفوس المسلمين.

وكان لا بد لمواجهة الفكر الخاطئ أن ينبعث فكر نظيف متمكن، فيناقش مطلقي الشبهات بما يعتقدونه، ويكون أقدر منهم على فهم دينهم وكشف مناطق الخلل والعوار الموجود في ذلك الفهم.

ومع أننا نعتقد أن الديانات السماوية في أصولها كاملة، ومنسجمة ولا اختلاف فيها ولا اختلال وأننا ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ

(١) للتفصيل في هذا الموضوع يمكن مراجعة السيد منذر الحكيم؛ فصل الاستشراق والتبشير والاستعمار من مدخل موسوعة العلامة البلاغي ص ١٨.

أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [١]، وأن الميثاق المأخوذ على الناس جميعا، والذي حمله المرسلون هو ﴿لا تَعْبُدُونَ إلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [٢].

إلا أن يد التحريف التي امتدت إلى الديانة المسيحية في وقت سابق، فحرفت الانجيل، والأخرى التي امتدت إلى التوراة فحرفت التوراة، هي نفسها في ما بعد التي عملت على محاولة إسقاط قداسة النبي المصطفى محمد ﷺ، وهي نفسها التي حاولت التشكيك في القرآن الكريم وفي كونه وحياً من الله عزوجل، وهي نفسها التي حاولت أن تعطي صورة ممسوخة لتاريخ رسالة الإسلام.

إننا لا نعتقد أن الاستعمار الذي كان ينظر أولا بالذات إلى المصالح الاقتصادية والثروات، كان حريصا على نشر المسيحية وعلى (التبشير) إلا أنه حصل زاوج مصلحة بين هؤلاء وبين المبشرين الذين كانوا يتوهمون إمكانية تحويل المسلمين إلى المسيحية، حتى لقد (حلم) بعضهم بأن يكون عام ٢٠٢٠م هو عام انتشار المسيحية في بلاد المسلمين.

لقد برز لصيانة هذا الدين أفذاذ تركوا راحتهم ورفاهم وراء أظهرهم، وأقبلوا على التحقيق والتنقيب والبحث فما تركوا شاردة ولا واردة يستطيعون من خلالها إفحام الخصم، وإغلاق فمه إلا وأوردوها.

وكان عين الطليعة في هؤلاء والرائد الصادق في القافلة، آية الله العظمى المقدس الزاهد الشيخ محمد جواد البلاغي أعلى الله في الجنان درجات مقامه.

لقد تهيأ لهذه المهمة الكبيرة رجل كبير بمقاييسها، حيث كانت تستعصي على أكثر الرجال إلا الأوحدي منهم!

أستاذ أعظم مراجع العصر، وأقل العلماء شهرة! الذي «كان أحد مفاخر العصر علما وعملا.. وكان من أولئك الأفذاذ النادرين الذين أوقفوا حياتهم وكرسوا أوقاتهم لخدمة الدين الحنيف والحقيقة.. فهو أحد نماذج السلف التي ندر وجودها في هذا الزمن» كما قال شيخ المحققين آقا بزرك الطهراني.

---

(١) سورة البقرة: من الآية ١٣٦.

(٢) (سورة البقرة: من الآية ٨٣.

لنكن معه في المهمة التي قام بها قيام الكفوء المقتدر، من البدايات، طالبا في النجف الأشرف منذ أيام شبابه حيث ولد فيها سنة ١٢٨٢هـ، وطوى المقدمات المعهودة في الحوزات العلمية، ليلتحق بعدها في الحلقات العالية من دروس الفقه والأصول، بأعاظم مدرسي الطائفة في كربلاء والنجف فقد التحق بدرس الآقا رضا الهمداني (صاحب كتاب مصباح الفقيه) في الفقه والشيخ محمد طه نجف أيضا في الفقه والآخوند محمد كاظم الخراساني في الأصول، وفي الرجال والدراية التحق بخاتمة المحدثين الميرزا حسين النوري صاحب مستدرك الوسائل كما التحق بدرس الميرزا محمد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين في العراق.

إلى هنا والأمر عادي يسلكه في الغالب أكثر أهل العلم، وطلبة الحوزات العلمية، إلا أنه التفت إلى ضرورة التخصص في المناظرة والبحث ولا سيما مع المسيحيين الذين بدأت طلائع تأثيرهم تصل إلى بلاد المسلمين، وبدأت الهجوم الثقافي على مصادر الدين الإسلامي ياخذ بعدا مهما. فشمر عن ساعد الجد لمقاومة هذا الغزو فقام بدراسة اللغة العبرية دراسة متقنة لكي يقرأ التوراة والانجيل في لغتهما الأصلية، وبأقدم النسخ المتوفرة، وذلك أن الترجمة تفقد النصوص الكثير من دلالاتها ومعانيها.

كما تعلم اللغة الانكليزية القديمة، حتى يستطيع أن يقرأ الترجمات الأولى لتلك الكتب، وأتبعها بتعلم اللغة الفارسية إذ لم يكن يعرفها لأصوله العربية.

كل ذلك بالاضافة إلى معارفه الفلسفية وقدرته الاجتهادية العالية، مكنته من الولوج في عالم المناظرة الدينية بكفاءة منقطعة النظير.

وكان من نتائج هذا عدد مهم من الكتب في النقاش مع المسيحيين، صارت مرجعا لمن عاصره أو جاء بعده في هذا المجال، من أبرزها:

الهدى إلى دين المصطفى: وهو واسطة العقد في كتبه ﵀، يرد فيه على كتاب طبع في مصر سنة ١٩٠٠ م، وعربه شخص اسمه (هاشم العربي) وسماه (الهداية) ويتألف من ٤ أجزاء. وفيه يبدأ بذكر مقدمات مهمة في أصول الاحتجاج والمناظرة ثم يشرع ببيان المؤاخذات على ذلك الكتاب وبيان جهات التهافت والتناقض في كتب العهدين (القديم والجديد) الموجودة، وأنها بالتالي لا يمكن أن تكون من الله عز وجل. من حالات مستغربة وذنوب مستهجنة نسبها الكتابان لأنبياء الله السابقين ﵈ في سيرتهم الشخصية وعدم امانتهم في التبليغ! واستعراض كيف تحدثت التوراة والانجيل عن الأنبياء آدم ونوح

وابراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وايوب وداود وسليمان واليسع وحزقيال وإرميا وعيسى، وما نسبت هذه الكتب المحرفة إليهم من أمور شنيعة، وفي المقابل كيف تحدث عنهم القرآن مكرما ومنزها ومصدقا.

واستطرد بعد ذلك إلى استحالة الذنب من النبي بعدما كان العقل والنقل يدلان على عصمته، فلا يكون ما جاء في تلك الكتب موافقا لعقل ولا نقل، ونقل شيئا عن عصمة رسول الله محمد ﷺ ومعجزاته. وبين أن شريعته ناسخة لسائر الشرائع وذكر موضوع النسخ ومعناه، واستشهد على وقوع النسخ في الشرائع السابقة بتشريعات اجتماعية وأحكام دينية كانت موجودة في العهد القديم ونسخت في العهد الجديد.

وفي الجزء الثاني ناقش ما ذكروه من (اعتراضات) على القرآن الكريم، بحسب قواعد اللغة والبلاغة، وشرع بدفعها بأسلوب متقن، وأيضا ما ذكروه من مناقشات لقصص القرآن، وهو في كل ذلك يقارن بين القرآن الكريم وبين كتب العهدين، ويبين فيها تفوق القرآن الكريم على ما نقل في العهدين.

ومن كتبه أيضا:

الرحلة المدرسية (أو المدرسة السيارة) ٣ أجزاء، وهو عبارة عن حوار تخيلي بين مناقش تلميذ وبين القس الذي يفترض فيه الاجابة على الأسئلة والاشكالات التي يطرحها التلميذ ويتعثر في ذلك لقوة حجة التلميذ وجاء الجزء الأول في موضوع قريب من كتاب الهدى إلى دين المصطفى، وفي أحوال السيد المسيح وتلامذته كما يقررها كتاب العهد الجديد (الانجيل) وعدم إمكان أن يتصف هؤلاء بهذه الصفات المذكورة، وعدم إمكان أن يكون المسيح هو الله تعالى الله.

وجاء الجزء الثاني في توصيف عظمة الإسلام وموافقته للفطرة، وجاذبيته بتشريعاته وملخص لتاريخه، وذب الشبهات عن حروب النبي وغزواته، ثم انتقل الحديث إلى نظرية أصل الأنواع التي ابتكرها داروين، وشرع في النقاش فيها، والرد عليها بشكل علمي موضوعي وبالتفصيل حتى استوعب نصف الجزء الثاني وأكثر الجزء الثالث الذي تعرض فيه أيضا إلى بعض الأمثلة من محكمات القرآن الكريم وقضايا المعاد الجسماني، وأحوال النفس الانسانية، وقضايا المعراج، والثواب والعقاب في القيامة، وغيرها. كل ذلك بأسلوب حواري ممتع ورائع.

تفسير من آلاء الرحمن: تفسير مزجي للقرآن الكريم يحتوي على مقدمة رائعة ذات فصول ثلاثة في: إعجاز القرآن، وجمعه، وقراءاته ، ثم شرع في التفسير إلى أواسط سورة النساء ولم يتمه مع الأسف، إذ وافاه الأجل قبل إكماله.

وأهمية المقدمة أنها أصبحت: مقدمة الكثير من التفاسير باعتبارها تمثل رأي الشيعة في قضايا قرآنية متعددة، وقد خرجت من قلم أحد أعاظم علمائهم، فقد طبعت في تفسير السيد شبر، ومجمع البيان، وصارت مستند الكثير ممن تحدث عن نفي التحريف في القرآن.

ولم يقتصر اهتمام الإمام البلاغي على كتابة التفسير، بل كان له درس في القرآن، وتلامذة تأثروا به يذكر من بينهم العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب تفسير الميزان، ومن بينهم آية الله العظمى السيد الخوئي الذي بدا تأثره به واضحا في توجهه للتفسير أول أمره، وكتابته لمدخل التفسير (البيان في تفسير القرآن).

الرد على القاديانية[١] **والبابية**[٢] **والبهائية**: كان تخصص العلامة البلاغي وقدرته في مناقشة الآراء والنحل الباطلة، لافتا للنظر فـ ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[٣] وقد سخر هذه القدرة في محلها الصحيح، فرد على القاديانية والبهائية والبابية.

ويعتقد بعض المفكرين أن الاستعمار البريطاني عمل للسيطرة على بلاد المسلمين في عدة محاور: محور الاحتلال المباشر كما حصل في العراق، ومحور التبشير بالمسيحية

(١) القاديانية ويسمون أنفسهم الأحمدية: طائفة نشأت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي في شبه القارة الهندية. مؤسسها هو ميرزا غلام أحمد القأدياني، نسبة إلى بلدة قاديان، في إقليم البنجاب في الهند، حيث وضع أسس جماعته عام ١٨٨٩، عندما صرح أنه هو المهدي المنتظر ومجدد زمانه، ومات سنة ١٩٠٨ كما ادعى ميرزا غلام أحمد أن مجيئه قد بشر به محمد ونبوءات أخرى في مختلف الأديان، وأنه هو المسيح المنتظر. ويعتقدون أن كلمة «خاتم النبيين» تعني أن محمدا هو أفضل الانبياء وأكملهم، وليس آخرهم. وهو مما يوفق في نظرهم بين نبوة مؤسس العقيدة وبين استمرار انتمائهم للإسلام.! رفضوا شريعة الجهاد في الإسلام.

(٢) البابية: فرقة تنسب إلى علي بن محمد الشيرازي، الذي سمى نفسه (الباب) أي باب المهدي المنتظر،وقد أعلن دعوته بعد سنه ١٨٤٤م، وبعد أن تبعه جماعة (منهم امرأة سميت قرة العين) أرسلهم في إيران يبشرون بهذه الدعوة، وبعضهم جاء إلى النجف أيام صاحب الجواهر، فحكم عليه مع إعلان آرائه بالسجن ومات بعد ذلك، مع تبرؤ علماء المسلمين سنة وشيعة من أفكار الفرقة. زعموا أن لديهم كتابا ينسخ القرآن! واسمه (البيان)، وعندما عاد إلى شيرازوأعلن أفكاره حكم علماء شيراز بكفره. وأتباعه يعتقدون بأنه هو المهدي، وأن الأئمة لا تجوز نسبة الصفات البشرية لهم من الموت أو العطش، ثم بدأ أتباعه يتحدثون عن عدم لزوم الصلوات وانتهاء زمن التكليف بها، وألقت (قرة العين) وهي عند بعضهم في منزلة فاطمة الزهراء، الحجاب وظهرت للناس سافرة! وحصلت انشقاقات في صفوفهم.

والبهائية تنسب إلى (بهاء الله) الذي لقب حسين علي النوري نفسه بهذا اللقب، وأن الباب إنما جاء مبشرا به! وقد انتهى أمر الباب باعدامه سنة ١٨٥٠ م على يد الحكومة الايرانية، بالرغم من وساطات ملحة وأثمان كبيرة قامت بها روسيا وبريطانيا للعفو عنه وترحيله لإحدى الدولتين!.

أما (بهاء الله) فقد تم نفيه من العراق على يد الحكومة العثمانية حتى استقر به المقام في فلسطين، ومات فيها.

(٣) سورة آل عمران: من الآية ٧٣.

وإضعاف التدين الإسلامي، ومحور إنشاء حركات وفرق منشعبة من الإسلام تأخذ شيئا منه وتخلطه بأفكار وأهواء أخر، لتمزيق الكتلة الإسلامية، وكان منها مثل القاديانية والبهائية والبابية، التي وإن كانت لم تؤسسها بالمعنى الدقيق للتأسيس إلا أنها ساعدت ودعمت هذه التوجهات، وصنعت لها حماية حتى يتحقق منها تمزيق الأمة.

وقد تحرك الإمام البلاغي في الجبهات الثلاث، فقد شارك في الحركة العسكرية المضادة للاحتلال البريطاني للعراق وساهم في ثورة العشرين التي قادها استاذه الميرزا الشيرازي، كما جاهد بقلمه في فضح مسألة التبشير المسيحي وبيان تهافت هذه العقيدة بما تقدم الحديث عنه، وأيضا قام بمحاكمة هذه الفرق المتأخرة في عقائدها مبينا زيفها وسقوطها.

الرد على الوهابية: وهو كتاب دعوة الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى، في إبطال فتوى الوهابيين بهدم قبور البقيع، منذ نشوء الحركة الوهابية على أثر تحالف الشيخ محمد بن عبد الوهاب ت ١٢٠٦هـ مع حاكم الدرعية الأمير محمد بن سعود، تحرك النزاع الطائفي في وسط المسلمين بشكل كبير، فالحركة الوهابية تعارض الكثير مما تعارف عليه المسلمون (سنة وشيعة)، ويعتقد هؤلاء بأن عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرون أن ما عليه الكثير من المسلمين يدخل في دائرة الشرك، فلا بد من قسرهم على تركه، وأمرهم بالتوحيد، ولو ادى ذلك إلى صدام عسكري في كثير من الأحيان.

وكان من محاور الخلاف قضية البناء على القبور، ففيما يرى كل الشيعة وكثير من المسلمين أنه لا مانع من البناء على قبور الأولياء والصالحين فضلا عن الأنبياء، يمنع الوهابيون هذا منعا أكيدا، وعلى هذا الأساس فقد قاموا بهدم كل القباب والقبور المبنية في مقبرة البقيع في المدينة المنورة.

وقد ناقش الكثير من علماء المسلمين من السنة والشيعة آراء الوهابيين، وبينوا زيفها من خلال الأدلة والبراهين. وكان ممن ناقش آراءهم وعارضها بالدليل الامام الشيخ محمد جواد البلاغي ؒ في هذا الكتاب.

وكتب أخرى كثيرة: بلغت فيما ذكره بعض المترجمين(١) لحياته الشريفة ٣٨ كتابا ورسالة، منها ثلاث تعليقات على كتب فقهية (مكاسب الشيخ، والعروة الوثقى، وشفعة

(١) السيد محمد علي الحكيم في مقدمة كتاب الرد على الوهابية.

جواهر الكلام)، ومنها ستة كتب فقهية ورسائل وبعضها يحتوي على عدة رسائل كما في العقود المفصلة في حل المسائل المشكلة حيث احتوى على أكثر من عشر رسائل مستقلة.

شيء عن تلامذته وسيرة حياته:

كما تعرف الشجرة من خلال ثمارها، يعرف العالم من خلال تلامذته، وقد كان من تلامذة الإمام البلاغي من أصبح فيما بعد مرجع الطائفة، فمنهم الآيات العظام السيد محسن الحكيم، والسيد الخوئي، والسيد محمد هادي الميلاني، والسيد شهاب الدين المرعشي النجفي.

ويذكر مترجموه صورا زكية عن تلكم النفس الزكية، فقد كان يهرب من الشهرة والأضواء، حتى أنه عندما كتب أوائل كتبه في الرد على المسيحيين، وأحدثت كما كان متوقعا صدى كبيرا، طبعها من دون أن يكتب عليها اسمه، بل كان يكتب أسماء مستعارة مثل عبد الله العربي، أو النجفي أو ما شابه.

وعندما كان يراجع في ذلك وأن وضع الاسم أكثر تأثيرا في القارئ كان يجيبهم بأن الغرض هو وصول الهدى والمعرفة، وليس الاسم مهما.

وينقل عن السيد المرعشى النجفي، تلميذه أن استاذه البلاغي كان فقيرا، ولو شاء الثروة والغنى لعرف الطريق إليه، فتغيب ذات يوم عن الدرس مع تعجب التلاميذ لما عرفوه من حرص مدرسهم على المواظبة على التعليم والتعلم، وكان تعجبهم أشد عندما غاب في اليوم الثاني، فلم يتمالكوا في اليوم الثالث أن ذهبوا إلى منزله يتفقدون استاذهم، يقول: ذهبنا أنا والسيد الخوئي والسيد محمد هادي الميلاني ورأيناه مريضا ودرجة حرارته عالية وتبين لنا أنه لا يملك المال الكافي للذهاب إلى الطبيب فتدبرنا المال وأخذناه إليه.

وهذا الحال هو الذي كان يصنع الصبر في نفوس باقي الطلبة حتى لا ينسحبوا من دراسة العلم على أثر ضغوط الحياة ومتطلباتها، وهذا من مصاديق (حتى لا يتبيغ بالفقير فقره).

وقد نقل الدكتور الصغير عن السيد الخوئي حادثة أخرى تبين مدى زهده وصبره في طلب العلم فقال:السيد الخوئي عاش حياة مرهقة من الحرمان فقرر ترك الدراسة

والذهاب إلى بغداد بغية الكسب ولكنه قرر الاستنارة برأي استاذه الذي يعبر عنه في كتبه دائما بـ (بطل العلم المجاهد).

يقول السيد الخوئي ﷺ، ذهبت إلى الشيخ البلاغي في رمضان وأنا مصمم على ترك الحياة العلمية والتوجه نحو العمل نظرا للضائقة الاقتصادية المضنية، وحينما استقر به المجلس قرب الشيخ البلاغي، تساءلا عن الحال، فقال البلاغي: هذا شهر رمضان وأنا صائم وأحن كثيرا إلى شرب قدح من الشاي وليس إلى ذلك من سبيل إذ لا يتيسر لي ذلك، ووالدتي عندها شيء من السكر والشاي من مالها الخاص، ولا أجرأ أن أطلب منها ذلك وأنا في حيرة بين الرغبة في الشاي والاشفاق عن الطلب من الوالدة!

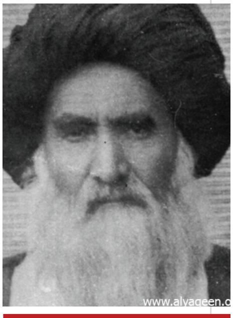
يقول السيد الخوئي: قلت في نفسي، هذا أستاذي الأعظم على ما هو عليه من العلم والمنزلة الرفيعة، ولا يستطيع أن يشرب قدحا من الشاي في شهر رمضان، وأنا أريد أن أترك حياة العلم لأني بائس محتاج!! وقررت حينئذاك الصبر على الجوع ومواصلة الدراسة مهما بلغ الأمر![1].

(١) الصغير؛ د محمد حسين: قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف. ٩٦.

مرجعية الوعي والحكمة الاجتماعية

السيد أبو الحسن الاصفهاني

ت ١٣٦٥



عرف بعض الباحثين المرجعية الدينية بأنها في (مفهومها الواسع، قد تعني قيام المجتهد الجامع للشرائط مقام الإمام عليه السلام في مهماته الأساسية الثلاث الولاية، والفتيا، والقضاء) [١].

وقد تأسست كنظام ينتهي إلى رجوع المؤمنين إلى العلماء المتخصصين، والفقهاء المجتهدين في أمور عباداتهم ومعاملاتهم، وما يرتبط بالجانب الشرعي من حياتهم،على أساس الدليل الفطري الذي يجده كل شخص في نفسه من رجوعه إلى العالم المتخصص في مجاله، وسيرة المتشرعة القائمة على ذلك، إضافة إلى التوجيهات والنصوص الآمرة بالرجوع إلى أهل الذكر وسؤالهم، وأحاديث أهل البيت القائلة بأن (من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفا على هواه مطيعا لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه)[٢] و(أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم)[٣].

وبالرغم من أن ما سبق لا يفترض أكثر من حالة رجوع للمتخصص، والولاية في الجملة بناء على الرأي المشهور إلا أن عدم وجود جهة سياسية أو اجتماعية ينتمي إليها المؤمنون في أكثر فترات التاريخ، جعل المرجعية تأخذ هذا الدور بشكل طبيعي. لا سيما مع اطمئنان المؤمنين للمراجع.

أقول: ربما كان لهذا السبب دور في أن تأخذ المرجعية الشيعية مدى واسعا في حياة الشيعة في مختلف أدوارها ، وإن كان هذا المدى متأثرا بصورة أو بأخرى بالظروف التي تحيط بالمرجع

(١) الحكيم، السيد محمد باقر: دليل الناسك - ص ٣٩.

(٢) وسائل الشيعة ٢٧/١٣١.

(٣) المصدر /١٤٠.

وبشخصيته أيضا.

وخصوصا مع عدم وجود دستور مكتوب أو نظام معين متفق عليه، يسلكه المرجع في فترة مرجعيته. ولذا وجدنا بعض المرجعيات قد غلب عليها الجانب العلمي وخصوصا في الفقه والأصول وانقطعت بشكل أكبر إلى التدريس، بينما لم يكن باقي الجوانب كالدور السياسي واضحا فيها.

كما تأثرت المرجعية أيضا ببعض الظروف الزمانية فبعضهم عاش في فترة زمنية مزدحمة بالأعلام والأنداد. كما تهيأ للبعض مرجعية عليا على مستوى الطائفة، بينما بقيت بعض المرجعيات في حدود منطقة أو بلد.

مرجعية السيد الاصفهاني:

اجتمعت ظروف متنوعة لتجعل من مرجعية السيد الاصفهاني مرجعية فاعلة، ومؤثرة على مستوى الطائفة بل الأمة.

فمن الناحية التاريخية عاصر السيد أبو الحسن فترة حساسة هي فترة مقاومة الاستعمار البريطاني للعراق، والثورة عليه وشهد جيل الكبار من مراجع الدين أمثال الميرزا محمد تقي الشيرازي، والآخوند الخراساني، والسيد اليزدي. وكان من معاصريه وزملائه أمثال الميرزا النائيني والشيخ الاصفهاني والشيخ ضياء العراقي.

ومع رحيل جيل الأساتذة الكبار برزت شخصية السيد أبي الحسن كمرجع توافق عليه أقرانه، بعد أن أرجع إليه الميرزا محمد تقي الشيرازي الذي كان كثير الاحتياط احتياطاته إليه[1]، ولعلنا نجد إشارة في ذلك إلى فهمه الاجتماعي في تقليل الاحتياطات وأخذ جانب التيسير في الفقه.

ولا نجد غير القليل من المراجع الذين ناصر معاصروهم وأندادهم مرجعيتهم، ورفضوا أن ينافسوهم، وأصروا على الغير بأن يرجعوا إليهم، ومن هذا القليل كان السيد أبو الحسن الاصفهاني، فقد أشار السيد البروجردي وهو من أعاظم الطائفة ووصلت إليه المرجعية بعد السيد الاصفهاني، وكان في طبقته من حيث الأساتذة إلا أنه لما طلب منه بعضهم التصدي للمرجعية، وأن ينشر رسالته العملية رفض ذلك مشيرا إلى أن لواء

(١) هكذا عرفتهم. ١٠١، جعفر الخليلي.

الإسلام اليوم بيد السيد أبي الحسن الاصفهاني وأنه هو المرجع على الاطلاق[1]. وهكذا كان موقف الآقا ضياء العراقي.

١. مرجعية الوعي السياسي والدعوة للاستقلال:

يشكل الوعي السياسي أهمية كبرى في حياة العاملين، وهو أكثر أهمية في حياة القادة والزعماء، فإنه يصون الأمة من الوقوع في حبائل الأعداء المخططين، وهكذا فإن (العارف بزمانه لا تهجم عليه اللوابس) كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

وكانت الطائفة ولا تزال تحتاج إلى قيادات واعية سياسيا، ولقد كان حضور السيد أبي الحسن في وقته كمرجع واع وذكي، سببا مباشرا في إفشال محاولات كثيرة بذلها البريطانيون وغيرهم في تشويه صورة الزعامة الشيعية، وسرقة ثورة المؤمنين.

لقاء السفير البريطاني مع السيد أبي الحسن:

نقلوا: إن الحاج عبد الهادي الاسترابادي مندوب نوري السعيد رئيس وزراء العراق في وقته، جاء وقال إن رئيس الوزراء يريد منكم مقابلة السفير البريطاني ومندوب بريطانيا الخاص القادم من لندن. وأن يكون اللقاء سريا ومغلقا.

فرفض السيد أصل اللقاء في البداية، وبعد المفاوضة قبل به شرط أن لا يكون سريا. وفي الترتيب لذلك اللقاء أمر أن يحضر العلماء: الشيخ ضياء العراقي، والشيخ محمد حسين الاصفهاني والشيخ محمد كاظم الشيرازي وغيرهم من كبار أساتذة الحوزة.

وقدم السفير البريطاني ومندوب بريطانيا ومعهما رئيس وزراء العراق نوري السعيد، وبعد أن قدموا التحيات للسيد، قالا: إن بريطانيا قد (نذرت)! أنها إن غلبت ألمانيا في الحرب العالمية الثانية فسوف تقدم مساعدات مالية للمعابد وعلماء الدين في العالم،! والآن حيث أنها انتصرت عليها فقد قدمت للبابا في الفاتيكان المنحة المالية المذكورة، وجئنا إليكم في النجف لنقدم لكم المنحة المنذورة!

وبعد أن تأمل السيد في عرضهم: قال لهم: لا مانع! وسط ذهول الحاضرين الذي لم يتعودوا أن يقبل مرجع شيعي المال من أمثال البريطانيين!.

السفير البريطاني قدم شيكا بمبلغ مائة ألف دينار عراقي! فأخذه السيد ونظر فيه

---

(١) مجلة حوزة عدد ٦٣-٦٤.

وأمر بكتابة حولة قدرها مئة ألف دينار، قدمها مع الشيك للمندوب البريطاني قائلا: هذه مائتا ألف دينار مساعدة منا إلى أهالي الجنود المسلمين الذين جندتهم بريطانيا من بلاد الهند وقتلوا في العراق، نرجو أن تصرفوها عليهم في الهند!

وفي القصة من الوضوح ما يغني عن التعليق عليها.

كما أنهم ينقلون لقاء آخر حصل بينه وبين السفير الأمريكي (وهو وإن كان في بعض تفاصيله مشابها للقاء السفير البريطاني في عرض المال على السيد من قبل الحكومة الأمريكية إلا أنه يختلف عنه كما أفاد بعض الكتاب، ولا مانع أن يكون كلا الرجلين قد عرض المال على السيد بهذه الطريقة إذ وسيلتهم في ذلك المال كما يتصورونه!).

مع ملك الأردن والمطالبة بالاستقلال:

إن حس الاستقلال لدى السيد، واعتقاده بأن نجاة الأمة لا تتم إلا من خلاله، جعله يصر على ملك الأردن أن يترك الاعتماد على الأجانب واعدا إياه بأنه سيؤمن له مصاريفه وحاجته لو استقل عنهم!

(نقل الشيخ محمد حسن زين العابدين عن السيد باقر الذي كان يعمل في تشريفات البلاط الملكي في العراق ايام الملك فيصل الثاني الحادثة التالية، قال: لما ورد الملك عبد الله من الأردن وحل ضيفاً على الملك فيصل في بغداد، رُتبت له زيارة إلى حرم الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام وكان من العادة أن يتم لقاء الضيوف والوفود مع مراجع الدين في الحرم الشريف أيضاً: المرجع الاعلى في ذلك الوقت كان السيد ابو الحسن الاصفهاني بينما آية الله العظمى الشيخ النائيني كان متصدياً للجانب العلمي والدراسي في حوزة النجف الاشرف خرجت مع الملك عبد الله في سيارة التشريفات الخاصة، ومعنا الحرس واعضاء الوفد المرافق.

وكان الموكب مهيباً للغاية وكان الملك من شدة تبختره لا يسعه ثوبه الملكي المزين بالجواهر والنياط، كان يتكلم بتكبر، ولا يرى قيمة لاحد من الجالسين حوله. فقلت في نفسي كيف سيكون لقاء مثل هذا الانسان مع مرجع المسلمين الشيعة، اخشى أن يحصل ما لا يسر، فتوسلت بكل قلبي الى الله عز وجل بالامام علي عليه السلام ان يريه عظمة المرجعية عندنا، فكنت احاول في الطريق أن أمهد لهذا اللقاء بالكلام حول شخصية السيد أبي الحسن الاصفهاني ومكانته العلمية والدينية في العالم الإسلامي وانقياد المسلمين الشيعة إلى أوامره، وان النجف الاشرف مدينة العلم والعلماء ومركز الإشعاع الديني.

فقال لي الملك وهو لم يعر بالاً لكلامي: أنت شيعي والشيعة يغالون في مدح علمائهم. قلت: من أين لك هذا الانطباع الخاطئ عن الشيعة؟ قال: أنا صديق للدولة العظمى انجلترا وقد اخبرني الانجليز عنكم كثيراً.

اضاف الوزير السيد باقر قائلاً: اخذ الملك عبد الله يتكلم باستهزاء وفي نفس الوقت يذكر حكومة بريطانيا باحترام وعظمة، حتى وجدته يشعر بالحقارة امام الانجليز فاستغربت لهذا الملك المتذلل للكافرين والمستكبر على المسلمين!

وبينما كان موكبنا يقترب من النجف الاشرف زاد خوفي مما سيجري بينه وبين السيد الاصفهاني كنت متحيراً ماذا سيحدث بعد قليل؟ فوضت امري الى الله وخاطبت الامام علياً عليه السلام في قلبي أن يحفظ ماء وجهي ويحافظ على عزتنا أمام هذا الملك المتبختر.

ومن اجل احترام طرفي اللقاء كانت طريقة دخولهما تتم عبر بابين منفصلين ينفتحان على الضريح الشريف من جهتين متقابلتين، فيلتقي الطرفان عند الضريح في وقت واحد. واخيراً التقى الطرفان، بل التقى المتباينان، إذ كانت هيئة المرجع الديني الكبير السيد أبي الحسن الاصفهاني هيئة الزهاد، وهيئة الملك المتكبر هيئة المتجبرين!

بعد العناق والتحيات وكلمات جانبية وجه السيد السؤال التالي إلى الملك: من أين تؤمن الموارد المالية للاردن؟ كان السؤال بالنسبة للملك محرجاً، وغير متوقع فأجابه قائلاً: نحن دول صغيرة، لابد لتأمين وضعنا سياسياً واقتصادياً أن نعتمد على الدول العظمى ولقد تكفلت بريطانيا بتزويدنا المياه الصالحة للشرب وتأسيس محطة للكهرباء، ونحن لها من الشاكرين الاوفياء! واستمر الملك يمجد الانجليز ويصفهم بانهم عقول مفتحة ومتطورة.

فرد عليه السيد ابو الحسن الاصهفاني: أليس من المؤسف أن نمد نحن المسلمين أيدينا إلى المشركين؟ في اعتقادنا أن هذه ذلة واهانة، أنني مستعد أن أمدكم بالمال قدر ما تحتاجون لتعتمدوا على أنفسكم وتستغنوا عن الدعم البريطاني المقترن بالاستعباد.

بهذا الكلام اضحى الملك صغيراً بين يدي السيد، فانكمش واعتدل في مجلسه بعد تلك الغطرسة والتكبر، إذ وجد نفسه أمام رجل ذي يد بيضاء لمصالح المسلمين وذي وعي سياسي لا يستهان، ينظر إلى أفق بعيد.

ثم انتهى اللقاء بتوديع الملك ودعاء السيد الاصفهاني لعزة الإسلام والمسلمين

وشكرت الله تعالى على توفيقه هذا المرجع الجليل لاتخاذه هذا الموقف المشرف وفي طريق العودة الى بغداد، قال لي الملك عبد الله وكان غارقاً في التفكير: يا سيد باقر كل ما ذكرته لي عن عظمة هذا السيد كان قليلاً انه في اعتقادي اعظم مما ذكرته»[١].

٢. مرجعية التنوير وأفكار النهضة:

من مشاكل نهضة الأمة بالاضافة إلى الاستعمار الأجنبي انتشار أفكار الخرافة فيها، والجهل بالفكر الإسلامي الأصيل. وحينئذ ترى هذا الدين الذي جاء لإحياء الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور يتحول بواسطة المزورين والمزيفين إلى قيد من قيود النهضة، ووسيلة من وسائل الأسر.

وربما جارى بعض العلماء حالات اجتماعية، لكيلا تتأثر مرجعياتهم أو لأن الأمور في نظرهم لم تنضج بعد لمواجهة تلك الحالات الخاطئة. ونظرا لوجود من يستفيد من تلك الحالات ويسوق نفسه على ضوئها، فإنها تتحول بالتدريج إلى (حريم مقدس) لا يمكن المس به ولا التطاول عليه، وخصوصا إذا أصبح سدنتها جهال الناس وعوامهم غير الواعين. فهنا تصبح المسألة أكثر تعقيدا، وتتشكل بالتدريج ما سماه الشهيد مرتضى المطهري بسلطة العوام على العلماء، فبينما كان العالم قائدا أصبح مقودا بهذه السلطة، وبينما كان صاحب الأمر أصبح مأمورا!

ولهذا ينظر لأولئك العلماء الذين وقفوا في وجه العادات الاجتماعية غير الصحيحة والأفكار الخرافية بنظر الاكبار.

وذلك لأن محاربة تلك الأمور قد يعني التضحية بالموقع الاجتماعي، وتأثر المرجعية في الوسط الاجتماعي تأثرا سلبيا.

ومن هنا ينظر إلى السيد ابي الحسن الاصفهاني نظر إكبار واحترام، لمواجهته تلك العادات والحالات، وهو وإن كان ذا دراية اجتماعية عالية وفهم متميز في هذا الجانب بحيث كان يعالج الأمور بما عرف عنه من حكمة اجتماعية إلا أنه موقفه فيها موقف صارم.

---

(١) المهتدي البحراني: قصص وخواطر ٤٥٥ عن حفيد السيد الاصفهاني.

تخريب مقام مزيف للحسين.

فقد نقل الشيخ عبد العظيم المهتدي في كتابه «قصص و خواطر من أخلاقيات علماء الدين»: عن السيّد حسين السبزواري، الذي ينقل عن والده المرحوم المرجع الديني السيّد عبد الأعلي السبزواري تلميذ السيد الاصفهاني: أن أستاذه ذهب ذات يوم بصورة متنكرة إلى أحد الأرياف العراقية، فرأى شخصا هناك يدعو النا إلى التبرع إلى مقام الامام الحسين، وإعطاء النذورات لأجله!

ففكر السيد في نفسه بأنه لا يعلم بوجود مقام للحسين في هذه القرية! جاء لذلك الرجل قائلا: هل هذا مقام الإمام الحسين؟ قال: نعم!

فقال السيد: كيف؟

فقال: عندما سار الحسين إلى كربلاء، مر من هذا القرية وصلى فيها ركعتين! قال السيد له: من أخبرك بهذا؟ فقال: هذا كلام العالم الاصفهاني (يقصد السيد أبا الحسن الاصفهاني) ولم يعرف أن الذي يسمعه هو نفس السيد!فقال له السيد: هذا الكلام غير صحيح!

فقال الرجل: اسكت لا يسمعنك أحد فيوصل الكلام لآية الله الاصفهاني!

آنئذ تركه السيد وعاد للنجف وأرسل لذلك الرجل أن يأتيه. فجاء وعرف أن صاحبه السابق هو نفسه السيد الاصفهاني، فخجل واعتذر منه.

فقال له السيد: هدم هذا المقام الخيالي، واذهب إلى عمل محلل يوفر لك ماء وجهك. ثم أعطاه مبلغا من المال.

الموقف الحازم من أحد الخطباء المشهورين: ومن بعض الممارسات.

ومن ذلك ما حدث في قضيته مع السيد صالح الحلي، فبالرغم من اختلاف الناقلين في الأسباب التي دعت السيد الاصفهاني لموقفه الحازم تجاه قراءته وأنه قد يكون لجهة حدة لسان الخطيب المشهور الحلي، والتي كانت تدعوه إلى الهجاء بلا مبرر كاف، كما نقل (الخليلي) في هكذا عرفتهم حيث أعد قصيدة هجاء للميرزا حسين الخليلي إن لم يساعد من توسط له الخطيب الحلي، وما نقل عنه في حق السيد اليزدي من قوله:

فوالله ما ادري غدا في جهنم أيزديها أشقى الورى أو يزيدها

أو ما عرف عنه في هجائه المقذع للسيد محسن الأمين:

يـا زائــرا إمــا مــررت بجـلـق فابصق بوجه أمينها المتزندق.

أو أنه كان يقسو في الحديث مع الناس، ويعتبرهم فسقة كما يظهر من محاورة بعض من توسط له عند السيد الاصفهاني

إلا أنه يعتقد أنه لتلك الأمور ولسبب موقفه في موضوع التطبير في الشعائر الحسينية ومحاربته العنيفة للقائلين بعدم مشروعيته وفي طليعتهم السيد محسن الأمين العاملي، وهنا حيث عبئَ جو الحوزة في النجف الأشرف بما زُعم من أن هذا هو الخط الأموي الذي يريد القضاء على الشعائر الحسينية.

فوقف السيد الإصفهاني موقفا قويا في تأييد السيد محسن الأمين العاملي أشار إليه الأمين في أعيان الشيعة عندما ذكر السيد الإصفهاني بإجلال كبير بالرغم من أنهما تلميذا استاذ واحد ومتقاربان عمرا قال في الأعيان: ولما ألفنا رسالة التنزيه وهاج هائج المغرضين واستهووا العامة والرعاع كان له موقف حازم في نصرتنا وتأييد نظرنا بقدر الاستطاعة، وأصابه رشاش مما أصابنا. كما أخبرنا بذلك حين اجتماعنا به في الكوفة(١).

على العموم فإن السيد الاصفهاني كما يقول مؤرخوه، ومعاصروه كان داعما لخط التنوير والتوعية.

٣. مرجعية التبليغ والوكلاء المؤثرين:

ربما يمكن القول إن القوة التي أصبحت تتمتع بها المرجعية ونفوذها بين الناس يرجع إلى قيام المراجع بتجسير العلاقة بينهم وبين المقلدين حتى في الأماكن البعيدة وتفقدهم أحوالهم الدينية، ومساعدتهم على القضاء على الشبهات المعرفية والعقدية.

وفي هذا الإطار يعرف عن مرجعية السيد أبي الحسن الاصفهاني أنه كان كثير التعاهد للمناطق التي تحتاج إلى الوكلاء، برفدها بممثلين صالحين عن المرجعية، لكي يبقوا فيها فترات طويلة أو للقيام بمهمة الخطابة والتبليغ.

(١) أعيان الشيعة:٢. ٣٣٣.

الشيخ بهلول والخطابة

وكان يستخدم نفوذه في توجيه الخطباء الصالحين لمناطق الحاجة. فإنه لما رأى القدرة الخطابية الجيدة لدى الخطيب المعروف الشيخ بهلول، وكان قد رجع إلى سبزوار، فطلبت منه أمه أن يذهب بها إلى كربلاء، وجاء هذا زائرا للسيد الاصفهاني، الذي سأله ماذا تريد أن تصنع؟ فقال: أريد أن أواصل دراستي حتى أصبح مجتهدا! فقال له الاصفهاني: دراستك في مثل هذه الأوضاع حرام، فإن لدينا عددا كبيرا من المجتهدين وقلة واضحة في الخطباء. الصحيح أن تذهب إلى إيران وتبين للناس بالخطابة أخطاءه السياسية. وفعلا فقد اطاع الشيخ البهلول وخطب في (مسجد الشاه) مبينا الانحرافات الموجودة لدى الحكومة القائمة[١].

والشيخ القائمي في عبادان:

وعندما يرى أن أفكار (أحمد كسروي) المناوئة للحالة الدينية قد انتشرت في عبادان، فإنه يكلف الشيخ عبد الرسول القائمي وهو من الخطباء المتميزين بالبقاء فيها، بالرغم من أنه كان يحب متابعة الدراسة وأن جو عبادان لا يناسبه كثيرا.

فقد نقل الشيخ الرازي في (كنجينه دانشمندان) أن الشيخ القائمي قد حج سنة ١٣٦٤ وعاد إلى إيران عن طريق الكويت فعبادان، ولما رأى وجود أتباع لأحمد كسروي في تلك المنطقة ولهم صولة وجولة، قرر أن يلقي سلسلة محاضرات في رد أفكارهم، وحازت تلك المحاضرات على إعجاب الجمهور فكتب المتدينون للسيد الاصفهاني أن الذي يستطيع مواجهة تلك الأفكار الخاطئة هو الشيخ القائمي.

الشيخ القائمي الذي يبدو أنه لم يكن راغبا في البقاء سافر إلى اصفهان، فكتب إليه أنه يلزم عليك أن تقيم في عبادان وأن تواجه المضلين هناك. وعندما اعتذر الشيخ القائمي بأنه يريد أن يواصل دراسته، أجابه السيد أبو الحسن في رسالة ثانية: إلى أن تتم استعداداتك في التسلح (بالعلم والدراسة) تكون المعركة ضد الدين قد انتهت! يلزم أن تذهب إلى عبادان[٢]!

---

(١) باختصار وتصرف من الموقع الالكتروني www.gonabadnews.com

(٢) كنجينة دانشمندان: ٣. ١٧.

والشيخ البشيري في كركوك:

وعندما علم أن كركوك يوجد فيها الكثير من الشيعة، وقد أصبحت عقائدهم خليطة بالغلو والتصوف الخاطئ، حتى ابتعدوا بذلك عن طريق أهل البيت ﷺ، فلما خفت وطأة الأتراك عن تلك المنطقة أرسل إليهم المبلغين والدعاة الذين يوجهونهم إلى أحكام الدين، وعقائد الحق.

وبمقدار ما كان مهتما بتصحيح أصول العقيدة، وأحكام الدين فقد كان بعيدا عن الانشغال بالقشور والجزئيات، فقد نقل صاحب كتاب (هكذا عرفتهم) عن الشيخ عبد الحسين البشيري بأنه قال: بعدما أعاد قسما غير قليل من المغالين في تلك المناطق عن أفكارهم إلى حظيرة الحق، قال: لم يبق لدي شيء بعد أن غيرت تلك الطائفة عقائدها وطقوسها إلا أن أحملها على إكرام شواربها (وكانوا يقدسون الشوارب ويتعهدونها!) فقلت:(قال: البشيري) سأنتهز من زيارة الأربعين حيث يفد الزوار إلى كربلاء والنجف فرصة، لأعرض عليه الفكرة وأطلب منه أن يشير على من يزوره من تلك الطائفة إشارة خفيفة برغبته في إكرام الشارب، وتخفيفه على الأقل وأنا الضمين بأنهم سيفعلون ذلك عن طيبة خاطر إذا أحسوا برغبة السيد أبي الحسن.

وحين ذاكرت السيد أبا الحسن بذلك انتفض السيد وقال: ما لك وهذه القشور ولم لا تترك الناس على سجيتهم [1]!

٤. مرجعية الحضور الاجتماعي:

الذي ينظر إلى مرجعية السيد الاصفهاني يرى الوضع الاجتماعي والاهتمام بشؤون المجتمع أمرا حاضرا لديه، فهو حين يرى وضع طلاب العلم حرجا يقوم بالانفاق بسخاء على هذه الفئة المتفرغة للدراسة الدينية، فقد ذكروا أنه كان يؤمن نفقات البيوت المستأجرة لطلاب العلم والتي كانت بحدود مائتي (٢٠٠) بيت ليتفرغ الطلاب للتعلم والدراسة بعيدا عن هم الديون. ولو أردنا تحويلها لهذا الزمان لكان علينا أن نحسب أن تكاليف الايجار وحدها تتجاوز السبعين ألف دولار شهريا.

هذا فضلا عن رواتب أهل العلم التي وصلت كما قال بعضهم إلى (٢٠٠٠٠) عشرين

(١) هكذا عرفتهم ١٠٧.١.

ألف[١] وهو مبلغ لم يتيسر لمن كان قبله كما قال صاحب أعيان الشيعة.

وأما على المستوى الاجتماعي العام، فإنه بعد أن شحت الأرزاق على اثر الحرب، وقام بعض التجار الجشعين باستغلال هذا الظرف الضاغط، لكي يزيدوا من ارباحهم غير مبالين بحالة الناس العامة، قام بتشجيع عدد من التجار الأخيار لتأسيس تعاونيات تجارية وخصوصا في إيران تقوم بجمع الحبوب واحتياجات الناس العامة، وجعلها في مخازن لتوزيعها في السوق بنحو عادل يفسد على المحتكرين تخطيطهم في إغلاء الاسعار.

كما سعى في تأمين حاجات المؤمنين في عدد من مجتمعاتهم، فقد ذكروا أنه كان يأمر بارسال (٦١) طنا من القمح لتغطية حاجات المحتاجين في النجف وكربلاء والكاظميين وسامراء[٢].

بل كان يعطي للخبازين مبالغ مالية لكي يعطوا للفقراء من أهل العلم وعامة الناس الخبر مجانا.

٥. مرجعية الحكمة الادارية:

أن تكون عالما أو مرجعا دينيا لا يعني بالضرورة أن تنجح في معالجة الأزمات الاجتماعية، وذلك أن العلم ينتمي إلى جانب العقل النظري بينما الحكمة في المعالجة تنتمي إلى العقل العملي، ولهذا ربما وجدنا شخصا في أعلى الدرجات العلمية لكنه من الناحية العملية والادارية لا يمتلك نفس القدرة.

وقد اجتمع للسيد أبي الحسن الاصفهاني كلا القدرتين، بل ربما كان الجانب الثاني أظهر في مرجعيته.

إن الحكمة وإتيان الأمور من مداخلها الطبيعية، والذكاء الاجتماعي لهي من الصفات الأساسية التي يحتاج إليها المرجع لمعالجة الأمور. فإن الحقل الاجتماعي يختلف عن الشركة، كما يختلف عن المعسكر. وما يجري فيهما من طرق وأساليب قد لا ينفع في الحالة الاجتماعية.

(١) إن هذا المبلغ يعتبر بمقاييس تلك الفترة كثيرا جدا بملاحظة: أن رئيس الشرطة في بلدة العباسيات كان راتبه ١٤ دينار. كما يظهر من قصة السيد معه. وهذا يبين مقدار المصرف المذكور من السيد. وأن قيمة تأجير البيت كانت بحدود ٥ دينار. فإن المبلغ المذكور يعني راتب قرابة ١٥٠٠ شخص من هذه المرتبة. أو مقدار تأجير ٤٠٠ منزل!.

(٢) ديدار با ابرار: شمارة ٥٦ صفحه: ٥٧.

إن توظيف المال في حل المشاكل قد لا يكون مقبولا أو معقولا في المعسكر، لكنه يعد ممارسة ذكية في المجتمع. فـ(خير المال ما صين به العرض) و(خير المال ما أكسب ثناء وشكرا) (وأفضل المال ما استرق به الأحرار) كما في روايات أمير المؤمنين عليه السلام.

ولقد وجدنا هذه الجهة واضحة في مرجعية السيد الاصفهاني، ونذكر بعض ما نقله معاصروه ومؤرخو حياته:

رئيس الشرطة عندما يتغير:

فقد نقل حفيده السيد عبد الحميد عن السيد محمد حسين مير سجادي، ما يلي: أن رئيس شرطة العباسية كان من غير الشيعة، وغير ملتزم بالصلاة وشارب للخمر،وكان يخضع من سواه لسلطته وكأنه رئيس الدولة. وكان شديد القسوة على الناس عموما والشيعة خصوصا.

يقول: فلما زرت النجف ذكرت الأمر للسيد أبي الحسن،فقال لي: إذا رجعت للعباسية فقل لرئيس الشرطة إن السيد يسلم عليك ويطلب حضورك عنده!

خشيت يقول مير سجادي أنه لو علم بأني اشتكيت حالنا عندكم فسوف يزداد ظلما وعنادا.

قال السيد: سوف لا يعلم بأنك أخبرتني عن حاله معكم!

يقول: بعد رجوعي ذهبت لرئيس الشرطة وأخبرته، أن السيد يسلم عليك ويريد أن يتعرف عليك، فقال: لا علاقة لي به ومالي وللدين وعلمائه ومراجعكم؟ ثم تأمل قليلا وقبل، وقال: نذهب معا إلى النجف.

ذهبنا وعلمته بعض المراسم المرتبطة بزيارة الامام علي، ثم ذهبنا إلى بيت المرجع الكبير الاصفهاني، وقلت له: إن من آدابنا نحن الشيعة أن نقبل يد مراجعنا إجلالا واحتراما.

دخلنا على السيد الذي استقبلنا بحفاوة، ورحب به كأنه يعرفه منذ زمن. وجلست بعيدا عنهما وأنا في قلق من رد فعل رئيس الشرطة، عندما قال له السيد: إن الناس في العباسيات مسلمون وأنا سمعت أنك رئيس الشرطة هناك. فقال: نعم! فقال السيد: كم تعطيك الحكومة؟ قال:تعطيني أربعة عشر دينارا.

فقال السيد: عجيب: أنت رئيس شرطة ولك مصاريف كثيرة بحكم مكانتك بين الناس أظن هذا الراتب لا يفي بجميع احتياجاتك.

قال: نعم إنه قليل، ولكن لا بد من القناعة!

قال السيد: إن لدي في الحلة وكيلا يجمع الحقوق لي، وسوف أكتب لك رسالة إليه ليعطيك من تلك الأموال أربعة عشر دينارا كل شهر وهذا سر بيني وبينك ولا تطلع عليه أحدا.

وفرح رئيس الشرطة وهو يتصاغر بين يدي السيد، فأضاف السيد قائلا: تعلم أن هناك فرقا بين المال الذي تستلمه من الحكومة والمال الذي تستلمه مني، المال الذي تستلمه مني حلال لا يعطى إلا للمصلين، أما المال الذي تأخذه من الحكومة فهو خليط بالحرام ولعله حرام كله.

وقبل أن يخرج، ناداه السيد عند الباب وهمس في إذنه: لا تنس أن تواظب على صلاتك في أوقاتها لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتسعدك في الدنيا والآخرة!

وبعد عودته إلى بلده طلب من مرافقه المير سجادي أن يعلمه ويعلم عائلته الأحكام الشرعية وحسن سلوكه مع الناس، ولم يعد إلى الظلم والفساد [(١)].

وربما يتردد البعض في إنفاق المال في هذه الجهات، لكن لا ريب أن دفع الضرر عن المؤمنين وهداية شخص مع عائلته إلى الصراط المستقيم، تستحق إنفاق هذا المبلغ.

وشيخ القبيلة يتحول من عدو إلى صديق:

ومثل ذلك الانفاق في إزالة العوائق عن نشر العقيدة والأحكام، وتسهيل عمل المبلغين في هداية الناس، وكم كان للسيد الاصفهاني من تجارب نافعة لمن أراد أن يمارس الادارة الاجتماعية الحكيمة. فمن ذلك ما نقل من:

أنه قد أرسل أحد وكلائه إلى شمال العراق، ولعله الشيخ البشيري الذي مر ذكره غير أن رئيس قبيلة كبيرة هناك عارض تحرك هذا العالم، ولم يتمكن من القيام بدوره، فاشتكى العالم لمركز الشرطة. مدير الشرطة قال: إن الطريق الوحيد هو أن تطلب من المرجع الاصفهاني أن يتصل بوزير الداخلية حتى يأمرنا بمواجهة رئيس القبيلة مع قبيلته.

---

(١) قصص وخواطر ص ١٠٢ باختصار

العالم الذي تحمس للموضوع جاء عارضا الأمر على السيد أبي الحسن، وقدم له الاقتراح الذي ذكره مدير الشرطة.

فقال له السيد الاصفهاني: لكن عندي حلا أفضل.وكتب السيد رسالة إلى شيخ القبيلة ومعها خمسمائة دينار وهي كثيرة بحسب ذلك الزمان.

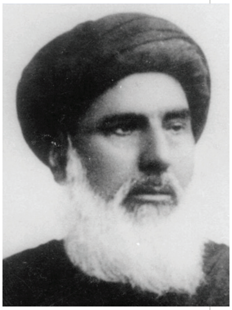
لما استلم شيخ القبيلة الرسالة ومعها المبلغ تغير، واعتذر عما بدر منه، وأمر قبيلته بأن يتعاونوا معه ويستمعوا إليه[1]. وكان هذا الحل لا شك أفضل من التصعيد والمشاكل.

(١) قصص وخواطر ٥٠٦. عن كرامات الصالحين.

فقه الخلاف للاتفاق والوحدة

السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي

١٢٩٠ - ١٣٧٧هـ



قامة شاهقة تقرب لك جيل الكبار من المؤسسين في المذهب. ذلك هو السيد عبد الحسين[١] شرف الدين.الذي جمع أطراف المجد في عباءة ثم لبسها، فهو ذلك العالم القدير المجتهد الذي كان (إماما في اللغة وعلوم العربية والمنطق والتاريخ والحديث والتفسير والرجال والرواية والأنساب والفقه والأصول والكلام) [٢]، وهو ذلك المناظر المحاور المتألق في حلبات النقاش كتابة وشفاها، الذي يحلق عاليا فوق الشبهات والاشكالات المثارة فينقض عليها واحدة بعد الأخرى فيدمرها تدميرا، (وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) [٣]، وهو المجاهد الثائر في وجه الاستعمار الفرنسي لكيلا يطرد هذا الجسم الغريب من أرض أجداده في جبل عامل، ولو واجه الاغتيال ومحاولات الاعتقال والمطاردة، والهجرة من بلد إلى بلد.

وهو المصلح الذي يخطط لانهاض أبناء مجتمعه عبر المؤسسات التربوية التعليمية والدينية الثقافية، الذي يتحرك بدأب وحماس مثيرا الهمم ومحرضا للعزائم، حتى يغير وضع منطقة الجنوب اللبناني وأهلها، فينقلهم من ظلمات الاستغلال والاستعباد إلى نور الاستقلال والحرية.

وهو داعية الوحدة بين المسلمين الذي لم يكل دعوة آتت ثمارا، وفي نفس الوقت المنافح عن حق الشيعة على المستويين النظري والعملي. وهذا من العجيب عند البعض.

---

(١) يوجد بين الشيعة من يسمى بعبد النبي وعبد الزهراء وعبد الحسين، وهكذا. وبطبيعة الحال ليس المقصود هنا بالعبودية، العبودية المساوية للعبودية لله، فهذا لا يجيزه الإمامية لغير الله عزوجل، وإنما هي عبودية الطاعة والاحترام، وهي هنا تماما مثلما عبر القرآن الكريم ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ (سورة النور: من الآية ٣٢) فهؤلاء ليسوا عبيد عبادة، وإنما عبيد طاعة.

(٢) كلمة آية الله العظمى الشيخ مرتضى آل ياسين في حقه. في مقدمة كتاب المراجعات.

(٣) الشورى: من الآية ٢٤.

ذلك أن هناك تصورا خاطئا عند أكثر من فئة:

فهناك بعض شيعة أهل البيت يرون أن الولاء لأهل البيت عليهم السلام هو في علاقة عكسية مع الدعوة للوحدة، فإذا أراد شخص أن يعلن عن شدة ولائه فلا بد أن يرفض الوحدة ودعوات التقارب مع باقي المسلمين، بل لقد أصبح قسم من هؤلاء الناس يقيسون مقدار (تشيع) الشخص بقلة اهتمامه بالطرف الآخر، بل بشدة مناكفته لهم، ويعرض هؤلاء عن كل صوت معتدل في الطرف الآخر السني، وكل توجه متوازن بينهم، وأي مشروع تعاون يستحق البناء عليه لمستقبل الأمة، بزعم أن التشيع لأهل البيت يعني هذا!

وبالطبع لا يعدم هؤلاء قضايا تاريخية، وروايات منقولة، وأجواء سياسية معاصرة، وزعماء في الطرف الآخر متشنجين، فيصبح كل ذلك وقودا في نار الخلاف المشتعلة أصلا، تزيد لهبها وأوارها.

وفي الطرف الآخر فإن هناك من السنة من يرون أن الوحدة لا يمكن أن تنسجم مع الدعوة إلى التشيع ونشر أفكاره! فإن ذلك كما يزعمون خطر على الأمة، وتهديد لنسيجها الاجتماعي، ولا يمكن لانسان أن يدعو إلى الوحدة وفي نفس الوقت يدعو إلى التشيع ويبشر بأفكاره! فالوحدة في رأي هؤلاء إبقاء ما كان على ما هو عليه ، وأن لا تحرك السواكن!

وقد أثبت السيد شرف الدين أعلى الله مقامه للطرفين خطأ توجههما، فإننا لا نعرف في العصر الحديث شخصا كتب بمقدار وكفاءة وعمق ما كتب السيد شرف الدين في القضايا (الشيعية) سواء على مستوى الأصول العقدية، كالامامة (في المراجعات)، أو منشأ الخلافات الفقهية كما في النص والاجتهاد وأبي هريرة، أو في الفروع الفقهية محل الاختلاف كما في (مسائل فقهية) وغيرها، لا نعرف شخصا كتب بهذا المقدار كما سيأتي في تعداد كتبه ولا بهذا العمق ولا بتلك الكفاءة والاسلوب المتميز، كما صنع شرف الدين وفي نفس الوقت لا نعرف أحدا في نفس الوقت كانت قضية التقارب والوحدة بين المسلمين شغلا له كما كانت للسيد شرف الدين.

ربما انشغل الكثيرون في المسائل الخلافية والكتابة فيها والحماس لها، وانشغل غيرهم بقضايا الوحدة والتقريب والسعي في أمورها، ولكن أن يجمع شخص طرفي هاتين المسألتين في وقت واحد وبمستوى واحد من الاهتمام، فهذا لا نجده عند أحد كما نجده عند شرف الدين رحمه الله.

هلم معي عزيزي القارئ! نلج في رحاب هذا العالَم الواسع، والعالِم الموسوعي الذي اسمه شرف الدين، من بوابة تأريخه لنفسه[١] معتمدين بشكل أساس على ما ذكره عن حياته، ويكون دورنا في ذلك استكشاف مواضع العبرة والاقتداء.

ها هو السيد بعد أن طوى مقدمات العلوم على يد والده السيد يوسف الذي سرعان ما رأى الإبن (استاذا يغدو على التدريس بسعة ذرعه، ويروح على البحث بشهامة طبعه) يغادر إلى العراق سنة ١٣١٠هـ فيبدأ في سامراء درسه حين كانت تعج بطلاب درس الميرزا الشيرازي الكبير ﷫، إلى أن حدثت في سامراء الفتنة الطائفية التي أثارها أجناد الطامعين، عندما حاول هؤلاء تسور بيت الميرزا وإهانته! ثم رموه بالحجارة.

كانت النجف الأشرف هي المحطة الثانية التي أكمل فيها جميع السطوح العالية من فقه وأصول ولغة وفلسفة، وانتقل بعدها إلى بحوث الخارج؛ فحضر بحث الآخوند الشيخ محمد كاظم الخراساني في الأصول، وكان في حينه الدرس الأعظم في الأصول، وأما الآخوند الذي تأثر به السيد شرف الدين فإنه لم يجد (أدق منه نظرا ولا أحضر منه ذهنا، ولا ألحن منه بحجة يثبت رأيه بالبينات القاطعة والحجج الملزمة مستظهرا بدليل العقل والنقل) [٢].

وأما في الفقه فقد عكف على عَلَمي الفقه الشيخ آقا رضا الهمداني، حين كان يؤلف كتابه الشهير مصباح الفقيه الذي كان (أعدل المؤلفات في موضوعه وأفضلها دقة وحسن أسلوب)، ونظيره الشيخ محمد طه نجف الذي (كان في فقه أهل البيت موسوعة جامعة وعيلما محيطا فالفقه بجميع أبوابه في يده ولعله يمتاز بهذه الخصيصة عن غيره). كما حضر عند شيخ الشريعة الاصفهاني، والشيخ عبد الله المازندراني.

واستفاد في علم الرجال والرواية من الشيخ حسين النوري صاحب مستدرك الوسائل.

وهكذا بقي في العراق مدة اثنتي عشرة سنة لم ينشغل فيها بغير العلم والبحث، حتى وصل إلى درجة الاجتهاد المطلق كما أقر بذلك له غير واحد من أساتذته، ليعود إلى بلده (شحور) في سنة ١٣٢٢هـ.

(١) من كتب السيد شرف الدين المطبوعة: بعية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين، وقد ضمن هذا الكتاب في الخاتمة سيرته الذاتية. وقد قام مركز العلوم والثقافة الإسلامية مشكورا بتحقيق وطباعة (ما وجد من كتبه رحمه الله تحت عنوان: موسوعة الامام السيد عبد الحسين شرف الدين.

(٢) ما بين الهلالين هو من كلمات السيد شرف الدين من فصل سيرة حياته من كتاب (بغية الراغبين) من مواضع متفرقة.

ولما كان والده لا يزال موجودا فلم يشأ احتراما له أن يتصدى للأمور العامة، لمدة ثلاث سنوات حتى جاء أهالي صور وهي مركز القضاء إداريا وطلبوا منه المجيء إليهم والعمل على إقامة الأمور الدينية هناك.

النهضة الدينية والعلمية في صور:

بحماس المقاتل، وحيوية الثائر، وعنفوان الشاب وصل السيد إلى صور سنة ١٣٢٥هـ، وأثاره الوضع الاجتماعي الراكد والمنهزم لشيعة أهل البيت في هذه المنطقة، ليصرخ فيهم مستنهضا الهمم للتغيير قائلا (لا جامعة لنا ولا مجمع ولا جماعة ولا جمعية ولا جمعة ولا عيد ولا أذان ولا عنوان ولا مدرسة ولا ولا!).

وتأثر السيد كثيرا لما رآه من أن المتنفذين وأهل المال هم من يعيقون التغيير والنهضة، فلم ينتظرهم بل قام يبث في غيرهم، حتى تبرع أحدهم ببيع بيته الذي اشتراه السيد منه بثمنه، وأوقفه حسينية تكون (مجمعا للطائفة ومثابة لها أوقات الفرائض الخمس).

ومسجد أسس على التقوى:

من أكثر ما ابتلي به السيد شرف الدين رجال الاقطاع وبعضهم من أتباع المذهب اسما وتصنيفا الذين كانوا عون كل سلطة ظالمة على كل تحرك اصلاحي، ففي وقت سابق كانت السلطة العثمانية المحلية قد صادرت المسجد الشيعي الوحيد الذي كان مبنيا من السابق، وحولته إلى إدارة الأوقاف، وعينت له إمام جماعة من غير أتباع المذهب الشيعي[١]، وصار أتباع أهل البيت الذين يصلون فيه كثيرا ما يتعرضون للإهانة والأذى!

في هذا الوقت لم يحرك هؤلاء ساكنا في توفير مسجد لأهلهم، فلما عثر الزمان بهم وأصبحوا محل غضب السلطة العثمانية، استفاد السيد من الفرصة وأبرق للسلطان (محمد رشاد) الذي جاء بعد السلطان عبد الحميد واستماح منه أرضا كانت في قبضة الحكم العثماني ليبنى عليها جامع لشيعة أهل البيت، واستجاب السلطان فعلا.

وبالرغم من سيطرة الفرنسيين على هذا المكان وعدم سماحهم بالبناء فوقه، إلا أن

(١) بغية الراغبين. ٥٥٥

همة السيد لم تكن لتتوقف فانتخبت أرض أخرى وبني عليه مسجد شيد على التقوى والعمل الصالح.

ومؤسسات علمية عصرية: ثالثة أثافي البناء الانساني

كان يرى السيد شرف الدين أن أحد منافذ الشر كان المعاهد التي سماها بالمسمومة والتي تخدم أهداف الاستعمار الغربي، وأن طريق المقاومة يبدأ من البديل الايجابي المناسب، لا التحريم والمقاطعة فقط، ولذا شد العزم على إنشاء مؤسسات علمية تبدأ من روضة الأطفال مرورا بالمدرسة الجعفرية ابتدائية ومتوسطة وثانوية وانتهاء بالكلية الجعفرية، وتخاطب كافة فئات المجتمع الجنوبي حيث كانت مجانية، بل كانت تساعد الفقير بلوازمه المدرسية.

الموقف تجاه الفرنسيين:

مع هزيمة الأتراك في الحرب وتقاسم تركتها من قبل الحلفاء، دخل الفرنسيون لبنان وسيطروا عليه، وكان جبل عامل محل تواجد السلطة الفرنسية بشكل واضح نظرا لما يمثله من نقطة التقاء بين دول متعددة.وتزعم السيد شرف الدين الحركة السياسية المواجهة للفرنسيين. فـ (طيرنا كما قال في سيرة حياته برقيات وأرسلنا عرائض عبرت عن آمال البلاد وأمانيها في جلاء فرنسا عنا واعتزالها الحكم فينا) و (كان لنا مواجهات مع المسيطرين من الفرنسيين كبيكو وغورو وشبرنتيه ودلبستر ونيجر).

وقد واجه الفرنسيون حركة السيد بمحاولة اغتياله بواسطة أحد رجال الأمن العام، الذي جاء شاهرا مسدسه عليه فما كان من السيد في حركة مفاجئة إلا أن ركله برجله وأسقط المسدس منه، ثم هوى عليه بالحذاء ضربا.

ومحاولة الاغتيال هذه ما زادت السيد إلا تصميما، وعامة الناس إلا التفافا حوله، فها هو يتنقل من مكان إلى آخر محشدا للجموع ومخاطبا للجماهير في قضية التحرير والاستقلال[1].

وفي المقابل كانت السلطة العسكرية الفرنسية وهي ترصد حركة السيد تعد لاغتياله

(١) لمعرفة تفاصيل هذه التحركات يمكن مراجعة الكتاب القيم للسيد منذر الحكيم: حياة الامام السيد عبد الحسين شرف الدين: مدخل الموسوعة السابقة.

أو اعتقاله، فجردت حملة عسكرية مع فجر أول يوم من شهر رمضان ١٣٣٨هـ، قاصدة اعتقاله أو اغتياله بينما (نهضت مسرعا إلى أرديتي وانسللت أتخطى الأزقة والمضايق ثم خرجت من بين العسكر وهم لي منكرون وتركتهم يتظننون وانسحبت أهبط الوادي إلى عار على شاطئ الليطاني، كان لجأ إليه جدنا السيد صالح في محنة الجزار). هذا في شحور.وكان الفرنسيون قد وجهوا جماعة أخرى إلى داره في صور ولما لم يجدوه هناك أحرقوا الدار والمكتبة وفيها من نفائس مخطوطاته التي لا توجد عند غيره!

خرج السيد من الجنوب اللبناني ذاهبا إلى دمشق، وتبعه الفرنسيون للقبض عليه فيها، فهاجر إلى فلسطين وبعدها إلى مصر.

رائد الوحدة وبطل الحوار العلمي:

في كل أسفاره كان الداعية لوحدة المسلمين وشعاره أن (لا تقولوا بعد اليوم هذا شيعي وهذا سني، بل قولوا هذا مسلم! فالشيعة والسنة فرقتهما السياسة، وتجمعهما السياسة، أما الإسلام فلم يفرق ولم يمزق، الإسلام جمعهما بـ «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»).

غير أن السفر المهم الذي أنتج شيئا خالدا وباقيا من الحوار، هو سفره إلى أرض الكنانة مصر حيث اجتمع فيها مع شيوخها وعلمائها وأنتجت تلك اللقاءات بعد تعزيز خط الوحدة والحوار والتقارب المذهبي، حوارا متصلا استطاع فيه السيد شرف الدين أن يبين صورة مذهب شيعة أهل البيت بما لا يفوقه البيان وأن يبرهن على أفكارهم بخير برهان. وتمم الخير بطبعه تلك الحوارات بعنوان (المراجعات الأزهرية) والذي عرف باسم المراجعات.

قصة المراجعات:

لن تجد خيرا من صاحب القضية (العدل) يخبرك عنها ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ فسنقتصر على كلمات السيد عبد الحسين[1] في نقل هذه القصة مع الاختصار:

بدأت جولة السيد في مصر التي وصلها أواخر سنة ١٣٢٩هـ، (في دورة الشيخ سليم البشري المالكي شيخ الأزهر، وكان يشرف على طلابه من منبره وهو منطلق في درسه

(١) بغية الراغبين. ٣٤٢٥.

انطلاقا يلحظ فيه توفره وضلاعته فيما هو فيه، وكان يلقي درسا في مسند الامام الشافعي، فكان يعرض أول ما يعرض للسند فيترجم رجال سلسلته باختصار حتى إذا انتهى إلى الحديث نفسه فصل الكلام حوله بإفاضة فوقف إلى لغته وقفة أدبية ثم خطا إلى مورده ومفاده فإن كان في سبيل حكم من الأحكام ذكر ذلك ولا يفوته ذكر الأصول العملية والقواعد العلمية عند الاقتضاء كما لم يكن يفوته التعرض لأقوال الأئمة في المسائل الخلافية ولا تفوته مدارك الخلاف فإذا كان الحديث معارضا جمع بينهما فيما يمكن فيه ذلك، أو رجح أحدهما صادعا بوجه الترجيح.

حضرت درسه لأول مرة وهو يسترسل فيه على هذا النحو، وعرض لي أثناء الدرس ما يوجب المناقشة فناقشته، ثم علمت بعد ذلك أن المناقشة وقت الدرس ليست من الدراسة الأزهرية، فكنت بعدها أفضي إليه بعد الدرس بما عندي من المسائل الجديرة بالبحث والمذاكرة.

وكانت مناقشتي الأولى في كل حال سببا في اتصال المودة بيني وبينه وسبيلا إلى الإحترام المتبادل ثم طالب الاجتماعات بيننا وتشاجنت الأحاديث وتشعب البحث بما سجلناه في كتابنا (المراجعات).

ولو لم يكن من آثار هذه الزيارة إلا هذا الكتاب لكانت جديرة بأن تكون خالدة الأثر في حياتي على الأقل).

ومن خلال مقدمة تلك المراجعات التي بلغت (١١٢) مراجعة، نلحظ غرض هذا الحوار وأسلوبه والطريق الذي يسير فيه فها هو السيد شرف الدين يخاطب الشيخ البشري «هلم إلى المهمة التي نبهتنا إليها من لم شعث المسلمين، والذي أراه أن ذلك ليس موقوفا على عدول الشيعة عن مذهبهم، ولا على عدول السنة عن مذهبهم وتكليف الشيعة بذلك دون غيرهم ترجيح بلا مرجح، بل ترجيح للمرجوح، بل تكليف بغير المقدور، كما يعلم مما قدمناه. نعم يلم الشعث وينتظم عقد الاجتماع بتحريركم مذهب أهل البيت، واعتباركم إياه كأحد مذاهبكم، حتى يكون نظر كل من الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية إلى شيعة آل محمد ﷺ وسلم كنظر بعضهم إلى بعض، وبهذا يجتمع شمل المسلمين وينتظم عقد اجتماعهم. والاختلاف بين مذاهب أهل السنة لا يقل عن الاختلاف بينها وبين مذهب الشيعة تشهد بذلك الألوف المؤلفة في فروع الطائفتين وأصولهما، فلماذا ندد المنددون منكم بالشيعة في مخالفتهم لأهل السنة، ولم ينددوا

بأهل السنة في مخالفتهم للشيعة؟ بل في مخالفة بعضهم لبعض، فإذا جاز أن تكون المذاهب أربعة، فلماذا لا يجوز أن تكون خمسة؟ وكيف يمكن أن تكون الأربعة موافقة لاجتماع المسلمين، فإذا زادت مذهبا خامسا تمزق الاجتماع، وتفرق المسلمون طرائق قددا؟ وليتكم إذا دعوتمونا إلى الوحدة المذهبية دعوتم أهل المذاهب الأربعة إليها، فإن ذلك أهون عليكم وعليهم ولم خصصتمونا بهذه الدعوة؟ فهل ترون أتباع أهل البيت سببا في قطع حب الشمل ونثر عقد الاجتماع، وأتباع غيرهم موجبا لاجتماع القلوب واتحاد العزائم وإن اختلفت المذاهب والآراء، وتعددت المشارب والأهواء، ما هكذا الظن بكم، ولا المعروف من مودتكم في القربى»[1].

كتبه الأخرى

أعجبني ما أشار إليه الآية العظمى الشيخ مرتضى آل ياسين، من أن الذي يُمنى بما مُني به السيد شرف الدين ويعاني ما عانى من ظروف سياسية ومشاكل اجتماعية لينصرف عن الكتابة والتأليف، فكيف إذا كان مع كل هذا يؤلف بغزارة من حيث العدد وبعمق في كل كتاب في نفس الوقت! والحق كما قال.

فإننا حين نفتح أعيننا على عدد الكتب الواصل إلينا «ونترك قريبا من ١٣ كتابا تم إحراقها في مكتبته الخاصة في صور على يد الفرنسيين ولم يكن لديه نسخة أخرى، ولم يتيسر له أن يعيد كتابتها» فإننا نجد أنفسنا أمام عدد جم من الكتب، وكل كتاب هو واحد في فنه وموضوعه! وقد توزعت هذه الكتب بين الفقه الاستدلالي، وبين علم الكلام والعقائد والمسائل الفقهية الخلافية، وقد أنهى أعلى الله مقامه أسماء كتبه في بغية الراغبين إلى ٣٤ كتابا.

فمنها:

الفصول المهمة في تأليف الأمة: وهو محاولة تأصيلية رائعة لابعاد مشكلة التكفير لأهل القبلة وإيجاد أصول يتفق عليها الجميع، وأن اجتهاد هذا الفريق أو ذاك يلزمه ولا يلزم الآخرين، داعيا في كل ذلك إلى الوحدة التي لا تتسق أمور العمران ولا تنبث روح المدنية إلا بالتمسك بها.

(١) المراجعات – السيد شرف الدين – ص ٦٣ – ٦٤.

والنص والاجتهاد : ويبين فيه الأساس الذي صنع الاختلاف بين المذهبين الأساسيين في الأمة، وقد أرجع ذلك إلى اجتهاد بعض الصحابة أو التابعين في أمور قد ورد فيها النص الصريح ولم يكن هذا سائغا، وقد أورد مائة مورد من تلك الاجتهادات في مقابل النصوص الثابتة.

وأبو هريرة: يعد أبو هريرة الدوسي من أكثر شخصيات الصحابة إثارة للجدل في تاريخ المسلمين، ففيما يراه فريق من المسلمين راوية الإسلام لكثرة ما روى من الأحاديث التي اعتمدوها، شكك فريق آخر (ومنهم صحابة معروفون) في الاعتماد على رواياته، ولم يقبلوها، وقد درس السيد شرف الدين حياة هذا الصحابي وظاهرة كثرة الحديث التي عرفت عنه دراسة موضوعية متقنة.

وأجوبة مسائل جار الله: في مقابل دعوات السيد شرف الدين للوحدة والتقارب والتأصيل لهذا الهدف والسفر من أجله، كان هناك ولا يزال خط يرى أن بقاءه رهين بقاء التشنج المذهبي والاثارة الطائفية، ولذلك لا يفتأ يورد اتهامات وكلاما سبق الاجابة عليه كرات ومرات (وكأنه قد جاء بشق القمر)، وموسى جار الله التركستاني، كان في هذا الاتجاه، وقد وجه في الوقت الذي كانت فيه الثورة الروسية الشيوعية تحتل بلاده وسائر بلاد المسلمين في تلك المنطقة عشرين مسألة تحدى (بزعمه) فيها علماء الشيعة أن يجيبوه عليها(تماما كما يقول أمثاله)، قال السيد شرف الدين (وقد تجلى في أجوبتنا شططه في مسائله وأنها ليست إلا ضربا من التخرص ونوعا من الخبط والخلط أراد بها شعث الأمة وشق عصاها فخصمناه وخطمناه ورده الله بغيظه صاغرا قميئا).

والنصوص الجلية في إمامة العترة الزكية قال عنه: إنه يشتمل على ثمانين نصا؛ أربعين منها مما جاء من طريق الجمهور، وأربعين مما انفردت به الإمامية.

والمجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة: مثلما كان السيد ﷺ حريصا على إقامة شعائر أهل البيت ﷺ ومناسباتهم، كان حريصا أيضا على إصلاحها، وتنزيهها عما يشينها من العادات، أو المبالغات والروايات غير الصحيحة،

وشرح التبصرة (في الفقه) شرح استدلالي مزجي: خرج منه كتاب الطهارة وكتاب القضاء والشهادات وكتاب المواريث.

تعليقة على استصحاب رسائل الشيخ الأنصاري (في أصول الفقه).

وغيرها.

رحم الله عملاق الاصلاح، وداعية الوحدة، وإمام المذهب.

شيخ المحققين

آغا بزرك الطهراني

١٢٩٣- ١٣٨٩هـ



لم يكن الكثير ممن حضر مجلس لبسه العمامة يتوقع أن يكون للطالب الصغير محسن الذي اعتمر العمامة وعمره عشر سنوات يتوقع أن يكون من صناع المجد في تاريخ العلم الديني بهذا المستوى، بالرغم من أن مخايل الذكاء والنباهة كانت تلوح عليه. الأمر الذي جعل بعضهم يطلق عليه وهو في ذلك العمر: آقا بزرك[١].

وقد نشأ في مدينة طهران حيث مولده، ودرس فيها مقدمات العلم الحوزوي التي تشتمل بالإضافة إلى الخط والحساب على قواعد اللغة العربية، والمنطق، والأصول والفقه.

وبعد أن أخذ شطرا مهما من مقدمات العلوم تلك، وبلغ الدراسة العالية (بحث الخارج) هاجر إلى النجف الأشرف في العراق، والتي كانت في تلك الفترة كبحر مواج من التحقيق العلمي، أيام الميرزا محمد تقي الشيرازي، والآخوند الخراساني، والسيد كاظم اليزدي، والنوري الطبرسي، وأمثالهم. بقدر ما كانت على صفيح ساخن من حيث النقاش السياسي الدائر بين أتباع المشروطة والذين كانوا يطالبون بالدستور في إيران ونزع الصلاحيات الاضافية من الشاه، وتمكين المجلس المنتخب من الرقابة على ما يحصل في المجتمع والدولة. وكان في طليعتهم استاذه الآخوند الخراساني. وبين أتباع (المستبدة) والذين كانوا يخشون من عواقب سيطرة التيار التغريبي العلماني على حركة الشارع المؤمن المخلصة، وتجيير تلك الحركة لصالح أولئك التغريبيين، فوقف بعض العلماء من مؤيدي المستبدة موقفا متحفظا تجاه الحركة الدستورية.

على وقع هذا الاختلاف السياسي كانت النجف الأشرف تعيش

(١) تعني الكلمة في اللغة الفارسية السيد الكبير، وتطلق في مقام الاحترام والتعظيم. وتنطق (كاف بزرك، بما يشبه الجيم المصرية.

صراعا فكريا، وانقساما اجتماعيا أيضا، وكان الشيخ آقا بزرك الطهراني ممن ناصر فكرة أستاذه الآخوند في الدفاع عن الحركة الدستورية والمطالبة بالحريات وتقليص تحكم الشاه. وقد مر حديث عن تلك الأجواء في ذكر حياة الآخوند الخراساني والسيد اليزدي.

في المجال العلمي أتيح للشيخ الطهراني أن يحظى بالدراسة بل الاختصاص بعدد من الأعلام كل منهم يمثل قمة مدرسة في ذلك الزمان، أحدهم الشيخ محمد كاظم الخراساني المعروف بالآخوند والذي يعد رأس المدرسة الأصولية والذي انتهت إليه في زمانه زعامتها بلا منازع وهو صاحب كتاب كفاية الأصول الذي لا يزال الكتاب الدرسي الأول في المراحل المتقدمة من الأصول قبل لبحوث الخارج، والعمدة الذي يعتمده مدرسو بحوث الخارج كمنهج يسيرون عليه.

وثانيهم: السيد كاظم الطباطبائي عميد الفقهاء في زمانه، صاحب كتاب العروة الوثقى الذي صار منذ تأليفه حتى اليوم محور الدرس في البحث الفقهي العالي وقد ترجمه في نقباء البشر وذكره بأعظم كلمات الثناء.

وثالثهم: المحدث الميرزا حسين النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠هـ) والذي ترجمه تلميذه الطهراني بكل إعجاب وإكبار واصفا إياه بإمام أئمة الحديث والرجال في العصور المتأخرة، وقد لازمه ست سنين كما قال ملازمة الظل، ثم شرح بعض صفاته وما عرفه عنه[(١)].

وقد استفاد خلاصة أفضل ما في المدرستين من تحقيق ودقة عقلية، وتتبع أثري وخبري، فأنتج ذلك شخصية المحقق الطهراني.

هذا فضلا عن عدد من الأساتذة الذين ساعدوا في تكوين هذه الشخصية العالمة. مثل الشيخ محمد تقي الشيرازي، وشيخ الشريعة الاصفهاني، والشيخ محمد طه نجف والميرزا حسين الخليلي. وغيرهم.

إنتاجه العلمي:

لم يتوقف المحقق الطهراني آقا بزرك عن التحقيق والكتابة والتتبع، إلى أواخر أيام حياته فقد كتب ترجمة العلامة البياضي العاملي، وعمره ستة وتسعون سنة، وهو يقول

(١) يراجع مقدمة مستدرك الوسائل، طبعة مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

أكتب هذه المقدمة مع رعشة يد، وضعف بدن ونحول، وكنت أتمنى لو أنني في زمان آخر حيث يطاوعنى البدن كما كنت في أيام الشباب!

كيف ينشأ من السلب إنتاج عظيم؛ قصة الذريعة:

يمر الكثير من الناس ولا سيما أرباب التوجهات على مشاكل، أو تواجههم تحديات أو تهم. فكيف يتعاملون معها؟

هم ينقسمون في هذا على أقسام:

القسم الأول: من لا يهتم ولا يثيره هذا التحدي أو التهمة والمشكلة، وتكاد ترى أنه لكثرة ما مر عليه من الكلمات والتهم، قد تصلب إلى الحد الذي (يعطيهم أذنا صماء). وهذا هو حال كثير من الناس.

القسم الثاني: من يكون لديه رد فعل مؤقت، يتمثل في انفعال نفسي وحنق مثلا، أو لعن باللسان، أو مظاهرة صاخبة، أو ما شابه، فلا يلبث بعد أن تبرد الأزمة أن يرجع كل شيء إلى ماكان. ولعلنا نجد في ما مارسه كثير من المسلمين في ردهم على الرسام الدانماركي الذي تعدى على مقام رسول الله ﷺ فيما عرف بمشكلة الرسوم الكاريكاتيرية مثالا واضحا لهذا القسم، فما مرت ستة أشهر على الحادثة وتداعياتها حتى هدأ كل شيء ولم يعد الأمر مثيرا لأحد.

والقسم الثالث: هو من يتخذ من المشكلة أو التحدي وقودا لبرنامج إيجابي طويل المدة يقضي على منشأ تلك المشكلة والمتمثل في الجهل وعدم المعرفة. وهذا هو النحو المطلوب الذي ينبغي أن يكون عليه العلماء والمحققون. فإن جزءا كبيرا من المشكلة راجع إلى الجهل وإن الآخرين لو قدمت لهم المعرفة لانصاع كثير منهم إلى القبول.

وقد قدم المحقق الطهراني وبعض معاصريه من العلماء نموذجا رائعا في هذا الصدد، وإن كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة الذي جمع فيه قرابة (خمسة وخمسين ألف كتاب ورسالة) مما ألفه الشيعة في مختلف أزمنتهم، لهو جهد ينبغي الاقتداء به من قبل العلماء والعاملين.

١. الذريعة إلى تصانيف الشيعة:

قالوا: إن سبب تاليف المحقق الطهراني لكتاب الذريعة[١] كان بالاضافة إلى ما ذكره من تعليقات وحواش على كشف الظنون الذي ألفه مصطفى عبد الله المعروف بملا كاتب جلبي. «وكان الباعث على تأليف الذريعة هو ما ذكره (جرجي زيدان) في كتابه» تاريخ آداب اللغة العربية ط ١٩١١ م حينما تحدث عن الشيعة فقال ما خلاصته: الشيعة طائفة صغيرة لم تترك أثرا يذكر، وليس لها وجود في الوقت الحاضر. فدفع هذا القول بالشيخ آغا بزرك ورفيقيه في العلم السيد حسن الصدر المتوفى عام ١٣٥٤هـ والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء المتوفى عام ١٣٧٣هـ أن يتعاهدوا ويأخذ كل واحد منهم على عاتقه بيان جانب من جوانب الثقافة الشيعية الغنية والتعريف بها.

وقد تقرر أن يبحث العلامة السيد حسن الصدر حول الآثار العلمية الشيعية، وبيان فضل الشيعة، وسهمهم في تأسيس علوم الإسلام، وظهرت ثمرة بحثه في كتابه «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام «الذي طبع بمساعدة الشيخ نفسه عام ١٣٧٠هـ.

أما العلامة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء فقد تقرر أن يكتب نقدا لكتاب جرجي زيدان «تاريخ آداب اللغة العربية «ويكشف عن كل أخطائه فيه، وقد نفذ هذه المهمة، وكتب نقدا علميا جامعا للكتاب بمجلداته الأربع وأما الشيخ آقا بزرك فقد تعهد أن يكتب فهرسا يجمع فيه أسماء كل مؤلفات الشيعة [٢].

والذريعة كتاب في ٢٩ مجلدا، ومجموع عناوين الكتب التي ذكرها فيه، يقارب ٥٥ ألف عنوان.

والاحاطة بهذه الكتب والوصول إلى أماكن وجودها، والتمييز بين مؤلفيها، وعناوينها، وغير ذلك يحتاج إلى تتبع كبير.

كما أن المحقق الطهراني ﵀ قام بعدد غير قليل من التحقيقات التاريخية في ثنايا حديثه عن هذه الكتب، وقد وقعت تحقيقاته محل القبول والاستفادة ممن جاء بعده.

حفظ المحقق الطهراني أعلى الله درجاته بعمله ذلك الذي لم يكن مسبوقا به من أحد بهذا النحو، الآلاف من عناوين الكتب عن الضياع، ومكن المحققين ممن أرادوا

---

(١) الذريعة تعني الوسيلة.

(٢) مقدمة كتاب تاريخ حصر الاجتهاد، نقلا عن محمد رضا الحكيمي في مقال في مجلة الهادي العدد الخامس، السنة الرابعة،

التعرف على هذه الكنوز التراثية من معرفة أماكنها، والوصول إليها لتحقيقها وإحيائها من جديد، كما رد بأبلغ رد على مقالة أن الشيعة لم يتركوا أثرا علميا مهما. بذكر مآثرهم في العقيدة والفقه وأصوله، والسيرة والتاريخ واللغة العربية والأدب والشعر، والرجال والتراجم، والتفسير وعلوم القرآن المختلفة، وغيرها.

وقد أحصى بعض الباحثين[١] العناوين التي تطرق إليها المحقق الطهراني في الكتاب، فجاء بهذه النتيجة، وهي لا تشمل بطبيعة الحال كل العناوين:

أ. الاجازات العلمية والروائية ٨٠٦

ب. الكتب والأصول الحديثية ١١٧

ج. العقائد وأصول الدين ٩٤

د. الامامة ١١٩

ه. تفسير القرآن ٣٥٥

و. شرح نهج البلاغة ٨٦

ز. سيرة الحسين ٢٠٠٠

٢. طبقات أعلام الشيعة:

كان المحقق الطهراني في أثناء تأليفه لكتاب الذريعة، يسجل ملاحظات ويحفظها في ملفات مختلفة حتى إذا أنهى كتاب الذريعة كان لديه عدد هائل من الملاحظات والتهميشات، في حياة مؤلفي وأعلام الشيعة الذين ذكر أسامي كتبهم ومواضيعها في الذريعة، فقام فيما بعد بتنظيمها وترتيبها وأصبحت كتابا جديدا في تراجم العلماء والأدباء منذ القرن الرابع الهجري حتى القرن الرابع عشر. وقد خرج هذا بصورة كتاب تاريخي في تراجم أولئك الأعلام يقع في ثلاثين مجلدا، رتبه على أساس القرون بعناوين مستقلة مثل (نوابغ الرواة في رابعة المئات، النابس في القرن الخامس، الثقات العيون في سادس القرون..) وهكذا.

٣. تقريراته لدرس أساتذته في الفقه والأصول كالآخوند الخراساني، وشيخ الشريعة

(١) سردرودي، محمد صحتي. آقا بزرك اقيانوس بزوهش (محيط التحقيق) فارسي.

)الاصفهاني.

٤. تعريف الأنام بالمدنية والإسلام.

٥. تاريخ حصر الاجتهاد.

٦. النقد اللطيف في نفي التحريف عن القرآن الشريف.

٧. واقعة الطف الخالدة

٨. الكشكول

بالإضافة إلى عدد كبير من الدراسات ومقدمات الكتب والتقريظات.

لقطات:

قد ذكر مترجموه الكثير من لقطات حياته تصلح أن تكون كل منها محل اقتداء وتأس من قبل المؤمنين، فمن ذلك ما ذكره صاحب أعيان الشيعة آية الله السيد محسن الأمين، في لقائه به أول الأمر وكيف كان يسعى بدأب.

قال السيد الأمين ما ملخصه، إنني كنت ولأجل جمع وتهيئة المعلومات لكتاب (الأعيان) قد ذهبت لمكتبة شيخ العراقين في كربلاء، وطلبت من مديرها البقاء فيها اسبوعا، فقبل بشرط أن يتولى هو الضيافة، وفي ليلة قال المضيف لي: لدينا الليلة ضيف هو آقا بزرك، ولم أكن أعرفه قبلها، بل أسمع عنه ولما رأيته لم يكن مجرد مؤلف في المصنفات وإنما هو بحر من المعلومات في الفقه والفلسفة والأصول، وفي الساعة الرابعة والنصف غلب علي التعب فنمت مدة وجلست بعد مدة وهو لا يزال يبحث ويقرأ.

كما أن قصة طباعة الذريعة هي بنفسها تشير إلى الجهد بل الجهاد الذي بذله مؤلفها المحقق الطهراني، فقد أنجز الأجزاء الثلاثة الأولى أيام العهد الملكي في العراق، وكان يفكر في طباعتها، غير أنه لم يكن لديه المال اللازم لذلك، وساق الله سبحانه له أحد التجار الايرانيين والذي تفاعل مع المشروع، فأعطى المحقق الطهراني مالا يكفي لشراء مطبعة

وهنا وقبل طباعة الكتاب جاءه مندوب من وزارة المعارف العراقية (محل وزارة

الإعلام اليوم) قائلا له بأنه لا حق له في طباعة الكتاب، لأنه لا يسمح لشخص ايراني أن يمتلك مطبعة في العراق!

الشيخ أعطى المطبعة لشخص عراقي وسجلت باسمه للتغلب على هذه المشكل، وطبع الكتاب أخيرا، ولكن هل انتهت المشاكل؟ كلا، فقد منعت وزارة المعارف التي كان يحكمها توجه طائفي مضاد لمنهج أهل البيت، أن يباع الكتب وأمرت بأن يسحب من الأسواق التي وصل إليها! لماذ؟

قالوا لأن اسم المؤلف إيراني! وهو يوضع على الغلاف؟

فرأى المحقق الطهراني أنه لن ينتفع بهذه المطبعة مع كل العقبات التي توضع أمامها، فاستأذن من دافع المال بأن يبيعها، ليطبع بثمنها الكتاب خارج العراق!

وقد تكرر في زمانه ما كان قد حدث في الأزمنة الماضية، التي شهدت مصادرة الكتب التي تنتمي للمدرسة الإمامية، وإتلافها، والمنع من تداولها كما يلاحظ الباحث والمؤرخ ذلك. هذا مع أن الكتاب لم يكن سوى فهرس لمصنفات الشيعة في الفنون العلمية المختلفة!

وقد استمر على هذا المنوال يؤلف ويحقق ويكتب إلى أواخر عمره، فها نحن نجده وهو يكتب ترجمة العلامة البياضي العاملي، وقد قارب المئة من الأعوام، مع رعشة يد وضعف بدن ويقول إنني اعتذرت عن ذلك، وكنت أتمنى لو كان هذا في أيام الشباب حيث كان البدن مطيعا.

وقد صدق الأديب والباحث المسيحي د. يوسف داغر حين قال: لو لم يكن في القرن الرابع عشر الهجري للشيعة غير الأميني وغديره، والأمين العاملي وأعيانه، وآقا بزرك وذريعته لكان ذلك يكفي في خدمة المجتمع والعلم. ولذا فإنه قد أهدى كتابه (فهارس المكتبة العربية في الخافقين) إلى آقا بزرك؛ عبقرية التاريخ وشيخ الباحثين.

ملحق
إطلالة عامة على المنهج الدراسي في الحوزة العلمية

نظرا لمساحة الحرية الواسعة في التعليم الحوزوي، من حيث اختيار الطالب الاتجاه العام في الدراسة، بل اختيار الكتاب، ونظرا للتطور الذي حصل في الحوزات خلال القرون الماضية والذي انتهى إلى استبدال بعض الكتب وإحلال كتب أخرى محلها، لذلك لا يمكن وضع جدول دقيق للمنهج التعليمي في كل الحوزات، وما سنعرضه هنا يمثل الحالة العامة والغالبة في الحوزات، وبالذات خلال القرن الأخير من عمر الحوزة العلمية.

ومن الواضح أنه ليس المقصود أن كل طالب حوزوي لا بد أن يدرس كل هذه الدروس، أو أن كل حوزة لا بد أن تشتمل عليها كلها.

تنقسم فترة الدراسة بحسب مستوى المادة المدروسة إلى ثلاثة مستويات:

١. المقدمات.

٢. السطوح.

٣. بحث الخارج.

كما تنقسم بحسب مواضيع المادة المدروسة إلى

الفقه وأصوله، واللغة العربية، وهذه المواد الثلاث تشكل العمود الفقري للدراسة الحوزوية وتعتبر الدروس الأساسية.

وهناك عدد آخر من المواد الدراسية: منها القرآن (تفسيرا وتدبرا وتجويدا) والعقائد، والمنطق، والفلسفة، والدراية (والرجال).

في مرحلة المقدمات:

يدرس الطالب في اللغة العربية كتاب الأجرومية أو النحو الواضح، فإذا أنهاه درس شرح ابن عقيل، أو قطر الندى، ثم درس مغني اللبيب، وربما درس شرح ابن الناظم.

كذلك يدرس بعض الطلاب جواهر البلاغة. أو المطول (في البلاغة أيضا).

ولا ينهي الطالب كل هذه المواد في مرحلة المقدمات، فربما درس قسما منها وهو في مرحلة السطوح.

وفي الفقه يدرس الطالب عادة الرسالة العملية، وهي عبارة عن كتاب فتوائي يجمع فتاوى المرجع الذي يقلد مثل (منهاج الصالحين)، وقد كانوا في السابق يدرسون نهاية الشيخ الطوسي، وفي فترة لاحقة المختصر النافع للمحقق الحلي.

وبعدها يدرس الطالب (شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام) للمحقق الحلي.

وفي أصول الفقه يدرس الطالب مقدمة مختصرة عنه، مثل معالم الدين للشيخ حسن بن الشهيد الثاني، أو خلاصة أصول الفقه للشيخ الفضلي. وفيما بعد يدرس أصول الشيخ المظفر، وقد دخل في الفترة الأخيرة كتاب دروس في علم الاصول للشهيد الصدر في حلقته الأولى والثانية كبرنامج دراسي في بعض المدارس.

في هذه المرحلة تدرس بعض الحوزات الحديثة برنامج التدبر في القرآن بحيث يستعين به الطالب على استنطاق آيات القرآن، بينما تفضل حوزات أخر تدريس قسم من أحد التفاسير المعروفة، مثل جوامع الجامع للمفسر الطبرسي. كما شاع في الفترات الأخيرة تدريس علوم القرآن، ويستفيد بعض المدرسين من أجواء شهر رمضان فيشرعون في تدريس آيات الأحكام من القرآن.

كما يدرس الطالب في هذه المرحلة بعض دروس العقائد مثل شرح الباب الحادي عشر للعلامة الحلي، وفي الفترات الأخيرة صار كتاب عقائد الإمامية للشيخ المظفر بديلا عنه في هذه المرحلة. وفي مرحلة لاحقة يدرس الطالب شرح التجريد. للعلامة الحلي.

والمنطق أيضا يدرس في هذه المرحلة، والشائع في الفترة الأخيرة أنه بعد دراسة موجز المنطق للسيد الشيرازي، أو خلاصته للشيخ الفضلي، أن يدرس منطق الشيخ المظفر.

وتدرس الفلسفة في بعض الحوزات، في هذه المرحلة أيضا بعد قطع شوط من الدراسة، فيدرس الطالب بداية الحكمة للسيد الطباطبائي وربما درس بعضهم منظومة الملا هادي السبزواري.

كما أن بعض الطلاب يدرسون علم الدراية والرجال، على ضوء كتاب الرعاية في علم الدراية للشهيد الثاني أو مقباس الهداية للشيخ المامقاني.

في مرحلة السطوح:

وبعضهم يقسمها إلى السطوح والسطوح العالية. وفيها يدرس الطالب في الفقه كتاب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية (يصطلح عليه باللمعة) الأصل للشهيد الأول والشرح للشهيد الثاني، وهو متن فقهي استدلالي، ثم كتاب المكاسب (أو المتاجر) للشيخ الأنصاري.

وأما أصول الفقه فيدرس في هذه المرحلة، كتاب فرائد الأصول المعروف بالرسائل للشيخ الأنصاري وبعده كفاية الأصول للآخوند الخراساني، وهو كتاب عميق في هذا الباب، وفي الفترة الأخيرة بدأت بعض الحوزات بتدريس الحلقة الثالثة من (دروس في علم الأصول) للشهيد الصدر.

وفي الفلسفة يدرس كتاب (نهاية الحكمة) للسيد الطباطبائي. والبعض يدرس الحكمة المتعالية للملا صدرا، أو الهيات الشفاء لابن سينا.

مرحلة بحث الخارج:

بعد أن يطوي الطالب كل تلك الدروس السابقة في مختلف المواد يكون قد تهيأ ذهنيا، ونمت قدرته العقلية والاستدلالية، فيدخل في بحث الخارج حيث يقوم استاذ البحث باعتماد متن معين وهو غالبا في الفقه (العروة الوثقى) للسيد اليزدي، وفي الأصول (كفاية الأصول) للآخوند الخراساني، حيث يبدأ المدرس ببيان المسألة محل البحث، ويبين استدلال المصنف عليها، ثم ما قاله أعلام المدرسة (الفقهية أو الأصولية) وبعدها يناقش كلا من أدلة المصنف وأدلة المتأخرين عنه، ويتخلص أخيرا إلى مختاره في المسألة وأدلته عليها فربما وافق المصنف أو خالفه في الحكم أو في طريق الاستدلال.

والمفروض ان يكون تلميذ البحث الخارج بعد مدة من الزمان تختلف بحسب الذكاء، قادرا على تكوين الآراء الخاصة به، ومناقشة أستاذه أو من سبقه.

المصادر

١. الأحسائي،ابن أبي جمهور: عوالي اللئالي تحقيق آقا مجتبى العراقي.سيد الشهداء - قم ١٩٨٣م.

٢. آل سيف، فوزي:صفحات من التاريخ السياسي للشيعة. دار الصفوة ١٤٣١هـ.

٣. آل سيف، فوزي: بناء القادة في منهج أهل البيت.مؤسسة الوفاء بيروت ١٤١٤هـ.

٤. الأمين حسن مستدركات أعيان الشيعة دار التعارف للمطبوعات - بيروت ١٤١٨هـ.

٥. الأمين، محسن:أعيان الشيعة. دارالتعارف للمطبوعات - بيروت.

٦. الأميني، عبد الحسين: الغدير.دار الكتاب العربي - بيروت ١٣٩٧

٧. الأنصاري، مرتضى: التقية. مؤسسة قائم آل محمد - قم ١٤١٢هـ.

٨. بابويه، محمد بن علي بن: عيون أخبار الرضا عليه السلام. مؤسسة الأعلمي ١٤٠٤هـ.

٩. بابويه، محمد بن علي بن: المقنع. مؤسسة الإمام الهادي قم ١٤١٥هـ.

١٠. بابويه، محمد بن علي بن: الاعتقادات في دين الإمامية. دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ١٤١٤هـ.

١١. بابويه، محمد بن علي بن: من لا يحضره الفقيه.مؤسسة النشر الإسلامي قم.

١٢. بابويه، محمد بن علي بن: الأمالي. مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة. قم ١٤١٧هـ.

١٣. بحر العلوم، محمد مهدي:الفوائد الرجالية مكتبة الصادق - طهران.

١٤. البحراني، ابن ميثم: النجاة في القيامة في تحقيق أمر الإمامة. مجمع الفكر

الإسلامي١٤١٧هـ.

١٥. البحراني، يوسف: الحدائق الناضرة.مؤسسة النشر الإسلامي قم.

١٦. البحراني، عبد العظيم المهتدي: قصص وخواطر من أخلاقيات علماء الدين . نويد اسلام . قم ١٤١٩هـ.

١٧. البخاري، محمد بن اسماعيل: صحيح البخاري. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨١م.

١٨. البلاذري، احمد بن يحيى: انساب الأشراف. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت ١٣٩٤هـ.

١٩. البلاغي محمد جواد: الرد على الوهابية.مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

٢٠. بناري علي همت: ابن ادريس: زندكي وأنديشه (فارسي) بوستان كتاب قم ١٣٨١هـ ش.

٢١. البيهقي، أحمد بن الحسين: السنن الكبرى. دار الفكر بيروت.

٢٢. التستري، محمد تقي: قاموس الرجال. مؤسسة النشر الإسلامي قم ١٤١٩هـ.

٢٣. الجبعي، حسن بن زين الدين: معالم الدين وملاذ المجتهدين مؤسسة النشر الإسلامي قم.

٢٤. الجبعي،زين الدين بن علي: مسالك الأفهام في شرح شرائع الاسلام مؤسسة المعارف الإسلامية – قم ١٤١٣هـ.

٢٥. الجبوري كامل سلمان: السيد محمد كاظم اليزدي: سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه، نسخة الكترونية من http://www.alhassanain.com.

٢٦. الحسني، هاشم معروف.دراسات في الحديث والمحدثين. دار التعارف للمطبوعات – بيروت ١٩٧٨م.

٢٧. الحسيني، جلال الدين: فيض الإله في ترجمة القاضي نور الله. چاپخانه شركت سهامي طبع كتاب ١٣٦٧هـ.

٢٨. حسين، إعجاز: كشف الحجب والأستار. مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي – قم ١٤٠٩هـ.

٢٩. الحكيم، محسن الطباطبائي: دليل الناسك.مدرسة دار الحكمة ١٤١٦هـ.

٣٠. الحكيم،منذر: موسوعة الامام السيد عبد الحسين شرف الدين. دار المؤرخ العربي بيروت ٢٠٠٦م.

٣١. الحلبي، علي بن برهان:السيرة الحلبية. دار المعرفة. بيروت.

٣٢. الحلي، محمد بن منصور ابن إدريس السرائر مؤسسة النشر الإسلامي ١٤١٠هـ.

٣٣. الحلي، الحسن بن علي ابن داوود: رجال ابن داود.منشورات مطبعة الحيدرية – النجف ١٣٩٢هـ.

٣٤. الحلي، الحسن بن يوسف: تبصرة المتعلمين. انتشارات فقيه – طهران.

٣٥. الحلي إرشاد الأذهان مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي قم ١٤١٠هـ.

٣٦. الحلي، ابن فهد:الرسائل العشر. مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة – قم ١٤٠٩هـ.

٣٧. حنبل، احمد بن: مسند أحمد. دار صادر بيروت.

٣٨. الخوئي، أبو القاسم الموسوي: الاجتهاد والتقليد. دار أنصاريان للطباعة والنشر – قم ١٤١٠هـ.

٣٩. الخوئي، أبو القاسم الموسوي:معجم رجال الحديث١٤١٣هـ.

٤٠. الخوانساري، محمد باقر: روضات الجنات في تراجم العلماء والسادات.الدار الاسلامية بيروت ١٤١١هـ.

٤١. الدوري؛ د عبد العزيز: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. مكتبة الصدر قم ٢٠٠٤م.

٤٢. الروزدري، علي: تقريرات آية الله المجدد الشيرازي مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ١٤١٥هـ.

٤٣. الزركلي، خير الدين: الأعلام. دار العلم للملايين – بيروت ١٩٨٠م.
٤٤. السويكت، سلمان: منهج المسعودي في كتابة التاريخ. من دون دار نشر ١٤٠٧هـ.
٤٥. سردرودي، محمد صحتي. آقا بزرك اقيانوس بزوهش (محيط التحقيق) فارسي. دفتر تبليغات اسلامي قم ١٣٧٦هـ ش.
٤٦. شرف الدين، عبد الحسين: المراجعات ١٤٠٢هـ.
٤٧. الصدر، حسين: تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الاسلام.
٤٨. الصدر، محمد باقر: المعالم الجديدة للأصول مكتبة النجاح – طهران ١٣٩٥هـ.
٤٩. الصغير، محمد حسين: قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف.
٥٠. الصفدي الوافي بالوفيات دار إحياء التراث بيروت ٢٠٠٠م.
٥١. الطباطبائي، علي:رياض المسائل وحياض الدلائل: مؤسسة النشر الإسلامي قم ١٤١٢هـ.
٥٢. الطبرسي، الفضل بن الحسن: تفسير مجمع البيان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت ١٤١٥هـ.
٥٣. الطبرسي، الفضل بن الحسن: جوامع الجامع مؤسسة النشر الإسلامي ١٤١٨هـ.
٥٤. الطبرسي، الفضل بن الحسن: إعلام الورى بأعلام الهدى مؤسسة آل البيت لإحياء التراث – قم ١٤١٧هـ.
٥٥. الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الطبري.مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٤٠٣هـ.
٥٦. الطبري، محمد بن جرير دلائل الامامة قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة – قم ١٤١٣هـ.
٥٧. الطبري، محمد بن جرير: المنتخب من ذيل المذيل.مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٣٥٨هـ.
٥٨. الطوسي، محمد بن الحسن:الغيبة. مؤسسة المعارف الإسلامية – قم ١٤١١

٥٩. العاملي، محمد بن الحسن الحر: وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث قم ١٤١٦هـ.

٦٠. الغامدي، سعد بن محمد بن حذيفة: سقوط الدولة العباسية.ودور الشيعة بين الحقيقة والاتهام.دار ابن حذيفة ٢٠٠٤م.

٦١. الغفار، عبد الرسول: الكليني والكافي.مؤسسة النشر الإسلامي قم ١٤١٦هـ.

٦٢. الفقهي، المعجم مركز: حياة ابن أبي عقيل العماني.مطبعة شرف – قم ١٤١٣هـ.

٦٣. فلسفي، محمد تقي:الطفل بين الوراثة والتربية. مكتبة الأوحد ١٤٢٦هـ.

٦٤. القطيفي، ابراهيم بن سليمان:السراج الوهاج مؤسسة النشر الإسلامي ١٤١٣هـ.

٦٥. القمي، عباس: الكنى والألقاب. مكتبة الصدر – طهران.

٦٦. القمي عباس الأنوار البهية مؤسسة النشر الإسلامي ١٤١٧هـ.

٦٧. كاشف الغطاء،جعفر: منهج الرشاد لمن أراد السداد.

٦٨. كثير ابن البداية والنهاية دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٤٠٨

٦٩. الكثيري، محمد: السلفية بين أهل السنة والإمامية الغدير للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت.

٧٠. الكركي علي بن عبد العال: جامع المقاصد مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ١٤٠٨هـ.

٧١. الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي. دارالكتب الإسلامية – طهران.

٧٢. المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار مؤسسة الوفاء – بيروت ١٤٠٣هـ.

٧٣. المدرسي حسين مقدمهاى بر فقه شيعه (فارسي) بنياد پژوهشهاي إسلامي – مشهد.

٧٤. المرتضى، علي بن الحسين الموسوي: الشافي في الامامة.مؤسسة إسماعيليان – قم ١٤١٠هـ.

٧٥. المرتضى،علي بن الحسين: رسائل المرتضى. الناشر: دار القرآن الكريم – قم ١٤٠٥هـ.

٧٦.المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجواهر نسخة الكترونية: www.almeshkat.net/books/open.php?cat=18&book=1100

٧٧.المهاجر، جعفر، التأسيس لتاريخ التشيع في سورية ولبنان.

٧٨.النجاشي، أحمد بن علي: رجال النجاشي مؤسسة النشر الإسلامي قم ١٤١٦هـ.

٧٩.النجفي، محمد حسن: جواهر الكلام. دار الكتب الإسلامية – طهران.

٨٠.النراقي، عوائد الأيام.مكتب الإعلام الإسلامي ١٤١٧هـ.

٨١.النمري، ابن عبد البر: الاستيعاب. دار الجيل بيروت ١٤١٢هـ.

٨٢.النمري، ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨هـ.

٨٣.النوري الطبرسي، الميرزا حسين: مستدرك الوسائل. مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ١٩٨٧م.

٨٤.النوري الطبرسي، حسين: خاتمة المستدرك. مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث قم ١٤١٥هـ.

٨٥.الهندي، علي بن المتقي: كنز العمال. مؤسسة الرسالة – بيروت١٤٠٩هـ.

ملاحظة: تم الاعتماد بصورة رئيسية على طبعات الكتب الموجودة في القرص المدمج (مكتبة أهل البيت) الذي أصدره مركز المعجم الفقهي ـ قم ـ إيران.

مقالات ودوريات ومواقع

١. الآصفي؛ محمد مهدي. مقال بعنوان التجديد في مدرسة الشيخ الأنصاري الأصولية، منشور في موقعه الالكتروني alasefi.net.

٢. الميلاني؛ علي: مقال بعنوان صاحب العبقات في الذكرى المئوية: مجلة تراثنا عدد ٤ السنة الأولى ١٤٠٦هـ.

٣. اسلامي، ابراهيم؛ مقال بعنوان باسدار ولايت، الكتروني في موقع tebyan.net عن شهرية كوثر بالفارسية عدد ٢٠ سنة ١٣٧٧هـ ش.

٤. مقال عن أعلام المرجعية الشيعية في موقع مؤسسة زين الدين للمعارف الإسلامية الالكتروني.

٥. د. زنكنه، مقال في مجلة رسالة التقريب عدد ٥٣.

٦. مجلة حوزة فارسي عدد ٦٣-٦٤.

٧. مقابلة مع آية الله الشيخ علي بناه اشتهاردي. في مجلة فقه (فارسي): كاوشي نو در فقه اسلامي ٩. ١٣٧٥ هجري شمسي.

٨. مقابلة مع د. سعد الغامدي؛ في ملحق الرسالة جريدة المدينة السعودية ٢٠١٠/٥/٧م.

٩. الخليلي؛ جعفر صادق: مقال عن شخصية المسعودي في www.tebyan.net روجع بتاريخ ١٤٣١/٣/٢٨هـ.

١٠. الخرسان السيد محمد مهدي: مقدمة الكشكول للبهائي، نسخة الكترونية قرئت بتاريخ ٢٠١٢/٢/٨م من موقع www.haydarya.com.

١١. السبحاني: الشيخ جعفر: مقال بعنوان ترجمة العلامة المجلسي رحمه الله، في الموقع الالكتروني imamsadeq.com.

١٢. مقال باللغة الفارسية في موقع http://www.rasekhoon.net. قرئ بتاريخ ١٤٣٣/١/٢٦هـ.

١٣. www.aqrazavi.org/index.php؟module=pagesetter&func..
١٤. www.ic-el.com/magazine/no١/Entertainment/main.htm

الفهرس

للتواصل مع المؤلف

البريد الالكتروني
fawzialsaif@gmail.com
الموقع الالكتروني
www.al-saif.net